التّفسير الجامع

فضيلة الشّيخ الدّكتور محمّد عبد السّتّار السّيّد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

القرآن الكريم معجزةٌ خالدةٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ، وعطاؤه متجدّدٌ لا ينفد، وكلّما تطوّر العقل البشريّ استطاع أن يستمدّ من القرآن الكريم وعلومه ما يوافق التّطوّر العلميّ الّذي وصل إليه.

وآيات القرآن الكريم مكتنزةٌ بعطائها العلميّ والفكريّ والرّوحيّ، وهو كتاب هدايةٍ، فيه إشاراتٌ علميّةٌ لا يمكن أن تُصادم العقل البشريّ في أيّ زمنٍ من الأزمان.

وهذا التّفسير هو محاولة تدبّرٍ لآيات كتاب الله؛ امتثالاً لأمره سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمّد]، متمسّكين بهدي نبيّنا محمّد فهو الّذي عليه نزل وبه أخذ وعمِل، فقد كان ﷺ قرآناً يمشي بين النّاس في نهجه وسيرته وسلوكه وهديه وأقواله وأفعاله، وبالعلم الّذي به أمر ﷺ.

فكان هذا التّفسير الجامع محاولةً عصريّةً للأخذ من عطاء القرآن الكريم الّذي لم يفرغ في زمن النّزول، وإنّما تعدّى كلّ العصور، ومواكبةً لتطوّر العقل البشريّ ومعطيات العلم الحديث في فهم النّصّ من خلال التّفكّر والتّعقّل والتّدبّر الّذي أمر به القرآن الكريم: (أفلا يعقلون، أفلا يتفكّرون، أفلا يتدبّرون، أفلا ينظرون).

والله وليّ التّوفيق

الشّيخ الدكتور محمّد عبد السّتّار السيّد

الجُزءُ الخامس عشر

ســورة الإسراء الآيات (١-١١١)

ســورة الكهف من الآية (١- ٧٤)

سُورَةُ (الإِسْرَاء)

الآيات: (١-١١١)

ســورة الإسراء

لو تأمّلنا خواتيم سورة النّحل لوجدناها مقدّمة طبيعيّة لأحداث سورة الإسراء، ولوجدنا توافقاً وتناسباً في ترتيب هاتين السّورتين، فقد خُتِمت سورة النّحل ببيان حكم ردّ العقوبة بمثلها، ثمّ أمر الله سبحانه وتعالى النّبيّ ﷺ بالصّبر وبيّن جزاءه، ونهاه عن الضّيق: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النّحل: من الآية ١٢٧]، نستشفّ من هذا أنّ رسول الله ﷺ سيستقبل أحداثاً شدائد تحتاج إلى صبرٍ وسعة صدرٍ، وكأنّ هذه التّوجيهات جاءت بمثابة مناعات إيمانيّة، تحصّن رسول الله ﷺ، وتعدّه لما هو مقبلٌ عليه من أحداثٍ في سورة الإسراء، هذه المناعات الّتي جاءت في نهاية سورة النّحل يجب أن نحفظها جميعاً؛ لأنّها تؤدّي إلى سلامة البنية وسلامة القالب، كما تؤدّي إلى سلامة القلب، وكأنّها تطعيم ضدّ الأمراض، فيأخذ الجسم من هذا الطّعم حصانةً تحميه إذا هاجمه المرض، كذلك أُعطِيَ النّبيّ ﷺ هذا العطاء، ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النّحل]، والله سبحانه وتعالى لم يخذل نبيّه أبداً، وإن خذله النّاس وضاقت عليه الدّنيا بما رحبت، وجد الملجأ في معيّة الله سبحانه وتعالى، وفعلاً، نزلت الشّدائد برسول الله ﷺ، وكانت قمّة هذه الأحداث عند فقد عمّه أبي طالب، وزوجه السّيّدة خديجة رضي الله عنها في عامٍ واحدٍ، ولقسوة هذا عليه سمّاه (عام الحزن)، ففَقَدَ ﷺ بموت عمّه الحماية الخارجيّة الّتي كانت تدفع عنه أذى المشركين، وتصدّ عنه صناديد قريش، وفَقَدَ بموت زوجته الحماية الدّاخليّة، والملجأ الّذي كان يأوي إليه، حيث كانت

تواسيه، وتُهدِّئ من روعه في أوّل نزول الوحي عليه، وتُبيِّن له أنّ ما يجده في الغار هو من علامات النبوّة، وتقول له: "فَوَاللَّهِ لاَ يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَداً، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ"(١)، فلقد كان هذا عام حزنٍ فعلاً، والنّبيّ ﷺ لم يعد يشعر بالأمان والأمن في مكّة، ففكَّر في أهل الطّائف، عساه يجد الأمن والأمان بينهم، ولكنّه كان كالمستجير من الرّمضاء بالنّار، فعندما ذهب إلى ثقيف أهل الطّائف آذوه أشدّ الإيذاء، وقذفوه بالحجارة حتّى أدمَوا قدمه الشّريفة، وأغرَوا به صبيانهم وسفهاءهم، وعاد منها حزيناً منكسرَ القلب إلى مكّة، فلم يجد من يُجيره إلّا مُطعِم بنَ عَديّ، فإذا بمَلَك الجبلين، وإذا بالعطاء الإلهيّ، وكأنّ الله ﷻ يقول لنبيّه ﷺ: إذا كان هذا جفاء أهل الأرض فانظر إلى حفاوة أهل السّماء، فكانت رحلة الإسراء والمعراج، فجاءت تحيّة مباركة بأنّ الله ﷻ أراه حفاوة السّماء بعد ما أصابه من أذى البشر: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النّحل: من الآية ١٢٧- الآية ١٢٨]، ورأى رسول الله ﷺ ما لم يره أحد، ووصل إلى حيث لا يبلغ مَلَكٌ مُقَرّبٌ ولا نبيٌّ مُرسَلٌ، وصل إلى سدرة المنتهى ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النّجم].

وسورة الإسراء هي السّورة السّابعة عشرة بترتيب المصحف، عدد آياتها (١١١) آية، وهي سورةٌ مكّيّةٌ، إلّا على بعض الأقوال ففيها بعض الآيات

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب التّعبير، بَابُ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، الحديث رقم (٦٩٨٢).

تكون مدنيّة، وهي من الآية (٧٣) حتّى الآية (٨٠)، وببداية سورة الإسراء بدأ الجزء الخامس عشر من القرآن الكريم، ولهذه السّورة عدّة أسماء، منها: سورة سبحان، ومنها: سورة بني إسرائيل.

(الآية ١) - ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾:

بدأت هذه السّورة بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ﴾؛ لأنّها تتحدّث عن حدثٍ عظيمٍ خارق للعادة والنّواميس، ومعنى ﴿سُبۡحَٰنَ﴾: أي: تنزيهاً لله سبحانه وتعالى تنزيهاً مطلقاً، أن يكون له شبيه أو مثيل فيما خلق، لا في الذّات، فلا ذاتَ كذاته، ولا في الصّفات، فلا صفات كصفاته، ولا في الأفعال، فليس في أفعال خَلْقه ما يُشبِه أفعاله سبحانه وتعالى، فإن قيل لك: الله سبحانه وتعالى موجودٌ وأنت موجود، فنزّه الله عز وجل أن يكون وجودك كوجوده جل جلاله؛ لأنّ وجودك من عدم، وليس ذاتيّاً فيك، ووجوده سبحانه وتعالى ليس من عدم، وهو ذاتيّ فيه سبحانه وتعالى، فذاته سبحانه وتعالى لا مثيلَ لها، ولا شبيه في ذوات خلقه، وكذلك إن قيل: السَّمْع أو البصر... فكلّ أمرٍ يجب أن ننزه الله عز وجل فيه.

ومن معاني: ﴿سُبۡحَٰنَ﴾؛ أي: أتعجّب من قدرة الله عز وجل.

وكلمة ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ جاءت هنا لتشير إلى أنَّ ما بعدها أمرٌ خارج عن نطاق قدرات البشر، فإذا ما سمعتَه إيّاك أنْ تعترضَ، لماذا؟ لأنّنا ننزِّه الله سبحانه وتعالى أن يُشابه فِعْلُه فِعْلَ البشر، فإن قال لك: إنّه أسرى بنبيّه صلى الله عليه وسلم من مكّة إلى بيتَ المقدس في ليلة، مع أنّهم يضربون إليها أكباد الإبل شهراً، فإيّاك أن تنكر، فربّك لم يقُلْ:

سَرَى محمّد، بل أُسْرِيَ به، فالفعل ليس لمحمّدٍ ﷺ ولكنّه لله سبحانه وتعالى، وما دام الفعل لله عز وجل فلا تُخضعْه لمقاييس الزّمن والمكان لديك، ففِعْل الله عز وجل ليس علاجاً ومزاولة كفعل البشر.

ولو تأمّلنا كلمة ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ نجدها في الأشياء الّتي ضاقتْ فيها العقول، وتحيَّرتْ في إدراكها، وفي الأشياء العجيبة، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ [يس]، فالأزواج؛ أي: الزّوجين الذّكر والأنثى، ومنهما يتمّ التّكاثر في النّبات، وفي الإنسان، وقد فسّر لنا العلم الحديث قوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ [يس: من الآية ٣٦]، بما توصَّل إليه من اكتشاف الذّرّة والكهرباء، وأنّ فيهما السّالب والموجب الّذي يساوي الذّكر والأنثى؛ لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩﴾ [الذّاريات]، ومنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ [الرّوم]، فمَنْ يطالع صفحة الكون عند شروق الشّمس وعند غروبها، ويرى كيف يَحُلُّ الظّلام محلَّ الضّياء، أو الضّياء محلّ الظّلام، لا يملك أمام هذه الآية إلّا أن يقول: سبحان الله، ومنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣﴾ [الزّخرف: من الآية ١٣]، هذه كلّها أمور عجيبة، لا يقدر عليها إلّا الله عز وجل، فكلّها وردتْ فيها كلمة ﴿سُبۡحَٰنَ﴾.

وكلمة: ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ اسمٌ يدلُّ على الثّبوت والدّوام، فكأنّ تنزيه الله سبحانه وتعالى موجودٌ وثابتٌ له قبل أن يوجَد المنزِّه، كما نقول في الخلق، فالله عز وجل خالق ومُتَّصف بهذه الصّفة قبل أنْ يخلق شيئاً، وكما تقول: فلانٌ شاعر، فهو شاعرٌ قبل أن يقول القصيدة، فلو لم يكن شاعراً ما قالها، فتنزيه المولى سبحانه وتعالى ثابتٌ له

قبل أن يوجَد مَنْ يُنزِّهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا وُجِد المنزِّه تحوَّل الأسلوب من الاسم إلى الفعل، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحشر: من الآية ١]، وهل سبَّح وسكت وانتهى التّسبيح؟ لا، بل قال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: من الآية ١]، على سبيل الدّوام والاستمرار، وما دام الأمر كذلك والتّسبيح ثابتٌ له، وتُسبِّح له الكائنات في الماضي والحاضر، فلا تتقاعس أنت أيُّها المكلَّف عن تسبيح ربّك، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى].

﴿الَّذِي أَسْرَى﴾: من السُّرى، وهو السّير ليلاً، فالحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أسرى بعبده، فالفعل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليس لمحمّد ﷺ، فلا نقيس الفعل بمقياس البشر، وقد استقبل أهل مكّة هذا الحدث استقبال المكذِّب، فقالوا: كيف هذا ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً، وهم كاذبون في قولهم؛ لأنّ رسول الله ﷺ لم يَدَّعِ أنّه سَرَى، بل قال: أُسْرِي بي.

ومعلومٌ أنّ قَطْع المسافات يأخذ من الزّمن على قدر عكس القوّة المتمثّلة في السّرعة؛ أي: أنّ الزّمن يتناسب عكسيّاً مع القوّة، فلو أردنا مثلاً الذّهاب إلى طرطوس سيختلف الزّمن لو سِرْنا على الأقدام عنه إذا ركبنا سيّارة أو طائرة، فكلّما زادت القوّة قَلَّ الزّمن، فما بالك لو نسب الفعل والسّرعة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إذا كان الفعل من الله عَزَّ وَجَلَّ فلا زمن، فإنْ قال قائلٌ: ما دام الفعل مع الله جَلَّ جَلَالُهُ لا يحتاج إلى زمن، لماذا لم يَأْتِ الإسراء لمحةً فحسْب، ولماذا استغرق ليلة؟ نقول: لأنّ هناك فرْقاً بين قطْع المسافات بقانون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبين مَرَاءٍ عُرِضَتْ على النّبيّ ﷺ في الطّريق، فرأى مواقف، وتكلَّم مع أشخاص، ورأى آيات وعجائب، هذه هي الّتي استغرقت الزّمن، وقلنا: إنّك حين تنسب الفعل إلى

فاعله يجب أن تُعطيه من الزّمن على قَدْر قوّة الفاعل، هَبْ أنّ قائلاً قال لك: أنا صعدتُ بابني الرّضيع قمّة جبل (إفرست)، هل تقول له: كيف صعد ابنك الرّضيع قمّة (إفرست)؟ هذا سؤال في غير محلِّه، وكذلك في مسألة الإسراء والمعراج يقول ﷻ: أنا أسريتُ بعبدي، فمن أراد أنْ يُحيل المسألة ويُنكرها، فليعترض على الله ﷻ صاحب الفعل لا على محمّد ﷺ.

لكن كيف فاتتْ هذه القضيّة على كفّار مكّة؟ ومن تكذيب كفّار مكّة لرسول الله ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج نأخذ رَدّاً جميلاً على هؤلاء الّذين يخوضون في هذا الحادث بعقولٍ ضيّقة وبإيمانيّة سطحيّة في عصرنا الحاضر، فيطالعوننا بأفكار سقيمة ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان، ونسمع منهم مَنْ يقول: إنّ الإسراء كان منَاماً، أو كان بالرّوح دون الجسد، ونقول لهؤلاء: لو قال محمّد لقومه: أنا رأيتُ في الرّؤيا بيت المقدس، هل كانوا يُكذِّبونه؟ ولو قال لهم: لقد سَبَحتْ روحي اللّيلة حتّى أتتْ بيت المقدس، أكانوا يُكذِّبونه؟ أتُكذَّب الرّؤى أو حركة الأرواح؟! ففي إنكار الكفّار على رسول الله ﷺ وتكذيبهم له دليلٌ على أنّ الإسراء كان حقيقة تمّت لرسول الله ﷺ برُوحه وجسده، وكأنّ الحقّ ﷻ ادَّخر الموقف التّكذيبيّ لمكذِّبي الأمس، ليردّ به على مُكذِّبي اليوم.

﴿بِعَبْدِهِۦ﴾: العبد كلمة تُطلَق على الرّوح والجسد معاً، هذا مدلولها، ولا يمكن أن تُطلَق على الرّوح فقط، لكن، لماذا اختار الحقّ ﷻ لرسوله ﷺ هذه الصّفة بالذّات؟ ولم يقل مثلاً: سبحان الّذي أسرى بحبيبه، أو: سبحان الّذي أسرى بنبيّه، سبحان الّذي أسرى بخليله.. بصفيّه.. برسوله.. بل قال: بعبده؟

لأنّ الله ﷻ جعل في الكون قانوناً عامّاً للنّاس، وقد يُخرَق هذا القانون أو النّاموس العامّ ليكون معجزةً للخاصّة الّذين ميَّزهم الله ﷻ عن سائر الخَلْق، فكأنّ كلمة (عبده) هي حيثيّة الإسراء؛ أي: أُسْرِي به؛ لأنّه صادق العبوديّة لله ﷻ، وما دام هو عبدٌ أخلص في عبوديّته لربّه ﷻ، استحقّ أنْ يكون له ميْزة وخصوصيّة عن غيره، فالإسراء والمعراج عطاءٌ من الله ﷻ استحقَّه رسوله بما حقّق من عبوديّة لله ﷻ، وفَرْقٌ بين العبوديّة لله ﷻ والعبوديّة للبشر، فالعبوديّة لله ﷻ عِزٌّ وشرفٌ يأخذ بها العبدُ الخَيْرَ من الله ﷻ، وقال الشّاعر:

وَمِمّا زَادَني شَرَفاً وَعِزّاً ... وكِدْتُ بأخْمُصِي أَطَأُ الثُّرَيّا
دُخُولِي تَحْتَ قولِكَ: يَا عِبَادِي ... وَأنْ صَيَّرت أحمدَ لِي نبيّاً

أمّا عبوديّة البشر للبشر فنقْصٌ ومذلّةٌ وهوانٌ، حيث يأخذ السّيّد خَيْر عبده، ويحرمه ثمَرَ كَدِّه، لذلك، فالمتتبّع لآيات القرآن الكريم يجد أنّ العبوديّة لا تأتي إلّا في المواقف العظيمة مثل: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ [الجنّ: من الآية ١٩]، وهذا العبد يكفيه عِزّاً وكرامةً أنّه إذا أراد أن يُقابل ربّه، فما عليه إلّا أنْ يتوضّأ وينوي المقابلة قائلاً: الله أكبر، فيكون في معيّة ربّه ﷻ في لقاءٍ يحدِّد مكانه ومُوعده ومُدّته، ويختار موضوع المقابلة، ويظلّ في حضرة ربّه إلى أن يُنهي المقابلة متى أراد، وما أحسنَ قول الشّاعر:

حَسْبُ نَفْسِي عِزّاً بِأَنّي عَبْدٌ ... يَحْتَفِي بِي بِلَا مَواعِيدَ رَبُّ
هُو في قُدْسِه الأعزِ ولكِنْ ... أنا أَلْقَى متَى وَأَيْنَ أُحِبُّ

فما بالنا اليوم لو حاولنا لقاء عظيمٍ من عظماء الدّنيا؟! وكم سنلاقي من المشقّة والعنت؟ وكم.. وكم؟ ويُحَدَّد الزّمان والمكان، والموضوع والطّريقة، بينما مالك الملك تستطيع أن تُحدّد أنت الوقت والطّريقة...، وأن تبقى في حضرته ما تشاء، وقد كان الرّسول ﷺ –وهو المتخلِّق بأخلاق الله سبحانه وتعالى– إذا سلَّم على أحدٍ لا ينزع يده من يده حتّى يكون الرّجل هو الّذي ينزع يده.

﴿لَيۡلٗا﴾: سبق أن قُلْنا: إنّ السُّرى هو السّير ليلاً، فكانت هذه كافية للدّلالة على وقوع الحدث ليلاً، ولكنّ الله سبحانه وتعالى أراد أنْ يؤكّد ذلك، فقد يقول قائلٌ: لماذا لم يحدث الإسراء نهاراً؟ نقول: حدث الإسراء ليلاً، لتظلَّ المعجزة غَيْباً يؤمن به مَنْ يُصدِّق رسول الله ﷺ، فلو ذهب في النّهار لرآه النّاس في الطّريق ذهاباً وعودةً، فتكون المسألة حِسّيّةً مشاهدةً لا مجالَ فيها للإيمان بالغيب، لذلك لمّا سمع أبو جهل خبر الإسراء طار به إلى المسجد الحرام، وقال: إنّ صاحبكم يزعم أنّه أُسْرِي به اللّيلة من مكّة إلى بيت المقدس، فمنهم مَنْ قلّب كفَّيْه تعجُّباً، ومنهم مَنْ أنكر، ومنهم مَن ارتدّ، أمّا الصِّدِّيق أبو بكر رضي الله عنه فقد استقبل الخبر استقبالَ المؤمن المصدِّق، ومن هذا الموقف سُمِّي الصّدّيق، وقال قولته المشهورة: "إن كان قال فقد صدق"، فعمدته أن يقول رسول الله ﷺ، وبما أنّه قال فهو صادقٌ، هذه قضيّةٌ مُسلَّمٌ بها عند الصِّدّيق رضي الله عنه، ثمّ قال: «إنَّا لَنُصَدِّقه في أبعد من هذا، نُصدِّقه في خبر السّماء (الوحي) ، فكيف لا نُصدّقه في هذا»؟ فالحقّ سبحانه وتعالى جعل هذا الحادث مَحكّاً للإيمان، ومُمحِّصاً ليقين النّاس، حتّى يغربل مَنْ حول رسول الله ﷺ، ولا يبقى معه إلّا أصحاب الإيمان واليقين الثّابت الّذي لا يهتزّ ولا يتزعزع، لذلك قال سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا

﴿ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: من الآية ٦٠]، وهذا دليلٌ آخر على أنّ الإسراء لم يكُنْ مناماً، فالإسراء لا يكون فتنةً واختباراً إلّا إذا كان حقيقةً لا مناماً، فالمنام لا يُكذِّبه أحدٌ ولا يختلف فيه النّاس.

لكن لماذا قال عن الإسراء: (رُؤْيَا) يعني: المناميّة، ولم يقُلْ: (رؤية) يعني: البصريّة؟ قالوا: لأنّها لـمّا كانت عجيبة من العجائب صارت كأنّها رؤيا مناميّة، فالرّؤيا محلّ الأحداث العجيبة.

وورد في الإسراء أحاديث كثيرة تكلَّم فيها العلماء: أكان بالرّوح والجسد؟ أكان يقظةً أم مناماً؟ أكان من المسجد الحرام أم من بيت أمِّ هانئ؟ ونحن لا نختلف مع هذه الآراء، ونُوضِّح ما فيها من تقارب، فمن حيث: أكان الإسراء بالرّوح فقط أم بالرّوح والجسد؟ فقد أوضحنا وَجْه الصّواب فيه، وأنّه كان بالرّوح والجسد جميعاً، فهذا مجال الإعجاز، ولو كان بالرّوح فقط ما كان عجيباً، وما كذَّبه كفّار مكّة.

﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾: هذه الآية هي الّتي تربط قلوب مليارات المسلمين بالمسجد الأقصى، ومن هنا تأتي قدسيّة المسجد الأقصى الّذي يُدَنِّسه الصّهاينة المجرمون اليوم.

المسجد الحرام هو بيت الله عز وجل: الكعبة المشرّفة، وسُمّي حراماً؛ لأنّه حُرِّم فيه ما لم يحرُمْ في غيره من المساجد، وكلّ مكانٍ يُخَصّص لعبادة الله عز وجل نسمّيه مسجداً، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التّوبة: من الآية ١٨]، ويختلف المسجد الحرام عن غيره من المساجد، أنّه بيتٌ لله سبحانه وتعالى باختيار الله جل جلاله، وغيره من المساجد بيوتٌ لله سبحانه وتعالى باختيار خَلْق الله عز وجل؛ لذلك كان

بيت الله سبحانه وتعالى باختياره جلّ جلاله قِبْلةً لبيوت الله عزّ وجلّ باختيار خَلْق الله سبحانه وتعالى.

وقد يُراد بالمسجد المكان الّذي نسجد فيه، أو المكان الّذي يصلح للصّلاة، كما جاء في الحديث الشّريف: «وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً»[1]؛ أي: صالحةً للصّلاة فيها.

ولا بُدَّ أن نُفرّق بين المسجد الّذي حُيّز وخُصِّص كمسجدٍ مستقلٍّ، وبين أرضٍ تصلح للصّلاة فيها ومباشرة حركة الحياة، فالإنسان ممكن أن يكون في أيّ مكانٍ ويُصلّي، في المصنع، في المزرعة، في الطّريق، في البيت.. أمّا المسجد فللصّلاة حصراً، ولا يُباشر فيه إلّا أمور الدّين، كتلاوة القرآن الكريم والصّلاة.. ولا يجوز مباشرة أيّ عملٍ من أعمال الدّنيا في المسجد، لذلك قال النّبيّ ﷺ: «مَنْ سَمِعَ رَجُلاً يَنْشُدُ ضَالَّةً فِي الْمَسْجِدِ فَلْيَقُلْ: لَا رَدَّهَا اللهُ عَلَيْكَ، فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا»[2]؛ ذلك لأنّ المسجد خُصِّص للعبادة والطّاعة، وفيه يكون لقاء العبد بربّه عزّ وجلّ، فعلينا ألّا نشغل بأمور الدّنيا عندما ندخل إلى المسجد.

﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾: المبتدأ هو المسجد الحرام، والمنتهى هو المسجد الأقصى.

﴿ٱلْأَقْصَا﴾: نقول: هذا قصيٌّ؛ أي: بعيدٌ، وهذا أقصى؛ أي: أبعد،

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب التّيمّم، الحديث رقم (٣٣٥).

(٢) صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصّلاة، بَابُ النَّهْيِ عَنْ نَشْدِ الضَّالَّةِ فِي الْمَسْجِدِ وَمَا يَقُولُهُ مَنْ سَمِعَ النَّاشِدَ، الحديث رقم (٥٦٨).

فالحقّ ﷻ كأنّه يلفت أنظارنا إلى أنّه سيوجد بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى مسجدٌ آخر قصيٌّ؛ أي: أقلّ بعداً من المسجد الأقصى، وقد كان فيما بعد مسجد رسول الله ﷺ.

فالمسجد الأقصى: أي: الأبعد، وهو مسجد بيت المقدس، وهو أولى القبلتين الّتي صلّى المسلمون باتّجاهها، فربط الله ﷻ قلوب المؤمنين بهذا المسجد الكريم.

﴿ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾: البركة: أن يُؤتي الشّيءُ من ثماره فوقَ المأمول منه، وأكثر ممّا يُظنّ فيه، كأن تُعِدّ طعاماً لشخصين، فيكفي خمسة أشخاص فتقول: طعامٌ مبارَكٌ، وقوله ﷻ: ﴿بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾: دليلٌ على المبالغة في البركة، فإنْ كان سبحانه قد بارك ما حول الأقصى، فالبركة فيه من باب أَوْلى، كأن تقول: مَنْ يعيشون حول فلان في نعمةٍ، فمعنى ذلك أنّه في نعمةٍ أعظم.

لكن بأيّ شيءٍ بارك الله ﷻ حوله؟ لقد بارك الله ﷻ حول المسجد الأقصى ببركة دنيويّة، وبركة دينيّة:

- بركة دنيويّة بما جعل حوله من أرضٍ خِصْبةٍ عليها الحدائق والبساتين الّتي تحوي مختلف الثّمار، وهذا من عطاء الرّبوبيّة الّذي يناله المؤمن والكافر.

- وبركة دينيّة تتمثّل في أنّ الأقصى مَهْد الرّسالات ومَهْبط الأنبياء عليهم السّلام، تعطَّرَتْ أرضه بأقدام إبراهيم وإسحق ويعقوب وعيسى وموسى وزكريّا ويحيى، وفيه هبط الوحي وتنزّلتْ الملائكة.

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾: اللّام هنا للتّعليل، كأنّ مهمّة الإسراء من مكّة إلى بيت المقدس أن نُرِي رسول الله ﷺ الآيات، وكلمة: الآيات لا تُطلق على

مطلق موجود، إنّما تُطلق على الموجود العجيب، كما نقول: هذا آيةٌ في الحُسْن، فالآية هي الشّيء العجيب، ولله عزّ وجلّ آياتٌ كثيرةٌ، والله سبحانه وتعالى يريد أن يجعل لرسوله ﷺ خصوصيّةً، وأن يُريه من آيات الغيب الّذي لم يَرَهُ أحد، ليرى ﷺ حفاوة السّماء به، ويرى مكانته عند ربّه الّذي قال له: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النّحل: من الآية ١٢٧]؛ لأنّك في سَعةٍ من عطاء الله عزّ وجلّ، فإن أهانك أهل الأرض فسوف يحتفل بك أهل السّماء في الملأ الأعلى، وإنْ كنت في ضيقٍ من الخَلْق فأنت في سَعةٍ من الخالق.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾: أي: الحقّ سبحانه وتعالى.

السّمع: إدراك يدرك الكلام، والبصر: إدراك يدرك الأفعال والمرائي، فلكلٍّ منهما ما يتعلّق به، لكن سميعٌ وبصيرٌ جاء هذا في ختام آية الإسراء الّتي بيّنَتْ أنّ الحقّ سبحانه وتعالى جعل الإسراء تسليةً للرّسول ﷺ بعد ما لاقاه من أذى المشركين وعنتهم، وكأنّ معركةً دارت بين رسول الله ﷺ والكفّار حدثتْ فيها أقوالٌ وأفعالٌ من الجانبين.

وهو (سَمِيعٌ) لأقوال الرّسول ﷺ (بَصِيرٌ) بأفعاله، حيث آذاه قومه وكذّبوه وألجؤوه إلى الطّائف، فكان أهلها أشدَّ قسوةً من أهل مكّة، فعاد مُنكَراً دامياً، وكان من دعائه ﷺ: «اللّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟، إِلَى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي، أَمْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي، إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضْبَاناً عَلَيَّ، فَلَا أُبَالِي، إِنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ

عَلَيْهِ أَمَرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»[1]، فالله ﷻ سميعٌ لقول نبيّه ﷺ، وبصيرٌ لفعله، فقد كان ﷺ في أشدِّ ظروفه حريصاً على دعوته.

الآن هناك بعض الأسئلة الّتي قد ترد حول هذا الموضوع، بأنّه إذا كان صحيحاً ما نقول، لماذا لم يعرج بالنّبيّ ﷺ مباشرةً من مكّة إلى سدرة المنتهى؟ نقول: إنّ رحلة الإسراء والمعراج مقسومةٌ إلى قسمين: رحلةٌ أرضيّةٌ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، في البداية المسجد الحرام، وفي النّهاية المسجد الأقصى، وبينهما آياتٌ، وهذه الآيات هي المرائي الّتي رآها النّبيّ ﷺ، والقرآن الكريم لا يُعطي هذه الآيات، وإنّما يُعطينا اللّقطة الملزمة لبيان الرّسول ﷺ فقط فيما يتعلّق بموضوع الإسراء من مكانٍ أرضيٍّ إلى مكانٍ أرضيٍّ، لكنّ المعراج هو من الأرض إلى السّماء، وكثيرٌ من المشكِّكين وضِعَاف الإيمان يبحثون في أحاديث الإسراء عن مأخذ، فيعترضون على المرائي الّتي رآها رسول الله ﷺ، وسأل عنها جبريل عليه السلام، فكان اعتراضهم أنّ هذه الأحداث في الآخرة، فكيف رآها محمّد ﷺ؟ ونقول لهؤلاء: لقد قصُرَتْ الأفهام عن إدراك قدرة الله جل جلاله في خَلْق الكون، فالكون لم يُخلَق هكذا، بل خُلِق بتقديرٍ أزليٍّ له، ولتوضيح هذه المسألة نضرب هذا المثل: هَبْ أنّك أردتَ بناء بيت، فسوف تذهب إلى المهندس المختصّ وتطلب منه رَسْماً تفصيليّاً له، ولو كنت ميسور الحال تقول له: اعمل لي نموذجاً مُصغَّراً للبيت، فالحقّ سبحانه وتعالى خلق هذا الكون أزلاً، فالأشياء

---

(١) المعجم الكبير للطّبرانيّ: مَا انْتَهَى إِلَيْنَا مِنْ مُسْنَدِ عَبْدِ اللهِ بنِ جَعْفَرٍ، الحديث رقم (١٨١).

مخلوقةٌ عند الله ﷿، ثمّ يبرزها ﷻ على وَفْق ما قدّره: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس]، انظر: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ﴾، كأنّ الشّيء موجودٌ والله ﷻ يظهره فحسب، لا يخلقه بدايةً، بل هو مخلوقٌ جاهزٌ ينتظر الأمر الإلهيّ ليظهر في عالم الواقع؛ لذلك قال أهل المعرفة: (أمور يُبديها ولا يبتديها).

وإن كان الحقّ ﷻ قد ذكر الإسراء صراحةً في هذه الآية، فقد ذكر المعراج بالالتزام في سورة النّجم، في قوله ﷻ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨﴾ [النّجم]، ففي الإسراء قال ﷻ: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾، وفي المعراج قال: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨﴾ [النّجم]؛ ذلك لأنّ الإسراء آيةٌ أرضيّةٌ استطاع الرّسول ﷺ بما آتاه الله ﷻ من الإلهام أنْ يُدلِّل على صِدْقه في الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى؛ لأنّ النّاس يعرفون المسجد الحرام، ومنهم من رأى المسجد الأقصى، وعلى علمٍ بالتّاريخ، وأنّه لم يسبق للنّبيّ ﷺ أنْ رأى بيت المقدس أو سافر إليه، فقالوا له: صِفْه لنا، وهذه شهادةٌ منهم أنّه لم يَرَهْ، فتحدَّوْهُ أن يصفه، والرّسول ﷺ حينما يأتي بمثل هذه العمليّة، هل كان عنده استحفاظ كامل لصورة بيت المقدس، خاصّة وقد ذهب إليه ليلاً؟ فصورته لم تكن واضحةً أمام النّبيّ ﷺ بتفاصيلها كلّها، وهنا تدخّلتْ قدرة الله ﷿ فجلّاه الله ﷻ له، فأخذ يصفه لهم كأنّه يراه الآن، كما أنّ الطّريق بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى طريقٌ مسلوكٌ للعرب، فهو

طريق تجارتهم إلى الشّام، فأخبرهم ﷺ أنّ عيراً لهم في الطّريق، ووصفها لهم وصفاً دقيقاً، وأنّها سوف تصلهم مع شروق الشّمس في يومٍ مُعيّنٍ، وفعلاً تجمّعوا في صبيحة هذا اليوم ينتظرون العير، وعند الشّروق قال أحدهم: ها هي الشّمس أشرقتْ، فردَّ الآخر: وها هي العير قد ظهرتْ، فاستطاع ﷺ أن يُدلِّل على صدق الإسراء؛ لأنّه آيةٌ أرضيّةٌ يمكن التّدليل عليها، بما يَعْلمه النّاس عن بيت المقدس، وبما يعلمونه من عِيرهم في الطّريق، أمّا ما حدث في المعراج، فآيات كبرى سماويّة لا يستطيع الرّسول ﷺ التّدليل عليها أمام قومه، فأراد الله ﷻ أنْ يجعل ما يمكن الدّليل عليه من آيات الأرض وسيلة لتصديق ما لا يوجد دليل عليه من آيات الصّعود إلى السّماء، وإلّا فهل صعد أحدٌ إلى سدرة المنتهى، فيصفها له رسول الله ﷺ؟ فجاء الإسراء مقدّمة للمعراج، فالله ﷻ خَرق نواميس الكون في الزّمن والمسافة للنّبيّ ﷺ في الإسراء، فالّذي خرق له النّواميس في آيات الأرض من الممكن أنْ يخرق له النّواميس في آيات السّماء، فالله ﷻ يُقرِّب الغيبيّات الّتي لا تُدركها العقول بالمحسّات الّتي تدركها.

والنّبيّ ﷺ أَمَّ الأنبياء عليهم السّلام في المسجد الأقصى، فكان المسجد الأقصى في أرض فلسطين المباركة مطار الإسلام، واستلم النّبيّ ﷺ إمامة البشريّة، استلمها شعب بني إسماعيل العرب من شعب بني إسرائيل، فالأنبياء الّذين جاؤوا قبل النّبيّ ﷺ كلّهم جاؤوا من نسل إسرائيل (يعقوب) عليه السلام، فهذه الرّاية لإمامة البشريّة انتقلت من شعب بني إسرائيل إلى بني إسماعيل، وهي عمليّة تمّت في المسجد الأقصى، والنّبيّ ﷺ أَمَّ بهم جميعاً، وصعد إلى السّموات من المسجد الأقصى، فربط المسجد الأقصى إيمانيّاً وقُدسيّاً بمشاعر

المسلمين جميعاً، وكان الإسراء له سببٌ والمعراج له سببٌ آخر، فبالإسراء ربط الله ﷻ المسجد الحرام بالمسجد الأقصى وأمَّ به النّبيّ ﷺ الأنبياء عليهم السّلام كلّهم، والمسجد الأقصى مهد الأنبياء جميعاً، ومُقدَّس عند المسلمين، وبعد ذلك كُرِّم النّبيّ ﷺ ورُفع إلى مكانٍ لم يصل إليه مَلَكٌ، حتّى جبريل ؏ ابتعد ولم يستطع أن يقترب، هذا المكان هو مكان الأنس والقرب من الله ﷻ لفرض أعظم ركنٍ، الرّكن الرّكين في الإسلام وهو الصّلاة، فالله ﷻ كأنّه استدعى النّبيّ ﷺ بمعراجٍ عظيمٍ إلى الحضرة وإلى سدرة المنتهى وأعطاه لأمّته من بعده الصّلاة، الّتي هي معراج القلوب إلى علّام الغيوب ﷻ، فأصبحت أنت في الصّلاة في إسراءٍ وفي معراجٍ، وكأنّك متّصلٌ بالله ﷻ كما اتّصل النّبيّ ﷺ إذ يغشى السّدرة ما يغشى، حيث اقترب النّبيّ محمّد ﷺ في سُبحات الأنوار، فقال ﷻ: السّلام عليك أيّها النّبيّ ورحمة الله وبركاته، فضجّت الملائكة: السّلام علينا وعلى عباد الله الصّالحين، وقالت الملائكة: نشهد أن لا إله إلّا الله ونشهد أنّ محمّداً رسول الله، في هذه اللّحظات الخالدة في تاريخ البشريّة فُرِضَت الصّلاة على الأمّة الإسلاميّة، فكانت عطاءً من الله ﷻ، وكان هذا هو موضوع المعراج، أمّا بالنّسبة إلى تفاصيل المعراج، فعندما نصل إلى سورة النّجم إن شاء الله تعالى يمكن أن نتابع هذا الأمر.

والمتأمّل في رحلة الإسراء والمعراج يجدها إلى جانب أنّها تسليةٌ لرسول الله ﷺ وتخفيفٌ عنه، إلّا أنّ لها هدفاً آخر أبعد أثراً، وهو بيان أنّ رسول الله ﷺ مُؤيّدٌ من الله ﷻ، وله معجزات، وتُخرَق له القوانين والنّواميس العامّة؛ ليكون ذلك كلّه تكريماً ودليلاً على صدق رسالته.

فالمعجزة: أمرٌ خارقٌ للعادة الكونيّة يُجريه الله عَزَّوَجَلَّ على يد رسوله؛ ليكون دليلاً على صدقه، ومن ذلك ما حدث لإبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث ألقاه قومه في النّار الّتي من خواصّها الإحراق، فهل كان المراد نجاة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من النّار؟ لو كان القصد نجاته من النّار ما كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مكّنهم من الإمساك به، ولو أمسكوه فيمكن أنْ يُنزِل الله جَلَّ جَلَالُهُ المطر فيطفئ النّار، فالمسألة ليست نجاة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل المسألة إثبات خَرْق القوانين والنّواميس له عَلَيْهِ السَّلَامُ، فشاء الله جَلَّ جَلَالُهُ أنْ تظلَّ النّار مشتعلةً، وأن يُمسكوا به ويرموه في النّار، وتتوفّر الأسباب كلّها لحرقه عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهنا تتدخّل عناية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لتظهر المعجزة الخارقة للقوانين، فمن خواصّ النّار الإحراق، وهي خَلْقٌ من خَلْقِ الله عَزَّوَجَلَّ، يأتمر بأمره، فأمر اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى النّارَ ألّا تَحرِق، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء]، وربّما يجد المشكّكون في الإسراء والمعراج ما يُقرّب هذه المعجزة لأفهامهم بما نشاهده اليوم من تقدُّمٍ علميٍّ يُقرِّب لنا المسافات، نحن لا نتحدّث عن التّقدّم العلميّ وعن سلطان العلم وكيف غزا الفضاء، وكيف ينتقل النّاس إلى كواكب أخرى في أزمنةٍ قياسيّةٍ، والهبوط على سطح القمر.. كلّ هذه الأمور من علم البشر، فكيف بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خالق البشر وخالق العلم؟!

وكذلك من الأمور الّتي وقفتْ أمام المعترضين على الإسراء والمعراج حادثة شَقِّ الصّدر الّتي حكاها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمتأمّل فيها يجدها عملاً طبيعيّاً لإعداد الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما هو مُقبِلٌ عليه من أجواءٍ ومواقف جديدة تختلف في طبيعتها عن الطّبيعة البشريّة، ونحن نفعل مثل هذا الإعداد حينما نسافر من بلدٍ إلى آخر، فيقولون لك: البس ملابس كذا، وخذ حقنة كذا لتساير طبيعة هذا البلد، وتتأقلم معه، فما بالك ومحمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيلتقي بالملائكة وبجبريل وهم

ذوو طبيعةٍ غير طبيعة البشر، وسيلتقي بالأنبياء عليهم السّلام، وهم في حال الموت، وسيكون قاب قوسيْن أو أدنى عند سدرة المنتهى؟ فلا غرابة في أنْ يحدث له تغييرٌ ما، ليستطيع مباشرة هذه المواقف، وإذا استقرأنا القرآن الكريم فسوف نجد فيه ما يدلُّ على صدق رسول الله ﷺ فيما أخبر به من لقائه بالأنبياء عليهم السّلام في هذه الرّحلة، قال ﷻ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزّخرف: من الآية ٤٥]، والرّسول ﷺ إذا أمره ربّه أمراً نفّذه، فكيف السّبيل إلى تنفيذ هذا الأمر: واسأل مَن سبقك من الرّسل؟! لا سبيل إلى تنفيذه إلّا في لقاءٍ مباشرٍ ومواجهةٍ، فإذا حدَّثَنا بذلك رسول الله ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج، فلا يتسلّل الشّكّ إلّا إلى قلوب ضعاف الإيمان واليقين، فالفكرة في قضيّة الإسراء والمعراج دائرةٌ بين يقين المؤمن بصدق رسول الله ﷺ، وبين تحكيم المنطق الّذي يعتقد أنّ الأمور كلّها تخضع له، فما أكثر الأمور الّتي وقف فيها الإنسان ولم يفهم كُنْهَها، ومع مرور الزّمن وتقدُّم العلوم تكشّفت له تدريجيّاً.

والمتأمّل في هذه السّورة يجدها تسمّى سورة الإسراء، وبدأت بقوله ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾، ونعتقد أنّ الآيات التّالية ستتابع الحديث عن الإسراء، وإذ بالآية التّالية تكون: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، يتحدّث عن بني إسرائيل، فما الحكمة من ذِكْر بني إسرائيل بعد الإسراء مباشرةً؟

سبق أن قلنا: إنّ الحكمة من الكلام عن الإسراء بعد آخر النّحل أنّ رسول الله ﷺ كان في ضيقٍ ممّا يمكرون، فأراد الله ﷻ أنْ يُخفّف عنه، فكان حادث الإسراء، ولقد أَلِفَ بنو إسرائيل أنّ الرّسول يُبعَثُ إلى قومه فحسب، كما رأَوا موسى عليه السلام، فعندما يأتي محمّدٌ ﷺ ويقول: أنا رسولٌ للنّاس كافّةً سيعترض عليه هؤلاء، وسيقولون: إنْ كنتَ رسولاً فعلاً وسلَّمنا بذلك، فأنت

رسولٌ للعرب دون غيرهم، ولا دَخْل لك ببني إسرائيل، فَلَنا رسالتنا وبيت المقدس عَلَمٌ لنا، لذلك أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يلفت شعب بني إسرائيل إلى عموم رسالة سيّدنا محمّد ﷺ، ومن هنا جعل بيت المقدس قبلةً للمسلمين في بداية الأمر، ثمّ أسرى برسوله ﷺ إلى المسجد الأقصى؛ ليدلّل بذلك على أنّ بيت المقدس قد دخل في مقدّسات الإسلام، وأصبح منذ هذا الحدث في حَوْزة المسلمين.

ثمّ يبدأ الحديث عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وعن بني إسرائيل؛ لأنّ الخصم إلى يوم القيامة هم اليهود، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾ [المائدة: من الآية ٨٢]، ولنجد أنّه بعد فترةٍ من الزّمن من سيدنّس المسجد الأقصى الّذي باركه الله عَزَّ وَجَلَّ وسيحتلّه هم الّذين يدّعون الانتساب لإسرائيل، لذلك كانت الآية التّالية مباشرةً:

(الآية ٢) - ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ٢﴾:

﴿وَءَاتَيۡنَا﴾: أي: أوحينا إليه معانيه، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١﴾ [الشّورى]، فليس في هذا الأمر مباشرة.

﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: هو التّوراة، ولو اقترن بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فهو الإنجيل، وإنْ أُطلِق دون أن يقترنَ بأحد ينصرف إلى القرآن الكريم.

والوَحْي قد يكون بمعاني الأشياء، ثمّ يُعبّر عنها الرّسول بألفاظه.

لماذا نزل القرآن الكريم بلفظه ومعناه، في حين نزلت التّوراة بالمعنى فقط؟

نقول: لأنّ القرآن الكريم نزل كتاب منهجٍ، ولكنّه نزل أيضاً كتاب معجزة لا

يستطيع أحدٌ أنْ يأتيَ بمثله، فهو باقٍ إلى يوم القيامة، ولن يدخله تحريفٌ، قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر]، فالرّسول ﷺ أُوحِيَ إليه لَفْظُ ومعنى القرآن الكريم.

﴿وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: فهذا الكتاب هو هدايةٌ لبني إسرائيل، فهو لم ينزل لموسى عليه السلام وحده، بل لِيُبلِّغه لبني إسرائيل، وليرسمَ لهم طريق الهداية، والهُدَى: هو الطّريق الموصل للغاية.

﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا﴾: وكأنّ الغاية كلّها ألّا يتّخذ اليهود من دون الله عز وجل وكيلاً، ففي هذه العبارة خلاصة الهُدى، وتركيز المنهج وجِمَاعه.

والوكيل: هو الّذي يتولّى أمرك، وأنت لا تُولِّي أحداً أمرك إلّا إذا كنتَ عاجزاً عن القيام به، وكان مَنْ تُوكِّله أقوى منك، فإيّاكم أنْ تتّخذوا من دون الله جل جلاله وكيلاً، إيّاكم أن تولّوا أموركم لأحدٍ سوى الله سبحانه وتعالى، حتّى لو كان هذا الوكيل هو الواسطة بينك وبين ربّك جل جلاله، فلا يستطيع أحدٌ أن يكون عوضاً عن الله سبحانه وتعالى.

وقد تحدّث العلماء طويلاً في (أن) في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا﴾، فمنهم مَنْ قال: إنّها ناهية، ومنهم من قال: نافية، وأحسن ما يُقال فيها: إنّها مُفسِّرَة لما قبلها من قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى﴾، ففسَّرت الكتاب والهدى ولخَّصتْه، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠﴾ [طه]، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ﴾ تُفسّر لنا مضمون وسوسة الشّيطان، ومثله قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ [القصص: من الآية ٧]، فـ (أنْ) هنا مُفسِّرة لما قبلها، وكأنّ المعنى: وأوحينا

إلى موسى في التّوراة ألّا تتّخذوا من دوني وكيلاً، أو نقول: إنّ فيها معنى المصدريّة، و(أنْ) المصدريّة قد تُجرّ بحرف جرّ، كما نقول: عجبت أنْ تنجحَ؛ أي: من أنْ تنجح.

(الآية ٣) - ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾:

﴿ذُرِّيَّةَ﴾: منصوبةٌ هنا على الاختصاص لِقَصْد المدح، فالمعنى: أخصّكم أنتم يا ذرّيّة نوح، ولكن لماذا ذرّيّة نوح عليه السلام بالذّات؟ ذلك لأنّنا نجّيْنا الّذين آمنوا معه من الطّوفان والغرق، وحافظنا على حياتهم، وأنتم ذرّيّتهم، فلا بُدَّ لكم أنْ تذكروا هذه النّعمة لله سبحانه وتعالى، أن أبقاكم الآن من بقاء آبائكم، فكأنّ الله سبحانه وتعالى يمتنّ عليهم بأنْ نجَّى آباءهم مع نوح عليه السلام، فليستمعوا إلى منهج الله عز وجل الّذي جَرَّبه آباؤهم، ووجدوا أنّ مَنْ يؤمن بالله سبحانه وتعالى تكون له النّجاة والأمن من عذاب الله عز وجل.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾: أي: أنّ الحقّ سبحانه وتعالى أكرم ذرّيّته؛ لأنّه كان عبداً شكوراً، والعمل الصّالح ينفع ذرّيّة صاحبه؛ ولذلك سنلاحظ ذرّيّة نوحٍ بعنايتنا، ولن نتركهم يتخبّطون في متاهات الحياة، وسنرسل لهم الرّسل، ونُجنّبهم الزّلل والانحراف.

(الآية ٤) - ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤﴾:

﴿وَقَضَيۡنَآ﴾: أي: حكمنا حُكْماً لا رجعةَ فيه، وأعلنّا به المحكوم عليه، والله سبحانه وتعالى هو الّذي يعلن هذا الحكم.

والقضاء يعني الفَصْل في نزاع بين متخاصمين، وهذا الفَصْل لا بُدَّ له من قاضٍ مُؤهَّل، وعلى علمٍ بالقانون الّذي يحكم به، ويستطيع التّرجيح بين الأدلّة، فلا بُدَّ أن يكون القاضي مُؤهّلاً أمام المتنازعين، وهذا أمرٌ مهمٌّ جدّاً بالنّسبة إلى موضوع القضاء، حتّى يكون القضاء عدلاً، والله ﷻ يحكم على قضيّة شعب بني إسرائيل هنا من خلال هذه الآيات العظيمة الّتي تبيّن لنا حقيقة ما يجري الآن وحقيقة هؤلاء الّذين يدّعون تدليساً وزوراً أحقّيّتهم في أرضنا وبلادنا وفي مسجدنا الأقصى.

﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾: أي: في التّوراة، كتابهم الّذي نزل على نبيّهم عليه السلام، وهم محتفظون به وليس في كتابٍ آخر، فالحقّ ﷻ حَكَمَ حُكْماً وأعلمهم به، حيث أوحاه إلى موسى عليه السلام، فبلّغهم به في التّوراة، وأخبرهم بما سيكون منهم من ملابسات في استقبال منهج الله ﷻ على ألسنة الرّسل عليهم السّلام، وفسادهم في الأرض، فإذا كان رسولهم موسى عليه السلام قد أخبرهم بما سيحدث منهم، وقد حدث منهم فعلاً ما أخبرهم به الرّسول وهم مختارون، فكان عليهم أنْ يخجلوا من ربّهم ﷻ، ولا يتمادوا في تصادمهم وخروجهم عن التّعاليم الإلهيّة، وكان عليهم أن يصدِّقوا رسولهم فيما أخبرهم به.

﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾: جاءتْ العبارة مُؤكّدة باللّام، وهذا يعني أنّ في الآية قَسَماً دَلَّ عليه جوابه، فكأنّ الحقّ ﷻ يقول: ونفسي لتفسدنّ في الأرض، لأنّ القسَم لا يكون إلّا بالله ﷻ.

أو نقول: إنّ المعنى: ما دُمْنا قد قضينا وحكمنا حُكْماً مُؤكَّداً، لا يستطيع أحدٌ الفِكَاك منه، ففي هذا معنى القسَم، وتكون هذه العبارة جواباً لـ (قضينا)؛ لأنّ القَسَم يجيء للتّأكيد، والتّأكيد حاصلٌ في قوله ﷻ: ﴿وَقَضَيۡنَآ﴾.

فما هو الإفساد؟ الإفساد: أن تعمد إلى الصّالح في ذاته فتُخرجه عن صلاحه، فكُلُّ شيءٍ في الكون خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لغايةٍ، فإذا تركناه ليؤدّيَ غايته فقد أبقيناه على صلاحه، وإذا أخللْنا به يفقد صلاحه ومهمّته، والحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قبل أنْ يخلق البشر على هذه الأرض خلق لهم مُقوّمات الحياة في السّماء والأرض والشّمس والهواء..، وليس مقوّمات حياتنا فحسب، بل وأعدَّ لنا في كَوْنه ما يُمكِّن الإنسان بعقله وطاقته أن يَزيدَ الصّالح صلاحاً، فعلى الأقلّ إنْ لم تستطع أن تزيد الصّالح صلاحاً فلا تُفسد ما أصلحه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهنا المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يتحدّث عن شعب بني إسرائيل:

﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾: وهل أفسد بنو إسرائيل في الأرض مرّتين فقط؟ أو أنّهم أفسدوا مرّاتٍ كثيرة ومتعدّدة تكاد لا تُحصَى؟! فلماذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾؟ تحدّث العلماء كثيراً عن هاتين المرّتين تحديداً، وفي أيّ فترات التّاريخ حدثتا، وذهبوا إلى أنّهما قبل الإسلام، والمتأمّل لسورة الإسراء يجدها قد ربطتهما بالإسلام، فيبدو أنّ المراد بالمرّتين أحداثٌ حدثتْ منهم في حضْن الإسلام، فالحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد أن ذكر الإسراء ذكر قصّة بني إسرائيل، فدلّ ذلك على أنّ الإسلام تعدّى ووصل، وأصبح بيت المقدس قِبْلةً للمسلمين، ثمّ أُسْرِي برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المسجد الأقصى، وبذلك دخل في حَوْزة الإسلام، فالمرّتان على الأرجح أن تكونا في حضن الإسلام؛ لأنّهم أفسدوا كثيراً قبل الإسلام، ولا دَخْلَ للإسلام في إفسادهم السّابق؛ لأنّ الحقّ تعالى يقول: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤﴾، فإنْ كان الفساد مُطْلقاً؛ أي: قبل أن يأتي الإسلام فقد تعدَّد

فسادهم، وهل هناك أكثر من قولهم بعد أن جاوز بهم موسى عليه السلام البحر فرأوا جماعةً يعكفون على عبادة العجل، فقالوا لموسى عليه السلام: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف: من الآية ١٣٨]، هل هناك فسادٌ أكثر من قتلهم الأنبياء؟ وهذا فسادٌ ثانٍ، وحرّفوا كتاب الله عز وجل؟ وهذا فسادٌ ثالث، والنّاظر في تحريف بني إسرائيل للتّوراة يجد أنّهم حرَّفوها من وجوهٍ كثيرةٍ وتحريفاتٍ متعدِّدةٍ، فمن التّوراة ما نسوه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾ [المائدة: من الآية ١٣]، والّذي لم ينسَوْهُ لم يتركوه على حاله، بل كتموا بعضه، والّذي لم يكتموه لم يتركوه على حاله، بل حرَّفوه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: من الآية ١٣]، ولم يقف الأمر بهم عند هذا النّسيان والكتمان والتّحريف، بل تعدَّى إلى أن أَتَوا بكلامٍ من عند أنفسهم، وقالوا: هو من عند الله سبحانه وتعالى، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ [البقرة: من الآية ٧٩]، فهل هناك إفسادٌ في منهج الله عز وجل أعظم من هذا الإفساد؟!

ومن العلماء مَنْ يرى أنّ الفساد الأوّل هو ما حدث في قصّة طالوت وجالوت في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢٤٦]، فقد طلبوا القتال بأنفسهم وارتضَوْه وحكموا به، ومع ذلك حينما جاء القتال تنصَّلوا منه ولم يقاتلوا، ويرون أنّ الفساد الثّاني قد حدث بعد أن قويَتْ دولتهم، واتّسعتْ رقعتها من الشّمال إلى الجنوب، فأغار عليهم بختنصَّر وهزمهم.

وهذه التّفسيرات على أنّ الفسادَيْن سابقان للإسلام، ونحن نرى أنّ الأَوْلى أن نقول: إنّهما بعد الإسلام، وهذا ما يَرْبِط سورة الإسراء ببني إسرائيل، وخصوصاً أنّ الإسلام حينما جاء كان يستشهد بأهل الكتاب على صدق رسول الله ﷺ، وأهل الكتاب أنفسهم كانوا يستفتحون به على المشركين، فكان أهل الكتاب إذا جادلوا الكفّار والمشركين في المدينة كانوا يقولون لهم: لقد أظلَّ زمان نبيٍّ يأتي فنتّبعه، ونقتلكم معه قتل عادٍ وإِرَم؛ لذلك يقول الحقّ سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ: إنّهم ينكرون عليك أنّ الله سبحانه وتعالى يشهد ومَنْ عنده علم الكتاب، فمَنْ عنده علم الكتاب منهم يعرف بمجيئك، وأنّك صادقٌ، وأنّهم كاذبون، فهم كانوا يعرفون النّبيّ ﷺ أشدّ من معرفتهم لأبنائهم، ولا يُشكّ في شخصيّة الرّسول ﷺ، وأوصافه الّتي وردت في التّوراة، وبما أنّه كان ذلك وأنكروا، أليس هذا فسادٌ؟! قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: من الآية ٨٩]، فلمّا هاجر ﷺ إلى المدينة أبرم معهم معاهدةً يتعايشون بموجبها، ووفّى لهم رسول الله ﷺ ما وفّوا، فلمّا غدروا هم، واعتدوا على حرمات المسلمين وأعراضهم، جاس رسول الله ﷺ خلال ديارهم، وأجلاهم عن المدينة إلى خيبر؛ وكان هذا بأمرٍ من الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ، فقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر]، وهذا هو الفساد الأوّل الّذي حدث من يهود بني النّضير، وبني قَيْنقاع، وبني قريظة، الّذين خانوا العهد مع رسول الله ﷺ، بعد أن كانوا يستفتحون به على الّذين كفروا، أمّا الفساد الثّاني فهو ما سيفعلونه

بعد ذلك، عندما جاؤوا واحتلّوا المسجد الأقصى والأرض العربيّة وأفسدوا في هذه البلاد وقتلوا وشرّدوا ودمّروا وغدروا.

﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾: متى حدث هذا العلوّ الكبير؟ الجواب: في هذه الأيّام، حيث أصبح اليهود يتحكّمون في أكبر دولةٍ في العالم وهي الولايات المتّحدة الأميركيّة، واللّوبي الصّهيونيّ اليهوديّ في الغرب وفي الولايات المتّحدة، هو الّذي يحرّك السّياسات الاقتصاديّة والإجراميّة والعدوانيّة للعالم الغربيّ، فهم لم يعلوا هذا العلوّ كما في هذه الأيّام.

(الآية ٥) - ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥﴾:

﴿فَإِذَا﴾: معلومٌ أنّ (إذَا) ظرفٌ لما يُستَقبل من الزّمان، كما تقول: إذا جاء فلانٌ أكرمته، فهذا دليلٌ على أنّ أوّل الإفسادين لم يحدث بعد، فلا يستقيم القول: بأنّ الفساد الأوّل جاء في قصّة طالوت وجالوت، وأنّ الإفساد الثّاني جاء في قصّة بختنصَّر.

﴿جَآءَ وَعۡدُ﴾: والوعد كذلك لا يكون بشيءٍ مضى، وإنّما بشيءٍ مستقبليٍّ.

﴿أُولَىٰهُمَا﴾: أي: الإفساد الأوّل.

﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ﴾: وفي هذه العبارة دليلٌ آخر على أنّ الإفسادين كانا في حضن الإسلام؛ لأنّ كلمة: ﴿عِبَادٗا﴾ لا تطلق إلّا على المؤمنين، أمّا جالوت الّذي قتله طالوت، وبختنصَّر فهما كافران، وقد تحدّث العلماء في قوله تعالى: ﴿عِبَادٗا لَّنَآ﴾، فالعباد هم الطّائعون لله سبحانه وتعالى، فقول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ

وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ﴾، المقصود بها النّبيّ ﷺ والّذين آمنوا معه عندما جَاسُوا خلال ديارهم، وأخرجوا اليهود من المدينة المنوّرة، وقتلوا منهم من قُتِل، نتيجةً لظلمهم ونقضهم للعهود.

﴿أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾: أي: قوّةٍ ومنعةٍ، وهذه كانت حال المؤمنين في المدينة، عندما كانوا يواجهون أهل الباطل.

﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾: جاسُوا: من جاسَ؛ أي: بحث واستقصى المكان، وطلب مَنْ فيه، وهذا المعنى هو الّذي يُسمّى: (تمشيط المكان)، وهو اصطلاحٌ يعني دِقّة البحث عن المجرمين في هذا المكان، وفيه تشبيهٌ لتمشيط الشّعر، حيث يتخلّل المشط جميع الشّعر.

﴿فَجَاسُواْ﴾: أي: تتبّعوهم تتبُّعاً بحيث لا يخفى عليهم أحدٌ منهم، وهذا ما حدث مع يهود المدينة: بني قينقاع، وبني قريظة، وبني النّضير، ويهود خيبر.

ونلاحظ هنا أنّ القرآن الكريم آثر التّعبير بقوله: ﴿بَعَثۡنَا﴾، والبعث يدلّ على الخير والرّحمة، فرسول الله ﷺ لم يكن في حال اعتداءٍ، بل في حالة دفاع عن الإسلام أمام مَنْ خانوا العهد ونقضوا الميثاق.

وكلمة: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ تُفيد العلوّ والسّيطرة.

﴿وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا﴾: أي: وَعْد صدقٍ لا بدّ أن يتحقّق؛ لأنّه وعدٌ من قادرٍ على الإنفاذ، ولا توجد قوّةٌ تحول بينه وبين إنفاذ ما وعد به؛ لأنّه الله سبحانه وتعالى.

(الآية ٦) - ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ٦﴾:

الخطاب في هذه الآية مُوجَّهٌ لبني إسرائيل، والآية تمثّل نقطة تحوُّلٍ

وانقلابٍ للأوضاع، فبعد أن تحدّثنا عن غلبة المسلمين، وأنّ الله سبحانه وتعالى سلّطهم لتأديب بني إسرائيل لاعتدائهم ونقضهم للعهود، نرى هنا أنّ هذا الوضع لم يستمرّ، فمرّ زمنٌ ولم نكن عباداً لله عزّ وجلّ خلال هذه الفترات من الزّمن، فكان فيها تخلّفٌ وتفرّقٌ وتشتّتٌ فسلّط الله جلّ جلاله اليهود، وجاؤوا مرّةً أخرى، فاجتمعوا من كلّ حدبٍ وصوب، وبدؤوا باحتلال فلسطين، وبعد ذلك احتلّوا أجزاء من الأراضي العربيّة، ودنّسوا المسجد الأقصى، ليس بقوّتهم، وإنّما بحلفائهم من البريطانيّين والأميركيّين.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾: و﴿ثُمَّ﴾ حرف عطفٍ يُفيد التّرتيب مع التّراخي؛ أي: بعد فترةٍ من الزّمن طويلة، على خلاف (الفاء) الّتي تُفيد التّرتيب مع التّعقيب، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ۝٢٢﴾ [عبس]، فلم يَقُل الحقّ سبحانه وتعالى: (فرددنا)، بل قال جلّ جلاله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا﴾؛ ذلك لأنّ بين الكرَّة الأولى الّتي كانت للمسلمين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين هذه الكرَّة الّتي كانت لليهود وقتاً طويلاً، فلم يحدث بيننا وبينهم حروبٌ لعدّة قرون، منذ عصر الرّسول صلى الله عليه وسلم إلى أن حدث وَعْد بلفور المشؤوم، الّذي أعطى لهم الحقّ المغتصب في قيام دولتهم في فلسطين، الحقّ ممّن لا يملك، وكانت الكرَّة لهم علينا في عام ١٩٦٧، والحقّ سبحانه وتعالى يقول: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: جعلنا لبني إسرائيل الغَلَبَة والقوّة وتمّ تسليطهم علينا.

﴿الْكَرَّةَ﴾: أي: الغلبة من الكرِّ والفرِّ.

﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾: وفعلاً أمدّهم الله سبحانه وتعالى بالمال حتّى أصبحت رؤوس الأموال في العالم كلّه مع اليهود، وأمدّهم بالبنين الّذين

يُعلِّمونهم ويُثقّفونهم على أعلى المستويات، ليس بالعدد، وإنّما بالإمداد، فمعظم العالم مع اليهود، مع إسرائيل، هذه الدّولة العنصريّة المجرمة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا﴾، فالنّفير مَنْ يستنفره الإنسان لينصره، والمراد هنا الدّول الكبرى الّتي ساندت اليهود وصادمت العرب والمسلمين، ومازالت الكَرَّة لهم علينا، وسوف تظلّ إلى أنْ نعود كما كُنَّا، عباداً لله ﷻ مُسْتقيمين على منهجه، وهذا وَعْدٌ سيتحقّق إنْ شاء الله تعالى، كما ذكرتْ الآية التّالية:

(الآية ٧) - ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـٔۥُا وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ٧﴾:

ومازال الخطاب مُوجّهاً إلى بني إسرائيل، وهنا سُنّة من سنن الله ﷻ الكونيّة الّتي يستوي أمامها المؤمن والكافر، وهي أنّ مَنْ أحسن فله إحسانه، ومَنْ أساء فعليه إساءته، فهذا قانون، فاليهود عندما خرجوا عن المنهج، واعتدوا.. استحقّوا أنّ الله ﷻ كتب عليهم الوعد الأوّل والوعد الثّاني.

﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ﴾: فيه إشارةٌ إلى أنّهم في شَكٍّ أنْ يُحسِنوا، والإحسان لا يعود على الله ﷻ بشيءٍ، وإنّما يعود على البشر.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: أي: إذا جاء وقت الإفساد الثّاني لهم، وقد سبق أنْ قال الحقّ ﷻ عنهم: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾ [الإسراء: من الآية ٤]، وبيّنّا الإفساد الأوّل حينما نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ في المدينة، وحرّفوا التّوراة. وفي الآية بشارةٌ عظيمةٌ لنا أنّنا سنعود إلى سالف عهدنا، وستكون لنا

يقظةٌ وصَحْوةٌ وستكون لنا الغَلبة والقوّة، وستعود لنا الكَرَّة على اليهود.

﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾: أي: نُلحق بهم من الأذى ما يظهر أثره على وجوههم؛ لأنّ الوجه هو السِّمة المعبّرة عن نوازع النّفس الإنسانيّة، وعليه تبدو الانفعالات والمشاعر، وهو أشرف ما في المرء، وإساءته أبلغ أنواع الإساءة.

﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ﴾: أي: أنّ المسلمين سيدخلون المسجد الأقصى وسينقذونه من أيدي اليهود.

﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾: المتأمّل في هذه العبارة يجد أنّ دخولَ المسلمين للمسجد الأقصى أوّل مرّة كان في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب ﵁، ولم يكن الأقصى وقتها في أيدي اليهود، بل كان في أيدي الرّومان، فدخوله الأوّل لم يكُنْ إساءةً لليهود، لكن هذه المرّة سيكون دخول الأقصى، وهو في حوزة اليهود، وسيكون من ضمن الإساءة لوجوههم أن ندخل عليهم المسجد الأقصى، ونُطهّره بإذن الله ﷻ من رِجْسهم.

ونلحظ كذلك في قوله ﷻ: ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ أنّ القرآن الكريم لم يقُلْ ذلك إلّا إذا كان بين الدّخولين خروج، فخروجنا الآن من المسجد الأقصى تصديقٌ لِنُبوءَة القرآن الكريم، وكأنّ الحقّ ﷻ يريد أنْ يلفتنا: إنْ أردتُمْ أنْ تدخلوا المسجد الأقصى مرّةً أخرى، فعودوا إلى منهج ربّكم وتصالحوا معه.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: كلمة الآخرة تدلُّ على أنّها المرّة الّتي لن تتكرّر، ولن يكون لليهود غَلَبةٌ بعدها.

﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴾: يتبّروا: أي: يُهلكوا ويُدمِّروا ما أقامه اليهود وما بنَوْهُ وشيَّدوه من مظاهر الحضارة الّتي نشاهدها الآن في فلسطين المحتلّة.

لكن نلاحظ أنّ القرآن الكريم لم يقُلْ: ما علوتُم، إنّما قال: ﴿مَا عَلَوۡاْ﴾؛ ليدلّ على أنّ ما أقاموه وما شيّدوه ليس بذاتهم، وإنّما بمساعدة أتباعهم وأنصارهم، كالولايات المتّحدة الأميركيّة، ومن الغرب، ومن المتواطئين في العالم معهم، نسأل الله ﷻ أن نرى تطبيق هذه الآية في أيّامنا، وأن يكون الدّخول إلى المسجد الأقصى وتحريره قد حان فيه الوعد الثّاني وهو وعد الآخرة؛ أي: آخر مرّةٍ يمكن أن يدخل فيها الصّهاينة إلى المسجد الأقصى، وسوف يتمّ تحريره بإذن الله ﷻ من بلائهم واعتدائهم ورجسهم، وما علوا فيه هم ومن معهم.

ونلاحظ هنا أنّ الله ﷻ تحدّث عن شعب بني إسرائيل وعن المسجد الأقصى بعد الحديث عن الإسراء؛ لأنّ المسجد الأقصى هو العلامة، وهو الأساس، ومنه كان المنطلق، ومنه ارتقى النّبيّ ﷺ بالمعراج إلى السّموات العُلا، فوَعْدُ الآخرة وَعْدٌ آتٍ لا شَكَّ فيه، بدليل أنّ هذه العبارة جاءت بنصِّها في آخر السّورة في قوله ﷻ: ﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ١٠٤﴾، فهذه الآية تُبشِّر بتحقيق وَعْد الله ﷻ، وأنّهم جاؤوا من كلّ حدبٍ وصَوب حتّى يتمّ أمر الله ﷻ في تحرير المسجد الأقصى وإعادة الأرض السّليبة.

(الآية ٨) – ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ٨﴾:

﴿عَسَىٰ﴾: حَرْفٌ يدلّ على الرّجاء، وكأنّ في الآية إشارةً إلى أنّهم سيظلّون في مذلّةٍ ومَسْكنةٍ، ولن ترتفع لهم رايةٌ أبداً بعد ذلك.

﴿رَبُّكُمۡ﴾: هذه العظمة الإلهيّة، فيخاطبهم الله ﷻ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾ إذا سرتم على الطّريق المستقيم، وإذا تخلّيتم عن جرائمكم واعتدائكم وعن نكولكم بالعهود والمواثيق.

﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾: إنْ عُدتُّم إلى ما كنتم عليه فالله ﷻ لكم بالمرصاد، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾ [الفجر].

﴿وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾: النّتيجة ستكون يوم القيامة بأنّ جهنّم ستكون مآلهم، فإن عُدتم إلى الفساد عُدْنَا وهو جزاء الدّنيا، وهو لا ينجّيكم من جزاء الآخرة، فهذه مسألةٌ وتلك أخرى، حتّى لا يفهم أحدٌ أنّ العقاب على الذّنوب في الدّنيا يُبرِئ من عذاب الآخرة، فالعقوبة على الذّنب الّتي تُبرِئ المذنب من عذاب الآخرة ما كان في حِضْن الإسلام، وإلَّا لاَسْتوى مَنْ أُقيم عليه الحدّ مع مَنْ لم يُقمْ عليه الحدّ في الإسلام.

﴿وَجَعَلۡنَا﴾: فِعْلٌ يُفيد التّحويل، كأن نقول: جعلت العجين خبزاً، وجعلت القطن ثوباً، أي: صيَّرتُه وحوَّلْتُه، فماذا كانت جهنّم أوّلاً فيُحوّلها الله ﷻ حصيراً؟ الجواب: قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ في هذه الآية لا تُفيد التّحويل، إنّما هي بمعنى خَلَقْنا؛ أي: خلقناها هكذا، كما نقول: سبحان الّذي جعل اللّبن أبيض، فاللّبن لم يكن له لونٌ آخر فحوَّله الله ﷻ إلى البياض، بل خلقه هكذا بدايةً.

﴿حَصِيرًا﴾: الحصير: فراشٌ معروفٌ يُصنع من القَشِّ أو من نباتٍ، والآن يصنعونه من خيوط البلاستيك، وسُمِّي حصيراً؛ لأنّ كلمة حصير مأخوذةٌ من الحَصْر، وهو التّضييق في المكان للمكين، وفي صناعة الحصير يضمُّون الأعواد بعضها إلى بعض إلى أنْ تتماسكَ، ولا توجد مسافةٌ بين العود والآخر.

لكن لماذا نفرش الحصير؟ نفرش الحصير حتّى نجلس عليه أو نتمدّد؛ لأنّه يحبس عَنّا القذَر والأوساخ، فلا تُصيب ثيابنا، فالحصر معناه المنع والحبس والتّضييق، فقوله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾؛ أي: تحبسهم فيها وتحصرهم، وتمنعهم الخروج منها، فهي لهم سجنٌ لا يستطيعون الفرار منه؛ لأنّها تحيط بهم من كلّ ناحيةٍ، فهم محصورون محبوسون فيها.

(الآية ٩) - ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾: فمَنْ كان يريد الأُسْوة الطّيّبة في عبوديّة الرّسول لربّه، هذه العبوديّة الّتي أدّت إلى الإسراء إلى بيت المقدس، ثمّ الصّعود إلى السّماء، ومَنْ كان يريد أن يكون مثل نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ في عبوديّته لربّه فأكرمَ ذرّيّته من أجله، فعليه أنْ يسيرَ على نهج الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو القرآن الكريم، وليحذر أن يكون من الّذين أفسدوا في الأرض كما فعل اليهود.

ومَن يرسم لنا الطّريق ويُوضِّح لنا الحقّ من الباطل هو القرآن الكريم: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾: هل عند نزول هذه الآية كان القرآن الكريم قد نزل كلّه، ليقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾؟ نقول: لم يكن القرآن الكريم قد نزل كلّه، ولكن كلّ آيةٍ في القرآن الكريم تُسمّى قرآناً، كما قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة]، فليس المراد القرآن الكريم كلّه، بل الآية من القرآن قرآن، ثمّ لمّا اكتمل نزول القرآن الكريم، واكتملتْ المسائل الّتي تضمن لنا استقامة الحياة، قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: من الآية ٣].

﴿يَهۡدِي﴾: الهداية هي الطّريق الموصِل للغاية من أقرب وَجْهٍ، وبأقلّ تكلفةٍ، وهي الطّريق المستقيم الّذي لا التواءَ فيه، وقلنا: إنّ الله ﷻ يهدي الجميع، والقرآن الكريم للجميع، فمن اختار الهداية زاده هُدىً، كما قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمّد].

﴿أَقۡوَمُ﴾: أي: أكثر استقامة وسلاماً، هذه الصّيغة تُسمّى أفعل التّفضيل، فعندنا (أقوم) وعندنا أقلّ منه: (قيّم)، كأن نقول: عالمٌ وأعلم، فقوله ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾، يدلّ على وجود (القيّم) في نُظم النّاس الوضعيّة، فالحقّ ﷻ لا يحرم البشر من أن يكون لهم قوانين يُقنّنون بها، ولا مانع من ذلك إذا لم ينزل لهم منهجٌ من السّماء، فما وضعوه، وإنْ كان قَيّماً، فما وضعه الله ﷻ أقوم، أقوم في كلّ شيءٍ، وأفضل من كلّ شيءٍ، وهناك فَرْقٌ بين الوقاية من المرض وبين العلاج منه، فالقرآن الكريم وقايةٌ من الأمراض كلّها، أمّا البشر فيضعون علاجاً لِمَا حلّ بهم من أمراضٍ، فإن حَدثْت غفلةٌ، وأصاب الإنسان بعض الأدواء نتيجة انصرافه عن منهج ربّه ﷻ، نقول له: عُدْ إلى المنهج: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾، فمنهج الله ﷻ أقوم في كلّ شيء، وهو قمّة الخير في كلّ شيءٍ، في العقائد، والأحكام، والأخلاق، والمعاملات، وكلّ شيءٍ.

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾: فيه بشارةٌ للمؤمن، هذه البشارة إذا عمل صالحاً، فليست القضيّة قضيّة أقوالٍ، فالإيمان لا بُدّ له من أعمالٍ صالحةٍ، تعود بالخير على الإنسان وعلى مجتمعه، وكلّما ورد الحديث عن الإيمان في القرآن الكريم ورد معه ذكر العمل الصّالح، كقوله ﷻ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧﴾ [الكهف]، وقوله جلّ جلاله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾ [الكهف]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر]، والعمل الصّالح ليس كما يعتقد بعض النّاس أنّه محصورٌ بالإنسان، وإنّما هو في أن يمتدّ الخير إلى الآخرين، فالبشرى للمؤمن الّذي يعمل الصّالحات، وهذا هو الأساس حتّى يحصل الإنسان على الأجر الكبير.

﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا كَبِيرًا﴾: أطلقه المولى سبحانه وتعالى، وكأنّ هذا الأجر بمقياس الله سبحانه وتعالى الكبير، فإذا قال عن أجرٍ: إنّه كبيرٌ، فلنتصوّر معنى كبر هذا الأجر الّذي سيحصل عليه الإنسان، فالإنسان عندما يعمل عملاً في هذه الدّنيا فإنّه يبتغي أجراً على هذا العمل، وعندما يعمل الإنسان الصّالح وفق منهج الله سبحانه وتعالى فإنّ هناك ما أُعدّ له من أجرٍ كبيرٍ على إمكانات وعطاء الله سبحانه وتعالى الّذي هو أكبر من كلّ شيءٍ، (الله أكبر)، فهذه بشارةٌ للمؤمنين الّذين يعملون الصّالحات، وربط الإيمان بصلاح العمل، لذلك قال الحسن البصريّ: "الْإِيمَانُ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ"(١).

(الآية ١٠) - ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٠﴾:

كما أنّ هناك بشارةً فكذلك هناك إنذارٌ، لكنّه هنا لم يقل: (لا يؤمنون بالله سبحانه وتعالى)، بل أخذ آخر عنصرٍ من عناصر الإيمان، وهو أهمّها، وعناصر الإيمان

(١) مصنّف ابن أبي شيبة: ج٦، كِتَابُ الإِيمَانِ وَالرُّؤْيَا، الحديث رقم (٣٠٣٥١).

كلّها مهمّةٌ، لكن يتكرّر كثيراً ربط الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باليوم الآخر؛ لأنّ الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يستوجب أن يكون هناك يومٌ آخر فيه حسابٌ وفيه ثوابٌ وعقابٌ، فالّذي لا يؤمن بالآخرة لم يجعل في ذهنه حساباً ليومٍ يقف فيه بين يدي الله عَزَّ وَجَلَّ ليحاسب على الكبيرة والصّغيرة، فهو يقوم بالأعمال وفق مصالحه وليس وفق المبادئ والقيم الّتي جاء بها الإسلام، فهنا المراد الّذين لا يؤمنون بيوم الحساب ولا يعملون الصّالحات وينشرون في الأرض الفساد.

﴿أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ﴾: أي: هيّأنا لهم.

﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾: الّذي يتحدّث هو المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فأنت تتصوّر الألم في الدّنيا، فكيف عندما يصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العذاب بأنّه أليمٌ؟!

(الآية ١١) - ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾:

﴿وَيَدۡعُ﴾: الدّعاء: طلَب ما تعجز عنه من قادرٍ عليه، وأهل النّحو يقولون: إنّ الفعل ماضٍ ومضارعٍ وأمر، فالأمر: طَلَبٌ من الأعلى إلى الأدنى، فكلّ طلبٍ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لخلْقه هو أمرٌ، أو من الأعلى من البشر للأدنى، أمّا إنْ كان الطّلب من مُسَاوٍ لك فهو التماسٌ أو رجاءٌ، فإنْ كان الطّلب من الأدنى للأعلى، كطلب العبد من ربّه جَلَّ جَلَالُهُ فهو دعاءٌ، لذلك نجد التّدقيق في الإعراب يحفظ لاسم الجلالة المكانة والعظمه، فنقول للطّالب: أعرب: (ربّ اغفر لي)، فيقول: اغفرْ، فِعْلٌ دالٌّ على الدّعاء؛ لأنّه لا يجوز في حَقِّ المَوْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن نقول: فعل أمرٍ، فالله جَلَّ جَلَالُهُ لا يأمره أحدٌ، فأوّل ما يُفهم من الدّعاء أنّه دَلَّ على صفة العجز والضّعف في العبد، وأنّه قد اندكّتْ فيه ثورة الغرور، فعَلِم أنّه لا يقدر على هذا إلّا الله عَزَّ وَجَلَّ فيتوجّه إليه بالدّعاء.

﴿بِٱلشَّرِّ﴾: بالمكروه، والإنسان لا يدعو على نفسه، لكنّه لا يعرف الغيب، فلا يعرف إن كان هذا الأمر الّذي يدعو به خيراً أو شرّاً، فهو يعتقد أنّه يدعو بالخير، لذلك قال الله ﷻ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: من الآية ٢١٦]، فقد يريد الإنسان مالاً فيدعو الله ﷻ فيكون هذا المال وبالاً عليه، فهذا استعجالٌ من الإنسان واعتقادٌ منه أنّ هذا الأمر فيه خيرٌ، ويكون شرّاً.

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾: قال ﷻ: ﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ﴾ [يونس: من الآية ١١]؛ أي: لو استجاب الله ﷻ لهم في دعائهم الّذي لا يعرفون أثره عليهم، لكانت نهايتهم، فمن المهمّ أن يجعل الإنسان في ذهنه أن يدعو بمجامع الخير الّتي علّمنا إيّاها النّبيّ ﷺ، ولنعلم أنّ لله ﷻ حكمةً في أن يمنعك من أمرٍ تعتقد أنّه خيرٌ لك، أو أمرٍ تريده، ولعلّه لو أعطاك إيّاه لكان وبالاً عليك، فعلينا أن نقيس الأمرين بمقياسٍ واحدٍ، ونرضى بأمر الله ﷻ، فقد يصرف الله ﷻ عنك شرّاً بدعوةٍ، فالدّعاء هو علاقةٌ بين الإنسان وربّه، وهو طلبٌ ورجاءٌ من الله ﷻ، فعندما يُعطيك الله ﷻ أو يمنع عنك قضيّةً فهو لخيرٍ لا تعلمه، والعجلة والتّسرّع من طبيعة الإنسان، قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧﴾ [الأنبياء]، فكثيراً ما يدعو بما يراه خيراً لنفسه فلا يجد من ورائه إلّا الشّرّ والتّعب والشّقاء، وبالمقابل قد يُنزل الله ﷻ بنا ما نراه شرّاً ويسوق الله ﷻ لنا الخير من خلاله، فنحن لا نعلم وجوه الخير على حقيقتها، فلندع الأمر لله ﷻ ولنجعل حظّنا من دعائنا العبادة وليس الإجابة فقط.

(الآية ١٢) - ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢﴾:

الحقّ ﷻ جعل الزّمن ليلاً ونهاراً ظرفاً للأحداث، وجعل لكلٍّ منهما مهمّة لا تتأتّى مع الآخر، فهما متقابلان لا متضادّان؛ لأنّ لكلٍّ منهما مهمّة محدّدة، والتّقابل يجعلهما متكاملين، فالله ﷻ جعل اللّيل والنّهار آيتين.

آيات: أي: معجزات، والآيات كما قلنا سابقاً تأتي:

١- إمّا بمعنى آيات القرآن الكريم.

٢- وإمّا آية؛ أي: المعجزة الّتي يأتي بها الأنبياء عليهم السّلام.

٣- أو المعجزات الكونيّة.

ومن المعجزات الكونيّة اللّيل والنّهار، فاللّيل والنّهار كجنسٍ واحد لهما مهمّة، أمّا من حيث النّوع فلكلٍّ منهما شيءٌ خاصّ، ولا يجب أن نخلط بينهما، يقول ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾ [اللّيل]، فلا تجعل اللّيل ضِدّاً للنّهار، ولا النّهار ضدّاً لِلَّيل، وكذلك لا تجعل الذّكورة ضِدّاً للأنوثة، ولا الأنوثة ضدّاً للذّكورة.

﴿وَجَعَلۡنَا﴾: بمعنى خلقنا، واللّيل والنّهار هما المعروفان لنا بالمعاينة والمشاهدة، فنقول مثلاً: اللّيل هو مَغِيب الشّمس عن نصف الكرة الأرضيّة، والنّهار هو شروق الشّمس على نصف الكرة الأرضيّة، فقد يكون الشّيء أوضح من تعريفه.

والحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلق لنا اللّيل والنّهار، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضّحى]، ويقول جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [اللّيل]، فبدأ باللّيل.

ومرّةً يتحدّث عن اللّازم لهما، فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: من الآية ١]؛ لأنّ الحكمة من اللّيل تكمن في ظُلْمته، والحكمة من النّهار تكمُن في نوره، فالظُّلْمة سكَنٌ واستقرارٌ وراحةٌ، وفي اللّيل تهدأ الأعصاب من الأشعّة والضّوء، ويأخذ البدن راحته؛ لذلك قال ﷺ: «أَطْفِئُوا المَصَابِيحَ إِذَا رَقَدْتُمْ»(١)، في حين نرى الكثيرين يظنّون أنّ الأضواء المبهرة الّتي نراها الآن مظهرٌ حضاريٌّ، وهم غافلون عن الحكمة من اللّيل، وهي ظلمته.

والنّور للحركة والعمل والسَّعْي، فمَن ارتاح في اللّيل يُصبح نشيطاً للعمل، ولا يعمل الإنسان إلّا إذا أخذ طاقةً متجدّدة، وارتاحت أعضاؤه، عندها يستطيع العمل، لذلك قال الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [القصص: من الآية ٧٣]، لماذا؟ ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ [القصص: من الآية ٧٣]؛ أي: في اللّيل، ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [القصص: من الآية ٧٣]؛ أي: في النّهار.

﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾: هندسة الكون ونظامه عجيبٌ وبديعٌ؛ أي: بعد أنْ كان الضّوء غابت الشّمس فَحَلَّ الظّلام، أو مَحَوْناهَا: أي: جعلناها هكذا، كما قلنا: سبحان مَنْ بيَّض اللّبن؛ أي: خلقه هكذا، فيكون المراد: خلق اللّيل مظلماً هكذا.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الأشربة، باب تغطية الإناء، الحديث رقم (٥٦٢٤).

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾: أي: خلقنا النّهار مضيئاً، ومعنى مبصرة أو مضيئة؛ أي: نرى بها الأشياء؛ لأنّ الأشياء لا تُرى في الظّلام، فإذا حَلَّ الضّياء والنّور رأيناها، وعلى هذا كان ينبغي أن نقول حسب فهمنا: وجعلنا آية النّهار مُبْصَراً فيها، وليست هي مبصرة، وهذه كما في قوله ﷻ في قصّة موسى وفرعون: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [النّمل: من الآية ١٣]، فنسب البصر إلى الآيات، كما نسب البصر هنا إلى النّهار، وهذه مسألةٌ حيَّرتْ الباحثين في فلسفة الكون وظواهره، فكانوا يظنّون أنّنا نرى الأشياء إذا انتقل الشّعاع من العين إلى المرئيّ، إلى أن جاء العالِم الإسلاميّ (ابن الهيثم) الّذي نَوَّر الله ﷿ بصيرته، وهداه إلى سِرِّ رؤية الأشياء، فأوضح لهم ما وقعوا فيه من الخطأ، فلو أنّ الشّعاع ينتقل من العين إلى المرئيّ لأمكن أن نرى الأشياء في الظُّلمة إذا كنّا في الضّوء، فالشّعاع لا يأتي من العين، بل من الشّيء المرئيّ، ولذلك نرى الأشياء إنْ كانت في الضّوء، ولا نراها إن كانت في الظّلام، وعليه يكون الشّيء المرئيّ هو الّذي يبصرك، ويساعدك على رؤيته، ولذلك نقول: هذا شيءٌ لافتٌ للنّظر؛ أي: يرسل إليك مَا يجعلك تلتفت إليه، فالتّعبير القرآنيّ: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ على مستوى عالٍ من الدّقّة والإعجاز، وصدق الله ﷻ حين قال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصّلت: من الآية ٥٣].

﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾: وهذه هي العلّة الأولى لآية اللّيل والنّهار؛ أي: أنّ السّعي وطلب الرّزق لا يكون إلّا في النّهار؛ لذلك أتى طلب فضل الله تعالى ورزقه بعد آية النّهار، ومعلومٌ أنّ الإنسان لا تكون له حركة نشاطيّة

وإقبال على السَّعي والعمل إلّا إذا توفّر له قسطٌ من الرّاحة بنوم اللّيل، وبهذا نجد في الآية الكريمة التّرتيب ذاته الوارد في قوله ﷻ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: من الآية ٧٣]، فالتّرتيب في الآية يقتضي أن نقول: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ [القصص: من الآية ٧٣]؛ أي: في اللّيل، ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: من الآية ٧٣]؛ أي: في النّهار، وعمل النّهار لا يتمّ إلّا براحة اللّيل، فهما متكاملان.

والحقّ ﷻ جعل النّهار مَحلّاً للحركة وابتغاء لفضله ﷻ؛ لأنّ الحركة أمرٌ ماديٌّ وتفاعلٌ بين الإنسان ومادّة الكون من حوله، كالفلّاح الّذي يتفاعل مع الأرض، والعامل الّذي يتفاعل مع الآلة، هذا التّفاعل المادّيّ لا يتمّ إلّا في الضّوء؛ لأنّ الظّلمة تغطّي الأشياء وتُعميها، وهذا يتناسب مع اللّيل حيث ينام النّاس، أمّا في السّعي والحركة فلا بُدَّ من الضّوء.

﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾: وهذه هي العِلَّة الثّانية لِلَّيل والنّهار، حيث بمرورهما يتمّ حساب السّنين.

وكلمة: ﴿عَدَدَ﴾ تقتضي شيئاً له وحدات، ونريد أن نعرف كمّيّة هذه الوحدات؛ لأنّ الشّيء إنْ لم تكُنْ له كمّيّات متكرّرة فهو واحد.

وقوله ﷻ: ﴿ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾؛ لأنّها من لوازم الحركة في الحياة، فعن طريق حساب الأيّام نستطيع تحديد وقت الزّراعات المختلفة، أو وقت سقوط المطر، أو هبوب الرّياح، وفي العبادات نحدّد بها أيّام الحجّ، وشهر الصّوم، ووقت الصّلاة، ويوم الجمعة، فهذه وغيرها من لوازم حياتنا لا نعرفها إلّا بمرور اللّيل والنّهار.

ولو تأمّلنا عظمة الخالق سبحانه وتعالى لوجدنا أنّ القمر والشّمس لكلٍّ منهما مهمّة في حساب الأيّام والشّهور والسّنين، فالشّمس لا نعرف بها إلّا اليوم الّذي نحن فيه، حيث يبدأ اليوم بشروقها وينتهي بغروبها، أمّا بالقمر فنستطيع حساب الأيّام والشّهور؛ لأنّ الخالق سبحانه وتعالى جعل فيه علامة ذاتيّة يتمّ الحساب على أساسها، فهو في أوّل الشّهر هلال، ثمّ يكبر فيصير إلى تربيع أوّل، ثمّ إلى تربيع ثان، ثمّ إلى بدر، ثمّ يأخذ في التّناقص إلى أن يصل إلى المحاق آخر الشّهر، ومن هنا تثبت مواقيت العبادة باللّيل دون النّهار، فتثبت رؤية رمضان ليلاً أوّلاً، ثمّ يثبت نهاراً، فنقول: اللّيلة أوّل رمضان، لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ [يونس: من الآية ٥]، فقوله: ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾؛ أي: القمر؛ لأنّ به تتبيّن أوائل الشّهور، وهو أدقّ نظام حسابيّ يُعتمد عليه حتّى الآن عند علماء الفلك وعلماء البحار وغيرهم.

﴿مَنَازِلَ﴾: البروج الاثنا عشر للقمر الّتي أقسم الله عزّ وجلّ بها في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣﴾ [البروج]، ولأنّ حياة الخَلْق لا تقوم إلّا بحساب الزّمن، فقد جعل الخالق سبحانه وتعالى في كَوْنه ضوابط تضبط لنا هذا الزّمن، وهذه الضّوابط لا تصلح لضبط الوقت إلّا إذا كانت هي في نفسها منضبطة، فمثلاً أنت لا تستطيع أن تضبط مواعيدك على ساعتك إذا كانت غير منضبطة، لذلك يقول الخالق المبدع جلّ جلاله عن ضوابط الوقت في كَوْنه: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥﴾ [الرّحمن]؛ أي: بحسابٍ دقيقٍ لا يختلّ، وبما أنّ الخالق تبارك وتعالى خلقها بحسابٍ فاجعلوها ضوابط لحساباتكم.

﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾: معنى التّفصيل أن تجعل بَيْناً بين شيئين،

وتقول: فصلْتُ شيئاً عن شيءٍ، فالحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فصَّل لنا كلّ ما يحتاج إلى تفصيل، حتّى لا يلتبس علينا الأمر في نواحي الحياة كلّها، ومثال ذلك في الوضوء مثلاً يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ [المائدة: من الآية ٦]، فأطلق غَسْل الوجه؛ لأنّه لا يختلف عليه أحد، وحدَّد الأيدي إلى المرافق؛ لأنّ الأيدي يُختلف في تحديدها، فاليد قد تكون إلى الرُّسْغ، أو إلى المرفق، أو إلى الكتف؛ لأنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يريدها على شكلٍ مخصوص، وكذلك في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ [المائدة: من الآية ٦]، فالرّأس يناسبها المسْح لا الغَسْل، والرِّجْلاَن كاليد لا بُدَّ أنْ تُحَدَّد، فإذا لم يوجد الماء أو تعذَّر استعماله شرع لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التّيمّم، فقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ﴾ [النّساء: من الآية ٤٣]، والتّيمّم يقوم مقام الوضوء، من حيث هو استعدادٌ للصّلاة ولقاء الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد يظنّ بعض النّاس أنّ الحكمة من الوضوء الطّهارة والنّظافة، وكذلك التّيمُّم؛ لذلك يقترح بعضهم أن نُنَظِّف أنفسنا بشيءٍ آخر، كالعطور مثلاً! نقول: ليس المقصود بالوضوء أو التّيمُّم الطّهارة أو النّظافة فقط، بل المراد فوق ذلك الاستعداد للصّلاة وإظهار الطّاعة والانصياع لشرع الله عَزَّ وَجَلَّ، وإلّا كيف تتمّ الطّهارة أو النّظافة بالتّراب في التّيمُّم؟! هذا الاستعداد للصّلاة هو الّذي جعل سيّدنا عليّ زين العابدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَصْفرّ وجهه عند الوضوء، وعندما سُئِل عن ذلك قال: "أتعلمون على مَنْ أنا مُقبل الآن؟"، فلِلِقاء الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رهبة يجب أن يُعمل لها حساباً، وأنْ يستعدّ المؤمن للصّلاة بما شرّعه له ربّه عَزَّ وَجَلَّ.

(الآية ١٣) – ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣﴾:

﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾: أي: عمله، وأصلها أنّ العرب كانوا في الماضي يزجرون الطّير؛ أي: إذا أراد أحدهم أنْ يُمضيَ عملاً يأتي بطائر ثمّ يطلقه، فإنْ مَرَّ من اليسار إلى اليمين يسمّونه: (السّانح) ويتفاءلون به، وإنْ مَرّ من اليمين إلى اليسار يسمّونه: (البارح) ويتشاءمون به، ثمّ يتّهمون الطّائر وينسبون إليه العمل، ولا ذنب له ولا جريرة، فكانوا يتفاءلون باليمين، ويتشاءمون باليسار، وقد كان النّبيّ ﷺ يحبّ الفأل الحسن، ولا يحبّ التّشاؤم؛ لأنّ الفَأْل الطّيّب يُنشّط أجهزة الجسم انبساطاً للحركة، أمّا التّشاؤم فيدعو للتّراجع والإحجام، ويقضي على الحركة والتّفاعل في الكون.

والحقّ سبحانه وتعالى هنا يُوضّح: لا تقوّلوا الطّائر ولا تتّهموه، بل طائرك؛ أي: عملك في عنقك يلازمك ولا ينفكّ عنك أبداً، ولا يُسأل عنه غيره، كما أنّه لا يُسأل عن عمل الآخرين، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾ [الإسراء: من الآية ١٥]، فلا تُلقي بتبعة أفعالك على الحيوان الّذي لا ذنب له.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾: وهو كتاب أعماله الّذي سجّلتْه عليه الحفظة الكاتبون، الّذي قال الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف]، هذا الكتاب سيلقاه يوم القيامة منشوراً؛ أي: مفتوحاً مُعدّاً للقراءة.

(الآية ١٤) - ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾:

﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾: الحقّ تبارك وتعالى يُصوّر لنا موقفاً من مواقف يوم القيامة، حيث يقف العبد بين يديْ ربّه ﷻ، فيدعوه إلى أن يقرأ كتابه بنفسه، ليكون هو حجّة على نفسه، ويُقِرُّ بما اقترف، والإقرار سيّد الأدلّة، فهذا موقف لا مجالَ فيه للعناد أو المكابرة، ولا مجالَ فيه للجدال أو الإنكار، فإن حدث منه إنكارٌ جعل الله ﷻ عليه شاهداً من جوارحه، فيُنطقها الحقّ جلّ وعلا بقدرته، يقول ﷻ: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ [النّور]، ويقول ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [فصّلت: من الآية ٢١].

وقد جعل الخالق ﷻ للإنسان سيطرةً على جوارحه في الدّنيا، وجعلها خاضعةً لإرادته لا تعصيه في خيرٍ أو شرٍّ، فبيده يضرب ويعتدي، وبيده يُنفق ويقيل عثرة المحتاج، وبرجْله يسعى إلى بيت الله ﷻ أو يسعى إلى الفساد، وجوارحه في هذا كلّه مُسخَّرةً طائعةً لا تتأبّى عليه، حتّى وإن كانت كارهة للفعل؛ لأنّها منقادة لمراداته، ففِعْلها ليس دليلاً على الرّضى؛ لأنّه قد يكون رضى انقياد، أمّا في اليوم الآخر فلم يَعُدْ هناك سيطرة للإنسان على جوارحه، فإذا كان يوم القيامة انحلّت من إرادته، وخرجتْ من سجن سيطرته، فشهدتْ عليه بما كان منه.

﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾: أي: كفانا أن تكون أنت قارئاً وشاهداً على نفسك.

(الآية ١٥) - ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾:

﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾: لأنّ الحقّ سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة، ولا تضرّه معصية، وهو سبحانه وتعالى الغنيّ عن عباده، وبصفات كماله وضع منهج الهداية للإنسان الّذي جعله خليفةً له في أرضه، وقبل أنْ يخلقه أعدَّ له مُقوّمات الحياة كلّها من أرضٍ وسماء، وشمس وقمر، وهواء وجبال ومياه، فصفات الكمال ثابتة لله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق الخَلْق، فطاعتهم لن تزيده جلّ جلاله شيئاً، كما أنّ معصيتهم لن تضرّه عزّ وجلّ في شيء، وهنا قد يسأل سائل: فلماذا التّكليفات؟ نقول: إنّ التّكليف من الله عزّ وجلّ لعباده من أجلهم وفي مصلحتهم، لكي تستمرّ حركة حياتهم، وتتساند ولا تتعاند؛ لذلك جعل لنا الخالق سبحانه وتعالى منهجاً نسير عليه، وهو منهج واجب التّنفيذ؛ لأنّه من الله جلّ جلاله، من الخالق الّذي يعلم مَن خلق، ويعلم ما يصلح لهم مِن منهج، لذلك: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾؛ أي: لمصلحته.

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾: أي: تعود عليه عاقبةُ ضلاله، وسيتحمّل تبعات ذلك، ولا يزيد الله سبحانه وتعالى شيئاً ولا ينقص منه شيء: «**يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ**

فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً، فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»[1].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: العدل الإلهيّ لا يريد أن يأخذ أحداً بجريرة غيره، ولا يُحمّل الإنسان إلّا ما قام به من عملٍ وعلى قدر عمله، قال ﷻ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النّجم]، فلا يؤاخذ أحداً بعمل أحد.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾: من الوزر: وهو الحِمْل الثّقيل، ومنها كلمة الوزير: أي: الّذي يحمل الأعباء الثّقيلة.

فعدْلُ الله تبارك وتعالى يقتضي أنْ يُحاسَب الإنسان على عمله، وأنْ يُسأل عن نفسه، فلا يرمي أحدٌ ذنبه على غيره، كما قال ﷻ: ﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: من الآية ٣٣]، وحول هذه القضيّة تحدَّث كثيرٌ من المستشرقين الّذين يبحثون في القرآن الكريم عن مأخذ، فوقفوا عند هذه الآية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وقالوا: كيف نُوفِّق بينها وبين قوله ﷻ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: من الآية ١٣]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النّحل]؟

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم الظّلم، الحديث رقم (٢٥٧٧).

ونقول: التّوفيق بين الآية الأولى والآيتين الأخيرتين هيّن لو فهموا الفرق بين الوِزْر في الآية الأولى، والوِزْر في الآيتين الأخيرتين، ففي الأولى وزرٌ ذاتيٌّ خاصّ بالإنسان نفسه، حيث ضَلَّ هو في نفسه، فيجب أنْ يتحمّل وزر ضلاله، أمّا في الآية الثّانية فقد أضلَّ غيره، فتحمَّل وِزْره الخاصّ به كضالّ، وتحمَّل وِزْر مَنْ أضلَّهم، ويُوضِّح لنا هذه القضيّة الحديث النّبويّ الشّريف: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»(١).

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾: العذاب: عقوبة على مخالفة، لكن قبل أنْ يُعاقب عليها لا بُدَّ أن يُعلِمنا الله سبحانه وتعالى أنّ هذه مخالفة أو جريمة -وهي العمل الّذي يكسر سلامة المجتمع-، فلا جريمة إلّا بنصٍّ ينصُّ عليها ويُقنّنها، ويُحدِّد العقاب عليها، ولا بدّ من الإعلام بذلك، لذلك: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾، فالله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: من الآية ٤٤]، فالله سبحانه وتعالى لا يعذّب الخلق حتّى يرسل إليهم الرّسل، حتّى في القانون الوضعيّ نقول: لا عقوبة إلّا بتجريم، ولا تجريم إلّا بنصٍّ، ولا نصَّ إلّا بإعلام، فإذا ما اتّضحت هذه الأركان في أذهان النّاس كان للعقوبة معنى، وقامت الحجّة على المخالفين، فكيف نعاقب شخصاً على جريمة هو لا يعلم بها ولا

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الزكاة، بَابُ الحَثِّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، أَوْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ وَأَنَّهَا حِجَابٌ مِنَ النَّارِ، الحديث رقم (١٠١٧).

يعتقد أنّها جريمة؟! فالله سبحانه وتعالى أرسل الرّسول ﷺ يُعلِّم النّاس منهج الحقّ عزّ وجلّ، ويُحدِّد لهم ما جرّمه الشّرع والعقوبة عليه، لذلك يقول سبحانه وتعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾ [فاطر: من الآية ٢٤]، ويقول جلّ جلاله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝١٩﴾ [المائدة]، فانقطعت الحجّة وانتهى الأمر.

وقد وقف العلماء أمام هذه القضيّة فقالوا: إن كانت الحجّة قد قامت على مَن آمن برسالة محمّد ﷺ، فما بال الكافر الّذي لم يؤمن، ولم يعلم منهج الله عزّ وجلّ؟ نقول: لقد عرف الإنسان ربّه سبحانه وتعالى أوّلاً بعقله، وبما ركّبه فيه الخالق سبحانه من ميزانٍ إيمانيّ هو الفطرة، هذه الفطرة هي المسؤولة عن الإيمان، وجاء الرّسل للتّبليغ عن الله سبحانه وتعالى حتّى لا يقولنّ قائل: إنّني لم أهتد بعقلي، والمفروض أنّ العقل يدلّ على وجود الخالق سبحانه وتعالى، فالإنسان بعقله وبفطرته لا بدّ أن يهتدي إلى أنّ للكون خالقاً مُبدعاً، والله سبحانه وتعالى أرسل الرّسل ليقولوا لك ما يريده الخالق سبحانه وتعالى منك أيّها المخلوق.

(الآية ١٦) - ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ۝١٦﴾:

في هذه الآية يعطينا الله سبحانه وتعالى مثالاً لعاقبة الخروج عن منهجه عزّ وجلّ؛ لأنّه سبحانه وتعالى حينما يُرسل رسولاً ليُبلِّغ منهجه إلى خَلْقه، فلا عُذْرَ للخارجين عنه؛ لأنّه منهج من الخالق الرّازق المنعم، الّذي يستحقّ منّا الطّاعة، وكيف يتقلّب الإنسان في نِعَم ربّه سبحانه وتعالى ثمّ يعصيه؟ إنّه رَدٌّ غير لائق للجميل، وإنكار للمعروف الّذي يسوقه الله سبحانه وتعالى إلينا، ولو كان هذا المنهج من عند البشر لكان هناك عُذْرٌ

لِمَنْ خرج عنه، ولذلك يقولون: "من يأكل لقمتي يسمع كلمتي"، والله ﷻ لم يفاجئك بالتّكليف، بل كلّفك في وقَت مناسب، في وقت استوت فيه ملكاتُكَ وقدراتُكَ، وأصبحتَ بالغاً صالحاً لحمل هذا التّكليف، فبعد أنْ مرّ الإنسان بنعم الله ﷻ، وعلم الأوامر والنّواهي من الله ﷻ، جاء التّكليف والتّبليغ عن طريق الرّسل.

وهنا المولى ﷻ يقول: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾، بماذا يأمر الله ﷻ؟ ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ [النّحل: من الآية ٩٠]، فالمعنى: إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ففسقوا؛ أي: خرجوا عن منهج الله ﷻ، ويتبيّن لنا هنا بشكلٍ واضح أنّ الله ﷻ لا يأمر إلّا بالخير، ولا ينهى ﷻ إلّا عن السّوء، وعلى هذا يكون المراد من الآية: أمرنا مترفيها بطاعتنا وبمنهجنا، ولكنّهم خالفوا وعَصَوْا وفسقوا؛ لذلك حَقَّ عليهم العذاب، فالأمر من الله ﷻ هنا مدموجٌ في الآية، فهو يأمر بالعدل والإحسان والخير، وهناك قراءة أخرى من القراءات العشر: (أمّرنا مترفيها)، أي: أنّ المترفين هم الّذين استلموا الإمارة فيها، فحقّ عليها القول.

والأمر: طَلَب من الأعلى، وهو الله ﷻ إلى الأدنى، وهم الخَلْق، طلب منهم الطّاعة والعبادة، فاستغلُّوا فرصة الاختيار ففسقوا وخالفوا أمر الله ﷻ.

﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾: من الخطأ أن نفهم المعنى على أنّ الله ﷻ أراد أوّلاً هلاكهم ففسقوا؛ لأنّ الفهم المستقيم للآية أنّهم فسقوا فأراد الله ﷻ إهلاكهم.

﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ﴾: أي: وجب لها العذاب، كما قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ [يونس: من الآية ٣٣]، وقد أوجب الله عَزَّ وَجَلَّ لها العذاب لتسلَم حركة الحياة.

﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾: أي: خرّبناها، وجعلناها أثراً بعد عَيْن، وليستْ هذه هي الأولى، بل إذا استقرأنا التّاريخ خاصّة تاريخ المعاندين فسوف نجد قرى كثيرة أهلكها الله عَزَّ وَجَلَّ، فلم يبقَ منها إلّا آثاراً شاخصة شاهدة عليهم.

(الآية ١٧) - ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾:

فأيْن عاد وثمود وقوم لوط وقوم صالح؟ فالآية هنا قضيّة قوليّة، لها من الواقع ما يُصدِّقها.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ﴾: دَلَّ على أنّ هذا الأخذ وهذا العذاب لم يحدث فيما قبل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنّ النّاس كانوا قريبي عَهْدٍ بخَلْق الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما أنّه كان يلقّنهم معرفة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى وما يضمن لهم سلامة الحياة، أمّا بعد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد ظهر الفساد والكفر والجحود، فنزل بهم العذاب الّذي لم يسبق له مثيل، قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾ [الفجر]، ولنا وَقْفة سريعة هنا مع هذه الآيات من سورة الفجر، فقد خاطب الحقّ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦﴾، و﴿أَلَمۡ تَرَ﴾: بمعنى: ألم تعلم؛ لأنّ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ير ما

فعله الله عَزَّ وَجَلَّ بعاد، فلماذا عدل السّياق القرآنيّ عن: (تعلم) إلى: ﴿تَرَ﴾؟ قالوا: لأنّ إعلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لرسوله ﷺ أصدق من عينه ورؤيته، ومثلها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل]، حيث وُلِد رسول الله ﷺ في عام الفيل، ولم يكن رأى شيئاً، فإخبار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أصدق من العين.

وفي آيات سورة (الفجر) ما يدلُّنا على أنّ حضارة عاد الّتي لا نكاد نعرف عنها شيئاً كانت أعظمَ من حضارة الفراعنة الّتي لفتتْ أنظار العالم كلّه؛ ذلك لأنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال عن عاد: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾؛ أي: لا مثيلَ لها في حضارات العالم كلّها، في حين قال عن حضارة الفراعنة: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠﴾، مجرّد هذا الوصف فقط.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ﴾: كَمْ: تدلّ على كثرة العدد.

﴿الْقُرُونِ﴾: جمع قرن، وهو في الاصطلاح الزّمنيّ مئة عام، ويُطلَق على القوم المقترنين معاً في الحياة، ولو على مبدأ من المبادئ، وتوارثه النّاس فيما بينهم، وقد يُطلَق القرن على أكثر من مئة عام، كما نقول: قرن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، قرن هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، قرن فرعون؛ أي: الفترة الّتي عاشها.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾: أي: أنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غنيٌّ عن إخبار أحد بذنوب عباده، فهو أعلم بها، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السّماء، فهو جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر]، فلا يحتاج إلى مَنْ يخبره؛ لأنّه خبير وبصير.

وهنا قد يقول قائل: بما أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم كلّ شيء ولا تخفى عليه خافية، فلماذا يسأل النّاس يوم القيامة عن أعمالهم؟

نقول: لأنّ السّؤال يَرِدُ لإحدى فائدتين:

الأولى: كأنْ يسألَ الطّالب أستاذه عن شيءٍ لا يعلمه، فالهدف أنْ يعلم ما جهل.

والأخرى: كأن يسأل الأستاذ تلميذه في الامتحان، لا ليعلم منه، ولكن ليقرّره بما علم.

وهكذا الحقّ سبحانه وتعالى، ولله المثل الأعلى، يسأل عبده يوم القيامة عن أعماله ليقرّره بها، وليجعله شاهداً على نفسه، كما قال جل جلاله: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾: بمعنى الله سبحانه وتعالى يكفيك فلا تحتاج إلى غيره، وقد سبق أنْ أوضحنا أنّ الله عز وجل في يده السّلطات كلّها حينما يقضي: السّلطة التّشريعيّة، والسّلطة القضائيّة، والسّلطة التّنفيذيّة، وهو سبحانه وتعالى غنيٌّ عن الشّهود والبيّنة والدّليل، فكفى به سبحانه وتعالى حاكماً وقاضياً وشاهداً، ولأنّ الله تبارك وتعالى خبيرٌ بصيرٌ بذنوب عباده، فعقابه عَدْلٌ لا ظلمَ فيه.

(الآية ١٨) - ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨﴾:

الحقّ سبحانه وتعالى قبل أن يخلق الإنسان الّذي جعله خليفةً له في أرضه، خلق له الكون كُلّه بما فيه، وخلق له مُقوّمات حياته جميعها، ووالى عليه نِعَمه إيجاداً من عدم، وإمداداً من عُدم، وجعل من مُقوِّمات الحياة ما ينفعل له، كالشّمس والقمر والهواء والمطر... إلخ، ومن مُقوّمات الحياة مَا لا ينفعل له، إلّا إذا تفاعل معها، كالأرض مثلاً لا تعطيه إلّا إذا حرثها، وبذر فيها البذور، فتجدها قد انفعلتْ له، وأعطتْه الإنتاج الوفير.

والمتأمّل في حضارات البشر وارتقاءاتهم في الدّنيا يجدها نتيجة لتفاعل النّاس مع مُقوِّمات الحياة بجوارحهم وطاقاتهم، فتتفاعل معهم مُقوِّمات الحياة، ويحدث التّقدّم والنّهضة والارتقاء.

وقد يرتقي الإنسان ارتقاءً آخر، بأن يستفيد من النّوع الأوّل من مُقوّمات الحياة، الّذي يعطيه دون أنْ يتفاعل معه استفادةً جديدةً، ومن ذلك ما توصّل إليه العلماء من استخدام الطّاقة الشّمسيّة استخدامات جديدة لم تكن موجودة من قبل.

فهذه نواميس وقوانين في الكون، الّذي يُحسِن استعمالها تُعطيه النّتيجة المرجوّة، وبذلك يرتقي بها، وهذا عطاء الرّبوبيّة الّذي يستوي فيه المؤمن والكافر، والطّائع والعاصي، لذلك يقول الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾؛ أي: عطاء الدّنيا ومتعها ورُقيّها وتقدّمها.

﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾: أجبْنَاهُ لما يريد من متاع الدّنيا.

ولا بُدَّ لنا أنْ ننتبه إلى أنّ عطاء الرّبوبيّة الّذي جعله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للمؤمن والكافر، قد يغفل عنه المؤمن فيتكاسل ويترك مُقوّمات الحياة وأسبابها، ويستفيد منها غير المؤمن ويتفاعل معها ويرتقي بها، ويتقدّم على المؤمن، ويمتلك القُوّة ورغيف العيش، بل وجميع متطلّبات الحياة، ومن ثمّ تكون له الكلمة العليا والغلبة والقهر، كما حدث الآن في الأمّة العربيّة والإسلاميّة الّتي تخلّت عن العلم وعن العمل، فلا يمكن أن نأخذ عطاء الألوهيّة من أمرٍ ونهي وتكليف وعبادة، ونغفل عن أسباب الحياة ومُقوّماتها المادّيّة الّتي لا قِوامَ للحياة إلّا بها.

والمؤمن أَوْلَى بمقوّمات الحياة من العلم والعمل والتّقدّم والرّقيّ الّتي جعلها الخالق ﷻ في الكون للجميع، فمن الدّين ألَّا تمكِّن غيرك من السّيطرة على مُقوِّمات حياتك، وألَّا تجعلَهم يتفوّقون عليك لا علماً ولا عملاً.

﴿مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾: أي: أنّ تفاعل الأشياء معك ليس مُطْلقاً، بل للمشيئة تدخُّلٌ في هذه المسألة، فقد تفعل، ولكن لا تأخذ لحكمة ومراد أعلى، فليس الجميع أمام حكمة الله ﷻ سواء، وفي هذا دليلٌ على طلاقة القدرة الإلهيّة.

ومعنى: ﴿مَا نَشَآءُ﴾، للمعجَّل، و﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ للمعجَّل له.

وما دام هذا يريد العاجلة، ويتطلّع إلى رُقيِّ الحياة الدّنيا وزينتها، فالآخرة ليستْ في باله، وليست في حُسْبانه؛ فعليه أن يأخذ من الدّنيا وتكون الآخرة أيضاً في باله، اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنّك تموت غداً.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾: لأنّه لم ينظر إلّا إلى الدّنيا وعطائها، ولم ينظر إلى الآخرة، وكأنّ غاية الإنسان في هذه الحياة فقط الحصول على مُتعها ونعيمها ناسياً التّكليف الإلهيّ والآخرة: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾.

﴿مَذْمُومًا﴾: أي: يذمُّه النّاس، والإنسان لا يُذَمّ إلّا إذا ارتكب شيئاً ما كان يصحّ له أنْ يرتكبه.

﴿مَّدْحُورًا﴾: وبعد أنْ أعطانا الحقّ ﷻ صورة لمن أراد العاجلة وغفل عن الآخرة، وما انتهى إليه من العذاب، يعطينا صورة مقابلة:

(الآية ١٩) - ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ١٩﴾:

المتأمّل في أسلوب القرآن الكريم يجده عادةً يُعطي الصّورة ومقابلها؛ لأنّ الشّيء يزداد وضوحاً بمقابله، والضِّدّ يظهر حُسْنَه الضّدُّ، ونرى هذه المقابلات في مواضع كثيرة من كتاب الله سبحانه وتعالى كما في: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ١٤﴾ [الانفطار]، وهنا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾ في مقابل: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [الإسراء: من الآية ١٨].

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾: أي: أراد ثوابها وعمل لها.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: لأنّ الإيمان شَرْطٌ في قبول العمل، وكُلُّ سعيٍ للإنسان في حركة الحياة لا بُدَّ فيه من الإيمان ومراعاة أوامر الله سبحانه وتعالى لكي يُقبَل العمل، ويأخذ صاحبه الأجر يوم القيامة، فالعامل يأخذ أجره ممَّنْ عمل له، فغير المؤمنين الّذين خدموا البشريّة باختراعاتهم واكتشافاتهم، حينما قدّموا هذه الإنجازات لم يكُنْ في بالهم أبداً العمل لله سبحانه وتعالى، بل للبشريّة وتقدُّمها؛ لذلك أخذوا حقّهم من البشريّة تكريماً وشهرة، فأقاموا لهم الحفلات، وكان لهم الجوائز، وألّفوا فيهم الكتب.. إلخ، فانتهت المسألة: عملوا وأخذوا الأجر ممّن عملوا له، أمّا الّذي يعمل والله عزّ وجلّ في باله يأخذ خير الدّنيا والنّتيجة في الآخرة.

﴿فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾: وهذا جزاء أهل الآخرة الّذين يعملون لها، ومعلومٌ أنّ الشّكر يكون لله سبحانه وتعالى استدراراً لمزيد نِعَمه، كما قال جلّ جلاله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: من الآية ٧]، فالله سبحانه وتعالى يشكر عبده على طاعته بعطائه.

(الآية ٢٠) - ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾:

﴿كُلًّا﴾: أي: كلا الفريقين السّابقين: مَن أراد العاجلة، ومَن أراد الآخرة: ﴿نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾؛ أي: أنّ الله سبحانه وتعالى يمدُّ الجميع بمُقوّمات الحياة، فمنهم مَنْ يستخدم هذه المقوّمات في الطّاعة، ومنهم مَنْ يستخدمها في المعصية، كما لو أعطيتَ لرجلين مالاً، فالأوّل تصدّق بماله، والآخر شرب بماله خمراً أو لعب قماراً، فعطاء الرّبوبيّة مدَدٌ ينال المؤمن والكافر، والطّائع والعاصي، أمّا عطاء الألوهيّة المتمثّل في منهج الله عز وجل: افعل ولا تفعل، هذا حلال وهذا حرام، فهو عطاءٌ خاصٌّ للمؤمنين دون غيرهم.

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾: أي: ممنوعاً عن أحد؛ لأنّ الجميع خَلْقه تعالى، المؤمن وغير المؤمن، وهو الّذي خلقهم واستدعاهم إلى الحياة، وهو سبحانه المتكفِّل لهم بمُقوِّمات حياتهم، كما تستدعي ضيفاً إلى بيتك فعليك أنْ تقومَ له بواجب الضّيافة.

ونلاحظ هنا أنّ الحقّ سبحانه وتعالى اختار التّعبير بقوله: ﴿مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾؛ لأنّ العطاء المراد هنا عطاء ربوبيّة، وهو سبحانه وتعالى ربّ كلّ شيء؛ أي: مُربّيه ومتكفّل به، وشرف كبير أن يُنسبَ العطاء إلى الربّ تبارك وتعالى.

(الآية ٢١) - ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾:

الحقّ سبحانه وتعالى أعطانا قضايا إيمانيّة نظريّة، ويريد مِنّا أنْ ننظر في الطّبيعة والكون، وسوف نجد فيه صِدْق ما قال.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾: والمتأمّل يجد أنّ الله ﷻ جعل التّفضيل هنا عامّاً، فلم يُبيّن مَن المفضَّل ومَنِ المفضَّل عليه، فلم يقُلْ: فضّلتُ الأغنياء على الفقراء، أو: فضّلتُ الأصحّاء على المرضى، فما دام في القضيّة عموم في التّفضيل، فكلٌّ مُفضَّل في جهة، ومُفضّل عليه في جهةٍ أخرى، لكنّ النّاس ينظرون إلى جهةٍ واحدة في التّفضيل، فيفضّلون هذا؛ لأنّه غنيٌّ، وهذا؛ لأنّه صاحب منصب.. إلخ، وهذه نظرةٌ خاطئةٌ، فيجب أن ننظر إلى الإنسان من كُلِّ زوايا الحياة وجوانبها؛ لأنّ الحقّ ﷻ لا يريدنا نماذج مكرّرة، ونُسَخاً مُعَادة، بل يُريدنا أُنَاساً متكاملين في حركة الحياة، ولو أنّ الواحد مِنّا أصبح مَجْمعاً للمواهب ما احتاج فينا أحدٌ إلى أحد، ولتقطّعت بيننا العَلاقات، فمن رحمة الله ﷻ أن جعلك مُفضَّلاً في خَصْلة، وجعل غيرك مُفضَّلاً في خصال كثيرة، فأنت محتاج إلى غيرك فيما فُضِّل فيه، وهم محتاجون إليك فيما فُضِّلْتَ فيه، ومن هنا يحدث التّكامل في المجتمع، وتسلَمْ للنّاس حركة الحياة.

ونستطيع أن نخرج من هذه النّظرة بقضيّة فلسفيّة تقول: إنّ مجموع مواهب كلّ إنسان تساوي مجموع مواهب كلّ إنسان، فإنْ زِدْتَ عنّي في المال فربّما أزيد عنك في الصّحّة، وهكذا تكون المحصّلة النّهائيّة متساوية عند النّاس جميعهم في مواهب الدّنيا، ويكون التّفاضل الحقيقيّ بينهم بالتّقوى والعمل الصّالح، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: من الآية ١٣]، لذلك يجب علينا أن نلتزمَ أدب الدّين في حِفْظ مكانة الآخرين، فمهما كنت مُفضَّلاً فلا تحتقر أحداً، واعلم أنّ لهم أيضاً ما يُفضَّلون به، وسوف يأتي اليوم الّذي تحتاج إليهم فيه.

وبهذا نستطيع أن نفهم قَوْل الحقّ ﷻ: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٣٢﴾ [الزّخرف]، فكلٌّ منا مُسخَّر لخدمة الآخرين فيما فُضِّل فيه، وفيما نبغ فيه. وصدق الشّاعر حين قال:

النَّاسُ لِلناسِ مِنْ بَدْوٍ ومِنْ حَضَرٍ بَعْضٌ لبعْضٍ وإن لم يشعروا خَدَمُ

ففي التّفاضل يجب أن ننظر إلى زوايا الإنسان المختلفة؛ لأنّ الجميع أمام الله ﷻ سواء، وليس مِنّا مَنْ بينه وبين الله ﷻ نَسَبٌ أو قرابة، ولا تجمعنا به سبحانه إلّا صلة العبوديّة له ﷻ، فجميع النّاس أمام عطائه سواء، لا يوجد أحدٌ أَوْلَى من أحدٍ، فالعاقل حين ينظر في الحياة لا ينظر إلى تميُّزه عن غيره كموهبة، بل يأخذ في اعتباره مواهب الآخرين، وأنّه محتاجٌ إليها وبذلك يندكّ غروره، ويعرف مدى حاجته إلى غيره.

﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾: فإنْ كان التّفاضل بين النّاس في الدّنيا قائماً على الأسباب المخلوقة لله ﷻ، فإنّ الأمر مُختلف في الآخرة؛ لأنّها لا تقوم بالأسباب، بل بالمسبّب ﷻ، فالمفاضلة في الآخرة على حسبها، ولو تأمّلنا حال الدّنيا، وقارنّاه بالآخرة لوجدنا الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً، فعمرنا في الدّنيا موقوت، وسينتهي إلى الموت، وعمرنا في الآخرة ممدود ولن ينتهي بالموت، ونعيم الدّنيا عُرْضَة للزّوال، وهو متعرِّض للأغيار، فالغنيّ قد يصير فقيراً، والصّحيح سقيماً، كما أنّ نعيم الدّنيا على قَدْر إمكانيّات النّاس وتفاعلهم مع الأسباب، أمّا في الآخرة فإنّه نعيمٌ دائمٌ وخالد، لا موت فيه ولا فوات لنعمة من النّعم، فأيّهما أفضل؟ لذلك يدعونا الله ﷻ إلى التّفكُّر

والتّعقُّل: ﴿ٱنظُرۡ﴾ أيّ الصّفقتين الرّابحة، فتاجر فيها ولا ترضى بها بديلاً، فالآخرة أعظم وأكبر، ولا وجهَ للمقارنة بين نعيم الدّنيا ونعيم الآخرة، فنعيم الدّنيا ومظاهر الجمال فيها تثير فينا التّرقّب لذلك اليوم الموعود.

(الآية ٢٢) - ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢﴾:

﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾: لأنّه سُبحانَهُ وتَعالَى أعطاك في الدّنيا، وأمدَّك بالأسباب، وبمقوّمات حياتك، أوجدك من عَدَم، وأمدَّك من عُدْمٍ، حتّى وإنْ لم تكن مؤمناً، ثمّ أعدَّ لك في الآخرة الدّرجات العالية والنّعيم المقيم الّذي لا يَفْنى ولا يزول، هذه هي الحيثيّات، ولا تجعل معه جَلَّ جَلالُه إلهاً آخر، فلا تجعل من هواك ومن البشر آلهة تُعبَد.

﴿فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾: لن تجد إلّا المذمّة والخذلان في الدّنيا والآخرة، وسوف تُفَاجَأ في القيامة بربّك الّذي دعاك للإيمان به فكفرْتَ، ساعتها ستندم حين لا ينفعك النّدم، بعد أن ضاعت الفرصة من يديك.

﴿فَتَقۡعُدَ﴾: والقعود ليس أمراً عاديّاً هنا، بل هو أنكى ما يصير إليه الإنسان؛ لأنّ الإنسان لا يقعد إلّا إذا أصبح غيرَ قادر على القيام، ففيها ما يُشعر بإنهاك القوّة، وكأنّه سقط إلى الأرض.

﴿مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾: هذا نتيجة أنّك فضَّلت الحياة الدّنيا على الآخرة، فتقعد مذموماً، وفي مجال الذّمّ قال الشّاعر:

دَعِ المكَـارِمَ لَا تَـرْحَـــلْ لِبُغْيَتِـهَا   وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أنتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

وقوله: ﴿مَذۡمُومٗا﴾؛ لأنّه أتى بعملٍ يذمّه النّاس عليه.

﴿مَّخۡذُولٗا﴾: من الخذلان، وهو عدم النُّصْرة.

(الآية ٢٣) - ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾:

بعد أنْ وجَّهنا الله ﷻ إلى القضيّة العقديّة الكبرى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، أراد ﷻ أنْ يُبيّن لنا أنّ العقيدة والإيمان لا يكتملان إلّا بالعمل، فلا يكفي أن نعرف الله ﷻ ونتوجّه إليه، بل لا بُدَّ أنْ ننظر فيما فرضه علينا، وفيما كلّفنا به؛ لذلك كثيراً ما نجد في آيات القرآن الكريم الجمع بين الإيمان والعمل الصّالح، كما في قوله ﷻ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر]؛ لأنّ فائدة الإيمان وثمرته العمل الصّالح، وما دُمْنا سنسلك هذا الطّريق فعلينا أن نواجه الباطل والفساد والضّلال، وهذه المواجهة أوّل ما تبدأ بالقيم الأخلاقيّة وزرعها في الإنسان، والدّين ليس الإيمان القوليّ فقط، وإنّما هو اعتقادٌ وعملٌ وإثبات لهذا الاعتقاد من خلال العمل، ومن هنا رفض كفّار مكّة الإيمان بإلهٍ واحد، ورفضوا الانقياد لرسول الله ﷺ؛ لأنّه نقل إليهم منهج، هذا المنهج من الله ﷻ، وأوّل القيم الأخلاقيّة والإيمانيّة، وأوّل الأحكام في منهج الله ﷻ:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: وقد آثر الحقّ ﷻ الخطاب بـ ﴿رَبُّكَ﴾ على لفظ (الله)؛ لأنّ الرّبَّ هو الّذي خلقك وربّاك، ووالى عليك نعمه، فهذا اللّفظ أَدْعَى للسّمع والطّاعة، حيث يجب أن يخجل الإنسان من عصيان المُنعِم عليه.

والخطاب هنا مُوجّه إلى النّبيّ محمّد ﷺ؛ لأنّه هو الّذي بلغ المرتبة العليا في الأخلاق والتّربية والأدب، وهي تربية حَقّة؛ لأنّ الله ﷻ هو الّذي ربّاه، وأدّبه أحسن تأديب، قال ﷺ: «أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي»(١).

قضى: معناها: حكم؛ لأنّ القاضي هو الّذي يحكم، ومعناها أيضاً: أمر، وهي هنا جامعة للمعنيَيْن، فقد أمر الله ﷻ ألّا تعبدوا إلّا إيّاه أمراً مؤكّداً، كأنّه قضاء وحكم لازم.

وقد تأتي قضى بمعنى: خلق، كما في قوله ﷻ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصّلت: من الآية ١٢].

وتأتي بمعنى: بلغ مراده من الشّيء، كما في قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: من الآية ٣٧].

وقد تدلّ على انتهاء المدّة كما في قوله ﷻ: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ [القصص: من الآية ٢٩].

وتأتي بمعنى: أراد، كما في قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ [غافر: من الآية ٦٨].

فقضى لها معانٍ مُتعدّدة، لكن تجتمع كلّها لتدلّ على الشّيء اللّازم المؤكّد الّذي لا نقصَ فيه.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: العبادة: هي إطاعة آمر في أمره ونهيه، فننصاع له تنفيذاً للأمر، واجتناباً للنّهي، فهذا هو معنى الطّاعة والعبادة، وليس كعبادة

---

(١) كنز العمّال: كتاب الفضائل، الباب الأوّل: في فضائل نبيّنا محمّد ﷺ وأسمائه وصفاته البشريّة، الفصل الثّالث: في فضائل متفرّقة تنبئ عن التّحدّث بالنّعم، الحديث رقم (٣١٨٩٣).

الأصنام، فالكفّار الّذين عبدوا الأصنام أتوا بها حجارةً من الصّحراء، وأعملوا فيها المعاول والأدوات لينحتوها، وتكسّرت منهم فعالجوها، ووقعت فأقاموها، فهي لا تأمر ولا تنهى، بينما العبادة الحقّة هي أن تطيع المعبود فيما أمر وتنتهي عمّا نهى عنه وزجر.

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، أسلوب يسمّونه أسلوب قَصْر، يُفيد قصر العبادة وإثباتها لله عزّ وجلّ وحده، بحيث لا يشاركه فيها أحد، فلو قالت الآية: (وقضى ربّك أن تعبدوه)، لقال قائل: ونعبد غيره؛ لأنّ باب العطف هنا مفتوحٌ لم يُغْلَق، كما لو قُلْت: ضربتُ فلاناً وفلاناً وفلاناً.. هكذا باستخدام العطف، إنّما لو قلت: ما ضربت إلّا فلاناً، فقد أغلقت باب العطف، فجاء التّعبير بأسلوب القصر ليقول: اقصروا العبادة على الله سبحانه وتعالى وحده، وانفوها عن غيره.

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾: ثمّ ينقلنا الله سبحانه وتعالى إلى التّكليف والأمر الثّاني بعد عبادته، وهنا القضيّة الأخلاقيّة الأولى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، وقد قرن الله سبحانه وتعالى بين عبادته وبين الإحسان إلى الوالدين في آياتٍ كثيرة، قال جلّ جلاله: ﴿۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النّساء: من الآية ٣٦]، وقال عزّ وجلّ: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ﴾ [العنكبوت: من الآية ٨]، لكن، لماذا قرن الله سبحانه وتعالى بين عبادته وبين الإحسان إلى الوالدين؟ كيف نقرّب الأولى بالثّانية، أو نقرّب الثّانية بالأولى؟ نقول: لا مانع أن يكون الأمران معاً؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى هو الخالق الأعلى، والوالدان هما سرّ وجود الإنسان، وهما ربّياه

ووفَّرا له متطلّبات حياته كلّها، وهما مصدر العطف والحنان، فالتّربية والرّعاية في الوالدين مُحسَّة، أمّا التّربية والرّعاية من الله ﷻ فمعقولة، فأَمْرُ الله ﷻ لنا بالإحسان إلى الوالدين دليلٌ على وجوب عبادة الله ﷻ وحده لا شريك له، فهو ﷻ الّذي خلق، وهو سبب وجود الإنسان الأوّل، وهو مُربّيك وصاحب رعايتك، وصاحب الفضل عليك قبل الوالدين، وهل ربّاك الوالدان بما أوجداه هما، أم بما أوجده الله ﷻ؟! فلا بدّ أن يلتحم حَقُّ الله ﷻ بحقِّ الوالدين، وأن نأخذ أحدهما دليلاً على الآخر.

ونلاحظ أنّ الحق ﷻ حين أمرنا بعبادته جاء بأسلوب النّفي: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، يعني نهانا أن نعبد غيره ﷻ، أمّا حين تكلّم عن الوالدين فلم يقل مثلاً: (لا تسيؤوا إلى الوالدين)، فيأتي بأسلوب نفي كسابقه، لماذا؟ قالوا: لأنّ فضل الوالدين واضحٌ لا يحتاج إلى إثبات، ولا يحتاج إلى دليل عقليّ، وقولك: (لا تسيؤوا إلى الوالدين) فيها مَظنَّة الإساءة، وهذا غير وارد في حَقِّهما، وغير مُتَصوَّر منهما، وأنت إذا نفيتَ شيئاً عن مَنْ لا يصحّ أن يُنفَى عنه فقد ذَمَمْته، كأن تنفي عن أحد الصّالحين المشهورين بالتّقوى والورع، تنفي عنه لعب القمار مثلاً، فهل هذا في حقّه مدحٌ أم ذمّ؟! لأنّك ما قلتَ: إنّ فلاناً لا يلعب القمار إلّا إذا كان النّاس تظنّ فيه ذلك، ومن هنا قالوا: نَفْي العيب عَمَّنْ لا يستحقّ العيب عَيْب، فلم يذكر الله ﷻ عقوق الوالدين هنا أو الإساءة لهما؛ لأنّها يجب ألّا تَرِد على البال، ولا يجب أن تُتَصَوَّر من المولود لوالديه.

وبعد ذلك، ومع ما للوالدين من فضل وجميل علينا فلا ننسَ أنّ فضل الله ﷻ علينا أعظم.

﴿إِحۡسَٰنًاۚ﴾: كأنّه قال: أحْسِنوا إليهم إحساناً، فحذف الفعل وأتى بمصدره للتّأكيد، فهذا أمرٌ مطلقٌ ببرّ الوالدين، وقد قال ﷺ: «رِضَا اللهِ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ، وَسَخَطُ اللهِ فِي سَخَطِ الْوَالِدَيْنِ»[1]، ونبيّنا ﷺ عندما سُئِلَ عن البرّ بالأمّ والأب، عندما جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، مَن أحقّ النّاس بحسن صحابتي؟ قال: «أمّك»، قال: ثمّ مَن؟ قال: «ثمّ أمّك»، قال: ثمّ مَن؟ قال: «ثمّ أمّك»، قال: ثمّ مَن؟ قال: «ثمّ أبوك»[2]، أعطى الأمّ الأولويّة بالبرّ؛ لأنّها حملت ووضعت وأرضعت وتعبت وربّت، فكان لها هذا الفضل، وهذا التّكريم، وهذه الأولويّة على الأب، ومع ذلك فإنّ القرآن الكريم يقول: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤﴾ [لقمان: من الآية ١٤]، لم يقرن الله سبحانه وتعالى شكره بشكر مخلوق إلّا بالوالدين، فأيّ إنسان في هذا الجيل أو في أيّ جيل تراه عاقّاً بالوالدين فلا خير فيه لوطنه ولبلده ولمجتمعه، فالّذي لا خير فيه لوالديه لا خير فيه لأحد أبداً، وقد أفاضت كتب السّنّة النّبويّة بالأحاديث الكثيرة عن البرّ والإحسان بالوالدين، هذا الرّابط الأسريّ هو الأساس الّذي تنطلق منه روابط الأسرة كلّها، وهو أغلى ما نملك في مجتمعاتنا العربيّة والإسلاميّة، وهو مُستَهدف من الحضارة الغربيّة الّتي اقتلعت العلاقة ضمن الأسرة اقتلاعاً شديداً، وأودت بالوالدين في غياهب دور المسنّين، بينما عندنا بالإسلام نعلم عن ذلك الشّابّ الّذي كَانَ فِي الطَّوَافِ حَامِلاً أُمَّهُ يَطُوفُ بِهَا فَسَأَلَ النَّبِيّ ﷺ هَلْ أَدَّيْتُ حَقَّهَا؟

(١) شعب الإيمان: برّ الوالدين، الحديث رقم (٧٤٤٦).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب الأدب، باب من أحقّ النّاس بحسن الصّحبة، الحديث رقم (٥٦٢٦).

قَالَ: «لا، ولاَ بِزَفْرَةٍ وَاحِدَةٍ»[1]، ما هذا الإسلام العظيم؟! فالبرّ بالوالدين أساس القيم الأخلاقيّة كلّها، وهو الرّابط بعد ذلك لصلة الرّحم مع الأخوة والأخوات، وهو الرّابط لحفظ حقوق الأسرة، وضمان سلامتها ومتانة تربيتها، فإذا فقدنا هذا الأساس فقدنا تكوين الأسرة كلّها، لذلك نجد أنّ الله ﷻ أتبع هذه الآية بصورة، ليست الصّورة العاديّة، وإنّما أصعب صورة تُستَخدم اليوم في الغرب:

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾: هنا يوصينا بالوالدين، فمرّة تأتي الوصية على إطلاقها، كما قال ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ﴾ [الأحقاف: من الآية ١٤]، ومرّة يُعلِّل لهذه الوصية، فيقول: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: من الآية ١٤]، والّذي يتأمّل الآيتين السّابقتين يجد أنّ الحقّ ﷻ ذكر العِلّة في بِرِّ الوالدين، والحيثيّات الّتي استوجبت هذا البِرّ، لكنّها خاصّة بالأمّ، ولم تتحدّث أبداً عن الأب، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: من الآية ١٤]، فأين دَوْر الأب؟ وأين مجهوده طوال سنين تربية الأبناء؟ المتتبّع لآيات برّ الوالدين يجد حيثيّة مُجْملة ذكرت دور الأب والأمّ معاً في قوله ﷻ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: من الآية ٢٤]، لكن قبل أن يُربّي الأب، وقبل أن يبدأ دوره كان للأمّ الدّور الأكبر؛ لذلك حينما تخاصم الأب والأمّ لدى القاضي على ولد لهما، قالت الأمّ: لقد حمله خِفّاً وحملتُه ثقلاً، ووضعه شهوة ووضعتُه كُرهاً، لذلك ذكر القرآن الكريم الحيثيّات الخاصّة بالأمّ؛ لأنّها تحمّلتها وحدها لم

---

(١) مسند البزّار: مُسْنَدُ بُرَيدة بْنِ الحُصَيْبِ ﷺ، الحديث رقم (٤٣٨٠).

يشاركها فيها الزّوج؛ ولأنّها حيثيّات سابقة لإدراك الابن فلم يشعر بها، فكأنّه ﷻ أراد أنْ يُذكّرنا بفضل الأمّهات الّذي لم ندركه ولم نُحِسّ به ونحن في أرحامهنّ، وذلك على خلاف دور الأب فهو محسوسٌ ومعروف للابن، فالأب هو الّذي يوفّر له ما يحتاج إليه كلّه، وهو الّذي يُعطي الولد كلّما طلب.

وهنا أوصتْ الآية الكريمة بالوالدين في حال الكِبَر، فلماذا خَصَّتْ هذه الحال دون غيرها؟ قالوا: لأنّ الوالدين حال شبابهما وقُوّتهما ليسا مظنّة الإهانة والإهمال، ولا مجال للتّأفّف والتّضجُّر منهما، فأنت في حاجتهما، فهما في حال القوّة والقدرة على مواجهة الحياة، بل العكس هو الصّحيح نرى الأولاد في هذه الحال يتقرّبون للآباء والأمّهات، ويتمنّون رضاهما، لينالوا من خيرهما، لكنّ حالة الكِبَر، ومظهر الشّيخوخة هو مظهر الإعالة والحاجة والضّعف، فبعد أنْ كان مُعْطياً أصبح آخذاً، وبعد أنْ كان عَائِلاً أصبح عالة، لذلك، فالنّبيّ ﷺ في حديث الآمينات والمراغم، وكان على المنبر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعِدَ الْمِنبَرَ، فَقَالَ: «آمِينَ آمِينَ آمِينَ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ حِينَ صَعِدْتَ الْمِنْبَرَ قُلْتَ: آمِينَ آمِينَ آمِينَ، قَالَ: **«إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي، فَقَالَ: مَنْ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، وَمَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَبَرَّهُمَا، فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، وَمَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ»**[1]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه

---

(١) صحيح ابن حبّان: باب الأدعية، ذِكْرُ رَجَاءِ دُخُولِ الجِنَانِ الْمُصَلِّي عَلَى الْمُصْطَفَى ﷺ عِنْدَ ذِكْرِهِ مَعَ خَوْفِ دُخُولِ النِّيرانِ عِنْدَ إِغْضَائِهِ عَنْهُ كُلَّمَا ذَكَرَهُ، الحديث رقم (٩٠٧).

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ»، قِيلَ: مَنْ، يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ عِنْدَ الكِبَرِ، أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا، ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ»(١)، فخصَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حال الكِبَر، فقال جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ﴾: عندك وليس بدار العجزة، وليس وحدهم في بيوتهم، بل عندك بالبيت مع زوجتك وأولادك، حال الكبر؛ لأنّه حال الحاجة وحال الضّعف؛ لذلك قال أحد الفلاسفة: خَيْر الزّواج مبكّره، فلمّا سُئِل قال: لأنّه الطّريق الوحيد لإنجاب ولد يعولك في طفولة شيخوختك، وشبَّه الشّيخوخة بالطّفولة؛ لأنّ كليهما في حال ضعف وحاجة إلى الرّعاية والاهتمام، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾ [الرّوم: من الآية ٥٤].

وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ﴾، لم تَأْتِ صِفَة الكِبَر على إطلاقها، بل قيّدها بقوله: ﴿عِندَكَ﴾، فالمعنى: ليس لهما أحد غَيرك يرعاهما، لا أخ ولا أخت ولا قريب يقوم بهذه المهمّة، وما دام لم يَعُدْ لهما غيرك فلتكُنْ على مستوى المسؤوليّة، ولا تتنصَّل منها؛ لأنّك أَوْلى النّاس بوالديك، ويمتدّ البِرُّ بالوالدين إلى ما بعد الحياة بالاستغفار لهما، وإنجاز ما أحدثاه من عهد، ولم يتمكّنا من الوفاء به، وكذلك أن نصِلَ الرّحم الّتي لا تُوصَل إلّا بهما من قرابة الأب والأمّ، ونَصِلَ كذلك أصدقاءهما وأحبابهما ونُودَّهم.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، بَابُ رَغِمَ أَنْفُ مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا عِنْدَ الكِبَرِ فَلَمْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ، الحديث رقم (٢٥٥١).

وانظر إلى سُمُوّ هذا الخُلُق الإسلاميّ، وانظروا إلى هذه المعاملة وهذه العظمة، فعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ ﵄، قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: «نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ»(١)، بل وأكثر من ذلك، إنْ كان الوالدان كافرين ليس ذلك فحسب، بل ويدعوان الابن إلى الكفر، ويجاهدانه عليه، ومع هذا كلّه يقول الحقّ ﷻ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: من الآية ١٥]، فهذه ارتقاءات ببرّ الوالدين تُوَضِّح عظمة هذا الدّين ورحمة الخالق ﷻ بالوالدين حتّى في حال كفرهما، ويُرْوَى أنّ خليل الله إبراهيم ﵇ جاءه ضيف بليل، وأراد أن ينزل في ضيافته، فسأله إبراهيم ﵇ عن دينه، فقال: مجوسيّ، فأعرض عنه وتركه يذهب، فَسرْعان ما أوحى الله ﷻ إلى إبراهيم ﵇ مُعاتباً إيّاه في أمر هذا الضّيف: يا إبراهيم، لقد وَسعْتُه في ملكي أعواماً عديدة، أطعمه وأسقيه وأكسوه وهو كافرٌ بي، وأنت تُعرض عنه وتريد أنْ تُغيّر دينه من أجل ليلة يبيتها عندك؟!، فأسرع الخليل خلف الضّيف حتّى لحق به، وحكى له ما حدث، فقال الرّجل: نِعْم الرّبّ ربٌّ يُعَاتب أحبابه في أعدائه، وشهد أن لا إله إلّا الله، وأنَّ إبراهيم رسول الله.

وقد رأى المستشرقون لضيق أُفُقهم وقلّة فقْههم لأسلوب القرآن الكريم تناقضاً بين قوله ﷻ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: من الآية ١٥]، وبين قوله ﷻ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الهبة وفضلها والتّحريض عليها، باب الهدية للمشركين، الحديث رقم (٢٦٢٠).

﴿كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ [المجادلة: من الآية ٢٢]، فكيف يأمر القرآن الكريم بمصاحبة الوالدين وتقديم المعروف لهما، في حين ينهى عن مودّة مَنْ حَادّ الله ورسوله؟! ولو فَهِم هؤلاء مُعْطيات الأسلوب العربيّ الّذي جاء به القرآن الكريم لعلموا أنّ المعروف غير الودّ؛ لأنّ المعروف يصنعه الإنسان مع من يحبّ، ومع مَن يكره، مع المؤمن ومع الكافر، تُطعمه إذا جاع، وتسقيه إذا عطش، وتستره إنْ كان عرياناً، أمّا المودّة فلا تكون إلّا لِمَنْ تحبّ؛ لأنّها عملٌ قلبيّ.

وقوله ﷻ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾: هذا توجيهٌ وأدبٌ إلهيّ يُراعي الحالة النّفسيّة للوالدين حال كِبَرهما، قال الإمام عليّ كرّم الله وجهه: "لو علم الله كلمةً أدنى من الأفّ لنهى عنها، فليعمل العاقّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنّة، وليعمل البارّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل النّار"، ونصيحة للأبناء أن يكونوا على قدر من الأدب والرِّفْق في التّعامل مع الوالدين في مثل هذا السّنّ، هذا الوالد الّذي كان يعطيك ويُنفِق عليك أصبح الآن مُحتاجاً إليك، بعد أنْ كان قويّاً قادراً على السّعي والعمل أصبح الآن قعيدَ البيت أو طريحَ الفراش، فهو في وَضْعٍ يحتاج إلى يقظةٍ ولباقة وسياسة عالية، حتّى لا نجرح مشاعره وهي مُرْهفة في هذا الحال.

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾: وهي لفظة بسيطة أقلّ ما يقال، وهذه لفظة قَسْريّة تخرج من صاحبها قهراً دون أن تمرّ على العقل والتّفكير، وكثيراً ما نقولها عند الضّيق والتّبرُّم من شيء، فالحقّ ﷻ يمنعك من هذا التّعبير القَسْريّ، وليس الأمر الاختياريّ.

﴿أُفٍّ﴾: اسم فعل مضارع، بمعنى: أتضجّر، وهذه الكلمة تدلّ على انفعالٍ طبيعيّ، ولكن الحقّ ﷻ يُحذِّرنا منها، ويأمرنا بأن نتمالكَ مشاعرنا، ونتحكّم في عواطفنا، ولا ننطق بهذه اللّفظة لأمّهاتنا وآبائنا، ثمّ أكّد هذا التّوجيه بقوله:

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾: والنَّهر هو الزَّجْر بقسوة، وهو انفعال تَالٍ للتّضجُّر وأشدّ منه قسوة، وكثيراً ما نرى مثل هذه المواقف في الحياة، فلو تصوَّرنا الابن يعطي والده كوباً من الشّاي مثلاً فارتعشت يد الوالد فأوقع الكوب فوق سجّادة ولده الفاخرة، وسريعاً ما يتأفّف الابن، ثمّ يقول للوالد من عبارات التّأنيب ما يؤلمه ويجرح مشاعره، فكُنْ على حذر من التّأفّف، ومن أن تنهر والديك، كُنْ على حذر من هذه الألفاظ الّتي تسبق إلى اللّسان دون فِكْر، ودون تعقّل، ثمّ بعد هذا النّهي المؤكّد يأتي أمرٌ جديد ليؤكّد النّهي السّابق:

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾: وفي هذا المقام تُرْوَى قصّة الشّابّ الّذي أوقع أبوه إناء الطّعام على ثيابه، فأخذ الولد يلعق الطّعام الّذي وقع على ثوبه وهو يقول لوالده: أطعمك الله كما أطعمتني، فحوّل الإساءة إلى جميل يُحمَد عليه.

والآخر الّذي ذهب يتمرّغ تحت أقدام أمّه، فقالت له: كفى يا بنيّ، فقال: إنْ كنتِ تُحبِّيني حقّاً فلا تمنعيني من عملٍ يُدخِلني الجنّة.

والقول الكريم هنا نوعٌ من التّصرُّف واللّباقة في معاملة الوالدين خاصّة حال الشّيخوخة الّتي قد تُقعِد صاحبها، أو المرض الّذي يحتاج إلى مساعدة، والأولاد هم أَوْلَى النّاس بإعالة الوالدين في هذه الظّروف، حيث سيبدو من الإنسان مَا لا يصحّ الاطّلاع عليه إلّا لأولاده وأقرب النّاس إليه، فالأولاد هم المسؤولون، وليس أحد سواهما، فليتمرّغوا في الجنّة بخدمة والديهما، وليأخذوا ما يريدونه من أولادهم بعد وفاة والديهما.

ثمّ يرشدنا الحقّ سبحانه وتعالى إلى حسن معاملة الوالدين، فيقول:

(الآية ٢٤) - ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾:

هناك فرقٌ كبير بين عقوق الوالدين وبين برّ الوالدين، والله سبحانه وتعالى لم يذكر أبداً في أيّ آية: ولا تعقّوا الوالدين، وإنّما كان يقول: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾.

﴿وَٱخۡفِضۡ﴾: الخفْض: ضد الرّفْع.

﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾: الطّائر معروف أنّه يرفع جناحه ويُرفْرِف به، إنْ أراد أن يطير، ويخفضه إنْ أراد أن يحنوَ على صغاره، ويحتضنهم ويغذّيهم.

وهذه صورة مُحسَّة لنا، يدعونا الله سبحانه وتعالى أن نقتدي بها، وأن نعامل الوالدين هذه المعاملة، فنحنو عليهم، ونخفض لهم الجناح، كنايةً عن الطّاعة والحنان والتّواضع لهما، وهما في حالة الحاجة والكبر، وإيّاك أن تكون كالطّائر الّذي يرفع جناحيه ليطير بهما مُتعالياً على غيره، وكثيراً ما يُعطينا الشّرع الحكيم أمثلة ونماذج للرّأفة والرّحمة في الطّيور، ويجعلها قدوة لنا بني البشر، ومَنْ يرى الطّائر يحتضن صغاره تحت جناحه، ويأتي إليهم بالغذاء يرى عجباً، فالصّغار لا يقدرون على مضغ الطّعام وتكسيره، وليس لديهم اللّعاب الّذي يساعدهم على أنْ يزدردوا الطّعام، فيقوم الوالدان بهذه المهمّة، ثمّ يناولانهم غذاءهم جاهزاً يسهل بَلْعه، وإنْ تيسّر لنا رؤية هذا المنظر فسوف نرى الطّائر وفراخه كيف يكونون في فرحة وسعادة.

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾، كناية عن الخضوع والتّواضع، والذُّلّ قد يأتي بمعنى القهر والغلبة، وقد يأتي بمعنى العطف والرّحمة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: من الآية ٥٤]، فلو كانت الذلّة هنا بمعنى القهر لقال: أذلّة للمؤمنين، ولكن المعنى: عطوفين على المؤمنين، وفي المقابل: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: من الآية ٥٤]؛ أي: أقوياء عليهم قاهرين لهم، وفي آيةٍ أخرى يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ [الفتح: من الآية ٢٩]؛ لأنّ الخالق سبحانه وتعالى لم يخلق الإنسان رحيماً على الإطلاق ولا شديداً على الإطلاق، بل خلق في المؤمن مرونة تمكِّنه أن يتكيّف تبعاً للمواقف الّتي يمرّ بها، أمّا ما يتعلّق بالوالدين، فعلى الصّعد كلّها وفي كلّ سبيل وفي كلّ أمر: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾، فجناح الذّلّ هذا من الرّحمة الّتي زرعها الله سبحانه وتعالى في قلوب البشر، وهي رقّة في القلب، وعطاء في الوجدان، والرّحمة ليست كما يعتقد بعضهم بأنّها كلام يُعبَّر عنه باللّسان، وإنّما هي شعور الأب والأمّ من الدّاخل بالرّضى عن الأولاد، فالذّلَّة هنا ذِلَّة تواضع ورحمة بالوالدين، ولكن رحمة الولد لا تكفي، فلا نستطيع أن نؤدّي لوالدينا حقّهم علينا، فعلينا أن نطلب لهما الرّحمة الكبرى من الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾؛ لأنّ رحمتك بهما لا تَفي بما قدّموه لك، ولن تردّ لهما الجميل، وليس البادئ كالمكافئ، فهم أحسنوا إليك بداية وأنت أحسنتَ إليهما ردّاً؛ لذلك ادْعُ الله سبحانه وتعالى أنْ يرحمهما، وأنْ يتكفّل جلّ جلاله عنك بردّ الجميل، وأن يرحمهما رحمة تكافئ إحسانهما إليك.

﴿كَمَا﴾: قد تفيد التّشبيه، فيكون المعنى: ارحمهما رحمة مثل رحمتهما بك حين ربّياك صغيراً، أو تفيد التّعليل؛ أي: ارحمهما؛ لأنّهما ربّياك صغيراً، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: من الآية ١٩٨].

﴿رَبَّيَانِي﴾: هذه الكلمة أدخلت كلّ مُربٍّ للإنسان في هذا الحكم، وإنْ لم يكُنْ من الوالدين؛ لأنّ الولد قد يُربّيه غير والديه لأيِّ ظرف من الظّروف، والحكم يدور مع العلّة وجوداً وعَدماً، فإنْ ربّاك غير والديك فلهما ما للوالدين من البرِّ والإحسان وحُسْن المعاملة والدّعاء، وهذه بشرى لمن رَبَّى غير ولده، ولا سيما إنْ كان المربَّى يتيماً، أو في حكم اليتيم، وفي قوله: ﴿رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ اعترافٌ من الابن بما للوالدين من فضلٍ عليه وجميل يستحقّ الرّدّ.

وبعد ذلك يأتي الله سبحانه وتعالى في تذييل هذا الحكم بقضيّة تشترك فيها معاملة الابن لأبويه مع معاملته لربّه عزّ وجلّ، فقال سبحانه وتعالى:

(الآية ٢٥) - ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ۝٢٥﴾:

وقد سبق أنْ تكلّمنا عن الإيمان والنّفاق، وقلنا: إنّ المؤمن منطقيّ مع نفسه؛ لأنّه آمن بقلبه ولسانه، وأنّ الكافر كذلك منطقيّ؛ لأنّه كفر بقلبه ولسانه، أمّا المنافق فغير منطقيّ مع نفسه؛ لأنّه آمن بلسانه وجحد بقلبه.

وهذه الآية تدعونا إلى الحديث عن النّفاق؛ لأنّه ظاهرة من الظّواهر المصاحبة للإيمان بالله عزّ وجلّ، وكما نعلم فإنّ النّفاق لم يظهر في مكّة الّتي صادمتْ الإسلام وعاندته، وضيّقتْ عليه، بل ظهر في المدينة الّتي احتضنتْ الدّين، وانساحت به في شتّى بقاع الأرض، فظهر النّفاق إلى جانب الإيمان؛ لأنّ الإنسان لا يُنافِق إلّا القويّ، والإسلام في مكّة كان ضعيفاً، فكان الكفّار يُجابهونه ولا ينافقونه، فلمّا تحوّل إلى المدينة اشتدّ عوده، وقويتْ شوكته وبدأ ضِعَاف النّفوس ينافقون المؤمنين.

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾: حتّى في التّعامل مع الوالدين، فعندما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾، فالله سبحانه وتعالى يعلم ما في نفسك، هل هو نفاقٌ أو أنّه صادرٌ عن إيمان وقلب ويقين والتزام بأمر الله عز وجل وعن صحّة إيمان؛ لأنّ الإنسان أوّلاً وأخيراً يمتثل لأمر خالقه ربّ العالمين، فالعلاقة فيما يتعلّق بالبرّ بالوالدين والإحسان لهما مرتبطة بأوامر الله جل جلاله، وبرّ الوالدين يُحاسب عليه الله عز وجل، فنرى من الأبناء مَنْ يبرّ أبويْه نفاقاً وسُمْعةً ورياءً، لا إخلاصاً لهما، أو اعترافاً بفضلهما، أو حِرْصاً عليهما، لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾، وجاء الخطاب بصيغة الجمع: ﴿رَّبُّكُمۡ﴾؛ أي: ربّ الابن، وربّ الأبوين؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى عندما يُدافع عن الأب والأمّ يُدافع عن الابن أيضاً، حتّى لا يقعَ فيما لا تُحمد عُقباه.

﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾؛ أيْ: إن توفّر فيكم شَرْط الصّلاح، فسوف يُجازيكم عليه الجزاء الأوفى، وإنْ كان غَيْر ذلك وكنتم في أنفسكم غير صالحين غير مخلصين، فارجعوا من قريب، ولا تستمرّوا في عدم الصّلاح، بل عودوا إلى الله سبحانه وتعالى وتوبوا إليه.

﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾: والأوّابون هم الّذين اعترفوا بذنوبهم، ورجعوا تائبين إلى ربّهم، وقد سبق أنْ أوضحنا أنّ مشروعيّة التّوبة من الله سبحانه وتعالى للمذنبين رحمةٌ من الخالق بالخلق؛ لأنّ العبد إذا ارتكب سيّئة في غفلة من دينه أو ضميره، ولم يُشرّع الله جل جلاله لها توبة لوجدنا هذه السّيّئة الواحدة تطارده، ويشقى بها طِوَال حياته، بل وتدعوه إلى سيّئة أخرى، وهكذا يشقى به المجتمع، لذلك شرع الخالقُ سبحانه وتعالى التّوبة ليحفظ سلامة المجتمع وأَمْنه.

ثمّ يُوسّع القرآن الكريم دائرة القرابة القريبة وهي: (الوالدان) إلى دائرة أوسع منها، فبعد أنْ حنَّن الإنسان على والديه لفتَ نظره إلى ما يتّصل بهما من قرابة، فقال ﷻ:

(الآية ٢٦) - ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦﴾:

الحقّ ﷻ صعَّد المسألة هنا فحنَّن الإنسان على قرابة أبيه وقرابة أمّه، فقال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾.

﴿حَقَّهُۥ﴾: لأنّ الله ﷻ جعله حَقّاً للأقارب إنْ كانوا في حاجة، وإلّا فلو كانوا غير محتاجين، فالعطاء بينهما هديّة متبادلة، فكلّ قريب يُهادي أقرباءه ويهادونه، والحقّ ﷻ يريد أن يُشيعَ في المجتمع روح التّكافل الاجتماعيّ، لذلك كان بعض فقهاء الأندلس إذا منع الرّجل زكاةً تقرُب من النِّصاب يعدّونه كأنّه سارق؛ لأنّ الله ﷻ أسماه: (حقّاً) فَمْن منع صاحب الحقّ من حقّه، فكأنّه سرقه منه، وقد سلك فقهاء الأندلس هذا المسلك؛ لأنّهم في بلاد ترف وغنى، فتشدّدوا في هذه المسألة؛ لأنّه لا عُذْر لأحدٍ في ألّا يُخرِج الزكاة، لذلك، لمّا جاء أحد خلفائهم إلى المنذر بن سعيد، وقال: لقد حلفت يميناً، وأرى أن أُكفِّر عنه فأفتاه بأن يصوم ثلاثة أيّام، فقال أحدهم: لقد ضيّقتَ واسعاً، فقد شرع الله ﷻ للكفّارة أيضاً إطعامَ عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، فردّ عليه المنذر قائلاً: أوَ مثلُ أمير المؤمنين يُزْجَر بإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم؟ إنّه يفعل ذلك في اليوم لألْف وأكثر، وإنّما يزجره الصّوم، وهكذا أخذوا الحكم بالرّوح لا بالنّصّ؛ ليتناسب مع قدرة الخليفة، ويُؤثِّر في رَدْعه وزَجْره.

وكلمة (حقّ) وردت في القرآن الكريم على معنيين:

الحقّ الأوّل: في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤﴾ [المعارج: من الآية ٢٤]، والحقّ المعلوم هو الزكاة.

أمّا الحقّ الآخر: فحقٌّ غير معلوم وغير موصوف، وهو التّطوّع والإحسان، حيث يتطوّع الإنسان لله سبحانه وتعالى بجنس ما فرضه عليك، كما قال جلّ جلاله: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذّاريات]، ولم يقل: (حقّ معلوم)؛ لأنّه إحسان وزيادة عَمَّا فرضه الله سبحانه وتعالى علينا.

ويجب على من يُؤْتِى هذا الحقّ أن يكون سعيداً به، وأن يعدّه مَغْنماً لا مَغْرماً؛ لأنّ الدّنيا كما نعلم أغيار تتحوّل وتتقلّب بأهلها، فالصّحيح قد يصير سقيماً، والغنيّ قد يصير فقيراً.. وهكذا، فإعطاؤك اليوم ضمانٌ لك في المستقبل، وضمان لأولادك من بعدك، والحقّ الّذي تعطيه اليوم هو ذاته الّذي قد تحتاجه غداً، إنْ دارتْ عليك الدّائرة، فالحقّ الّذي تدفعه اليوم لأصحابه تأمين لك في المستقبل يجعلك تجابه الحياة بقوّة، وتجابه الحياة بغير خور وبغير ضعف، وتعلم أنّ حقّك محفوظٌ في المجتمع، وكذلك إنْ تركتَ أولادك في عوزٍ وحاجة، فالمجتمع مُتكفِّل بهم، وصدق الله سبحانه وتعالى حين قال: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ٩﴾ [النّساء]، ولذلك، فالنّاس أصحاب الارتقاء والإثراء لورعهم لا يعطون الأقارب من أموال الزكاة، بل يخصُّون بها الفقراء الأباعد عنهم، ويُعْطون الأقارب من ماله الخاصّ مساعدة وإحساناً.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾: وليس الحقّ فقط هو حقّ المال، بل هو حقّ صلة الرّحم، حقّ العلاقات.

﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ﴾: هو الّذي يملك وله مال، لكن لا يكفيه، بدليل قول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الكهف: من الآية ٧٩]، أمّا الفقير فهو الّذي لا يملك شيئاً.

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: السّبيل هو الطّريق، والإنسان عادةً يُنْسَب إلى بلده، فنقول: ابن دمشق، ابن طرطوس، ابن حمص...، فإنْ كان منقطعاً في الطّريق وطرأ عليه من الظّروف ما أحوجه إلى العون والمساعدة، وإن كان في الحقيقة صاحب يسارٍ وَغِنىً، كأن ضيّع ماله فله حَقٌّ في مال المسلمين بقدر ما يُوصله إلى بلده، وابن السّبيل إذا طلب المساعدة لا نسأله عن حاله؛ لأنّ له حقّاً واجباً فلا نجعله في وضع مذلّة أو حرج.

﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾: كما قال سُبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١﴾ [الأنعام: من الآية ١٤١]، فالتّبذير هو الإسراف، مأخوذ من البذر، وهو عمليّة يقوم بها الفلّاح فيأخذ البذور الّتي يريد زراعتها، وينثرها بيده في أرضه، فإذا كان مُتقِناً لهذه العمليّة تجده يبذر البذور بنسب متساوية، بحيث يوزّع البذور على المساحة المراد زراعتها، وتكون المسافة بين البذور متساوية، وبذلك يفلح الزرّع ويعطي المحصول المرجو منه، أمّا إنْ بذرَ البذور بطريقة عشوائيّة وبدون نظام نجد البذور على مسافات غير متناسبة، فهي كثيرة في مكان، وقليلة في مكان آخر، وهذا ما نُسمِّيه تبذيراً؛ لأنّه يضع الحبوب في موضع غير مناسب؛ فهي قليلة في مكان مزدحمة في آخر فَيصعب

نموّها، فالحقّ ﷻ آثر التّعبير عن الإسراف بلفظ: (التّبذير)؛ لأنّه يضع المال في غير موضعه المناسب، وينفق هكذا كلّما اتّفق دون نظام، فقد يعطي بسخاء في غير ما يلزم، في حين يمسك في الشّيء الضّروريّ.

فالتّبذير: صَرْف المال في غير حِلِّه، أو في غير حاجة، أو ضرورة.

والنّهي عن التّبذير هنا قد يُراد منه النّهي عن التّبذير في الإيتاء، يعني حينما تعطي حَقّ الزكاة، فلا تعطي وتزيد في عطائك، من أجل ثناء النّاس وشكرهم.

وقد يكون المعنى: أعْطِ ذا القربى والمساكين وابن السّبيل، ولكن لا تُبذِّر في الأمور الأخرى، فالنّهي هنا لا يعود إلى الإيتاء، بل إلى الأمور التّافهة الّتي يُنفَق فيها المال في غير ضرورة.

(الآية ٢٧) - ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾:

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ﴾: كلمة (أخ) تُجمع على إخْوة وإخْوان.

إخوة: تدلّ على أُخوّة النّسب، كما في قوله ﷻ: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: من الآية ٥٨]، وتدلّ أيضاً على أخوّة الخير والورع والتّقوى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: من الآية ١٠]، ومنها قوله ﷻ عن السّيّدة مريم: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: من الآية ٢٨]، والمقصود: هارون أخو موسى عليه السلام، وبينهما زمنٌ طويل يقارب أحد عشر جيلاً، ومع ذلك سمّاهما القرآن الكريم إخوة؛ أي: أخوّة الورع والتّقوى.

أمّا: إخوان: فتدلّ على أنّ قوماً اجتمعوا على مبدأ واحد، خيراً كان أم شرّاً، فتدلّ على الاجتماع في الخير، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: من الآية ١٠٣]، وقد تدلّ على الاجتماع في الشرّ، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، فكأنّ المبذّرين اجتمعوا مع الشّياطين في هويّةٍ واحدة، ووُدٍّ واحد، وانتظمتهما صفاتٌ واحدةٌ من الشّرّ.

فكلمة (إخْوَة) تدلّ على أُخُوّة النّسب، وقد تتسامى لتدلّ على أُخوّة الإيمان، أمّا الإخوان فقد تأتي في غير طاعة الله سبحانه وتعالى كالتّبذير: ﴿إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، أو أن تأتي في الخير كما ذكرنا.

فالله سبحانه وتعالى جعلهما شركاء في صفة واحدة مع الشّياطين، هي التّبذير والإسراف، فإنْ كان المبذّر قد أسرف في الإنفاق ووَضْعِ المال في غير حِلّه وفي غير ضرورة، فإنّ الشّيطانَ أسرف في المعصية، فلم يكتفِ بأن يكون عاصياً في ذاته، بل عدّى المعصية إلى غيره وأغوى بها وزيّنها؛ لذلك وصفه الحقّ سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾، ليس كافراً فحسب، بل ﴿كَفُورًا﴾ وهي صيغة مبالغة من الكفر؛ لأنّه كَفر وعمل على تكفير غيره.

(الآية ٢٨) - ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾:

أي: إمّا تُعرضنّ عنهم خجلاً وحياءً أنْ تواجههم، وليس عندك ما يسدُّ حاجتهم، فأنت في هذا الحال تلجأ إلى الله سبحانه وتعالى أنْ يرحمك رحمةً تسعك وتسعهم.

﴿فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا﴾: كما قال ﷻ في موضعٍ آخر في مثل هذا الموقف: ﴿۞قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ﴾ [البقرة: من الآية ٢٦٣]، فحتّى في حال المنع يجب على الإنسان أن يلتزم الأدب، ولا يجرح مشاعر السّائل، وأنْ يردّه بلين ورِفْق، وأنْ يُظهر له الحياء والخجل، وألّا يتكبّر أو يتعالى عليه، وأن يتذكّر نعمة الله ﷻ عليه بأنْ جعله مسؤولاً لا سائلاً، فالعبارات والأعمال الصّالحة في مثل هذا الموقف لا يكفي فيها أن تقول: ليس عندي، فقد يتّهمك السّائل بالتّعالي عليه، أو بعدم الاهتمام به، والاستغناء عنه، وهنا يأتي دور الارتقاءات الإيمانيّة والأريحيّة للنّفس البشريّة الّتي تسمو بصاحبها إلى أعلى المراتب، ولنتأمّل هذا الارتقاء الإيمانيّ في قوله ﷻ عن أصحاب الأعذار: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ٩٢﴾ [التّوبة]، هذه حكاية بعض الصّحابة الّذين أتوا رسول الله ﷺ ليخرجوا معه إلى الجهاد، ويضعوا أنفسهم تحت أمره وتصرّفه، فإذا برسول الله ﷺ يعتذر لهم، فليس لديه من الرّكائب ما يحملهم عليه، فماذا كان من هؤلاء النّفر المؤمنين؟ هل انصرفوا ولسان حالهم يقول: لقد فعلنا ما علينا، ويفرحون بما انتهوا إليه؟! لا، بل: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ٩٢﴾ [التّوبة: من الآية ٩٢]، وهكذا يرتقي الإيمان بأهله، ويسمو بأصحابه، فإذا لم يقدروا على الأعمال النّزوعيّة، فالأعمال القوليّة، فإذا لم يقدروا على هذه أيضاً فلا أقلّ من الانفعال العاطفيّ المعبِّر عن حقيقة الإيمان الّذي يفيض دمع الحزْن لضيق ذات اليد، وهنا يقول المولى ﷻ: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ٢ وَلَا يَحُضُّ

عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝٣ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون]، وهنا أيّها الإخوة الكرام لا بدّ لنا من أن نقف عند موضوع مهمّ، في سورة البلد يقول الله ﷻ: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ۝١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝١٨﴾ [البلد]، الحقيقة يُسارع كثيرٌ منّا، وفي العالم الإسلاميّ مجملاً، إلى أداء الفروض الدّينيّة كالصّلاة خمس مرّات يوميّاً وصوم شهر رمضان والسّفر لأداء العمرة والحجّ، وهذه طبعاً أركان الإسلام ولا بدّ منها مع الزكاة، ولكن يبدو أنّ بعض مَن يفعلون ذلك يتصوّرون أنّ أداء مثل هذه العبادات هو الضّامن الوحيد لهم لدخول الجنّة ومرضاة الله ﷻ، والحقيقة الغريبة هي أنّ القرآن الكريم لم يُعط ضماناً على الإطلاق لدخول الجنّة لأحد، وأنّ القرآن الكريم أعطى أولويّة أيضاً لأمور أخرى، غفل عنها الكثيرون، وهي مهمّة جدّاً لمجتمعاتنا جميعاً، وما أحوجنا إليها اليوم، وليس هناك وضوح في هذا الأمر أكثر من هذه الآية القرآنيّة الكريمة الّتي تتحدّث عن عقبة، أو حائل يقف بين الإنسان وبين دخول الجنّة، وتصف الآية الرّائعة كيفيّة اجتياز هذا المانع أو اجتياحه أو كما وصفت الآية الكريمة: اقتحامه، فقال ﷻ: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢﴾ [البلد]، يا له من وصفٍ ونسجٍ أدبيٍّ رائع، فأوّل عقبة تعيق الإنسان عن دخول جنّات الفردوس الأعلى يكون (اقتحامها) من خلال فكّ رقبة؛ أي: تحرير الإنسان من العبوديّة أو الرّقّ، والأمر بفكّ الرّقاب في القرآن الكريم كان واضحاً كالشّمس أيضاً في قوله ﷻ: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التّوبة]، وهي الآية الّتي تُحَدِّد مصارف الزكاة، وقد يتساءل بعض النّاس: وكيف لنا اليوم بأنّ نفكّ الرّقاب وليس هناك رقّ ولا عبيد؟ وهنا يأتي التّفسير، في هذا الزّمان وفي هذا العصر واقعنا يُبيّن أنّ الإنسان قد يكون عبداً للفقر أو الجوع أو الجهل أو الهوان أو الحاجة، وأنّ إنقاذ البشر وانتشالهم من ذلّ العوز والاحتياج والجهالة والقهر والمرض هو أفضل فكّ لرقابهم من ذلّ العبوديّة لمثل هذه الأمور.

وإنّ قول الله ﷻ عن الزكاة: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذّاريات]، يعني المحروم من مقوّمات الحياة الأساسيّة، كالغذاء والدّواء والتّعليم والصّحّة والمرافق العامّة، وهنا علينا ألّا نقف عند ظاهر النّصّ، بل أن نتعمّق في التّفسير والتّأويل، والآن ما هي العقبة الثّانية، وهذا كما ذكرت الآية الكريمة بإطعام في يوم ذي هولٍ شديد ﴿ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾، يتيماً قريباً ذا مقربة، والقرب قد يكون في قرابة الدّم أو قرب المكان أو في مفهوم الإنسانيّة عامّة، وقد يكون بـ(إطعام مسكيناً) في قمّة ضعفه وقلّة حيلته حتّى أنّه عجز عن إزالة التّراب عن جلده، فاكتسى بصورة البؤس والهوان كما وصفه القرآن الكريم بأنّه؛ أي: المسكين: ﴿ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾، وكما نلحظ هنا أنّ الله ﷻ ذكر في القرآن الكريم تعبيرات: ﴿يَتِيمٗا﴾ و﴿مِسۡكِينٗا﴾، ومن قبلهما: ﴿رَقَبَةٍ﴾، من دون استخدام أدوات تعريف مثل استخدام (الـ) قبل الكلمة، لماذا؟ حتّى يعمّم المعنى على الجميع أيّاً كان دينهم أو عقيدتهم؛ فلم يقل ﷻ: يطعمون اليتيم المسلم أو المسكين المسلم، بل قال بصيغة النّكرة: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا ذَا

﴿مَقۡرَبَةٍ ١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ١٦﴾ كي يسري المعنى على أيّ يتيم أو أيّ مسكين! وليس هذا الأمر بمستغرب في القرآن الكريم، الّذي قال أيضاً: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨﴾ [الإنسان]، ثمّ يصف لنا القرآن الكريم بعد ذلك كيفيّة اقتحام العقبة الأخيرة لدخول جنّات عدن الّتي وعد الرّحمن عباده بالغيب، يكون ذلك بالتّحلّي بالصّبر، وبأن يكون الإنسان في قلبه رحمة أيضاً: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧﴾، فما أحوجنا إلى الصّبر وما أحوجنا إلى المرحمة، وما أدراكم ما هي الرّحمة! الرّحمة لا تجعل إنساناً يعتدي على الآخرين، أو يقتل أو يضرب أو يبطش أو يسرق أو يرتشي.. والرّحمة لا تجعله يظلم زوجته، ولا الزّوجة تظلم زوجها، والرّحمة لا تسمح له أن يأكل حقّ غيره في الميراث من أخواته البنات، والرّحمة لا تسمح له أن يمتهن حقوق المرأة، والرّحمة لا تعطيه مجالاً أن يتعصّب ضدّ جاره؛ لأنّه مختلف عنه في العقيدة أو في المذهب، بل إنّ الرّحمة تدعو إلى العدل والإنسانيّة ومدّ اليد بلا تردّد لكلّ من يحتاجها، والرّحمة كنز مكنون وينبوع يفيض بالغيث لكلّ من لجأ إليه! وديننا هو دين الرّحمة، والله تبارك وتعالى قال في كتابه الكريم عن النّبيّ ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، طبعاً قال ﷻ: ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، يعني للبشر كلّهم، ولم يقل: (للمسلمين) فقط، ومن الواضح في اللّغة العربيّة أنّ (إلّا) أداة حصر؛ أي: أنّ الرّسالة السّماويّة الإسلاميّة كلّها بعقائدها وتشريعاتها وعباداتها ومعاملاتها وأخلاقيّاتها هدفها الأساس هو الرّحمة، فيا ترى من منّا قد اقتحم العقبة؟!

(الآية ٢٩) - ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ٢٩﴾:

تحدّث الحقّ سبحانه وتعالى في آيةٍ سابقةٍ عن المبذّرين، وحذّرنا من صفة التّبذير، وفي هذه الآية يقيم الحقّ سبحانه وتعالى موازنة اقتصاديّة تحفظ للإنسان سلامة حركته في الحياة، فقوله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾: اليد عادة تُستخدم في المنْح والعطاء، نقول: فلان له يد عندي، وله عليَّ أيادٍ بيضاء لا تُعَدّ؛ أي: نِعَم كثيرة، قال: لا تجعل يدك الّتي بها العطاء ﴿مَغْلُولَةً﴾؛ أي: مربوطة إلى عنقك، وحين تُقيّد اليد إلى العنق لا تستطيع الإنفاق، فهي هنا كناية عن البُخْل والإمساك عن الإنفاق على المساكين والفقراء والمحتاجين.

وفي المقابل: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾: فالنّهي هنا عن كلّ البَسْط، فيُباح بعض البسْط، وهو الإنفاق في حدود الحاجة والضّرورة، وبَسْط اليد كناية عن البَذْل والكرم والعطاء، وهكذا يلتقي هذا المعنى بمعنى كلّ من بذَر، وهنا التّبذير هو طرف النّقيض، عندما يُبذِّر الإنسان ويصرف الأموال في غير محلّها وفي غير ما يُرضي الله سبحانه وتعالى فهذا أمرٌ مذموم لا شكّ في ذلك، أمّا العطاء مطلوب، وحدّ الاعتدال المرغوب فيه من الشّرع الحكيم، وهو الوسط، وكلّا طرفيه مذموم، وقد أتى هذا المعنى أيضاً في قول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ٦٧﴾ [الفرقان]؛ أي: اعتدال وتوسُّط، فلا تبسط يدك كلّ البَسْط فتنفق ما لديْك كلّه من غير ضرورة، ولكن بعض البَسْط الّذي يُبقِي لك شيئاً تدّخره، وتتمكّن من خلاله أنْ ترتقيَ بحياتك، وقد سبق أنْ أوضحنا

الحكمة من هذا الاعتدال في الإنفاق، وقلنا: إنّ الإنفاق المتوازن يُثري حركة الحياة، ويُسهم في إنمائها ورُقيّها، على خلاف القَبْض والإمساك والبخل، فإنّه يُعرقِل حركة الحياة، وينتج عنه عطالة وبطالة وركود في الأسواق وكساد يُفسد الحياة، ويعرقل حركتها، فلا بُدَّ من الإنفاق لكي نساهم في سَيْر عجلة الحياة، ولا بُدّ أن يكون الإنفاق معتدلاً حتّى تستطيع أن ترتقي في مستواك المادّيّ في دنيا النّاس.

والمسْرف والمبذّر لا يتقدّم في الحياة خطوة واحدة، وهو يُبدِّد الأموال كيفما يشاء من غير فائدة اجتماعيّة، فتأتي النّتيجة الطّبيعيّة للإسراف والتّبذير:

﴿فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾: وسبق أنْ أوضحنا أنّ وَضْع القعود يدلّ على عدم القدرة على القيام ومواجهة الحياة، وهو وَضْعٌ يناسب مَنْ أسرف حتّى لم يَعُدْ لديه شيء، وكلمة: ﴿فَتَقۡعُدَ﴾ تُفيد انتقاص حركة الحياة؛ لأنّ حركة الحياة تنشأ من القيام عليها والحركة فيها؛ لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النّساء: من الآية ٩٥].

﴿مَلُومٗا﴾؛ أي: أتى بفعلٍ يُلاَم عليه، ويُؤنَّب من أجله، وأوّل مَنْ يلوم المسرفَ أولادهُ وأهلُه، وكذلك البخيل، فكلاهما مَلُومٌ لتصرُّفه غير المتّزن.

﴿مَّحۡسُورًا﴾؛ أي: نادماً على ما صِرْتَ فيه من العدم والفاقة.

(الآية ٣٠) - ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٣٠﴾:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾: القرآن الكريم يضع لنا دستوراً في هذه الدّنيا حتّى نستطيع أن نعيش ونحن في عطاء الله عز وجل، ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا

﴿عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ﴾ [النّحل: من الآية ٩٦]، وهنا تبيّن لنا هذه الآية أنّ الله ﷻ يضمن لنا الرّزق: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾، يعطي خلْقه؛ لأنّه لا تنفد خزائنه، فلا يبسط لهم الرّزق كلّ البَسْط، ولا يقبضه عنهم كُلَّ القَبْض، بل يبسط على قوم، ويقبض على آخرين لتسير حركة الحياة؛ لأنّه ﷻ لو بسط الرّزق ووسَّعه على النّاس جميعهم لاستغنى النّاس عن النّاس، وحدثت بينهم مقاطعة تُفسد عليهم حياتهم، إنّما حركة الحياة تتطلّب أنْ يحتاج صاحب المال إلى صاحب عمل، وصاحب العمل إلى مال، فتلتقي حاجات النّاس بعضهم لبعض، وبذلك يتكامل النّاس، ويشعر كلّ عضو في المجتمع بأهمّيّته ودوره في الحياة، وسبق أن ذكرنا أنّ الحقّ ﷻ لم يجعل إنساناً مَجْمعاً للمواهب، بل المواهب مُوزَّعة بين الخَلْق جميعهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾: أي: أنّ الله ﷻ يُقدِّر لكلّ إنسان رزقه، فالرّزق مقدّر، والإنسان يجب أن يعمل ويقوم بواجبه، ولكن يجب أن يكون مطمئنّاً بأنّ الله ﷻ يقول في آيةٍ أخرى: يقول ﷻ: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ [الطّلاق: من الآية ٧]؛ أي: مَنْ ضُيّق عليه الرّزق فلينفق على قَدْره، ولا يتطلّع إلى ما هو فوق قدرته وإمكاناته، وهذه نظريّة اقتصاديّة تضمن للإنسان الرّاحة في الدّنيا، وتوفّر له سلامة العيش.

هذه هي النّظريّة الاقتصاديّة الدّقيقة، والتّصرُّف الإيمانيّ المتّزن؛ لذلك فالّذي يحترم قضاء الله ﷻ، ويَرْضَى بما قَسَمه له، ويعيش في نطاقه غير متمرّد عليه، يقول له الحقّ ﷻ: لقد رضيت بقدري فيك فسوف أرفعك إلى قدري عندك، ثمّ يعطيه ويُوسِّع عليه بعد الضّيق، وهذا مُشَاهَد لنا في الحياة، والأمثلة

عليه واضحة، فكم من أُناس كانوا في فقرٍ وضيق عيش، فلمّا رَضُوا بما قَسَمه الله ﷻ ارتقتْ حياتهم، وتبدّل حالهم إلى سَعَة وتَرَف، فالحقّ سبحانه وتعالى يبسط الرّزق لمَنْ يشاء ويقدر؛ لأنّه سبحانه وتعالى يريد أن يضع الإنسانُ نفسه دائماً في مقام الخلافة في الأرض، ولا ينسى هذه الحقيقة، فيظنّ أنّه أصيلٌ فيها، والخيبة كلّ الخيبة أن ينسى الإنسان أنّه خليفة لله سبحانه وتعالى في الأرض، ويسير في حركة الحياة على أنّه أصيل في الكون، فأنت وأنا ونحن جميعاً فقط خليفة لمن استخلفنا، والمدد يأتي منه سبحانه وتعالى، فإيّاك أنْ تغترّ، وإيّاك أنْ تعيش في مستوى فوق المستوى الّذي قدّره الله سبحانه وتعالى لك، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ [العلق]، فالحاجة هي الّتي تربط الإنسان بربّه، وتُوصله به سبحانه وتعالى، فالبَسْط والتّضييق من الله تعالى له حكمة، فلا يبسط لهم الرّزق كلّ البسط، فيعطيهم كُلَّ ما يريدون، ولا يقبض عنهم كلّ القبض فيحرمهم ويُريهم ما يكرهون، بل يعطي بحساب وبقدر؛ لتستقيم حركة الحياة، كما قال سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿۞وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ﴾ [الشّورى: من الآية ٢٧].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾: لأنّ الحقّ سبحانه وتعالى لو لم يوزّع الرّزق هذا التّوزيع الحكيم لاختلَّ ميزان العالم، فَمنْ بُسِط له يستغني عن غيره فيما بُسِط له فيه، ومَنْ ضُيِّق عليه يتمرّد على الكون ويحقد على النّاس، ويحسدهم ويعاديهم، إنّما إذا علم الجميع أنّ هذا بقدر الله سبحانه وتعالى وحكمته فسوف يظلّ الكون المخلوق موصولاً بالمُكوِّن الخالق سبحانه وتعالى.

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ ملمحٌ لطيف؛ أي: ربّك يا محمّد، وأنت أكرم الخلق عليه، ومع ذلك بَسَط لك حتّى صِرْت تُعطي

عَطاء مَنْ لا يخشى الفقر، وقبض عنك حتّى تربط الحجر على بطنك من الجوع، فإن كانت هذه حالة المصطفى ﷺ فلا يستنكف أحدٌ منّا إنْ ضَيَّق الله ﷻ عليه الرّزق، ومَنْ مِنَّا رَبَط الحجر على بطنه من الجوع؟!

وبعد أنْ حدَّثنا الحقّ ﷻ عن فرعٍ من فروع الحياة وهو المال، ورسم لنا المنهج الّذي تستقيم الحياة به ويسير الإنسان به سيراً يُحقّق له العيش الكريم والحياة السّعيدة، ويضمن له الارتقاءات والطّموحات الّتي يتطلّع إليها، أراد الله ﷻ أن يُحدّثنا عن الحياة في أصلها، فأمر باستبقاء النّسل، ونهى عن قتله فقال ﷻ:

(الآية ٣١) - ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ٣١﴾:

وواضحٌ الصّلة بين هذه الآية والآية الّتي سبقت؛ لأنّ الكلام هنا ما زال عن الرّزق، والخالق ﷻ يُحذِّرنا: إيّاكم أنْ تُدخِلوا مسألة الرّزق في حسابكم، أنتم عليكم العمل وأنا الرّزّاق؛ لأنّكم لم تخلقوا أنفسكم، ولم تخلقوا أولادكم ولا ذرّيّتكم، بل الخالق هو الله ﷻ، وهو الّذي استدعاكم واستدعاهم إلى الوجود، وما دام هو ﷻ الّذي خلق، وهو الّذي استدعى إلى الوجود فهو المتكفّل برزق الجميع، فإيّاك أنْ تتعدَّى اختصاصك، وتُدخِل أنفك في هذه المسألة، وخاصّة إذا كانت تتعلّق بالأولاد.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾: القتل: إزهاق الحياة، وكذلك الموت، ولكن بينهما فَرْقٌ يجب ملاحظته:

فالقتل: إزهاق الحياة بنَقْض البنية؛ لأنّ الإنسان يتكوّن من بنية بناها الله تعالى، وهي أجهزة الجسم، ثمّ يعطيها الرّوح فتنشأ فيها الحياة، فإذا ضرب إنسانٌ

إنساناً آخر على رأسه مثلاً، فقد يتلف مخّه فتنتهي حياته، لكن تنتهي بنقْض البنية الّتي بها الحياة؛ لأنّ الرّوح لا تبقى إلّا في جسم له مواصفات خاصّة، فإذا ما تغيّرت هذه الصّفات فارقتْه الرّوح.

أمّا الموت: فيبدأ بمفارقة الرّوح للجسد، ثمّ تُنقَض بنيته بعد ذلك، وتتلَفُ أعضاؤه، فالموت يتمّ في سلامة الأعضاء، وما أشبه هذه المسألة بلمبة الكهرباء الّتي لا تُضيء إلّا إذا توافرتْ لها مواصفات خاصّة: من مُولّد أو مصدر للكهرباء، وسلك مُوصل ولمبة كهرباء، فإذا كُسِرَتْ هذه اللّمبة يذهب النّور، لماذا؟ لأنّك نقضتَ شيئاً أساسيّاً في عمليّة الإنارة هذه، وكذلك إذا صَوَّب واحد رصاصةً مثلاً في قلب الآخر فإنّه يموت وتفارقه الرّوح؛ لأنّك نقضْتَ عنصراً أساسيّاً من بنية الإنسان، ولا تستمرّ الرّوح في جسده بدونها، لذلك ليس في الشّرع عقوبة على الموت، ونقصد به هنا الموت الطّبيعيّ الّذي يبدأ بخروج الرّوح من الجسد، لكن توجد عقوبة على القتل؛ لأنّ حياة كلّ منّا هي بناء أقامه الخالق سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو مِلْك لخالقه لا يجوز أن يُنقَض، وكذلك حرَّم الإسلامُ الانتحار، وجعله كفراً بالله عَزَّ وَجَلَّ.

فالمنهي عنه في الآية هو قتل الأولاد؛ لأنّه من عمل البشر، وقد أوضح القرآن الكريم الفرق بين الموت والقتل في قوله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: من الآية ١٤٤]، فالقتل غير الموت.

﴿أَوْلَٰدَكُمْ﴾: الأولاد تُطلق على الذّكَر والأنثى، ولكن المشهور في استقصاء التّاريخ أنّهم كانوا يئدون البنات خاصّة دون الذّكور، وفي القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا

﴿ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩﴾ [التّكوير]، وبعد أن جاء الإسلام غيّر هذه المفاهيم كلّها، فإذا كان هناك فقرٌ وعوز وحاجة فكانوا يقتلون أولادهم وخصوصاً البنات، والمولى سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ﴾، ذكوراً كانوا أم إناثاً.

﴿خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾: أي: خَوْفاً من الفقر، والإملاق: مأخوذة من مَلَق وتملّق، وكلّها تعود إلى الافتقار؛ لأنّ الإنسان لا يتملَّق إنساناً إلّا إذا كان فقيراً لما عنده محتاجاً إليه، فيتملَّقه ليأخذ منه حاجته.

﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾: في هذه الآية مَلْمحٌ لطيف يجب التّنبُّه إليه وفَهْمه لنتمكّن من الرَّدِّ على أعداء القرآن الكريم الّذين يتّهمونه بالتّناقض، فالحقّ سبحانه وتعالى يقول هنا: ﴿خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾؛ أي: خَوْفاً من الفقر، فالفقر إذن لم يَأْتِ بعد، بل هو مُحْتمل الحدوث في مستقبل الأيّام، فالرّزق موجودٌ وميسور، فالّذي يقتل أولاده في هذه الحالة يخشى أن يُصبح فقيراً؛ لذلك قال سبحانه وتعالى في هذه الآية: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ﴾؛ أي: أنّ رزقهم علينا؛ لأنّ المولود يُولَد ويُولَد معه رزقه، فلا تنشغلوا بهذه المسألة؛ لأنّها ليستْ من اختصاصكم، ثمّ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِيَّاكُمۡۚ﴾؛ أي: أنّ رِزْق هؤلاء الأبناء مُقدَّم على رزقكم أنتم، فهم خائفون على رزق الأولاد، ويمكن أن يُفْهَم المعنى على أنّه: لا تقتلوا أولادكم خَوْفاً من الفقر، فنحن نرزقكم من خلالهم، ومن أجلهم، وأعداء الدّين الّذين يُنقِّبون في القرآن الكريم عن مَأْخذٍ يروْنَ تعارضاً أو تكراراً بين هذه الآية الّتي معنا وبين آيةٍ أخرى تقول: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥١]، ونقول لهؤلاء: لقد استقبلتم الأسلوب القرآنيّ بغير الملَكَة العربيّة في فَهْمه، فأسلوب القرآن الكريم ليس صناعةً جامدة، بل هو أسلوبٌ بليغٌ يحتاج في فَهْمه وتدبُّره إلى

ذَوْقٍ وحِسٍّ لُغويٍّ، وعندما نستقبل كلام الله ﷻ استقبالاً سليماً فلن نجد فيه تعارضاً على الإطلاق، وإنّما سنجد أسراراً، فليست الأولى أبلغَ من الثّانية، ولا الثّانية أبلغَ من الأولى، بل كلّ آيةٍ بليغة في موضوعها؛ لأنّ الآيتين وإنْ تشابهَتا في النّظرة العجْلَى لكنْ بينهما فَرْق في المعنى كبير، فآية الإسراء تقول: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾، وقد أوضحنا الحكمة من هذا التّرتيب: نرزقهم وإيّاكم؛ لأنّ بداية الآية هنا: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾، أمّا في آية الأنعام: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥١]، بدايتها ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥١]؛ أي: هناك فقرٌ واقع، فلا بُدَّ أن نلاحظَ أنّ للآية صدراً وعَجُزاً، ولا يصحّ أن تفهم أحدهما دون الآخر، بل لا بُدَّ أن تجمع في فَهْم الآية بين صدرها وعجزها، وسوف يستقيم لنا المعنى بذلك، وما حدث من هؤلاء أنّهم نظروا إلى عَجُزَيْ الآيتين، وأغفلوا صَدريهما، ولو كان الصّدر واحداً في الآيتين لكان لهم حقٌّ فيما ذهبوا إليه، ولكنّ صَدْري الآيتين مختلفان: في الإسراء: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾، وفي الأنعام: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥١]، والفرْق واضحٌ بين التّعبيرين: فالأوّل: الفقر غير موجود؛ لأنّ الخشية من الشّيء دليلٌ أنّه لم يحدث، ولكنّه مُتوقَّع في المستقبل، وصاحبه ليس مشغولاً برزقه هو، بل برزق مَنْ يأتي من أولاده، أمّا التّعبير الثّاني: ﴿مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥١]، فالفقر موجودٌ وحاصل فعلاً، والإنسان مشغول برزقه فهو لا يملك المال، فناسب هنا أنْ يُقدِّم الآباء في الرّزق عن الأبناء، ومن هنا جاء الفرق بين الآيتين الكريمتين، وهذا من إعجاز وعظمة كتاب الله سبحانه وتعالى.

ونلحظ في الآية أيضاً أنّ النّهي مُخَاطَبٌ به الجمع: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾، فالفاعل جمع، والمفعول به جمع، وسبق أن قلنا: إنّ الجمع إذا قُوبل بالجمع تقتضي القسمة آحاداً، فالمعنى: لا يقتل كلّ واحدٍ منكم ولده، كما يقول المعلّم للتّلاميذ: أخرجوا كُتبكم، والمقصود أنْ يُخرج كلّ تلميذٍ كتابه، فالآية تنهى أن يقتل الأب ابنه أو ابنته خوفاً من الفقر، فالإسلام لم يفرّق بين الذّكر والأنثى.

﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾: خِطْئاً مثل خطأ، وهو الإثم والذّنب العظيم، وتأتي بالكسر وبالفتح، كما نقول: خُذوا حِذْركم، وخذوا حَذرَكم.

وكلمة: ﴿خِطْـًٔا﴾، الخاء والطّاء والهمزة تدلّ على عدم موافقة الصّواب، لكن مرّة يكون عدم موافقة الصّواب؛ لأنّك لم تعرف الصّواب، ومرّة أخرى لم توافق الصّواب؛ لأنّك عرفتَ الصّواب، ولكنّك تجاوزْتَه، فالمعلِّم حينما يُصوِّب للتّلاميذ أخطاءهم أثناء العام الدّراسيّ نجده يُوضِّح للتّلميذ ما أخطأ فيه، ثمّ يُصوّب له هذا الخطأ، وهو لم يفعل ذلك إلّا بعد أن أعلمَ تلميذه بالقاعدة الّتي يسير عليها، ولكنّ التّلميذ قد يغفل عن هذه القاعدة فيقع في الخطأ، وهنا لا مانع من أنْ نُصوِّب له خَطَأه ونُرشده؛ لأنّه ما يزال في زمن الدّرس والتّعلُّم والتّدريب، لكنّ الأمر يختلف إنْ كانت هذه الأسئلة في امتحان آخر العام، فالمعلِّم يُبيِّن الخطأ، ولكنّه لا يُصحِّحه، بل يُقدِّره بالدّرجات الّتي تُحسَب على التّلميذ، وتنتهي المسألة بالنّجاح لِمَنْ أصاب، وبالفشل لمن أخطأ؛ لأنّ آخر العام أصبح لديه قواعد مُلْزمة، عليه أنْ يسيرَ عليها.

وكلمة (خطْئاً أو خطأ) مأخوذة من خطا خطوة، وتعني الانتقال بالحركة، فإذا كان الصّواب هو الشّيء الثّابت الّذي استُقِرَّ عليه وتعارف النّاس عليه، ثمّ

تجاوزناه وانتقلنا عنه إلى غيره، فهذا هو الخطأ؛ أي: الخطوة الّتي جعلتك تتجاوز الصّواب، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [البقرة: من الآية ١٦٨]؛ لأنّه ينقلكم عن الشّيء الثّابت المستقرّ في منهج الله عزّ وجلّ.

(الآية ٣٢) - ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾:

بعد أن تحدّث الحقّ سبحانه وتعالى عمّا يحفظ النّسل ويستبقي خلافة الله عزّ وجلّ في الأرض، أراد سبحانه وتعالى أن يحمي هذا النّسل من الضّياع، ويوفّر له الحياة الكريمة. والإنسان منّا حينما يُرزَق بالولد أو البنت يطير به فَرحاً، ويُؤثِره على نفسه، ويُخرِج اللّقمة من فيه ليضعها في فم ولده، ويسعى جاهداً ليُوفّر له رفاهيّة العيش، ويُؤمِّن له المستقبل المُرْضِي، وصدق الشّاعر حين قال:

إنّـما أَوْلادُنَـا أكبـادُنَـا تمشـي عَلَى الأَرْضِ
إنْ هَبَّتِ الرّيحُ على بَعْضِهِم امتنعَتْ عَيْنـي عَـنِ الغُمْضِ

لكنّ هذا النّظام التّكافليّ الّذي جعله الله سبحانه وتعالى عماداً تقوم عليه الحياة الأسريّة سرعان ما ينهار من أساسه إذا ما دَبَّ الشّكُّ إلى قلب الأب في نسبة هذا الولد إليه، فتتحوّل حياته إلى جحيمٍ لا يُطَاق، وصراع داخليّ مرير لا يستطيع مواجهته أو النّطق به؛ لأنّه طَعْنٌ في ذاته هو، لذلك يُحذِّرنا الله سبحانه وتعالى من هذه الجريمة النّكْراء؛ الجريمة الأولى هي قتل الأولاد، والجريمة الثّانية هي الزّنا، ليحفظ على النّاس أنسابهم، ويطمئن كلّ أبٍ إلى نسبة أبنائه إليه، فيحنو عليهم ويرعاهم، ويستعذب ألم الحياة ومتاعبها في سبيل راحتهم.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾: والمتأمّل في آي القرآن الكريم يجد أنّ الله سبحانه وتعالى حينما يُكلّمنا عن الأوامر يُذيّل الأمر بقوله سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: من

الآية ٢٢٩]، والحديث هنا عن أحكام الطّلاق، فقد وضع له الحقّ ﷻ حدوداً، وأمرنا أن نقف عندها لا نتعدّاها، فكأنّه ﷻ أوصلنا إلى هذا الحدّ، والممنوع أن نتعدّاه، وأمّا في النّواهي، فيُذيّلها بقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: من الآية ١٨٧]، والنّهي هنا عن مباشرة النّساء حال الاعتكاف، وكأنّ الحقّ ﷻ يريد ألّا نصلَ إلى الحدِّ المنهي عنه، وأنْ يكون بيننا وبينه مسافة، فقال: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ لنظلّ على بُعْدٍ من النّواهي، وهذا احتياطٌ واجبٌ حتّى لا نقتربَ من المحظور فنقع فيه، وقد قال النّبيّ ﷺ: «**كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىً، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ**»(١)، فالحقّ ﷻ خالق الإنسان، وهو أعلم به لا يريد له أنْ يقتربَ من المحظور؛ لأنّ له بريقاً وجاذبيّة كثيراً ما يضعف الإنسان أمامها؛ لذلك نهاه عن مجرّد الاقتراب، وفَرْقٌ بين الفعل وقُرْبان الفعل، فالمحرّم المحظور هنا هو الفِعْل نفسه، فلماذا حرَّم الله تعالى الاقتراب أيضاً، وحذّر منه تحذيراً شديداً؟ نقول: لأنّ الله ﷻ يريد أنْ يرحَم عواطف الإنسان في هذه المسألة بالذّات، مسألة الغريزة الجنسيّة، وهي أقوى غرائز الإنسان، فإنْ حُمْتَ حولها توشك أن تقعَ فيها، فالابتعاد عنها وعن أسبابها أسلَمُ لك، وحينما تكلّم العلماء عن مظاهر الشّعور والعلم قسَّموها إلى ثلاث مراحل: الإدراك، ثمّ الوجدان، ثمّ النّزوع، فلو فرضنا أنّك تسير في بستان فرأيتَ به وردةً جميلةً، فلحظة أنْ نظرتَ إليها هذا يُسمَّى: (الإدراك)؛ لأنّك أدركتَ وجودها بحاسّة البصر، ولم يمنعك أحدٌ من النّظر إليها

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، الحديث رقم (٥٢).

والتّمتُّع بجمالها، فإذا ما أعجبتك وراقك منظرها، واستقرّ في نفسك حُبُّها، فهذا يسمّى: (الوجدان)؛ أي: الانفعال الدّاخليّ لما رأيتَ، فإذا مددتَ يدك لتقطفها فهذا (نزوع)؛ أي: عمل فعليّ، ففي أيّ مرحلة من هذه الثّلاث يتحكَّم الشّرع؟ الجواب: الشّرع يتحكّم في مرحلة النّزوع، ولا يمنعك من الإدراك، أو من الوجدان، إلّا في هذه المسألة: (مسألة الغريزة الجنسيّة)، فلا يمكن فيها فَصْل النّزوع عن الوجدان، ولا الوجدان عن الإدراك، فهي مراحل ملتحمة ومتشابكة، بحيث لا تقوى النّفس البشريّة على الفَصْل بينها، لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النّور: من الآية ٣٠]؛ لأنّك لو أدركتَ لوجدتَ، ولو وجدتَ لنزعتَ، فالأسلم للنّاس وللمجتمع، والأحفظ للأعراض وللحرمات أنْ تغُضَّ بصرك عن محارم النّاس فترحم أعراضهم وترحم نفسك، لكنّ هذه الحقيقة كثيراً ما تغيب عن الأذهان، فيغشّ الإنسانُ نفسه، وإذا ما سُئل يدَّعي حُسْن النّيّة، لذلك بيّن لنا النّبيّ ﷺ المفاسد والمضارّ بأسلوبٍ راقٍ جدّاً عندما جاء شابٌّ إلى النّبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ.. مَهْ، فَقَالَ ﷺ: «ادْنُهْ»، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيباً، قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ: «أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟»، قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ»، قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟»، قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ»، قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟»، قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ»، قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟»، قَالَ: لَا وَاللهِ،

جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ»، قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟»، قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ»، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ»، قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ[1]، فالنّبيّ ﷺ ذكّر الشّابّ بأعراض غيره، وهنا قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ﴾، ولم يقل: لا تزنوا؛ لأنّ لهذه الجريمة مقدّمات تؤدّي إليها، فلنحذر من الأمور الّتي تحيط بهذا الموضوع، ومِن محاولات بعض النّاس تسهيل الأمر، وهذا أمر مهمّ جدّاً؛ لأنّ الباطل هنا يعلو، ومهما كَثُر أتباعه فلن يكون حقّاً في يومٍ من الأيّام.

وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ﴾، أبلغ في التّحريم وأحوط وأكبر من: لا تزنوا، كذلك في تحريم الخمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة]، والاجتناب يعني: البعد عنها كُلّيّة، وعدم الالتقاء بها في أيّ مكان، وعلى أيّة صورة، فالاجتناب أشدّ من التّحريم، وكذلك بالنّسبة إلى الزّنا الابتعاد عن كلّ ما يؤدّي إليه، فلقد سدّ منافذ الزّنا كلّها.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾: الفاحشة: هي الشّيء الّذي اشتدّ قبْحه، وقد جعل الله ﷻ الزّنا فاحشة؛ لأنّه ﷻ حينما خلق الزّوجين: الذّكر والأنثى، وقدّر أن يكون منهما التّناسل والتّكاثر قدّر لهما أصولاً يلتقيان عليها،

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: تتمّة مسند الأنصار، حَدِيثُ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ الصُّدَيِّ بْنِ عَجْلَانَ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، الحديث رقم (٢٢٢١١).

ومظلّة لا يتمّ الزّواج إلّا تحتها، ولم يترك هذه المسألة مشَاعاً يأتيها مَنْ يأتيها؛ ليحفظ للنّاس الأنساب، ويحمي طهارة النّساء، ويطمئن كلَّ إنسانٍ إلى سلامة الأسرة ونسب أولاده، والمراد من الأصول الّتي يلتقي عليها الزّوجان عقد القِران الّذي يجعلهما بكلمة الله ﷻ وعلى سنّة رسوله ﷺ.

وهَبْ أنّ لك بنتاً بلغت سنَّ الزّواج، وعلمتَ أنّ شابّاً ينظر إليها، أو يحاول الاقتراب منها، أو ما شابه ذلك، ماذا سيكون موقفك؟ لا شكَّ في أنّ نار الغيرة ستشتعل بداخلك، وربّما تعرَّضْتَ لهذا الشّابّ، لكن إذا ما طرق هذا الشّابّ بابَك، وتقدَّم لخطبة ابنتك فسوف تقابله بالتّرْحَاب وتسعد به، وتدعو الأهل، وتُقيم الزّينات والأفراح، فما الّذي حدث؟ وما الّذي تغيَّر؟ وما الفرق بين الأولى والثانية؟ الفرق بينهما هو الفرق بين الحلال والحرام؛ فالّذي يغَارُ على بناته تراه عند الزّواج يُجهِّز ابنته، ويُسلمها بيده إلى زوجها؛ لأنّهما التقيا على كلمة الله ﷻ، هذه الكلمة المقدّسة الّتي تفعل في النّفوس الأعاجيب، مجرّد أن يقول وليُّ الزّوجة: زوَّجتُكَ، ويقول الزّوج: وأنا قَبِلتُ، تنزل هذه الكلمة على القلوب بَرْداً وسلاماً، وتُحدِث فيها انبساطاً وانشراحاً؛ لأنّ لهذه الكلمة المقدّسة عملاً في التّكوين الذّاتيّ للإنسان، ولها أثرٌ في انسجام ذرّاته، وفي كلّ قطرة من دمه، ومن آثار كلمة الله ﷻ الّتي يلتقي عليها الزّوجان، أنّها تُحدِث هذا الاستقبال الحسن، وعدم التّضَجّر، وعدم الشّراسة.. إلى ما هنالك، ولذلك حينما يُشرّع لنا الحقّ ﷻ العِدَّة، نجد عدّة المطلّقة غير عِدَّة المتوفَّى عنها زوجها، وفي هذا الاختلاف حكمة؛ لأنّ الحقّ ﷻ يعلم طبيعة النّفس البشريّة وما يُؤثّر فيها، ولو كانت الحكمة من العدّة مجرّد استبراء الرّحم لكفى شهرٌ واحد

وحَيْضة واحدة، إنّما الأمر أبعد من ذلك، فعند المرأة اعتبارات أخرى وما زالت تحت تأثير الزّواج السّابق؛ والتقاء الإيجاب والسّلب من الرّجل والمرأة، وقد تعوّدتْ المرأة على الإيجاب الحلال والسّلب الحلال، فإذا طُلِّقَت المرأة فلا يحلّ لها الزّواج قبل انقضاء العدّة الّتي حدّدها الشّرع بثلاثة أشهر، وهي المدّة الّتي يهدأ فيها سِيَال الحلال في نفسها ويجمد، وبذلك تكون صالحة للالّتقاء بزوجٍ آخر، أمّا في حالة المتوفّى عنها زوجها فعدّتها أربعة أشهر وعشرة، والحكمة من الفارق بين العِدَّتين أنّ المطلّقة غالباً ما يكون بين الزّوجين كُرْه، هذا الكُرْه بينهما يساعد على موت السِّيال؛ لأنّها بطبيعة الحال نافرة عنه غير راغبة فيه، أمّا المتوفَّى عنها زوجها فقد فارقها دون كُرْه، فقد تكون رغبتها فيه أشدّ؛ لذلك تحتاج إلى وقتٍ أطول للتّخلُّص من هذا الأمر، والحقّ ﷻ هنا يُراعِي طبيعة المرأة ومشاعرها، وعواطف الميل والرّغبة في زوجها، ويعلم ﷻ أنّ هذا الميلَ وهذه الرّغبة تحتاج إلى وقتٍ لتهدأ هذه العواطف لدى المرأة، وتستعدّ نفسيّاً للالّتقاء بزوجٍ آخر؛ لأنّ لقاء الزّوج بزوجته مسألة لا يحدث الانسجام فيها بالتّكوين العقليّ، بل الانسجام فيها أيضاً بالتّكوين العاطفيّ الغريزيّ الّذي يعتمد بالدّرجة الأولى على توافق الذّرّات بين الذّكر والأنثى، هذا التّوافق هو الّذي يُولّد ذرّات موجبة، وذرّات سالبة، فيحدث التّوافق، ويحدث الحبّ والعِشْق الّذي يجمعهما ويمتزجان من خلاله، وهذا أثر من آثار كلمة الله ﷻ الّتي اجتمعا عليها وتحت ظلّها، وهكذا يلتقي الزّوجان في راحةٍ وهدوءٍ نفسيّ، ويسكن كلّ منهما للآخر؛ لأنّ ذرّاتهما انسجمت وتآلفت؛ ويفرح الأهل ويسعد الجميع، وصدق رسول الله ﷺ حين قال في وصيّته بالنّساء: «**اتَّقُوا اللَّهَ**

فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ...»[1]، وهذه الكلمة من الله سبحانه وتعالى هي الّتي جعلت اللّقاء بين الرّجل والمرأة حلالاً، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الرّوم].

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾: والسّبيل هو الطّريق، وهذا الطّريق هو أسوء الطّرق، وهذا السّوء له آثارٌ أطول وأكبر من أيّ جريمةٍ أخرى، وله أثرٌ على الأسرة وعلى النّسل، والسّبيل: هو الطّريق الموصل لغاية، وغاية الحياة أنّنا مُسْتخلفون في الأرض، لعمارتها والسّعي فيها بما يُسعدنا جميعاً، ويعود علينا بالخير والصّلاح، فإذا ضَلَّ الإنسانُ وانحرف عَمّا رسمه له ربّه أفسد هذه الخلافة، وأشقى الدّنيا كلّها بدل أنْ يُسعدها، وما نشاهده في بيئات الانحلال والانحراف في الغرب، هو بسبب هذا الطّريق وهذا المسلك، الّذي هو مسلك إباحة الزّنا وما ينجم عنه من انتشار الأمراض، لذلك نحن نحرص على مجتمعٍ طاهرٍ سليم، يُحافَظ فيه على الإنسان وعلى كرامة المرأة وحقوقها.

(الآية ٣٣) - ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾:

﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ﴾: كان القياس أنْ يُقابل الجمع بالجمع، فيقول: لا تقتلوا النّفوس الّتي حرَّم الله عزّ وجلّ، لكنّ الله سبحانه وتعالى الحكيم يريد أن يبيّن لنا أنّ قَتْل النّفس الواحدة مسؤوليّةُ الجميع، والمجتمع مسؤول عن هذه الجريمة.

(١) سنن أبي داود: كتابُ المنَاسِك، بَابُ صِفَةِ حَجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، الحديث رقم (١٩٠٥).

﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾: أي: جعلها محرّمة لا يجوز التّعدّي عليها؛ لأنّها بنيان الله سبحانه وتعالى وخلْقته وصناعته، وبنيان الله عز وجل لا يهدمه أحدٌ غيره.

﴿ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾: أي: حرّم الله سبحانه وتعالى قتلها.

هنا رسالةٌ للّذين يتّهمون الإسلام بالقتل وفق ما تقوم به داعش وسواها من الحركات المتطرّفة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: من الآية ٣٢]، وهنا يجب أن ننتبه بأنّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، وقتل نفسٍ واحدةٍ كأنّ الجميع قاموا بعمليّة القتل.

﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾: هذا الاستثناء من الحكم السّابق الّذي قال: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ فاستثنى: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾؛ أي: القتل يكون بالحقّ كالقصَاص من القاتل، والقتْل هنا يكون بالحقّ؛ أي: بسبب يستوجب القتل، فحين يُخبرنا الله سبحانه وتعالى بأنّنا إذا قتلنا نفساً فسوف نُقتَل، فهو يحمي حياة الآخرين، وليس لدى الإنسان أغلى من حياته، حتّى القاتل لم يقتل إلّا لأنّه يحبّ الحياة، فكيف نمنع النّاس أن يقتلوا بعضهم؟ الجواب: عندما نقول: إنْ قتلتَ ستُقتل، فنحن نمنعه أنْ يُقدِم على هذه الجريمة، ونُلوّح له بأقسى ما يمكن من العقوبة، ولذلك قالوا: القتْلُ أنْفَى للقتل، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ [البقرة]، فالحياة هي في القصاص حتّى يرتدع المجرم عن جريمته، ولا يريد الله سبحانه وتعالى إيقاع العقوبة إلّا للرّدع، وهذا نداءٌ لأصحاب العقول الواعية، ليس القصاص كما يظنُّ بعضهم، ويجب أن يكون عندنا يقظةُ استقبال لأحكام الله عز وجل؛ لأنّ القاتل ما قتل إلّا حينما غفل عن

الحكم، فلو علم أنّه سيُقتل لما قتل، ويجب أيضاً أن ننظر إلى حكم القصاص نظرةً موضوعيّة؛ لأنّه كما حَمى غيري من قَتْلِي له حَمَاني أيضاً من قَتْل غيري لي، وما دامت المسألة: لك مثل ما عليك، وحظّك منها كحظِّ النّاس جميعاً، فلماذا الاعتراض؟ وحكم القصاص يجعل الإنسان حريصاً على نفسه ويمنعه أنْ يُقدِم على القَتْل، فإنْ غفل عن هذا الحكم وارتكب هذه الجريمة فلا بُدَّ أن يُقتَصَّ منه، وبالقانون تقوم الدّولة بهذا الأمر، فلا يتشدَّقَنّ أحدٌ بالإنسانيّة والكرامة والرّحمة الزّائفة، ومعارضة أوامر الله سبحانه وتعالى في إعدام قاتل سوف يفتح الباب لفوضى الخلافات والمنازعات، فكلّ من اختلف مع إنسانٍ سارع إلى قَتْله؛ لأنّه لا يوجد رادع يردعه عن القتل.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا﴾: وهذا حكم نفي، المفروض ألّا يحدث، ومعنى ﴿مَظۡلُومٗا﴾: أي: قُتِل دون حقّ، فعلى فَرْض أنّ هذا القتل وقع بالفعل، فما الحكم؟

﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾: وليّه: أي: وليّ المقتول، وهو مَنْ يتولّى أمره من قرابته: الأب أو الأخ أو الابن أو العمّ.. إلخ، فهو الّذي يتولّى أمر المطالبة بدمه، فيقيم عليه دعوة في المحكمة، ويطالب بحقّه بالقانون.

﴿سُلۡطَٰنٗا﴾: أي: شرعنا له، وأعطيناه الحقَّ والقوّة في أنْ يقتصّ من القاتل وفق الأنظمة والقوانين ووفق القضاء، والسّلطات تكون في خدمة التّنفيذ، والمجتمع يساعد في هذا الأمر؛ لأنّ فيه ردع عن قتل النّفس الّتي حرّم الله سبحانه وتعالى، وهذا دور المجتمع الّذي يُعين على إقامة الأحكام، فجعل الله سبحانه وتعالى سلطان القصاص لوليّ الدّم، فإنْ لم يكن له وليّ فإنّ السّلطان ينتقل للحقّ العامّ في المحكمة.

﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾: أي: بما أنّ الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعطاك حَقَّ القصاص فليكُنْ القصاص بقَدْره دون زيادة أو تعدٍّ أو مجاوزة للحدِّ، والإسراف في القتل يكون بأوجه عدّة.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾: أي: لا يجوز له أنْ يُسرف في القتل؛ لأنّنا لم نتخلّ عنه، بل وقفنا بجانبه وأعطيناه حقّ القصاص ومكّنّاه منه، فهو منصورٌ ليس متروكاً، فيجب أن يقف عند حَدِّ النُّصْرة لا يتجاوز ذلك، كالثّأر.

(الآية ٣٤) - ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾:

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾: ولم يقل: ولا تأكلوا مال اليتيم، وهذا تحذير شديد من مجرّد الاقتراب من أموال الأيتام، أو التّفكير في التّعدّي عليها؛ لأنّ اليُتْم مظهرٌ من مظاهر الضّعف لا يجوز أنْ يجترئَ عليه الإنسان.

﴿ٱلۡيَتِيمِ﴾: هو مَنْ مات أبوه ولم يبلغَ مبلغ الرّجال، وهو سِنّ الرُّشْد، وما دام قد فقد أباه ولم يَعُدْ له حاضنٌ يرعاه، فسوف يتألّم ساعة أنْ يرى غيره من الأولاد لهم أب يحنو عليهم، لكنّ الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل المجتمع الإيمانيّ يتكفّل باليتيم، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا»، وَهُوَ يُشِيرُ بِإِصْبُعَيْهِ[1]، وقد أوصى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المجتمع باليتيم، وفي الحنوّ والعطف عليه تعويضاً له عن وفاة والده، وكذلك حينما يرى الإنسانُ أنّ اليتيم مُكرّم في مجتمعٍ إيمانيٍّ يكفله ويرعاه، ويعدّه كلّ فرد فيه ابناً من أبنائه، يطمئنّ قلبه ولا تُفزِعه أحداث الحياة

---

(١) المسند الجامع: حرف الهاء، أبو هريرة الدّوسيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، الحديث رقم (١٤٠٥٤).

في نفسه، ولا يقلق إنْ قُدِّر له أن يُيَتَّم أولاده، فسوف يجدون مثل هذه الرّعاية، ومثل هذا الحنان من المجتمع الإيمانيّ، لذلك يقول ﷺ: «خَيْرُ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ، وَشَرُّ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ»، ثُمَّ قَالَ بِإِصْبَعَيْهِ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا»، وَهُوَ يُشِيرُ بِإِصْبُعَيْهِ(١).

﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾: أي: لا تنتهز يُتْم اليتيم، وأنّه ما يزال صغيراً ضعيف الجانب فتطمع في ماله، وتأخذه دون وجه حقٍّ. وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ استثناءٌ من الحكم السّابق: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾، يبيح لنا أن نقرب مال اليتيم، ولكن بالّتي هي أحسن.

﴿أَحۡسَنُ﴾: أفعل تفضيل تدلّ على الزّيادة في الإحسان، وكأنّ المعنى: لا تقربوا مال اليتيم بالطّريقة الحسنة فحسب، بل بالطّريقة الأحسن، فما الطّريقة الحسنة؟ وما الطّريقة الأحسن؟ الطّريقة الحسنة: أنّك حين تقرب مال اليتيم لا تُبدّده ولا تتعدَّى عليه، لكنّ الأحسن: أنْ تُنمي له هذا المال وتُثمّره وتحفظه له، إلى أن يكون أَهْلاً للتّصرّف فيه، لذلك فالله سبحانه وتعالى حينما تكلّم عن هذه المسألة قال: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ [النّساء: من الآية ٥]، ولم يقل: وارزقوهم منها؛ لأنّ الرّزق منها يُنقِصها، لكن معنى: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ [النّساء: من الآية ٥]؛ أي: من ريعها وربحها، وليس من رأس المال، وإلّا لو تصوّرنا أنّ أحد الأوصياء على الأيتام عنده مالٌ ليتيم، وأخذ ينفق عليه من هذا المال، ويُخرج منه الزكاة وخلافه،

---

(١) المسند الجامع: حرف الهاء، أبو هريرة الدّوسيّ رضي الله عنه، الحديث رقم (١٤٠٥٤).

فسوف ينتهي هذا المال ويبلغ اليتيم مبلغ الرُّشْد فَلا يجد من ماله شيئاً يُعتَدُّ به، وكأنّ الحقّ ﷻ يقول: حقِّقوا الحسن أوّلاً بالمحافظة على مال اليتيم، ثمّ قدِّموا الأحسن بتنميته له وزيادته زيادةً تتّسع لنفقات حياته، وإلَّا فسوف يشبّ الصّغير، وليس أمامه من ماله شيء. والحقّ ﷻ يريد ألَّا يحرم اليتيم من خبرة أصحاب الخبرة والصّلاحيّة الاقتصاديّة وإدارة الأموال، فقد يكون من هؤلاء مَنْ ليس لديه مالٌ يعمل فيه، فليعمل في مال اليتيم ويُديره له ويُنمّيه، وليأكل منه بالمعروف، وإنْ كان غنيّاً فليستعفف عنه؛ لأنّه لا يحلّ له، يقول ﷻ: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ [النّساء: من الآية ٦]؛ لأنّ الإنسان إذا كان عنده خبرة في إدارة الأموال ولديْه الصّلاحيّة فلا نُعطِّل هذه الخبرة، ولا نحرم منها اليتيم، وهكذا نوفّر نفقة صاحب الخبرة الّذي لا يجد مالاً، ونفقة اليتيم الّذي لا يستطيع إدارة أمواله، وبذلك يتمّ التّكامل في المجتمع الإيمانيّ.

﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ﴾: أي: حتّى يكبر ويبلغ مبلغ الرّجال، ولكن هل هذه الصّفة كافية لكي يُعطى اليتيم المال وقد بلغ سِنّ الرُّشْد؟ لا بدّ أن يكون العقل سليماً، وكلمة: ﴿أَشُدَّهُۥۚ﴾: أي: يبلغ شِدّة تكوينه، ويبلغ الأشدّ؛ أي: تستوي ملكاته استواءً لا زيادة عليه. ففي هذه الآية يبيّن المولى ﷻ الحرص على أموال الأيتام، وعلى تثميرها، وعلى أن نعطي اليتيم حقّه ونكفله.

﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾: هذه الجملة هي محور العلاقات الاقتصاديّة والاجتماعيّة كلّها في المجتمع.

﴿ٱلۡعَهۡدَ﴾: ما تعاقد الإنسان عليه مع غيره عقداً اختياريّاً يلتزم هو بنتائجه ومطلوباته، وأوّل عقدٍ أُبرمَ هو العَقْد الإيمانيّ الّذي أخذه الله ﷻ علينا جميعاً،

وأنت حُرٌّ في أن تدخل على الإيمان بذاتك مختاراً أو لا تدخل، لكن حين تدخل إلى الإيمان مُخْتاراً يجب أن تلتزم بعهد الإيمان: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾؛ لأنّ الله ﷻ لا يريد منّا قوالب تخضع، ولكن يريد مِنّا قلوباً تخشع، ولو أراد الله تعالى منّا قوالب تخضع ما استطاع واحدٌ مِنّا أنْ يشذّ عن الإيمان بالله ﷻ.

﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾: قد يكون معنى: ﴿مَسْـُٔولًا﴾؛ أي: مسؤولاً عنه، فيُسأل كلّ إنسانٍ عن عهده أوفّى به أم أخلفه؟ وقد يراد بـ: ﴿مَسْـُٔولًا﴾؛ أي: مسؤول ممَّنْ تعاقد عليه أنْ يُنفّذه، وكأنّه عدَّى المسؤوليّة إلى العهد نفسه، فأنا حُرٌّ وأنت حُرٌّ، والعهد هو المسؤول.

والحقّ ﷻ يستعمل اسم المفعول في مواضع نقول للوهلة الأولى: إنّه في غير موضعه، ولكن إذا دقّقنا النّظر نجده في موضعه بليغاً غايةَ البلاغة، كما في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء]، هكذا بصيغة اسم المفعول، والحجاب في الحقيقة ساتر وليس مستوراً، ولكنّ الحقّ ﷻ يريد أنْ يجعلَ الحجاب صفيقاً، كأنّه نفسه مستور بحجاب غيره، كما يصنع بعض المترفين ستائر البيوت من طبقتين، فتصبح السّتارة نفسها مستورة، وكما في قوله ﷻ: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النّساء: من الآية ٥٧]؛ أي: أنّ الظّلَّ نفسه مُظَلّلٌ.

ولننظر إلى حال المجتمع إذا لم تُرَاعَ فيه العهود، ولم تُحترمَ المواثيق، مجتمعٌ يستهين أهله بالوفاء وشرف الكلمة، فسوف نجد هذا المجتمع مُفكّكاً فُقِدت فيه الثّقة بين النّاس، وإذا ما فُقِدت الثّقة وضاع الوفاء وشرف الكلمة الّذي تُدار به حركة الحياة فلنعلم أنّه مجتمعٌ فاشل، وليس أَهْلاً لرقيٍّ أو تقدُّم.

ولأهمّيّة العهد في الإسلام نجده ينعقد بمجرّد الكلمة، وليس من الضّروريّ أن يُسجَّل في سجلّات رسميّة؛ لأنّك تثق في كلمة المؤمن حتّى إن لم تُوَثَّق وتُكتَب، ومن هنا وُجِد ما يسمّونه بالحقّ القضائيّ وبالحقّ الدّينيّ، فيقولون: هذا قضاء وهذا ديانة، والفرق واضحٌ بينهما، ويمكن أن نضرب هذا المثل: هَبْ أنّك أخذتَ دَيْناً من صديقٍ لك، وكتبت له مستنداً بهذا الدّين ليطمئنّ قلبه، ثمّ قابلته بعد أن تيسَّر لك السّداد ووفَّيت له بدَيْنه، لكنّه اعتذر لعدم وجود المستند معه الآن، فقلت له: لا عليك أرسله لي متى شئتَ، فلو تصوَّرنا أنّه أراد الغدر بك وأنكر سداد الدّين، فالقضاء يقول: له الحقّ في أخذ دَيْنه، أمّا ديانةً فليس له شيءٌ، فالعهد الّذي نعقده مع النّاس يدخل تحت المسؤوليّة الدّينيّة، وهذا أدعى للحفاظ على حقوق النّاس، بينما القضاء يحكم بالإثباتات والأوراق.

(الآية ٣٥) - ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥﴾:

تنتقل بنا الآيات إلى قضيّةٍ من أخطر قضايا المجتمع، هذه القضيّة هي الّتي تضمن للإنسان نتيجة عرقه وثمار جهده وتعبه في الحياة، ويطمئنّ أنّها عائدةٌ عليه لا على الطّبقة الطّفيليّة الّتي تريد أن تعيش على أكتاف الآخرين وتتغذّى على أموالهم، وبذلك ييأس الكسول الخامل، ويعلم أنّه ليس له مكانٌ في مجتمعٍ عاملٍ نشيط، وأنّه إذا تمادى في خموله فلن يجد لقمة العيش فيأخذ من ذلك دافعاً للعمل، وبذلك تزداد طاقة العمل ويَرْقى المجتمع ويسعد أفراده، صحيحٌ في المجتمع الإيمانيّ إيثارٌ، لكنّه الإيثار الإيجابيّ النّابع من الفرد ذاته، أمّا

الخطف والسّرقة والاختلاس والغَصب فلا مجال لها في هذا المجتمع؛ لأنّه يريد لحركة الحياة أن تستوعب الجميع فلا يتطفّل أحدٌ على أحد.

وإن كنّا نحارب الأمراض الطّفيليّة الّتي تتغذّى على دماء الإنسان، فإنّ الطّفيليّات الآدميّة أَوْلَى بهذه المحاربة، فما دُمْتَ قادراً على العمل فيجب أن تعمل، أمّا غير القادرين من أصحاب الأعذار فلهم حَقٌّ مكفولٌ وفي أعناق الجميع، وهذا هو التّأمين الّذي يكفله الإسلام لكلّ محتاج؛ لذلك نقول للغنيّ الّذي يُسهم في سَدَّ حاجة الفقير: لا تتأفّف ولا تضجر إنْ أُخذ منك مالٌ؛ لأنّ الطّاقة الّتي عملت بها واجتهدتَ وجمعتَ هذا المال طاقة وقدرة ليست ذاتيّة فيك، بل هي هِبَةٌ من الله ﷻ يمكن أنْ تُنزعَ منك في أيّ وقتٍ، وتتبدَّل قوّتك ضعفاً وغِنَاك حاجة، فإنْ حدث لك ذلك فسوف يُعطيك الله ﷻ ويُؤمِّن لك مستقبلك؛ لذلك على الإنسان أن يعيش في الحياة إيجابيّاً، يعمل ويكدح ويُسهِم في رُقيّ الحياة وإثرائها، ولا يرضى لنفسه التّقاعس والخمول؛ لأنّ المجتمع الإيمانيّ لا يُسوِّي بين العامل والقاعد، ولا بين النّشيط والمتكاسل، وما يضمن لك سعادة الحياة وسلامة الحركة فيها، هو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾: والحديث هنا لا يخصُّ الكيْل فقط، بل جميع المقادير المستخدمة في حركة الحياة مثل المقادير الطّوليّة مثلاً، والّتي تُقدّر بالملّيمتر أو السّنتيمتر أو المتر أو الكيلومتر وتُقاسُ بها الأشياء كُلٌّ على حَسْبه، فالكتاب مثلاً يُقَاس بالسّنتيمتر، والحجرة تُقَاس بالمتر، أمّا الطّريق فيُقاس بالكيلومتر وهكذا.. فالتّقدير الطُّوليّ يجب أن تتناسب وحدة القياس فيه مع الشّيء الّذي نقيسه، هذا في الطّوليّات، أمّا في المساحات فيأتي الطّول والعرض، وفي الأحجام:

الطّول والعرض والارتفاع، وفي الكُتَل يأتي الميزان.. فالحياة محكومة في تقديرات الأشياء بالكيْل الّذي يُبيِّن الأحجام، وبالميزان الّذي يُبيّن الكتلة؛ لأنّ الكيْل لا دخلَ له في الكتلة، إنّما الكتلة تُعرَف بالميزان، بدليل أنّ كيلو القطن مثلاً أكبر بكثير من كيلو الحديد، ومعنى ذلك أنّ ميزان التّقدير يجب أن يكون سليماً؛ لذلك يقول ﷻ: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾: يعني: أعطوا المقادير على قدر المطلوب من الطّرفين دون نقص، وقد قال ﷻ في آيةٍ أخرى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطفّفين]، ومعنى المطفّفين الّذين يزيدون، وهؤلاء إذا اكتالوا على النّاس؛ أي: أخذوا حَقَّهم وافياً، وهذا لا لَوْم عليه، وإنّما اللّوم على: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطفّفين]؛ أي: إذا كالوا للنّاس أو وزنوا لهم: ﴿يُخْسِرُونَ﴾؛ أي: ينقصون، هذا هو موضع الذّمِّ ومجال اللّوْم في الآية؛ لأنّ الإنسان لا يُلام على أنّه استوفى حَقَّه، بل يُلام على أنّه لم يُسَوِّ بينه وبين الآخرين، ولم يعامل النّاس بمثل ما يحبّ أنْ يُعاملوه به، ونلاحظ أنّ الكثيرين يفهمون أنّ التّطفيف يكون في الكَيْل والميزان فحسب، لكنّه أيضاً في السّعر، فالبائع الّذي ينقصك الكيلو عشرين جراماً مثلاً فقد بخسَك في الوزن، وطفَّف عليك في الثّمن أيضاً.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾: أي: اجعلوا الوزن دقيقاً مستقيماً لا جَوْرَ فيه.

والمتأمّل يجد أنّ الحقّ ﷻ حينما أراد دقّة الأحجام في تعاملات النّاس أمرهم بإيفاء الكيل حَقَّه، هكذا: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾، أمّا في الوزن فقد ركّز على دِقَّته، وجَعَله بالقسطاس، ليس القسطاس فحسب بل المستقيم، فلماذا هذه الدِّقّة في الميزان بالذّات؟

لو نظرنا إلى عمليّة الكيْل لوجدناها واضحة مكشوفة، قَلَّما يستطيع الإنسان الغِشَّ فيها، وكثيراً ما ينكشف أمره ويُعلَم تلاعبه؛ لأنّ الكيْل أمام الأعين والتّلاعب فيه مكشوف، أمّا الوزن فغير ذلك، الوزن مجالٌ واسعٌ للتّلاعب، ولدى النّاس ألف طريقة وطريقة يبخسون بها الوزن من غير أن يدري بهم أحدٌ؛ لأنّ الميزان كما نعلم رافعة من النّوع الأوّل، عبارة عن محور ارتكاز في الوسط، وكفَّة القوّة في ناحية، وكفَّة المقاومة في النّاحية الأخرى، فأيُّ نَقْصٍ في الذّراعين يُفسِد الميزان، وأيُّ تلاعب في كِفّة القوّة أو المقاومة يُفسِد الميزان.. وسبق أن أوضحنا أنّ ميزان كُلِّ شيءٍ بحسبه، ويتناسب مع قيمته ونفاسته، فالّذي يزن الحجر مثلاً غير الّذي يزن اللّوز، غير الّذي يزن الذّهب أو الألماس؛ لذلك من معاني (القسطاس المستقيم) أن يتناسب الميزان مع قيمة الموزون، فالّذي يبيع الذّهب مثلاً يزن أشياء ثمينة مهما كانت قليلة في الميزان؛ فإنّها تساوي الكثير من المال، لذلك فإنّ أهل الخبرة في هذه المسألة يقولون: احذر من هذا الموضوع، ولا تنسَ أنّ فوقك قيُّوماً، وأنّ الله ﷻ لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا تخفى عليه من أمرك خافية، فانظر إلى الصّفقة، وانظر إلى أنّك إن عَمَّيْتَ على قضاء الأرض فلن تُعمِّي على قضاء السّماء، وسوف تذهب هذه الأموال الّتي اختلستها من أقوات النّاس من حيث أتت، كما قال النّبيّ ﷺ: «**مَنْ أَصَابَ مَالاً مِن نَهَاوِش أَذْهَبَهُ اللهُ فِي نَهَابِرَ**»(١)، وكذلك في المقابل: مَنْ صدق مع النّاس، ووفّى لهم في بيعه وشرائه وتعاملاته يسَّر الله ﷻ له مَنْ يُوفِّي له ويصدُق معه.

(١) كنز العمّال: كتاب البيوع من قسم الأقوال، الباب الأوّل في الكسب، الفصل الأوّل: في فضائل الكسب الحلال، الحديث رقم (٩٢٥٣). النّهاوِش: بكسر الواو: المظالم. والنّهابِر: بكسر الباء: المهالك.

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الوزن بالقسطاس المستقيم خيرٌ وأحسن ﴿تَأۡوِيلٗا﴾؛ أي: عاقبة، ومعنى ذلك أنّ المقابل له ليس خيراً ولا أحسن عاقبة، فالّذي يغشّ النّاس ويخدعهم فإنّه لا يجلب لنفسه إلّا الشّرّ.

(الآية ٣٦) - ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾:

بعد الوصايا كلّها الّتي وردت سابقاً ينتقل الحقّ ﷻ إلى قضيّةٍ أخرى تُنظِّم حركة الحياة والإنسان الّذي استخلفه الله ﷻ في الأرض ووهَبه الحياة وأمدَّه بالطّاقات وبمُقَوِّمَات الحياة وضروريّاتها، وبعد أنْ تكفّل له بالضّروريّات، دَلّه على التّرقّي في الحياة بالبحث والفكر، واستخدام العقل المخلوق لله عزوجل، والمادّة المخلوقة لله ﷻ بالطّاقات المخلوقة لله جل جلاله، فيُرقّي ويُثري حياته ومجتمعه، وكذلك حركة الحياة لا يمكن أنْ تتمَّ إلّا بناءً على قضايا حقيقيّة مضبوطة في الكون، وهذا ما نسمّيه: (العلم).

وقضايا الحياة يمكن أنْ تُقسم إلى قسمين:

- قضايا تختلف فيها الأهواء.
- وقضايا تتّفق فيها الأهواء.

فالقضايا الّتي تختلف فيها الأهواء: هي القضايا الّتي يخدم بها كلّ قائلٍ لها فكرةً عنده فقط، وإنْ كانت ضارّة بغيره، فما دام الأمر قائماً على الأهواء فلا بُدَّ أنْ تختلفَ، فكُلٌّ له هواه الخاصّ، فلو أنّ لكلّ واحدٍ قضيّة ما التقينا على شيءٍ أبداً، وصدق الله ﷻ حين قال: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [المؤمنون: من الآية ٧١]، فما المخرج من هذا الاختلاف والتّبايُن

في الأهواء؟ المخرَج أن يخرج كلّ واحدٍ مِنَّا من هوى نفسه أوّلاً، ثمّ نردّ القضيّة الّتي اختلفتْ فيها أهواؤنا إلى مَنْ لا هوى له.

أمّا القضايا الّتي تتّفق فيها الأهواء فهي القضايا المادّيّة القائمة على المادّة الصَّمَّاء الّتي لا تُجامِل أحداً على حساب أحدٍ، ولا مانعَ أن نتَّبع الآخرين فيها؛ لأنّنا سوف نلتقي عليها قَهْراً ورَغْماً عنكم، فالمعمل الّذي ندخله لنجري التّجارب الّتي توصل لقضيّة ما مادّيّة أو كيماويّة معملٌ محايد لا يُجَامِل أحداً، وقد سبق أن قلنا: إنّ الكهرباء أو الكيمياء أو الفيزياء أو الفضاء ليس فيها روسيّ وأمريكيّ، ليس فيها شرقٌ ولا غربٌ؛ لأنّ هذه أشياء مادّيّة لا خلافَ عليها، والاختلاف هو على القضايا الفكريّة الأهوائيّة، فهذا يكون رأسماليّ، وهذا كذا.. وهذا كذا.. إلخ، فالقسم الّذي لا أهواءَ فيه، نجد مثلاً الكهرباء ينتفع بها النّاس كلّهم، العربيّ والغربيّ والشّرقيّ.. فلا خلاف فيها، أمّا الخلاف فيكون بما يتعلّق بالأمور العقائديّة، لذلك فالحقّ سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، لكي تسير في حركة الحياة على هُدىً وبصيرة.

﴿وَلَا تَقْفُ﴾: أي: لا تتّبع ولا تتدخّل فيما لا عِلْم لك به، كمَنْ يدَّعي مثلاً العلم بإصلاح التّلفاز وهو لا يعلم، فربّما أفسد أكثر ممّا يُصلح، ومن هنا قال أهل الفقه: مَنْ قال: لا أدري، فقد أفتى؛ لأنّه بإعلان عدم معرفته صرف السّائل إلى مَنْ يعلم، أمّا لو أجاب خطأً، فسوف يترتّب على إجابته مَا لا تُحمد عُقْباه، ومَنْ يسلك هذا المسلك في حياته تكون حركته في الحياة حركة فاشلة.

والفعل: (يَقفْو) مأخوذٌ من القفا، وقد قال ﷻ في آيةٍ أخرى: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ [الحديد: من الآية ٢٧]؛ أي: أتبعناهم، ويقفو أثره؛ أي: يسير خَلْفه.

﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾: العلم هنا يُراد به العلم المطلق؛ لأنّ كثيرٌ من النّاس كان يعتقد أنّ العلم يعني العلم الدّينيّ فقط، لكنّ العلم هو كلّ ما يُثري حركة الحياة، والعلم علمان:

– علمٌ دينيٌّ، وهو الّذي يقضي على الأهواء، ويُوحِّدهَا إلى هوىً واحد هو الهَوى الإيمانيّ، وهذا العلم يتولّاه الخالق ﷻ، وليس لنا دَخْل فيه؛ لأنّ الصّانع أَدْرى بصنعته، وهو الّذي يضع لها قانون صيانتها؛ لأنّه يعلم مَا يصلحها ومَا يفسدها.

– أمّا النّوع الآخر من العلم، فهو العلم المادّيّ التّجريبيّ الّذي لا يخضع للأهواء، فقد جعله الخالق ﷻ مجالاً للبحث والتّسابق، ومضماراً يجري فيه الجميع؛ لأنّهم في النّهاية سيلتقون فيه قَهْراً ورَغْماً عنهم، وقد أعطانا الله ﷻ مثالاً لهذا النّوع من العلم، فقال ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ [فاطر]، فذكر الحقّ ﷻ أجناس الوجود كلّها: الإنسان، والحيوان، والنّبات، والجماد، ثمّ ختم ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾، فهذه ظواهر الكون، ارْتَع فيها كما شئت بحثاً ودراسة، وإنْ أحسنتَ الإمعان فيها فسوف تُوصِلك إلى ظواهر أخرى تُثري حياتك وتُرقّيها، فمَنْ

اكتشف عصر البخار، ومَنْ اكتشف العجلة والكهرباء والجاذبيّة وغيرها لم يخلق جديداً في كَوْن الله عَزَّ وَجَلَّ، إنّما أحسن النّظر والتّأمّل فتوصّل إلى ما يُريح المجتمع ويُسعده؛ لذلك فالحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُحذّرنا أن نمرَّ على ظواهر الكون في إعراضٍ وغفلة من غير تمعُّن فيها، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٠٥﴾ [يوسف]، والّذين عبَّروا عن هذه الإنجازات العلميّة بكلمة: (الاكتشافات) كانوا أمناء في التّعبير عن الواقع الفعليّ، فهم لم يخلقوا جديداً في الكون، فكلُّ هذه الأشياء موجودة، والفضل لهم في الاهتداء إليها واكتشافها، ومن هنا فكلمة: (اختراع) ليست دقيقةً في التّعبير عن هذه الاكتشافات، فإذا كان الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نهانا عن تتبُّع ما ليس لنا به علم، فماذا نتبع؟ نتبع ما نعلمه وما نتيقّن منه من علوم، فإنْ كانت في الدّين فكما جاءت من الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإنْ كانت في أمور الدّنيا أعملنا فيها العقل بما ينفعنا ويُثرِي حياتنا؛ لذلك تكلّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك عن وسائل إدراك العلم، فقال:

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾: وما دام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد نهانا عن تتبّع مَا لا نعلم، وأمرنا أن نسير على ضوء ما نعلم من العلم اليقينيّ فلا بُدّ أنْ يسأل المرءُ عن وسائل الإدراك؛ لأنّه لولاها ما عَلِم شيئاً، وهذا واضح في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٧٨﴾ [النّحل]، وهل يشكر الإنسان إلّا على حصيلة أخذها؟ هذه الحصيلة هي العلم، وهذه الحواسّ تُؤدِّي عملها في الإنسان بمجرّد أنْ تنشأ فيه، وبعد أنْ يخرجَ إلى الحياة، وبعضهم يظنّ أنّ الطّفل الصّغير لا يفهم إلّا عندما يكبر ويستطيع الكلام والتّفاهم مع

الآخرين، والحقيقة أنّ الطّفل يدرك ويعي من الأيّام الأولى لولادته، ولذلك، فإنّ علماء وظائف الأعضاء يقولون: إنّ الطّفل يُولَد ولديْه ملكَاتٌ إدراكيّة سمّاها العلماء احتياطاً: (الحواسّ الخمس الظّاهرة)، وإنْ كانت حواسّ الإنسان كثيرة فإنّ أهمّها: السّمع والبصر، وقد وردت في القرآن الكريم بهذا التّرتيب، السّمع أوّلاً، ثمّ البصر:

١- لأنّ السّمع يسبق البصر، فالإنسان بمجرّد أنْ يُولَد تعمل عنده حاسّة السّمع، أمّا البصر فإنّه يتخلّف عن السّمع لعدّة أيّام من الولادة، فهو أسبق في أداء مهمّته.

٢- لأنّ السّمع هو الحاسَّة الوحيدة الّتي تُؤدّي مهمّتها حتّى حال النّوم، وفي هذا حكمة بالغة للخالق ﷻ، فبالسّمع يتمّ الاستدعاء من النّوم.

وقد أعطانا الخالق ﷻ صورةً واضحةً لهذه المسألة في قصّة أهل الكهف، فلمّا أراد ﷻ أن يناموا هذه السّنين الطّوال ضرب على آذانهم وليس على أعينهم، وعطّل حاسّة السّمع لديهم، وإلّا لَمَا تمكّنوا من النّوم الطّويل، ولأزعجتهم الأصوات من خارج الكهف، فقال ﷻ: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١﴾ [الكهف]، ولم يسبق البصر السّمع إلّا في آيةٍ واحدة في كتاب الله ﷻ، وهي: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السّجدة: من الآية ١٢]، والحديث هنا ليس عن الدّنيا، بل عن الآخرة، حيث يفزع النّاس من هَوْلها فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢﴾ [السّجدة]؛ لأنّهم في الآخرة أبصروا قبل أن يسمعوا.

فالسّمع أوّل الحواسّ، وهو أهمّها في إدراك المعلومات وتعلّمها في الدّنيا،

حتّى الّذي يأخذ معلوماته بالقراءة سمع قبل أن يقرأ، فتعلّم أوّلاً بالسّماع ألف باء، ثمّ أتى دَوْر البصر.

ومَنْ يتتبّع الآيات الّتي ورد فيها السّمع والبصر سيجدها جاءت بإفراد السّمع وجمع البصر، مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [السّجدة: من الآية ٩]، إلّا في هذه الآية الّتي نحن بصدد الحديث عنها، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾، لماذا؟ وما الحكمة من إفرادها هنا بالذّات؟ وقبل أن نُوضِح الحكمة هنا يجب أن نعي أنّ المتكلّم هو الله سبحانه وتعالى، وما دام المتكلّم هو الله جلّ جلاله فلا بُدَّ أن تجد كلّ كلمة دقيقة في موضعها، بليغة في سياقها، فالسّمع جاء بصيغة الإفراد؛ لأنّه لا يتعدّد فيه المسموع بالنّسبة إلى السّامع، فإذا حدث الآن صوت نسمعه جميعاً، فهو واحدٌ في جميع الآذان، أمّا البصر فهو خلاف ذلك؛ لأنّ أمامنا الآن مرائيَ متعدِّدة ومناظر مختلفة، فأنت ترى شيئاً، وأنا أرى شيئاً آخر، فَوحْدة السّمع لا تنطبق على البصر؛ لذلك أفرد السّمع وجاء البصر بصيغة الجمع، أمّا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ﴾ فقد ورد البصر هنا مفرداً؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى يتحدّث عن المسؤوليّة، مسؤوليّة كلّ إنسان عن سَمْعه وبصره، فأمرٌ طبيعيٌّ أن يفرده، والمسؤوليّة أمام الله سبحانه وتعالى مسؤوليّة فرديّة لا يُسأل أحدٌ عن أحدٍ، بل يُسأل عن نفسه فحَسْب، فناسب ذلك أنْ يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ﴾؛ لأنّه سيُسأل عن بصرٍ واحدٍ وهو بصره، فالإنسان مسؤولٌ عن سَمْعه وبصره وفؤاده من حيث التّلقِّي، تلقّي القضايا العلميّة، والفؤاد يعبّر عن القلب وهو محطّ الأمور الّتي تُعقَد كعقائد وتنتقل إلى الدّماغ، فكأنّ الله سبحانه وتعالى يقول للأُذُن: لا تسمعي إلّا خيراً، ولا تتلقّيْ إلّا طيّباً، ويدعو الإنسان إلى أن

يُربِّي النّشء على ألَّا يسْمع إلَّا ما يدعو إلى فضيلة، ولا يُعطِ أذنه إلَّا للصّالح، ويقول للعين: لا ترَيْ إلَّا الحلال، ونحجب عنها ما هو حرامٌ ويفسد الحياة؛ وبذلك نربّي في المجتمع المعلومات الصّحيحة الّتي تنبني عليها حركة الحياة.

وما دُمْنا مسؤولين عن أعضائنا هذه المسؤوليّة، ومحاسبين عنها، فإيّاك أنْ تقولَ: سمعت، وأنت لم تسمع، وإيّاك أنْ تقولَ: رأيتُ، وأنت لم تَرَ، إيّاك أنْ تتعرّض لشهادة زور تُدلي فيها بغير ما تعلم وتتيقّن، أو تتبنّى قضيّةً خاطئةً وتبني عليها حركة حياتك؛ لأنّ ما يُبنى على مقدّمات فاسدة ينتج عنه نتائج فاسدة، وما بُنِي على مقدِّمات صحيحة أنتج النّتيجة الصّحيحة، وجماع هذا كلّه في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، لماذا؟ لأنّك محاسبٌ على علمك هذا وعلى وسائل إدراكه لديك.

(الآية ٣٧) - ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾:

ما زالت الآيات تسير في خطٍّ واحدٍ، وترسم لنا طريق التّوازن الاجتماعيّ في المجتمع، فالمجتمع المتوازن يصدر في حركته عن إلهٍ واحد، هو الّذي وضع الأديان، والمتتبّع لهذه الآيات يجد بها منهجاً قويماً لبناء مجتمعٍ متماسكٍ ومتوازن، هذه الآيات موجودةٌ في الأديان كلّها بهذه المعاني، والألواح الّتي جاء بها موسى عليه السلام فيها هذه المعاني ذاتها الّتي وردت من بدء الآية من قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: من الآية ٢٢]، وهذه قضيّة القمّة الّتي لا تنتظم الأمور إلّا في ظلّها، ثمّ قسّم المجتمع إلى طبقات، فأوصى بالطّبقة الكبيرة الّتي

أدَّت مهمّتها في الحياة، ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: من الآية ٢٣]، وحان وقت الإكرام وردِّ الجميل، فأوصى بالوالدين وأمر ببرِّهما، ثمّ توجّه إلى الطّبقة الصّغيرة الّتي تحتاج إلى رعاية وعناية، فأوصى بالأولاد، ونهى عن قتلهم خَوْفَ الفقر والعَوز، وخَصَّ بالوصيّة الأيتام؛ لأنّهم ضعفاء يحتاجون إلى مزيدٍ من الرّعاية والعناية والحنوّ، ثمّ تكلّم عن المال، وهو قوام الحياة، واختار فيه الاعتدال والتّوسُّط، ونهى عن طرفَيْه: الإسراف والإمساك، ثمّ نهى عن الفاحشة، وخصَّ الزّنا الّذي يُلوِّث الأعراض ويُفسد النّسل، ونهى عن القتل وسَفْك الدّماء، ثمّ تحدّث عمَّا يحفظ للإنسان ماله، ويحمي تعبه ومجهوداته، فأمر بتوفية الكيل والميزان، ونهى عن الغشّ فيهما والتّلاعب بهما، ثمّ حَثَّ الإنسان على الأمانة العلميّة، حتّى لا يقول بما لا يعلم، وحتّى لا يبني حياته على نظريّات خاطئة، أليس هذا منهج وأسلوب حياة يضمن سلامة المجتمع؟! وسلامة المجتمع ناشئة من سلامة حركة الإنسان فيه؛ لذلك يريد الله سبحانه وتعالى أنْ يضع له توازناً اجتماعيّاً، وأوّل شيءٍ في هذا التّوازن الاجتماعيّ أنّنا جميعاً عند الله عزّ وجلّ سواء، وكلّنا عبيده، وليس منّا مَنْ بينه وبين الله عزّ وجلّ نَسَبٌ أو قرابة، فالجميع عند الله جلّ جلاله عبيدٌ كأسنان المشط، لا فَرْق بينهم إلَّا بالتّقوى والعمل الصّالح، قال صلى الله عليه وسلم: «**أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى**»(١)، وإنْ تفاوتت أقدارنا في الحياة فهو تفاوتٌ ظاهريٌّ شكليٌّ؛ لأنّك حينما تنظر إلى هذا التّفاوت لا تنظر إليه من

(١) مسند الإمام أحمد: أحاديث رجال من أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وسلم، الحديث رقم (٢٣٤٨٩).

زاويةٍ واحدةٍ، فتقول مثلاً: هذا غنيّ، وهذا فقيرٌ، ومعظم النّاس يهتمّون بهذه النّاحية من التّفاوت، ويَدَعُون غيرها من النّواحي الأُخرَى، وهذا لا يصحّ، بل يجب أن ننظر إلى الجوانب الأخرى في حياة الإنسان، وإلى الزّوايا المختلفة في النّفس الإنسانيّة، ولو سلكنا هذا المسلك فسوف نجد أنّ مجموع كلّ إنسان يساوي مجموع كلّ إنسان، وأنّ الحصيلة واحدة، وصدق الله العظيم القائل: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: من الآية ١٣]، وما دام المجتمع على هذه الصّورة فلا يصحّ لأحدٍ أنْ يرفعَ رأسه في المجتمع ليعطي لنفسه قداسةً أو منزلةً فوق منزلة الآخرين، فقال ﷻ:

﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾: أي: فخراً واختيالاً، أو بَطَراً أو تعالياً؛ لأنّ الّذي يفخر بشيءٍ ويختال به، ويظنّ أنّه أفضل من غيره، يجب أن يضمن لنفسه بقاء مَا افتخر به، بمعنى أن يكون ذاتيّاً فيه، لا يذهب عنه ولا يفارقه، فالإنسان يكون حيّاً فيموت، يكون غنيّاً فيصبح فقيراً.. لكن من حكمة الله ﷻ أنْ جعل كلّ ما يمكن أن يفتخر به الإنسان هِبةً له، وليست أصيلة فيه، أمور الإنسان كلّها، بدايةً من إيجاده من عدمٍ إلى الإمداد من عُدمٍ هي هبةٌ يمكن أنْ تُستردّ في يومٍ من الأيّام، وهكذا بالنّسبة إلى المال والفقر.. إلخ، فالتّواضع والأدب أليَقُ بنا، والتّكبُّر والتّعالي لا يكون إلّا للخالق ﷻ، فلا ننازعه ﷻ في صفةٍ من صفاته، وقد نهانا الله ﷻ عن ذلك؛ لأنّه لا يستحقّ هذه الصّفة إلّا هو ﷻ، وكَوْنُ الكبرياء لله ﷻ يعصمنا من الانصياع للكبرياء الكاذب، وهنا يجب أن ننتبه: فمَنْ أحبّ أن يرى مساواة الخَلْق أمام الخالق ﷻ، فلينظر إلى العبادات، ففيها استطراق العبوديّة في النّاس، فحينما يُنادَى للصّلاة مثلاً ترى

الجميع سواسية: الغنيّ والفقير، والرّئيس والمرؤوس، الوزير والخفير، الكلّ راكعٌ أو ساجد، الكلّ خاضعٌ لله سُبحانه وتعالى مُتذلّلٌ لله عزّ وجلّ فقيرٌ لله جلّ جلاله، الكلّ عبيدٌ لله سُبحانه وتعالى خلعوا أقدارهم عندما خلعوا نعالهم خارج المسجد، ففي ساحة الرّحمن يتساوى الجميع، وتتجلّى لنا هذه المساواة بشكلٍ أوضح في مناسك الحجّ.

﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾: في هذه العبارة نلحظ إشارة توبيخ وتقريع، كأنّ الحقّ سُبحانه وتعالى يقول لهؤلاء المتكبّرين، ولأصحاب الكبرياء الكاذب: كيف تتكبّرون وتسيرون فخراً وخيلاء بشيءٍ موهوبٍ لكم غير ذاتيّ فيكم؟! فأنتم بهذا التّكبُّر والتّعالي لن تخرقوا الأرض، بل ستظلّ صلبةً تتحدّاكم، وهي أدنى أجناس الوجود وتُدَاس بالأقدام، وستدفنون تحتها، وكذلك الجبال، وهي أيضاً جماد ستظلّ أعلى منكم قامةً ولن تطاولوها.

وللننظر إلى أجناس الكون: الجماد والنّبات والحيوان والإنسان، والإنسان ينتفع بهذه الأجناس كلّها، فالجماد ينفع النّبات، والحيوان والنّبات ينفع الحيوان والإنسان، والحيوان ينفع الإنسان، والأجناس جميعها مُسخّرة في خدمة الإنسان، وهذا من عطاء الله سُبحانه وتعالى، وعلى الإنسان أن يكون مع عطاء الله سُبحانه وتعالى غير متكبّر ولا ينظر إلى غيره نظرة علوّ، وينظر إلى الفقير نظرة ازدراء.

(الآية ٣٨) - ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ٣٨﴾:

أي: كُلِّ ما تقدّم من وصايا وتوجيهات بدايةً من قوله سُبحانه وتعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: من الآية ٢٢]، هذه الأمور الّتي تقدَّمَتْ، تحفظ للمجتمع توازنه وسلامته وتُبيِّن السّيّء والحسن... والسّيّء يُبغضه الله سُبحانه وتعالى.

وهذه الأوامر والنّواهي الّتي تقدَّمتْ يقولون: إنّها الوصايا العَشْر الّتي نزلت على موسى عليه السلام، والمقصودة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: من الآية ١٤٥]، ولذلك يقول الحقّ سبحانه وتعالى:

(الآية ٣٩) - ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: أي: ما تقدّم من الوصايا.

﴿ٱلْحِكْمَةِ﴾: هي: وَضعْ الشّيء في مَوْضِعه المؤدّي للغاية منه، لِتظلَّ الحكمة سائدة في المجتمع تحفظه من الخلل والحمْق والسَّفَه والفساد.

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾: قد يسأل سائلٌ: لماذا كرَّر هذا النّهي، وقد سبق أنْ ذُكِر في استهلال المجموعة السّابقة من الوصايا؟ إيّاك أنْ تجعلَ معه إلهاً آخر، وكرَّر الحقّ سبحانه وتعالى هذا النّهي: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ لأنّها المبتدأ والمنتهى؛ ولأنّ بعض النّاس يعتقدون أنّهم يستطيعون أن يسيّروا الأمور وفق أهوائهم ورغباتهم، ولكنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي أوحى إلى رسله هذه الأحكام الّتي تضمن سلامة أيّ مجتمعٍ من المجتمعات، وليحذر الإنسان أن يتزحزح عن هذه الضّمانة.

﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾: ﴿مَلُومًا﴾: لأنّك أتيتَ بما تُلاَم عليه.

﴿مَّدْحُورًا﴾: أي: مطروداً مُبْعَداً من رحمة الله جلّ وعلا، وهذا الجزاء في الآخرة.

(الآية ٤٠) - ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾:

بعض المشركين قالوا: الملائكة بنات الله، فوبَّخهم الله ﷻ: كيف تجعلون للخالق ﷻ البنات ولكم البنين، إنّها قسمةٌ جائرة، كما قال ﷻ في آيةٍ أخرى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النّجم]؛ أي: قسمةٌ جائرة.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ﴾: أي: اصطفاكم واختار لكم البنين، وأخذ لنفسه البنات؟ ويقول ﷻ في آيةٍ أخرى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًاۚ﴾ [الزّخرف: من الآية ١٥]، لذلك قال ﷻ بعدها:

﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾: فوصف قولهم بأنّه عظيمٌ في القُبْح والافتراء على الله ﷻ، ثمّ يقول الحقّ ﷻ:

(الآية ٤١) - ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾: أي: حَوَّلْنا الشّيء من حالٍ إلى حال، ومنها قوله ﷻ: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ [البقرة: من الآية ١٦٤]، يعني تغييرها من حالٍ إلى حال، فمرّة: تراها هادئةً عليلة، ومرّة تجدها قويّة، ومرّة: تجدها إعصاراً مدمّراً، والرّياح قد تكون لواقح تأتي بالخير والنّماء، وقد تكون عقيماً لا خير فيها، هذا هو المراد بالتّصريف، فمعنى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾: أي: صرّف الحقّ ﷻ مسألة ادّعاء اتّخاذ الله ﷻ الأبناء والبنات والشّركاء في القرآن الكريم، وعالجها في كثيرٍ من المسائل؛ لأنّه أمرٌ مهمٌّ جدّاً، فهو أمرٌ عقائديّ، عالجه القرآن الكريم في

سُورٍ متعدّدة، فتكرّر ذِكْر هذه المسألة، والتّكرار قد يكون في الشّيء ذاته، وقد يكون باللّفّ بالشّيء، كما في قوله سُبحانه وتعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرّحمن].

﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾: أي: بدلَ أنْ يذكروا ويعودوا إلى جَادّة الصّواب ازدادوا إعراضاً ونفوراً، ولنا أن نسأل: لماذا الإعراض والنّفور منهم؟ الجواب: لأنّهم أرادوا الاحتفاظ بالمصالح والمكاسب الّتي كانت لهم في مكّة قبل الإسلام.

(الآية ٤٢) - ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢﴾:

أي: لو كان مع الله عزّ وجلّ آلهةٌ أخرى لَطلبتْ هذه الآلهةُ طريقاً إلى ذي العرش، وقد عالج الحقّ سُبحانه وتعالى هذه القضيّة في قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: من الآية ١٨]، وهذه قضيّة: إمّا أنْ تكونَ صادقة، وإمّا أن تكون غير ذلك، بالنّقاش العقليّ، فإنْ كانت صادقة فقد انتهتْ المسألة، وإنْ كانت غير صادقة، وهناك إله ثانٍ، فأين هو؟ لماذا لم نسمع به؟ فإنْ كان موجوداً، ولا يدري أو كان يدري بهذه القضيّة، ولكنّه تقاعس عن المواجهة ولم يعارض، ففي الأحوال كلّها لا يستحقّ أن يكون إلهاً، فما دام أنّ الله سُبحانه وتعالى شهد لنفسه بالوحدانيّة، ولم يَقُمْ له معارضٌ فقد سَلِمتْ له هذه الدّعوى.

وكلمة: ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ لا تُقَال إلّا لِمَنْ له الأمر والحكم، وابتغاء الطّريق إلى ذي العرش، إمّا ليواجهوه ويبطلوا دعوته، فإن غلبوا فقد انتهت المسألة، وإن غُلبوا فعلى الأقلّ يذهب كلّ إله بما خلق، كما قال سُبحانه وتعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١﴾ [المؤمنون].

وينزِّه الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نفسه، فيقول:

(الآية ٤٣) - ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣﴾:

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: يعني تنزيهاً مطلقاً له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله، فللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذاتٌ ليست كذاتك، وله صفاتٌ ليست كصفاتك، وله أفعالٌ ليست كأفعالك؛ لأنّ الأشياء تختلف في الوجود بحَسْب المُوجِد لها، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حيٌّ وأنت حيّ، لكنّك تموت، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حيٌّ لا يموت.

﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾: أي: تعالى الله وتنزَّه عَمَّا يقول هؤلاء علوّاً كبيراً؛ لأنّ النّاس تتفاوت في العلوّ، ونلاحظ أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اختار: ﴿كَبِيرًا﴾، ولم يَقُلْ: (أكبر)، وهذا من قبيل استعمال اللّفظ في موضعه المناسب؛ لأنّ ﴿كَبِيرًا﴾ تعني: أنّ كلّ ما سواه صغير، لكن (أكبر) تعني أنّ ما دونه كبيرٌ؛ أي: مُشَارِكٌ له في الكِبَر؛ لذلك نقول في نداء الصّلاة: الله أكبر، وهي صفة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وليست من أسمائه؛ ذلك لأنّ من أعمال الحياة اليوميّة ما يمكن أن يُوصَف بأنّه كبير، كأعمال الخير والسّعي على الأرزاق وتربية الأولاد، فهذه كبيرة، ولكن: الله أكبر.

(الآية ٤٤) - ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾: التّسبيح: هو حيثيّة الإيمان بالله تعالى؛ لأنّك لا تؤمن بأحدٍ في شيءٍ إلّا أنْ تثق أنّ مَنْ آمنت به فوقك في ذلك الشّيء، فأنت لا تُوكِّل أحداً بعملٍ إلّا إذا أيقنتَ أنّه أقدر منك وأحكم وأعلم، فإذا كنت قد آمنت بإلهٍ واحدٍ، فحيثيّة ذلك الإيمان أنّ هذا الإله

الواحد فوق كلّ المألوهين جميعاً، وليس لأحدٍ شبه به، ولا نسبٌ معه، وإن اشترك معه في مُطْلَق الصّفات، فالله ﷻ غنيٌّ وأنت غنيٌّ، لكنّ غنى الله ﷻ ذاتيٌّ وغِنَاك موهوبٌ، يمكن أنْ يُسلب منك في أيّ وقت، وكذلك في صفة الوجود، فالله ﷻ موجودٌ وأنت موجودٌ، لكنّ وجوده ﷻ لا عن عَدَم، بل هو وجودٌ ذاتيٌّ، أمّا وجود الإنسان موهوبٌ سينتهي في أيّ وقت، فتسبيح الله ﷻ هو حيثيّة الإيمان به كإله، وإلّا لو أَشْبَهْنَاه في شيءٍ أو أشْبَهَنَا في شيءٍ ما استحقّ أن يكون إلهاً.

والتّسبيح: هو التّنزيه، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، وهذا ثابتٌ لله ﷻ قبل أن يوجد الخلق، وقبل أن يوجَد مَنْ يُسَبِّحه ومَنْ يُنزِّهه، والحقّ تبارك وتعالى مُنزَّهٌ بذاته، والصّفة كائنة له قبل أن يخلق الخلق؛ لأنّه خالقٌ قبل أن يخلق، كما نقول -ولله المثل الأعلى-: فلان شاعر، أهو شاعرٌ لأنّه قال قصيدة؟ أم شاعرٌ بذاته قبل أن يقول شعراً؟ الواقع أنّ الشّعر موهبة، وملَكة عنده، ولولاها ما قال شعراً، فهو شاعرٌ قبل أن يقول، ولله المثل الأعلى، كذلك فصفات الكمال في الله ﷻ موجودةٌ قبل أن يوجد الخَلْق، لذلك فإنّ المتتبّع لهذه المادّة في القرآن الكريم، مادّة (سبّح) يجدها بلفظ: (سُبْحان) في أوّل سورة الإسراء: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: من الآية ١]، ومعناها أنّ التّنزيه ثابت لله ﷻ قبل أن يخلق من ينزّهه، ثمّ بلفظ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الحديد: من الآية ١]، بصيغة الماضي، والتّسبيح لا يكون من الإنسان فقط، بل من السّموات والأرض، وهي خَلْقٌ سابقٌ للإنسان، ثمّ يأتي بلفظ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجمعة: من الآية ١]، بصيغة المضارع؛ ليدلّ على أنّ

تسبيح الله ﷻ ليس في الماضي، بل ومستمرٌّ في المستقبل لا ينقطع، فما دام التّسبيح والتّنزيه ثابتاً لله ﷻ قبل أن يخلق مَنْ يُنزِّهه، وثابتاً لله ﷻ من جميع مخلوقاته في السّموات والأرض، فلا تكُنْ أيّها الإنسان نشازاً في منظومة الكون، ولا تخرج عن هذا النّشيد الكونيّ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ١﴾ [الأعلى].

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾: أي: ما من شيء، كلّ ما يُقال له: شيء، والشّيء هو جنس الأجناس، فالمعنى أنّ ما في الوجود كلّه يُسبِّح بحمده ﷻ، وقد وقف العلماء أمام هذه الآية، وقالوا: أيّ تسبيح دلالة على عظمة التّكوين، وهندسة البناء، وحكمة الخلق، وهذا يلفتنا إلى أنّ الله ﷻ مُنزَّه ومُتعَالٍ وقادر، ولكنّهم فهموا التّسبيح على أنّه تسبيح دلالة فقط؛ لأنّهم لم يسمعوا هذا التّسبيح ولم يفهموه، وقد أخْرَجَنا الحقّ ﷻ من هذه المسألة بقوله:

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ﴾: فيوجد تسبيح دلالة فعلاً، لكنّه ليس هو المقصود، المقصود هنا التّسبيح الحقيقيّ كُلٌّ بِلُغتِه، فقوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ﴾ يدلّ على أنّه تسبيح فوق تسبيح الدّلالة الّذي آمن بمقتضاه المؤمنون، إنّه تسبيحٌ حقيقيٌّ ذاتيٌّ ينشأ بلغة كلّ جنس من الأجناس، وإذا كنّا لا نفقه هذا التّسبيح، فقد قال ﷻ: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ﴾ [النّور: من الآية ٤١]، فكلّ شيءٍ في الوجود عَلِم كيف يُصلّي لله ﷻ، وكيف يُسبِّح لله ﷻ، وفي القرآن الكريم آياتٌ تدلّ بمقالها ورمزيّتها على أنّ كلّ عَالَم في الوجود له لغة يتفاهم بها في ذاته، وقد يتسامى الجنس الأعلى ليفهم عن الجنس الأدنى لُغته، فكيف نستبعد وجود هذه اللّغة لمجرّد أنّنا لا نفهمها؟! وها هم النّاس أنفسهم ولهم في الأداء القوليّ لغة يتفاهمون بها، ومع ذلك تختلف بينهم اللّغات، ولا

يفهم بعضهم بعضاً، فإذا ما تكلّم الإنجليزيّ مع أنّه يتكلّم بألفاظ العربيّ ومع ذلك لا يفهمه؛ لأنّه ما تعلَّم هذه اللّغة، واللّغة ظاهرةٌ اجتماعيّةٌ، بمعنى أنّ الإنسان يحتاج إلى اللّغة؛ لأنّه في مجتمعٍ يريد أن يتفاهم معه ليعطيه ما عنده من أفكار، ويسمع ما عنده من أفكار، فلا بُدَّ من اللّغة لنقل هذه الأفكار، ولو أنّ الإنسان وحده ما كان في حاجةٍ إلى لغة؛ لأنّه سيفعل ما يخطر بباله وتنتهي المسألة، واللّغة لا ترتبط بالدّم أو الجنس أو البيئة؛ لأنّك لو أتيتَ بطفلٍ إنجليزيٍّ مثلاً، ووضعتَه في بيئةٍ عربيّةٍ سيتكلّم العربيّة؛ لأنّ اللّغة ظاهرةٌ اجتماعيّةٌ تعتمد على السّمع والمحاكاة؛ لذلك إن لم تسمع الأذن لن تستطيع أن تتكلّم، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: من الآية ١٨]، فهم بُكْم لا يتكلّمون؛ لأنّهم صُمٌّ لم يسمعوا شيئاً، فما تسمعه الأذن يحكيه اللّسان، فبالسّماع انتقلتْ اللّغة، وكُلٌّ سمع من أبيه وأمّه، ومن البيئة الّتي يعيش فيها، فإذا ما سلسلْنا هذه المسألة سنصل إلى آدم عليه السلام، وهنا يأتي السّؤال: وممَّنْ سمع آدم عليه السلام اللّغة الّتي تكلّم بها؟ لقد حلَّ لنا القرآن الكريم هذه القضيّة في قوله ﷻ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: من الآية ٣١]، فكيف نستبعد أنّنا لا نعلم لغة المخلوقات الأخرى من حيوان ونبات وجماد؟ ألم يكْفِنا ما أخبرنا الله ﷻ به من وجود لغة للمخلوقات جميعها، وإنْ كنّا لا نفهمها؛ لأنّنا نعتقد أنّ اللّغة هي النّطق باللّسان فقط، ولكن اللّغة أوسع من ذلك، فهناك مثلاً لغة الإشارة، ولغة النّظرات، ولغة التّلغراف، فاللّغة ليست اللّسان فقط، بل هي استعداد لاصطلاح يُفْهم ويُتعارف عليه، فالخادم مثلاً يكفي أن ينظرَ إليه سيّده نظرة يفهم منها ما يريد، فهذه النّظرة لَوْنٌ من ألوان الأداء، والآن بدأنا نسمع عن

قواميس يُسجّل بها لغات بعض الحيوانات لمعرفة ما تقول، وقد أعطانا الله سبحانه وتعالى إشارات تدلّ على أنّ لكلّ عَالَم لغة يتفاهم بها، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: من الآية ٧٩]، فالجبال تُسبّح مع داود عليه السلام، وتُسبّح مع غيره، ولكنّ المراد هنا أنّها تُسبّح معه ويوافق تسبيحها تسبيحه، وكأنّهما في أنشودةٍ جماعيّةٍ منسجمة، فلا بُدَّ أنّ داود عليه السلام قد فَهِم عنها وفهمتْ عنه، وكذلك النّملة الّتي تكلّمتْ أمام سليمان عليه السلام ففهم كلامها، وتبسَّم ضاحكاً من قولها: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النّمل]، وقد علَّمه الله سبحانه وتعالى منطقَ الطّير، فلكلّ جنسٍ من الأجناس منطق يُسبّح الله سبحانه وتعالى به، ولكن لا نفقه هذا التّسبيح، حتّى الحصا تُسَبِّح، وقد سمع النّبيّ صلى الله عليه وسلم تسبيحها.

وقد جعل الحقّ سبحانه وتعالى تنزيهه مطلقاً ينقاد له الجميع، حتّى غير المؤمن ينقاد لتنزيه الله سبحانه وتعالى قَهْراً عنه، مع أنّ لديه ملكةَ الاختيار بين الكفر أو الإيمان، لكنّ الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون تنزيهه مُطْلقاً من الجماد والنّبات والحيوان، ومن المؤمن وغير المؤمن، فأطلق الله سبحانه وتعالى على ذاته لفظ الجلالة (الله) فهو عَلَمٌ على واجب الوجود، ثمّ تحدّى الكافرين أنْ يُسمُّوا أحداً بهذا الاسم، فقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: من الآية ٦٥]، فالسُّبحانيّة هي الدّليل السّائد الشّامل الجامع للخَلْق كلّهم، فالتّسبيح لغة الكون كلّه، منه ما نفهمه، ومنه ما لا نفهمه، إلّا مَنْ أطلعه الله سبحانه وتعالى عليه، فإذا مَنَّ الله عز وجل على أحدٍ وعلّمه لغة الطّير أو الحيوان أو

النّبات أو الجماد، فهمها وفقه عنها، كما أنعم بهذه النّعم على داود وسليمان الّذي يقول شاكراً هذه النّعمة: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النّمل: من الآية ١٩]، فقول الحقّ ﷻ: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ علينا أنْ ننقلها من خاطر الدّلالة إلى خاطر المقالة أيضاً، ولكنّها مقالة بلغة يفهمها أصحابها إذا شاء الله ﷻ لهم ذلك. ثمّ يُذيّل الحقّ ﷻ هذه الآية بقوله:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾: لأنّ الإنسانَ كثيراً ما يغفل الاستدلال بظواهر الكون وآياته دلالة الحال، فيقف على قدرة الله ﷻ وبديع صُنْعه، وكذلك كثيراً ما يغفل عن تسبيح الله ﷻ تسبيح المقالة؛ لذلك أخبر ﷻ أنّه حليمٌ لا يعاجل الغافلين بالعقوبة، وغفورٌ لمن تاب وأناب، وهذا من رحمته ﷻ بعباده، فلولا أنْ يتداركَ الله ﷻ العباد بهذه الرّحمة لكان الإنسان أقلّ حظّاً من كلّ المخلوقات، ولنتدبّر قول الله ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ [الحجّ: من الآية ١٨]؛ لأنّ الإنسان مختار، فالأجناس جميعها من جماد ونبات وحيوان تسجد لله ﷻ لا يتخلّف منها شيءٌ؛ لأنّها غير مختارة: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فصّلت]، فهي تسجد وتُسبّح بالإجماع، ولم ينقسم الأمر إلّا عند الإنسان؛ لأنّه مكرّم بالاختيار، وهو الوحيد الّذي شَذَّ عن هذه المنظومة عندما رفض الإيمان بالله ﷻ، وحريّة الاختيار هذه لأنّ الله ﷻ أراد للإنسان أن يختار المحبوبيّة لله ﷻ، وأن يختار عبادة الله ﷻ ولا يكون مقهوراً عليها، قال ﷻ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦].

(الآية ٤٥) - ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾:

الله ﷻ يعدّل الأشياء تنفيذاً لأشياء أخرى، ويصنع أحداثاً أوّليّة لتكون بمثابة المقدّمة والتّمهيد لأحداث أخرى أهمّ منها، وكفّار مكّة ما ادَّخروا وُسْعاً، وما تركوا وسيلة من وسائل الإيذاء لرسول الله ﷺ والتّنكيل به إلّا فعلوها، ومع ذلك لم يُفَاجأ بها رسول الله ﷺ، ولم تُثبِّط من عزيمته؛ لأنّه كان مُتوقِّعاً لكلّ هذا الإيذاء، ولديه من سوابق الأحداث ما يعطيه الحصانة الكافية لمقابلة الشّدائد، فهو قبل أن يُبعث جاءه جبريل عليه السلام للمرّة الأولى في الغار، وعاد إلى السّيّدة خديجة رضي الله عنها فزِعاً، وعندها ذهبتْ به ﷺ إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل، فطمأنه بأنّ هذا هو النّاموس الإلهيّ، وأنّه ﷺ سيكون مبعوث السّماء إلى الأرض، وأنّه نبيُّ هذه الأمّة، وقال فيما قال: "هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ فِيهَا جَذَعاً، أَكُونُ حَيّاً حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ"، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟**»، قَالَ: "نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ وَأُوذِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً"[1]، فالحقّ ﷻ حصَّن رسوله ﷺ ضدّ ما سيأتي من أحداث؛ لكي يكون على توقُّع لها، ولا تحدث له المفاجأة، وعندما أعطاه الطُّعْم المناسب للدّاء قبل حدوثه، تكوّنت لديه المناعة الكافية، واليقين الثّابت بنصر الله ﷻ له مهما ادْلهَمّتْ الخطوب، وضاق الخناق عليه ﷺ وعلى أصحابه.

---

(١) صحيح ابن حبّان: كتاب الوحي، الحديث رقم (٣٣).

والحديث عن الّذين لا يؤمنون بالآخرة، وما داموا كذلك فليس لهم إلّا الدّنيا، هي فرصتهم الوحيدة، لذلك يحرصون على استنفاد شهواتهم كلّها فيها، ولا يؤخِّرون منها شيئاً، فالمؤمن قد ينظر في هذه الحياة إلى الآخرة وما ينتظره، أمّا غير المؤمن فلماذا يؤجِّل المُتعة؟ فهؤلاء ما يجعلهم يتهافتون على شهواتهم أنّهم غير مؤمنين بالآخرة، فإذا جاء رسولٌ بمنهجٍ ليعدّل حركة النّاس لتنسجم مع الكون، فلا بُدّ أن يثور هؤلاء الحريصون على شهواتهم ومكانتهم، لا بُدَّ أنْ يصادموا هذه الدّعوة، وأن يقاوموها في ذات الرّسول ﷺ وفي منهجه، في ذاته بالإيذاء، وفي دعوته ومنهجه بصَرْف النّاس عنه، ألم يقل كفّار مكّة لمن يَرَوْن عنده مَيْلاً للإسلام: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴿٢٦﴾﴾ [فصِّلت: من الآية ٢٦]، وقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ [فصّلت: من الآية ٢٦]، شهادة منهم بصدق القرآن الكريم، وأنّه ينفذ إلى القلوب ويؤثّر فيها، وإلّا لما قالوا هذا القول، وقولهم: ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصّلت: من الآية ٢٦]؛ أي: شَوِّشوا عليه حتّى لا يصل إلى آذان النّاس، فهم واثقون من صدق رسول الله ﷺ وصدق دعوته، وقد دَلَّتْ تصرّفاتهم على ذلك، فحينما كان رسول الله ﷺ يذهب إلى الكعبة، ويجلس بجوارها يُدندِن بآيات القرآن الكريم كان صناديد الكفر في مكّة يتعمّدون سماع القرآن الكريم، والتّلذُّذ بروعته وبلاغته.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾: يُرْوى أنّ أبا جهل، وأبا سفيان، وأبا لهب، وأمّ جميل كانوا يتابعون رسول الله ﷺ، ويتنصَّتون عليه وهو يقرأ القرآن الكريم ليروْا ما يقول، وليجدوا فرصة لإيذائه ﷺ، فكان الحقّ سبحانه وتعالى يصمُّ آذانهم عن سماع القرآن الكريم، فالرّسول ﷺ يقرأ وهم لا

يسمعون شيئاً، فينصرفون عنه بغيظهم، وكأنّ الحقّ سبحانه وتعالى يريد من هذه الواقعة أن تكون تمهيداً لحدثٍ أهمّ، وهو ما كان من رسول الله ﷺ ليلة الهجرة، ليلة أنْ بيّتوا له القتل بضربة رجلٍ واحدٍ، فتحرسه عناية الله عز وجل وتقوم له: اخرج عليهم ولا تخف، فإنّ الّذي جعلك تقرأ وجعل بينك وبينهم حجاباً مستوراً فلا يستمعون إليك، هو الّذي سينزل على أعينهم غشاوة فلا يرونك.

﴿حِجَابًا﴾: الحجاب: هو المانع من الإدراك، فإنْ كان للعين فهو مانع للرّؤية، وإنْ كان للأذن فهو مانع للسّمع.

﴿مَّسْتُورًا﴾: اسم مفعول من السّتر، فلم يقل سبحانه وتعالى: (ساتراً)، وهذا من قبيل المبالغة في السّتر والإخفاء، فالمعنى أنّ الحجاب الّذي يمنعهم من سماعك أو رؤيتك هو نفسه مستور، فإن كان الحجاب نفسه مستوراً، فما بالُكَ بما خلفه؟ ولا شكَّ في أنّ الذِّهْن سينشغل هنا بالحجاب المادّيّ، لكنّ هذا الحجاب الّذي يتحدّث عنه الحقّ سبحانه وتعالى حجابٌ معنويّ لا يراه أحد، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرّعد: من الآية ٢]، فلو قال: بغير عَمَد وسكت فقد نفى وجود عمد للسّماء وانتهت المسألة، وأدخلناها تحت قوله سبحانه وتعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: من الآية ٤١]، فالأمر قائمٌ على قدرة الله عز وجل دون وجود عَمَدٍ تحمل السّماء، لكنّ قوله سبحانه وتعالى: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تجعل المعنى صالحاً أنْ نقول: بغير عَمَد، وأنتم ترونها كذلك، فننظر هنا وهناك فلا نجد للسّماء عمداً تحملها، أو نقول: إنّ لها عمداً لكنّا لا نراها، فهي عَمَد معنويّة، وفي هذا ما يدُكُّ الغرور في الإنسان، ليعلم أنّه لا يدرك إلّا ما أذن الله سبحانه وتعالى له في إدراكه، وأنّ حواسَّ الإدراك لديه قد تتوقّف عن هذا

الإدراك في أيّ لحظة، فليس معنى أنّها مدركة أن تظلّ مدركة دائماً، فليس لها طلاقة لتفعل ما تشاء، بل الحقّ سبحانه وتعالى هو الوحيد الفعّال لما يريد، فالقدرة الإلهيّة هي الّتي تُسيِّر هذا الكون، وتأمر كلّ شيءٍ بأن يُؤدِّي المهمّة المطلوبة منه، ونضيف هنا أنّ سيّدنا موسى عليه السلام عندما لحق به فرعون وجنوده قال أصحاب موسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾ [الشّعراء: من الآية ٦١]، فأين المفرّ؟ ها هو البحر من أمامنا، والعدوّ من خلفنا، وهذا كلامٌ منطقيٌّ مع واقع الحديث البشريّ، لكنّ الأمر يختلف عند موسى عليه السلام: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الشّعراء]، فهل قالها موسى عليه السلام برصيدٍ بشريٍّ؟ لا، بل بما عنده من ثقة في ربّه عزّ وجلّ، وهكذا انتقلت المسألة إلى ساحة الخالق سبحانه وتعالى، فقال لنبيّه موسى عليه السلام: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣﴾ [الشّعراء]، فخرق الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام قانون سيولة الماء واستطراقه، ويتجمّد الماء، ويصير كالجبل ويتحوّل البحر إلى يابسة، ويعبر موسى عليه السلام وقومه إلى النّاحية الأخرى، وتنشرح صدورهم بفرحة النّجاة، ويأخذ موسى عليه السلام عصاه ليضرب البحر ليعود إلى طبيعته، حتّى لا يعبره فرعون ويلحق به، لكنّ الحقّ سبحانه وتعالى يأمره أن يتركه على حاله: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤﴾ [الدّخان]، فعندما نزل فرعون وجنوده البحر، واكتمل عددهم في قاعه أطلق الخالق عزّ وجلّ للماء قانون سيولته، فأطبق على فرعون وجنوده، وكانت آيةً من آيات الله سبحانه وتعالى، شاهدة على قدرته سبحانه وتعالى، وأنّه إنْ شاء أنجى وأهلك بالشّيء الواحد، وشاهدة على قيّوميّته جلّ جلاله على خَلْقه، لذلك عندما قال الصّدّيق رضي الله عنه للنّبيّ صلى الله عليه وسلم في الهجرة: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ، فَقَالَ:

«يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»[1]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾، فكلّ من أراد الحفظ من الله عزّ وجلّ فعليه بالقرآن الكريم هذا هو المعنى العامّ، لكن نأخذ من هذه الآية خصوصيّة السّبب وعموميّة المعنى بأنّ القرآن الكريم أن تكون مع الله سبحانه وتعالى، فيكون الله سبحانه وتعالى معك، وإذا كان الله جلّ جلاله معك فمَنْ عليك؟!!

(الآية ٤٦) - ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾:

﴿أَكِنَّةً﴾: جمع كِنان، وهو الغطاء، وقد حكى القرآن الكريم اعترافهم بهذه الأكنّة وهذه الحجب الّتي غلّفَتْ قلوبهم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصّلت: من الآية ٥]، الكون كلّه خَلْق الله سبحانه وتعالى، والإنسان سيّد هذا الكون، وخليفة الله عزّ وجلّ فيه، وهو مربوبٌ للخالق سبحانه وتعالى لا يخرج عن مربوبيّته لربّه جلّ جلاله، حتّى وإنْ كان كافراً لا يزال يتقلّب في عطاء الرّبوبيّة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء]، وسبق أنْ بيّنا أنّ هناك فرقاً بين عطاء الرّبوبيّة وعطاء الألوهيّة، فعطاء الرّبوبيّة للنّاس كلّهم، الشّمس والهواء و.. للنّاس كلّهم، المؤمن وغير المؤمن، أمّا عطاء الرّبوبيّة فهو التّكليف وحلاوة التّكليف والرّضا بمنهج الله سبحانه وتعالى: افعل ولا تفعل، هذا حلالٌ وهذا حرامٌ، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾، فهذه الأكنّة الّتي تمنع هؤلاء من العلم والفقه بالقرآن الكريم لم

---

(١) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصّحابة رضي الله عنهم، بَابُ مِنْ فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه، الحديث رقم (٢٣٨١).

تَأْتِ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ابتداءً، ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: من الآية ١٠]، بل لمّا أحبُّوا هم الكفر، وقالوا عن أنفسهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾ [فصّلت: من الآية ٥]، فأجابهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى ما أرادوا، وختم على قلوبهم ليزدادوا كفراً، وبما أنّهم يحبّون هذا الكفر فَلْنُزدهم منه.

﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾: أي: كراهية أنْ يفقهوه؛ لأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يريد منهم أن يفهموا القرآن الكريم رَغْماً عنهم، بل برضاهم وعن طيب خاطر منهم بالإقناع والحجّة والبرهان، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يريد منّا قوالبَ تخضع، بل يريد قلوباً تخشع، وإلّا لو أرادنا قوالبَ لما استطاع أحدٌ منّا أنْ يشذَّ عن أمر الله جَلَّ جَلَالُهُ، أو يمنع نفسه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالجميع خاضعٌ لأمره وتحت مشيئته جَلَّ جَلَالُهُ، وفي سورة الشّعراء يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ٤﴾ [الشّعراء]، فالأعناق هي الخاضعة وليست القلوب؛ لأنّك تستطيع أن تقهر قالب خصمك فتجبره على فعلٍ أو قول، لكنّك لا تستطيع أبداً أن تجبر قلبه على حبّك، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يريد القلوب، يريدها طائعة محبّة مختارة، أمّا هؤلاء فقد اختاروا الأكِنّة على قلوبهم، وأحبُّوها وانشرحت صدورهم بالكفر، فزادهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منه.

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾: أي: صَمم، والمراد أنّهم لا يستمعون سماعاً مفيداً، فاللّغة وسيلة بين متكلّم ومخاطب، ومن خلالها تنتقل الأفكار والخواطر لتحقيق غاية، فإذا كان يستمع بدون فائدة فلا جدوى من سمعه، وكأنّ به صَمماً.

﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾: لماذا ولّوا على أدبارهم نفوراً؟ لأنّك أتيتَ لهم بما يُخوِّفهم ويُزعجهم، وبالله لو أنّ قضيّةَ الإيمان ليست

فطريّة موجودة في الذّات وفي ذرّات التّكوين، أكان هؤلاء يخافون من ذكر الله ﷻ؟ فَمِمّا يخافون وهم لا يؤمنون بالله ﷻ، ولا يعترفون بوجوده ﷻ؟ فما هذا الخوف منهم إلّا لانقهار الطّبع، وانقهار الفطرة الّتي يعتريها غفلة، فإذا بهم يُولُّون مدبرين في خَوْفٍ ونُفور.

(الآية ٤٧) - ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٤٧﴾:

الحقّ ﷻ لا يَخْفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، وهذه حقيقة كان على الكفّار أنْ ينتبهوا إليها، ويأخذوها سبيلاً إلى الإيمان بالله ﷻ، فقد أخبر ﷻ نبيّه ﷺ بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٨﴾ [المجادلة: من الآية ٨]، فكان عليهم أن يتدبّروا هذا القول: فهم قالوا في أنفسهم، ولم يقولوا لأحدٍ، فمَنْ أخبر محمّداً ﷺ بهذا القول الّذي لم يخرج إلى عالم الواقع، ومَنْ أطلعه عليه؟ أَلا يدعوهم هذا الإعلام بما يدور في نفوسهم إلى الإيمان بالله ﷻ؟ وما دام الحقّ ﷻ يعلم الأحوال كلّها، ولا يَخْفى عليه شيءٌ، فهو أعلم بأحوالهم هذه: الأوّل: ﴿يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ﴾، والثّاني: ﴿وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾، والثّالث: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، فهم يستمعون ثمّ يتناجون، ثمّ يقول بعضهم لبعض، قيل: إنّ سبب نزول هذه الآية ما كان عند العرب من حُبٍّ للّغة وشغفٍ بأساليب البيان؛ لذلك كانت معجزة النّبيّ ﷺ من جنس ما نبغ فيه قومه، لتكون أوضح في التّحدّي، هكذا شأن الحقّ ﷻ مع الرّسل كلّهم، وقد كان للعرب أسواقٌ للبيان والبلاغة يجتمع فيها أهل الشّعر والبلاغة والفصاحة، وفي مكّة تصبّ الألسنة كلّها في مواسم الحجّ، فعرفوا صفوة لغات

الجزيرة وأساليبها، ومن هنا انجذبوا لسماع القرآن الكريم، وشغفوا ببيانه بما لديهم مِن أُذُن مُرْهفة للأسلوب وملَكة عربيّة أصيلة، إلّا أنّ القرآن الكريم له مطلوبات وتكاليف لا يقدرون عليها، ولديه منهج سيُقوِّض مملكة السّيادة الّتي يعيشون فيها، ومن هنا كابروا وعاندوا، ووقفوا في وجه القرآن الكريم، وإنْ كانوا مُعْجبين به إعجاباً بيانيّاً بلاغيّاً بما في طباعهم من مَلَكات عربيّة، فيُرْوَى أنّ كباراً منهم كالنّضر بن الحارث، وأبي سفيان، وأبي لهب كانوا يتسلّلون بعد أن ينام النّاس ممّن كانوا يقولون لهم: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصّلت: من الآية ٢٦]، ويذهبون إلى البيت يتسمَّعون لقراءة القرآن الكريم، ولماذا يحرمون أنفسهم من سماع هذا الضّرب البديع من القول، وقد حرموا مواجيدهم وقلوبهم منه؟! فكانوا عند انصرافهم يرى بعضهم بعضاً مُتسلِّلاً مُتخفّياً، فكانوا مرّة يكذبون على بعضهم بحججٍ واهية، ومرّة يعترفون بما وقعوا فيه من حُبٍّ لسماع القرآن الكريم، فقال ﷻ:

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾: أي: بالحال الّذي يستمعون عليه، إذ يستمعون إليك بحال إعجاب.

﴿وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾: من التّناجي، وهو الكلام سِرّاً، أو أنّ نَجْوى: جمع نجى، كقتيل وقَتْلى، وجريح وجَرْحى، فالمعنى: نحن أعلم بما يستمعون إليه، وإذ هم متناجون أو نجوى، فكأنّ حالهم كلّه تناجٍ، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾ فيه مبالغة، كما تقول: رجلٌ عادل، ورجلٌ عَدْل، ومِنْ تناجيهم مَا قاله أحدهم بعد سماعه لآيات القرآن: "والله، إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه يعلو ولا يُعْلَى عليه"، ثمّ تأتي الحالة الثّالثة من أحوالهم:

﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾: وهذا هو القول المعْلَن عندهم، أن يتّهموا رسول الله ﷺ بالسّحر مرّة، وبالجنون أخرى، ومرّة قالوا: شاعر، وأخرى قالوا: كاهن.. وهذا كلّه إفلاسٌ في الحجّة، ودليلٌ على غبائهم العقديّ.

﴿مَّسۡحُورًا﴾: اسم مفعول من السّحر، وهي تخييل الفِعْل، وليس فعلاً، وتخييل القَوْل وليس قولاً، فهي صَرْفٌ للنّظر عن إدراك الحقائق، أمّا الحقائق فهي ثابتةٌ لا تتغيّر، لذلك نقول: إنّ معجزة موسى عليه السلام من جنس السّحر وليست سِحْراً؛ لأنّ ما جرى فيها كان حقيقة لا سِحْراً، فقد انقلبتْ العصا حَيَّة تبتلع حبال السّحرة وعِصيّهم على وَجْه الحقيقة، لكن لمّا كانت المعجزة في مجال السّحر ظنّها النّاسُ سِحْراً؛ لأنّ القرآن الكريم قال في سحرة فرعون: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: من الآية ١١٦]، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦﴾ [طه: من الآية ٦٦]، فحقيقة الأشياء ثابتةٌ لا تتغيّر، فالسّاحر يرى العصا عصا، أمّا المسحور فيراها حيّة، وليست كذلك مسألة موسى عليه السلام، وليؤكّد لنا الحقّ سبحانه وتعالى هذا المعنى، وأنّ ما حدث من موسى عليه السلام ليس من سحرهم وتغفيلهم، أنّه حينما قال له: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾ [طه]، فأجاب: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨﴾ [طه]، فهذا هو مدى عِلْم موسى عليه السلام عن العصا الّتي في يده، لكنّ الله سبحانه وتعالى سيجعلها غير ذلك، فقال له: ﴿قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ٢٠﴾ [طه]، فهل خُيّل لموسى عليه السلام أنّها حيّة وهي عصا؟ أو أنّها انقلبت حيّة فعلاً؟ إنّها حيّة فعلاً على وجه الحقيقة، بدليل قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ

﴿خِيفَةً مُّوسَىٰ ٦٧﴾ [طه]، وموسى عليه السلام لم يَخَفْ إلّا لأنّه وجد العصا حيّة حقيقيّة، ثمّ طمأنه ربّه جل جلاله: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ٦٨﴾ [طه]، لذلك لـمّا رأى السّحرة ما تفعله عصا موسى عليه السلام علموا أنّها ليست سحراً، بل هي شيءٌ خارجٌ عن نطاق السّحر والسّحرة، وفوق قدرة موسى عليه السلام، فآمنوا بربِّ موسى القادر وحده على إجراء مثل هذه المعجزة.

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾: أي: سحره غيره، وهذا قوْل الظّالمين الّذين يُلفِّقون لرسول الله صلى الله عليه وسلم التّهمة بعد الأخرى، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ٢﴾ [يونس: من الآية ٢]، فمرّة قُلْتم: ساحر، ومرّة قلتم: مسحور، وهذا دليل التّخبُّط، فإن كان ساحراً فعندكم من السّحرة كثيرون، فلماذا لا يُواجِهونه بسحرٍ مثل سِحْره؟ ولماذا لم يسحركم أنتم وتنتهي المسألة؟ وإنْ كان مسحوراً سَحَرَه غيره، فهل جرَّبْتُم عليه في سحره كلاماً مخالفاً لواقع؟ هل سمعتموه يهذي كما يهذي المسحور؟ فهذا اتّهامٌ باطل وقولٌ كاذب لا أصل له، بدليل أنّكم تأبَّيتم عليه، ولم يُصِبْكم منه أذى.

(الآية ٤٨) - ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ٤٨﴾:

﴿ٱنظُرْ﴾: الخطاب للنّبيّ صلى الله عليه وسلم، ولنا جميعاً لننظر ونتدبّر ونعقل هذا الأمر.

﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾: أي: تعجَّبْ ممّا هم فيه من تخبُّط، فمرَّة يقولون عن القرآن الكريم: سحر، ومرّة يقولون: شعر، ويصفونك بأنّك: شاعر، وكاهن، وساحر.. ومعلومٌ أنّ الرّسالة لها عناصر ثلاثة: مُرسِل: وهو الله سبحانه وتعالى، ومُرسَل: وهو النّبيّ صلى الله عليه وسلم، ومُرْسَلٌ به: وهو القرآن الكريم، وقد تخبّط الكفّار في

هذه الثّلاثة، ودعاهم الظّلم إلى أن يقولوا فيها قولاً كاذباً افتراءً على الله ﷻ وعلى رسوله ﷺ وعلى كتابه الكريم.

﴿فَضَلُّواْ﴾: فهذا هو الضّلال، وهذا هو الانحراف عن الطّريق السّويّ والمستقيم، وهذا لا يقول به عاقل، فلا يستطيعون سبيلاً ولن يصلوا إلى طريقة ولا إلى سبيل على الإطلاق؛ أي: قولهم: شاعر وساحر.. إلخ، وهذا الكلام كلّه من افتراءاتهم على رسول الله ﷺ، ومعاداتهم لما جاء به من منهج إلهيّ لمحاربة فسادهم وتقويم اعوجاجهم، فهذا هو الأمر.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾: وعندما قالوا: مجنون، فالمجنون ليس عنده اختيار بين البدائل، وقد ردَّ الله ﷻ عليهم بقوله: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ [القلم]، فنفى الحقّ ﷻ عن رسوله ﷺ هذه الصّفة، وأثبت له صفة الخُلُق العظيم، والمجنون لا خُلقَ له، ولا يُحاسَب على تصرّفاته على الإطلاق، فالمولى ﷻ كذّبهم بأنّه ﷺ على خُلُقٍ عظيم، والنّبيّ ﷺ قال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»(١)، وكان ﷺ يقول: «إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقاً»(٢).

﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾: أي: لم يستطيعوا أنْ يأتُوا بمثَلٍ يكون صَادّاً وصارفاً لمن يؤمن بك أنْ يؤمن، فقالوا: مجنون، وكذبوا، وقالوا: ساحرٌ، وكذبوا، وقالوا: شاعر، وكذبوا، وقالوا: كاهن، وكذبوا، فَسُدّتْ الطّرق في وجوههم، ولم يجدوا مَنْفَذاً لِصَدِّ النّاس عن رسول الله ﷺ، فلمّا عجزوا عن إيجاد وَصْفٍ

---

(١) مسند الإمام أحمد: مُسْنَد المكثرين من الصَّحابة، مُسْنَدُ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، الحديث رقم (٨٩٥٢).
(٢) صحيح البخاريّ: كتاب الأدب، بَابُ حُسْنِ الخُلُقِ وَالسَّخَاءِ، الحديث رقم (٦٠٣٥).

يصدُّ مَنْ يريد الإيمان برسول الله ﷺ، قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾ [الأنفال: من الآية ٣٢].

(الآية ٤٩) - ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩﴾:

المولى سبحانه وتعالى يورد لنا هذا القول على لسانهم، وهذا هو القول المتكرّر عبر الزّمان وفي كلّ وقتٍ وفي كلّ حين، والمشكِّكون كلّهم في القرآن الكريم وفي الدّين وفي الإسلام يقولون: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

الاستفهام في الآية استفهامٌ للتّعجّب والإنكار لموضع البعث يوم القيامة بعد أنْ صاروا رُفَاتاً وعظاماً.

﴿وَرُفَٰتًا﴾: الرّفات: هو الفتات ومسحوق الشّيء، وهو التّراب أو الحُطَام، وكذلك كلّ ما جاء على وزن (فُعال).

لقد استبعد هؤلاء البعث بعد الموت؛ لأنّهم غفلوا في بداية الوجود وبداية خَلْق الإنسان، ولو استعملنا علم الإحصاء الّذي استحدثه العلماء لوجدناه يخدم هذه القضيّة الإيمانيّة، فلو أحصينا تعداد العالم الآن لوجدناه يتزايد في الاستقبال ويقلّ في الماضي، وهكذا إلى أنْ نصل بأصل الإنسان إلى الأصل الأصيل، وهو آدم وحواء، فمن أين أتَيَا إلى الوجود؟ فهذه قضيّة غيبيّة كان لا بُدَّ أن يُفكّروا فيها؛ ولأنّها قضيّة غيبيّة فقد تولَّى الله سبحانه وتعالى بيانها؛ لأنّ النّاس سوف يتخبّطون فيها، فينبّهنا الله سبحانه وتعالى بمناعة إيمانيّة عقديّة في كتابه العزيز، حتّى لا ننساق وراء الّذين سيتهوّرون ويَهْرفون بما لا يعلمون، ويقولون: بأنّ أصل الإنسان كان قرداً، وهذه مقولة ثبت بطلانها، فالله سبحانه وتعالى هو الّذي أخبرنا بأنّه

خلق آدم عليه السلام من تراب ومن ماء ومن صلصالٍ من حمإٍ مسنون، ثمّ نفخ فيه من روحه، حسب التّرتيب الّذي جاء، فالتّراب كما قال سبحانه وتعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه]، والتّراب إذا أُضيف له الماء يصبح صلصالاً، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف]؛ أي: لم يساعده أحدٌ سبحانه وتعالى، فالمولى سبحانه وتعالى أخبرنا كي نريح أنفسنا من تحمّل مشاقّ معرفة كيف خُلق آدم عليه السلام، وكيف جاء الإنسان، بيّن لنا ذلك وأعطانا العقل لنفكّر، وكلمة (العقل) نفسها من العقال الّذي يمنع شرود البعير، وكذلك العقل جعله الله سبحانه وتعالى ليضبط التّفكير، ويمنع من الانحراف، فالعقل وسيلة الإدراك الأساسيّة، وما دام العقل آلة من آلات الإدراك فله حدود، كما أنّ للعين حدوداً في الرّؤية، وللأُذُن حدوداً في السّمع، فللعقل حدود في التّفكير أيضاً، فما بعد المادّة لا يراه ولا يسمع ولا يأخذ الإدراكات حتّى تصل المعلومات إلى العقل ليحلّل هذه المعلومات، فلا بدّ من إدراكات، فالله سبحانه وتعالى أخبرنا كيف خلق آدم عليه السلام، وهنا يُخبرنا بأنّه إذا كُنّا عظاماً ورُفاتاً، وهذه بالتّجربة إذا فتحنا أيّ قبرٍ نجد أنّ الميّت يُصبح رفاتاً وعظاماً، وهم يسألون: ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾، قال سبحانه وتعالى في سورة يس: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس]، ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [يونس]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء]،

ويقول جل جلاله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الرّوم: من الآية ٢٧]، فإعادة الشّيء أهون من خَلْقه أوّلاً، وقد وقف الفلاسفة طويلاً أمام قضيّة البعث، وأخذوا منها سبيلاً لتشكيك النّاس في دين الله عز وجل، ومن مغالطاتهم في هذه المسألة أنْ قالوا: ما الحلّ إذا مات إنسانٌ مثلاً ثمّ تحوَّل جسمه إلى رفات وتراب، ثمّ زُرِعَتْ فوقه شجرة وتغذَّت على عناصره، فإذا أكل إنسانٌ من ثمار هذه الشّجرة فسوف تنتقل إليه بالتّالي عناصر من عناصر الميّت، وتتكوّن فيه ذرّات من ذرّاته، فهذه الذّرّات الّتي تكوّنت في الثّاني نقُصَتْ من الأوّل، فكيف يكون البعث على حَدِّ قَوْلهم؟ والحقيقة أنّهم في هذه المسألة لم يفطِنُوا إلى أنّ مُشخّص الإنسان شيءٌ، وعناصر تكوينه شيءٌ آخر، هَبْ أنّ إنساناً زاد وزنه ونصحه الطّبيب بإنقاص الوزن فسعى إلى ذلك بالطّرق المعروفة لإنقاص الوزن، وهذه العمليّة سواء زيادة الوزن أو إنقاصه محكومة بأمرين: التّغذية والإخراج، فالإنسان ينمو حينما يكون ما يتناوله من غذاء أكثر ممّا يُخرِجه من فضلات، ويضعف إن كان الأمر بعكس ذلك، فلو مرض إنسانٌ مرضاً أَهْزَلَهُ وأنقص من وزنه، فذهب إلى الطّبيب فعالجه حتّى وصل إلى وزنه الطّبيعيّ، فهل الذّرّات الّتي خرجتْ منه حتّى صار هزيلاً هي بعينها الذّرّات الّتي دخلتْه حين تَمَّ علاجه؟ ما هذا المنطق؟! وربّنا سبحانه وتعالى رحمة منه قال: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤﴾ [ق]، فالحقّ سبحانه وتعالى سيجمع الأجزاء الّتي تُكوِّن الإنسان.

(الآية ٥٠) - ﴿۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ٥٠﴾:

أي: قُلْ ردّاً عليهم: إنْ كُنتم تستبعدون البعث وتَسْتصعبِونه مع أنّه بَعْثٌ للعظام والرُّفات، وقد كانت لها حياة في فترةٍ من الفترات، ولها إِلْفٌ بالحياة،

فمن السّهل أنْ نعيدَ إليها الحياة، بل وأعظم من ذلك، ففي قدرة الخالق ﷻ أنْ يُعيدكم حتّى وإنْ كنتم من حجارةٍ أو من حديد، وهي المادّة الّتي ليس بها حياة في نظرهم، وكأنّ الله ﷻ يتحدَّاهم بأبعد الأشياء عن الحياة، ويتدرّج بهم من الحجارة إلى الحديد؛ لأنّ الحديد أشدّ من الحجارة، فلو كنتم حجارةً أو حديداً فهو قادرٌ على إعادتكم، فلو كنتم حجارة لأعدْناكم حجارة، ولو كنتم حديداً لأعدْناكم حديداً، ثمّ يترقّي بهم إلى ما هو أبعد من ذلك، فيقول ﷻ:

(الآية ٥١) - ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾:

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ﴾: أي: هاتوا الأعظم فالأعظم، وتوغّلوا في التّحدّي والبُعْد عن الحياة، فأنا قادرٌ على أنْ أهبَ له الحياة مهما كان بعيداً عن الحياة على إطلاقها.

﴿يَكْبُرُ﴾: أي: يعظُم، مِنْ: كَبُر يكْبُر، ومنه قوله ﷻ: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ﴾ [الكهف: من الآية ٥]؛ أي: عَظُمت، والمراد: اختاروا شيئاً يعظم استبعادُ أن يكون فيه حياة بعد ذلك، وغاية ما عندهم في بيئتهم الحجارة والحديد، فَهُما أبعد الأشياء عن الحياة، وقد اتّفقوا على ذلك فليس في محيط حياتهم ما هو أقسى من الحجارة والحديد.

ونلاحظ في قوله ﷻ: ﴿مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ﴾: جاء هذا الشّيء مُبْهَماً؛ لأنّ الشّيء العظيم الّذي يعظُم عن الحجارة والحديد استبعاداً عن أصل الحياة مختَلفٌ فيه، فإن اتّفقوا في أمر الحجارة والحديد فقد اختلفوا في الأشياء

الأخرى، فجاءت الآية مُبْهمة ليشيع المعنى في نفس كُلّ واحدٍ، كلٌّ على حَسْب ما يرى، بدليل أنّهم حينما سألوا الإمام عليّاً رضي الله عنه عن أقوى الأجناس في الكون، وقد علموا عن الإمام عليّ -كرّم الله وجهه- سرعة البديهة والتّمرُّس في الفُتْيَا، فأرادوا اختباره بهذا السّؤال الّذي يحتاج في الإجابة عليه إلى استقصاء لأجناس الكون وطبيعة كلّ منها، دخل عليهم الإمام عليّ رضي الله عنه وهم مختلفون في هذه المسألة، منهم من يقول: الحديد أقوى، ومنهم من يقول: بل الحجارة أقوى، وآخر يقول: بل الماء، فأفتاهم الإمام في هذه القضيّة، ولننظر إلى دِقّة الإفتاء واستيعاب العلم، فلم يَقُل: أقوى جنود الله سبحانه وتعالى كذا وكذا ثمّ يُكمل كما اتّفق له، لا بل حصرها أوّلاً، فقال: "أشدّ جنود الله عشرة"، فالمسألة ليست ارتجاليّة، بل مسألةٌ مدروسةٌ لديه، مُسْتَحضرة في ذِهْنه، مُرتَّبة في تفكيره، فبسط الإمام عليّ رضي الله عنه لمستمعيه يده وفَردَ أصابعه، وأخذ يعدّ هذه العشرة، وكأنّه المعلّم الّذي استحضر درساً وأعدَّه جيّداً، قال: "أشدّ جنود الله عشرة، الجبال الرّواسي، والحديد يقطع الجبال، والنّار تُذيب الحديد، والماء يُطفئ النّار، والسّحاب المسخّر بين السّماء والأرض يحمل الماء، والرّيح يقطع السّحاب، وابن آدم يغلب الرّيح يستتر بالثّوب أو بالشّيء ويمضي لحاجته، والسّكر يغلب ابن آدم، والنّوم يغلب السّكر، والهمّ يغلب النّوم، فأشدّ جنود الله في الكون الهمّ"، فهذه الأجناس هي المراد بقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾، فاختاروا أيّاً من هذه الأجناس، فالله سبحانه وتعالى قادرٌ على إعادتكم وبعثكم كما كنتم أحياءً.

﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: أي: أنّ الّذي خلقكم بدايةً قادرٌ على إعادتكم، بل الإعادة أَهْوَن من الخَلْق بدايةً، ولكنّ الجواب لا يكون

مُقنِعاً إلّا إذا كانت النّتيجة الّتي يأتي بها الجواب مُسلّمة، فهل هم مقتنعون بأنّ الله ﷻ فطرهم أوّل مرّة؟ نعم، هم مؤمنون بهذه الحقيقة مع كُفْرهم، بدليل قولهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزّخرف]، ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ﴾ [آل عمران: من الآية ١٦٧]، ولكنّهم نقلوا الجدل إلى قضيّةٍ أخرى فقالوا: مَنْ يُعيدنا؟ فإنْ قلت لهم: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾:

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾: معنى يُنغِض رأسه: يهزُّها من أعلى لأسفل، ومن أسفل لأعلى، استهزاءً وسخريةً ممّا تقول، والمتأمّل في قوله: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ يجده فِعْلاً سيحدث في المستقبل ويقع من مُختارٍ، والمقام هنا مقام جَدلٍ بين الكفّار وبين رسول الله ﷺ، وهذه الآية يتلوها رسول الله ﷺ على أسماعهم ويخبر أنّه إذا قال لهم: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾ فسينغضون رؤوسهم، فكان في وُسْع هؤلاء أنْ يُكذِّبوا القرآن الكريم، فلا يُنغِضون رؤوسهم لرسول الله ﷺ ويمكرون به في هذه المسألة، ولهم بعد ذلك أنْ يعترضوا على هذا القول ويتّهموه، ولكنّ الله ﷻ غالبٌ على أمره، فها هي الآية تُتْلىَ عليهم وتحْتَ سَمْعهم وأبصارهم، ومع ذلك لم يقولوا، ممّا يدلُّ على غباء الكفّار وحُمْق تفكيرهم، وعدم قدرتهم على مواجهة الحقيقة.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ﴾: والاستفهام هنا كسابقه للإنكار والتّعجُّب الدّالّ على استبعاد البعث بعد الموت، ولنلحظ هنا أنّ السّؤال عن الزّمن، ﴿مَتَىٰ هُوَ ۖ﴾؟ فقد نقلوا الجدل من إمكانيّة الحدث على ميعاد الحدث، وهذا تراجعٌ منهم في النّقاش، فقد كانوا يقولون: ﴿مَن يُعِيدُنَا ۖ﴾؟ والآن يقولون: ﴿مَتَىٰ هُوَ ۖ﴾؟ فيأتي الجواب:

﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾: عسى: كلمة تفيد الرّجاء، والرّجاء أمرٌ مُتوقّع يختلف باختلاف الرّاجي والمرجو منه، فإذا قُلْت مثلاً: عسى فلاناً أنْ يعطيك كذا، فالرّجاء هنا بعيدٌ شيئاً ما؛ لأنّه رجاء من غيري لك، أمّا لو قلْت: عسى أنْ أُعطيك كذا، فهي أقرب في الرّجاء؛ لأنّني أتحدَّث عن نفسي، وثقة الإنسان في نفسه أكثر من ثقته في الآخرين، ومع ذلك قد يتغيّر رأيي فلا أعطيك، أو يأتي وقت الإعطاء فلا أجد ما أعطيه لك، لكن إذا قُلْتَ: عسى الله عزّ وجلّ أن يُعطيك، فلا شكَّ في أنّها أقربُ في الرّجاء؛ لأنّك رجوت الله سبحانه وتعالى الّذي لا يُعجِزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، وإنْ كان القائل هو الله سبحانه وتعالى: ﴿عَسَىٰٓ﴾، فالرّجاء منه سبحانه وتعالى مُحقَّق وواقع لا شكَّ فيه؛ فالرّجاء من الإنسان لغيره رتبة، ومن الله سبحانه وتعالى للنّاس فوق كلّ شيء، وقد شرح لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مسألة القرب فقال: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ**» وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ، وَالْوُسْطَى[1]؛ لأنّه ليس بعده رسول، فهو والقيامة متجاوران لا فاصلَ بينهما، كما أنّنا نقول: كُلُّ آتٍ قريب، فالأمر الآتي مستقبلاً قريب؛ لأنّه قادمٌ لا محالةَ.

(الآية ٥٢) - ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ٥٢﴾:

﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾: هذا في يوم القيامة، حيث لا يستطيع أحدٌ الخروجَ عن مُرادات الله سبحانه وتعالى بعد أن كان يستطيع الخروج عنها في الدّنيا؛ لأنّ الخالق سبحانه وتعالى حين خلق الخَلْق جعل للإرادة الإنسانيّة سلطاناً على الجوارح في الأمور الاختياريّة، فهو مُخْتار يفعل ما يشاء، ويقول ما يشاء، ويترك ما

(١) صحيح مسلم: كتاب الجمعة، بَابُ تَخْفِيفِ الصَّلَاةِ وَالْخُطْبَةِ، الحديث رقم (٨٦٧).

يشاء، فإرادته أمير على جوارحه، أمّا الأمور القهريّة فلا دَخْل للإرادة بها، فإذا جاء اليوم الآخر انحلَّتْ الإرادة عن الجوارح، ولم يَعُدْ لها سلطان عليها، بدليل أنّ الجوارح سوف تشهد على صاحبها يوم القيامة: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصّلت: من الآية ٢١]، لقد كانت لكم ولاية علينا في دُنْيا الأسباب، أمّا الآن فنحن جميعاً مرتبطون بالمسبِّب ﷻ، فلا ولاية لكم علينا الآن؛ لذلك يقول الله ﷻ عن يوم القيامة: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: من الآية ١٦]، ففي الدّنيا ملَّك النّاس، وجعل مصالح أُناسٍ في أيدي آخرين، أمّا في الآخرة، فالأمر كلّه والملْك كلّه لله وحده لا شريك له. فقوله ﷻ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾: أي: يوم يقول لكم اخرجوا من القبور للبعث بالنّفخة الثّانية في الصُّور.

﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾: أي: تقومون في طاعة واستكانة، لا قوْمةَ مُسْتنكف أو مُتقاعس أو مُتغطرس، فكلّ هذا انتهى وقته في الدّنيا، ونحن الآن في الآخرة، ونلاحظ أنّ الله ﷻ قال: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ ولم يقل: (فتُجيبون)؛ لأنّ (استجاب) أبلغُ في الطّاعة والانصياع، كما نقول: فهم واستفهم؛ أي: طلب الفَهْم، وكذلك: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾؛ أي: تطلبون أنتم الجواب، وتُلِحُّون عليه لا تتقاعسون فيه، ولا تتأبَّوْن عليه، فتُسرعون في القيام، ليس هذا فقط، بل: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾؛ أي: تُسرعون في القيام حامدين الله ﷻ شاكرين له، ولكن كيف والحمد لا يكون إلّا على شيءٍ محبوب؟ نعم، إنّهم يحمدون الله تعالى؛ لأنّهم عاينوا هذا اليوم الّذي طالما ذكَّرهم به، ودعاهم إلى الإيمان به، والعمل من أجله، وطالما ألحَّ عليهم ودعاهم، ومع ذلك جحدوا وكذَّبوا، وهم

اليوم يَروْنَ ما كذَّبوه وتتكشّف لهم الحقيقة الّتي أنكروها، فيقومون حامدين لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الّذي نبَّههم ونصحهم، فبيانُ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لأمور الآخرة من النِّعَم الّتي لا يعترف بها الكفّار في الدّنيا، ولكنّهم سيعترفون بها في الآخرة، ويعرفون أنّها من أعظم نِعَم الله عَزَّ وَجَلَّ على النّاس جميعاً، ولكن بعد فوات الأوان، لذلك اعترض المستشرقون على قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في سورة (الرّحمن): ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٦﴾ [الرّحمن]، بعد قوله تعالى: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٥﴾ [الرّحمن]، فالآية في نظرهم تتحدّث عن نِقْمة وعذاب، فكيف يناسبها قوله جَلَّ جَلَالُهُۥ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٦﴾ [الرّحمن]؟ والمتأمّل في الآية يجدها منسجمة كلّ الانسجام؛ لأنّ مِن النّعمة أن نُنبِّهك بالعِظَة للأمر الّذي ينتظرك والعذاب الّذي أُعِدَّ لك حتّى لا تقعَ في أسبابه، فالّذي يعلم حقيقة العذاب على الفِعْل لا يقترفه.

﴿وَتَظُنُّونَ﴾: الظّنّ: خبرٌ راجح؛ لأنّهم مذبذبون في قضيّة البعث لا يقين عندهم بها.

﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ﴾: أي: أقمتُم في الدّنيا، أو في قبوركم؛ لأنّ الدّنيا متاعٌ قليل، وما دامتْ انتهت فلن يبقى منها شيء، وكذلك في القبور؛ لأنّ الميّت في قبره شِبْه النّائم لا يدرك كم لَبِثَ في نومه، ولا يتصوّر إلّا النّوم العاديّ الّذي تعوّده النّاس، ولذلك كلّ مَنْ سُئِل في هذه المسألة: كم لبثتم؟ قالوا: يوماً أو بعض يوم، فهذا هو المعتاد المتعارف عليه بين النّاس؛ ذلك لأنّ الشّعور بالزّمن فرع مراقبة الأحداث، والنّوم والموت لا أحداثَ فيهما، فكيف سنراقب الأحداث والملَكة الواعية مفقودة؟ وقد قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في آيةٍ أخرى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾ [النّازعات]، وقال جَلَّ جَلَالُهُۥ: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢

﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣﴾ [المؤمنون]؛ أي: لم يكُنْ لدينا وَعْيٌ لنعُدّ الأيّام، فاسأل العَادّين الّذين يستطيعون العدَّ، وفي قصّة العزير الّذي أماته الله سبحانه وتعالى مئة عام، ثمّ بعثه: ﴿قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٩]، على مُقْتضى العادة الّتي أَلِفَها في نومه، فيُوضِّح له ربّه عز وجل: ﴿قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٩]، فالمدّة في نظر العزير كانت يوماً أو بعض يوم، والحقّ سبحانه وتعالى أخبر أنّها مئة عام، فالبَوْنُ شاسعٌ بينهما.

(الآية ٥٣) - ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ٥٣﴾:

﴿وَقُل لِّعِبَادِي﴾: سبق أنْ أوضحنا الفرق بين عبيد وعباد، وأنّهما جَمْع عبد، لكنّ (عبيد) تدلّ على مَنْ خضع لسيّده في الأمور القهريّة، وتمرَّد عليه في الأمور الاختياريّة، أمّا (عباد) فتدلّ على مَنْ خضع لسيّده في أموره القهريّة والاختياريّة كُلِّها، وفضَّل مراد الله عز وجل على مُراده، وعنهم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤﴾ [الفرقان]، وهذا الفَرْق قائمٌ بينهما في الدّنيا دون الآخرة، حيث في الآخرة تنحلّ صفة الاختيار الّتي بنينا عليها التّفرقة، وبذلك يتساوى الجميع في الآخرة، فكلّهم عبيد وعباد؛ لذلك قال سبحانه وتعالى في الآخرة للشّيطان: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ١٧﴾ [الفرقان: من الآية ١٧]، فسمَّاهم عباداً مع ضلالهم وكفرهم.

﴿يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾: أي: العبارة الّتي هي أحسن، وديننا هو دين

الإحسان في كلّ شيء، وكذلك الفِعْل الّذي هو أحسن، والمعنى: قُلْ لعبادي: يقولوا الّتي هي أحسن؛ لأنّهم مُؤتمرون بأمرك مُصدِّقون لكَ.

﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ﴾: تعني: الأحسن الأعلى الّذي تتشقَّق منه كُلّ حُسنيات الحياة، والأحسن من الإيمان بالله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى إماطة الأذى عن الطّريق، لذلك كان النّبيّ ﷺ يقول: «وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»(١)؛ لأنّ من باطنها ينبتُ كلّ حسن، فهي الأحسن؛ لأنّك ما دُمْتَ تؤمن بالله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلن تتلقّى إلّا عنه، ولن تخاف إلّا منه، ولن ترجوَ إلّا هو، وهكذا يحسُن أمرك كلُّه في الدّنيا والآخرة، فلا تكذب ولا ترتشي ولا تقتل ولا تزني ولا ترتكب الموبقات.. إلخ، وأنت حين تقول: لا إله إلّا الله، لا تقولها إلّا وأنت مؤمن بها؛ لأنّك تريد أنْ تُشيعها فيمن سمعك، ولا تكتفي بنفسك فقط، فعندما نقول: أشهد أن لا إله إلّا الله، فمعنى أشهد: يعني عند مَنْ لم يشهد، فكأنّ إيماننا بها دَعانا إلى نَقْلها إلى النّاس جميعاً، ويمكن أن نقول: ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ﴾: الأحسن هو: كلّ كلمة خير، أو الأحسن هو: الجدل بالّتي هي أحسن، كما قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: من الآية ١٢٥]، وليس الحسنى، أو نقول: الأحسن يعني التّمييز بين الأقوال المتناقضة وفَرْزها أمام العقل، ثمّ نختار الأحسن والأكمل منها، فنقول به، فالأحسن تَشيعُ لتشمل كُلَّ حَسَن في أيِّ مجال من مجالات الأقوال أو الأفعال، ولنأخذ مثلاً مجال الجدل، فلا شكّ في أنّ المعارِض لك في الجدل كَارِهٌ لمبدئك العامّ، فإنْ قَسَوْتَ عليه وأغلظْتَ له القول أو اخترتَ العبارة السّيّئة فسوف ينتقل الخلاف بينكما

(١) سنن التّرمذيّ: أبواب الدّعوات، بابٌ: ١٢٣، الحديث رقم (٣٥٨٥).

من خلاف في مبدأ عامّ إلى عَدَاء شخصيّ، وإذا تحوَّلَتْ هذه المسألة إلى قضيّة شخصيّة فقد أجَّجتَ أُوَار غضبه؛ لأنّه في حاجة إلى الرّفق به، فلا تجمع عليه مرارة إخراجه ممّا أَلِف إلى ما يكره، بل حاول أنْ تُخرِجه ممّا أَلِف إلى ما يحبّ لتطفئ شراسته لعداوتك العامّة، وتُقرِّب من الهُوّة بينك وبينه فيقبل منك ما تقول، يقول ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصّلت]، وقد يطلُع علينا مَنْ يقول: لقد دفعتُ بالّتي هي أحسن، ومع ذلك لا يزال عدوّي قائماً على عداوتي، ولم أكسب محبّته، نقول له: أنت ظننتَ أنّك دفعتَ بالّتي هي أحسن، ولكنّ الواقع غير ذلك، إنّك تحاول أنْ تُجرِّب مع الله ﷻ، والتّجربة مع الله ﷻ شَكٌّ، فادفع بالّتي هي أحسن من غير تجربة، وسوف يتحوّل العدوّ أمامك إلى صديق، وما أروعَ قول الشّاعر:

يَا مَنْ تُضَايِقُه الفِعَالُ مِنَ الّتِي ومِنَ الّذِي

ادْفَع فَدَيْتُك بالّتِي حتَّى تَرَى فَإذَا الّذِي

لكن، لماذا نقول: الّتي هي أحسن؟ لأنّ الشّيطان ينزغ بينكم:

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾: والنّزْغ هو نَخْس الشّيطان ووسوسته، وقد قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: من الآية ٢٠٠]، فإن كنْت مُنتبِهاً له، عارفاً بحيله فذكرتَ الله ﷻ عند نَخْسه انصرف عنك، وذهب إلى غيرك؛ لذلك يقول ﷻ عن الشّيطان: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ [النّاس]؛ أي: الّذي يخنس ويختفي إذا ذُكِرَ الله ﷻ، لكن إذا رأى منك ضعفاً وغفلة ومرَّتْ عليك حِيَلُة، واستجبتَ لوساوسه، فقد أصبحت

فريسة سهلة بين أنيابه ومخالبه، وعادةً تأتي خواطر الشّيطان وكأنّها مِجَسٌّ للمؤمن واختبار لانتباهه وحَذره من هذا العدوّ، فينزغه الشّيطان مرَّة بعد أخرى لِيُجرّبه ويختبره، فإذا كان النّزغ هكذا، فأنت حين تُجادل بالّتي هي أحسن لا تعطي للشّيطان فُرْصة أنْ يُؤجِّج العداوة الشّخصيّة بينكما، فيُزيّن لك شَتْمه أو لَعْنه أو ضربه، وهكذا يتحوّل الخلاف في المبدأ إلى عداوة شخصيّة، لذلك إذا رأينا شخصين يتنازعان لا صِلَة لنا بهما، ولكن ضايقنا هذا النّزاع، فما علينا إلّا أنْ نقول: أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم، ثلاثاً، حتّى يذهب نزغ الشّيطان.

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾: الشّيطان أعلن هذه العداوة في المشهد الأعلى عندما أمر الله سبحانه وتعالى بالسّجود لآدم، ولكنّ إبليس رفض السّجود، وقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص]، فدخل من باب استغناء الله سبحانه وتعالى عن عبادةِ خلقه وتعهّد إبليس أن يغوي بني آدم، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر]؛ أي: أنّ عداوة الشّيطان لكم قديمة منذ أبيكم آدم عليه السلام، عداوة مسبقة: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ۝١١٧﴾ [طه]، لذلك يجب على الأب كما يُعلِّم ابنه علوم الحياة ووسائلها أنْ يُعلّمه قصّة العداوة الأولى بين الشّيطان وآدم عليه السلام، ويُعلّمه أنّ خواطر الخير من الله سبحانه وتعالى، وخواطر الشّرّ من الشّيطان، فليكُنْ على حَذَر من خواطره ووساوسه، وبذلك يُربّي في ابنه مناعة إيمانيّة، فيحذر كيد الشّيطان ونَزْغه، وكلّ إنسان يخالف أوامر الله سبحانه وتعالى فهو يسير في خطوات الشّيطان، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾؛ أي: كان ولا يزال، وإلى يوم القيامة بدليل

قوله: ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٢﴾ [الإسراء: من الآية ٦٢]؛ أي: لأتعهّدنّهم بالإضلال والغواية إلى يوم القيامة، فعلى الإنسان أن ينتبه لهذا، وقد علّمنا النّبيّ ﷺ كيف أنّنا نستعيذ بالله عز وجل من الشّيطان الرّجيم لنصفّي جهاز استقبالنا لكلام الله جل جلاله ولأوامره، وأن نقول: (أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم)، وأن يقرأ الإنسان المعوّذتين: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١﴾ [الفلق]، ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١﴾ [النّاس]، وأن يُكثر الإنسان من ذكر الله سبحانه وتعالى في كلّ حالٍ من الأحوال، وقراءة القرآن الكريم يوميّاً، ولو أقلّ من جزء أو جزء يوميّاً هو حصن حصين للإنسان من نزغ ووسوسة الشّيطان، ويستطيع أن يتغلّب على وساوس الشّيطان من خلال إدامة ذكر الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران]، وقال جل جلاله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: من الآية ٢٤]، فالإنسان عندما يعيش دائماً مع ذكر الله سبحانه وتعالى يخنس الشّيطان، ولا شكّ في أنّه ينتصر على الشّيطان.

(الآية ٥٤) - ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ٥٤﴾:

في هذه الآية إشارة إلى طلاقة المشيئة الإلهيّة، فالحقّ سبحانه وتعالى إنْ شاء يرحمنا بفضله، وإنْ شاء يُعذِّبنا بعدله؛ لأنّ الحقّ سبحانه وتعالى لو عاملنا بميزان عدله ما نجا منّا أحد، ولو جلس أحدنا وأحصى ما له وما عليه لوجد نفسه لا محالةَ واقعاً تحت طائلة العقاب؛ لذلك يَحسُن بنا أن ندعو الله سبحانه وتعالى بهذا الدّعاء: «اللّهمّ عاملنا بالفضل لا بالعدل، وبالإحسان لا بالميزان، وبالجبر لا بالحساب».

والحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يُيئِّس العُصَاة من فضله، ولا يملي لهم بعدله، بل يجعلهم بين هذه وهذه؛ ليكونوا دائماً بين الخوف والرّجاء.

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ﴾: الآيات هنا تتعلّق بكفّار مكّة وما فعلوه مع المؤمنين، وكيف أنّ النّبيّ ﷺ سمح لهم بالخروج من مكّة مهاجرين إلى ديار الأمن في الحبشة، وهذا رحمة من الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾: أي: عذاباً مقصوداً لكي يُمحِّص إيمانكم ويُميِّز المؤمنين منكم الجديرين بحمل رسالة الله عَزَّ وَجَلَّ ومنهجه.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾: الوكيل: هو المفوَّض من صاحب الشّأن بفعل شيءٍ ما، والمراد: ما أرسلناك إلّا للبلاغ، ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١﴾ [الغاشية]، ولستَ مسؤولاً بعد ذلك عن إيمانهم، ولستَ وكيلاً عليهم؛ لأنّ الهداية والتّوفيق للإيمان بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقول الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ ليست إنقاصاً من قَدْر رسول الله ﷺ، بل هي رحمة به ورأفة، كأنّه يقول له: لا تُحمِّل نفسك يا محمّد فوق طاقتها، كما خاطبه في آيةٍ أخرى بقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشّعراء].

(الآية ٥٥) - ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ٥٥﴾:

﴿أَعۡلَمُ﴾: أفعل تفضيل تدلُّ على المبالغة في العلم، وإنْ كان الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم فما دونه يمكن أنْ يتّصفَ بالعلم، فنقول: عالم، ولكنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم؛ لأنّ الله جَلَّ جَلَالُهُ لا يمنع عباده أن تشرئبّ عقولهم وتطمح إلى معرفة شيءٍ من أسرار الكون. والمعنى أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يقتصر علمه عليك يا محمّد وعلى أمّتك، وقد

سُبِقت الآية بقوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ [الإسراء: من الآية ٥٤]، ولكنّ علم الله تعالى يسَع السّموات والأرض عِلْماً مُطْلقاً لا يغيب عنه مثقال ذرّة، وبمقتضى هذا العلم يُقسِّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأرزاق ويُوزِّع المواهب بين العباد، كُلٌّ على حسب حاله، وعلى قَدْر ما يُصلحه، فلعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بمَنْ في السّموات والأرض يعطي عباده على قَدْر مَا يستحقّون في الأمور القَهْريّة الّتي لا اختيارَ لهم فيها، فهُمْ فيها سواء، أمّا الأمور الاختياريّة فقد تركها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لاجتهاد العبد وأَخْذه بالأسباب، فالأسباب موجودة، والمادّة موجودة، والجوارح موجودة، والعقل موجود، والطّاقة موجودة، فعلى كلّ إنسانٍ أن يستخدم هذه المعطيات ليرتقي بحياته على قَدْر استطاعته.

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: مَن الّذي فضّل؟ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الّذي يُفضّل بعض النّبيّين على بعض، وليس لنا نحن أن نُفضّل إلّا مَنْ فضَّله الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الّذي يملك أن يُجازي على حَسْب الفضل، أمّا نحن فلا نملك ذلك؛ لذلك قال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»[1]؛ لأنّ الّذي يُفضِّل هو الله جَلَّ جَلَالُهُ، وقد نُصّ على هذا التّفضيل في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٣]، فالتّفضيل على حسب ما يعلمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من أنّ أُولي العزم من الرّسل قد فضَّلهم عن غيرهم لِمَا تحمّلوه من مشقّةٍ في دعوة أقوامهم، ولِمَا قاموا به من حمل منهج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

(١) صحيح البخاريّ: كتاب أحاديث الأنبياء، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝٩﴾ [طه]، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝١٦٤﴾ [النّساء: من الآية ١٦٤]، الحديث رقم (٣٣٩٥).

والانسياح به، أو من طول مُدّتهم في قومهم.. إلخ، فهو وحده يعلم أسباب التّفضيل.

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾: فلماذا ذكر داود عليه السلام بالذّات مقترناً بالكتاب الّذي أُنزِل عليه؟ قال العلماء: لأنّ داود عليه السلام أُوتِي مع الكتاب المُلْك، فكان نبيّاً ملكاً، فكأنّ الحقّ سبحانه وتعالى يشير إلى أنّ تفضيل داود عليه السلام لا من حيث أنّه مَلِك، بل من حيث هو نبيّ صاحب كتاب، وفي الحديث الشّريف: أَرْسَلَ الله سبحانه وتعالى إِلَى نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم مَلَكاً مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَعَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ الْمَلَكُ: إِنَّ اللهَ يُخَيِّرُكَ بَيْنَ أَنْ تَكُونَ عَبْداً نَبِيّاً، وَبَيْنَ أَنْ تَكُونَ مَلَكاً، فَالْتَفَتَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى جِبْرِيلَ كَالْمُسْتَشِيرِ، فَأَشَارَ جِبْرِيلُ بِيَدِهِ أَنْ تَوَاضَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**بَلْ أَكُونُ عَبْداً نَبِيّاً**»(١).

(الآية ٥٦) - ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ٥٦﴾:

يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: قل للّذين يُعارضونك في الوحدانيّة إذا مسَّكم ضُرٌّ فلا تلجؤوا إلى مَنْ تكفرون به، بل الجؤوا إلى مَنْ زعمتم أنّهم شركاء وآمنتم بهم، فإنّهم لن يستمعوا إليكم؛ لأنّ الإنسان بطبعه لا يخدع نفسه، ولو علموا أنّ الّذين يتّخذونهم آلهة من دون الله سبحانه وتعالى ينفعونهم في شيءٍ لما دَعَوْا ربّهم الّذي يكفرون به وتركوا الّذين يؤمنون بهم، لماذا؟ لأنّ الإنسان لا يتمرّد ولا يطغى إلّا إذا كان مُسْتغنياً بملكاته كلّها، بمعنى أن تكون ملكاته كلّها على هيئة الاستقامة والانسجام، فإذا اختلّتْ له ملكة من الملكات ضَعُفَ طغيانه،

---

(١) السّنن الكبرى للنّسائيّ: كتاب الوليمة، الأكل متّكئاً، الحديث رقم (٦٧١٠).

وحاول أن يستكمل هذا النّقص، وحينئذٍ لن يخدع نفسه بأن يطلب الاستكمال مِمَّن لا يملكه كالأصنام، بل يطلبه ممَّنْ يعتقد أنّه يملكه، فالإنسان في ساعة الضّرّ لا يخدع نفسه، لذلك يقول سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ [الإسراء: من الآية ٦٧]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ﴾ [الزّمر: من الآية ٨]، فقل لهم: إذا مسّكم الضّرّ، فاذهبوا إلى مَن ادّعيتم أنّهم آلهة وادعوهم، فإنّهم لن يستجيبوا ولن يدعوهم، ولو دَعَوْهم فلن يكشفوا عنهم ضرّهم: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾.

﴿وَلَا تَحۡوِيلًا﴾: أي: ولا يملكون تحويل حالكم من الضّرّ إلى النّفع أو النّعمة أو الرّحمة، أو: لا يملكون تحويل هذا الضّرّ إلى أعدائكم، فهم لا يملكون هذه ولا هذه.

(الآية ٥٧) - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾: فهؤلاء الّذين تعدّونهم آلهة وتتّخذونهم شركاء لله عَزَّ وَجَلَّ، هم أيضاً عبيد لله عَزَّ وَجَلَّ، يتقرّبون إليه ويتوسّلون إليه كالملائكة وغيرهم، وهم لا يرفضون ولا يتأبَّوْن أن يكونوا عباداً لله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾: أي: يطلبون الغاية والقربى إليه سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾: أي: كلّما تقرّب واحدٌ منهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ابتغى الله جَلَّ جَلَالُهُ أكثرَ من غيره وأقبل عليه، فإذا كان الأقرب إلى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى منهم يبتغي القُرْبى، فما بال الأبعد؟

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾: أي: يجب الحذر منه وتجنُّب أسبابه؛ لأنّ العذاب إذا كان من الله عَزَّ وَجَلَّ فلا فِكاكَ منه ولا مهرب، وأيضاً فالعذاب يتناسب مع قدرة المعذِّب ضعفاً وشدّة، فإذا نُسِب العذاب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فلا شكَّ في أنّه أليمٌ شديدٌ، لا طاقة لأحدٍ به، كما قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود: من الآية ١٠٢].

(الآية ٥٨) - ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ٥٨﴾:

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا﴾: أسلوبٌ قائمٌ على نفي وإثبات، والمعنى: لا توجد قرية إلّا والله عَزَّ وَجَلَّ سيهلِكها قبل يوم القيامة، أو سيعذِّبها عذاباً شديداً، لكن هل القرى كلّها ينسحب عليها هذا الحكم؟ نقول: لا؛ لأنّ هذا حكمٌ مطلق، والإطلاقات في القرآن الكريم تُقيّدها آيات قرآنيّة أخرى؛ لذلك تفسير القرآن الكريم يحتاج إلى مختصّين، عندهم دراية باللّغة العربيّة ودراية بآيات القرآن الكريم كلّها، وسوف نجد مع هذه الآية قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾ [الأنعام]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ١١٧﴾ [هود]، فنضع الآية الأولى مع هاتين الآيتين اللّتين تُوضِّحان الاستثناء من القاعدة السّابقة، وتُقيِّدان المبدأ السّابق العامّ الّذي جاءت به الآية: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾، فيكون المعنى: وإنْ من قرية غير غافلة وغير مُصلِحة إلّا والله عَزَّ وَجَلَّ سيهلكها أو سيعذِّبها، وقد رفع عذاب الاستئصال عن أمّة محمّد ﷺ لقوله

تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ [الأنفال: من الآية ٣٣]، وفي الحديث الشّريف: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا ثُمَّ بَلَّغَهَا، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»(١)، وهكذا تظلّ في الأمّة هذه الخيريّة، وتحمل دعوة رسولها ﷺ، حيث لا رسول من بعده إلى يوم القيامة.

ونعود إلى مسألة الإهلاك والعذاب؛ لأنّها أثارت خلافاً بين رجال القانون في مواضيع عدّة، فهناك قولٌ خاطئ وبعيدٌ عن الصّواب، يجب أن نبيّنه، وهو الفرق بين سُنّيّة الدّليل وسُنّيّة الحكم، فسُنّيّة الدّليل أن يكون الأمر فَرْضاً، لكنّ دليله من السّنّة، مثال: عدد ركعات كلّ صلاة، كصلاة المغرب مثلاً ثلاث ركعات وهي فَرْض، لكنّ دليلها من السّنّة، وكذلك مقدار الزّكاة، مناسك الحجّ، أحكام تفصيليّة في الصّيام.. وغيرها من الأمور الّتي هي فرض لكنّ دليلها من السّنّة، لماذا؟ لأنّ الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: من الآية ٧]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ٨٠﴾ [النّساء]، فالرّسول ﷺ هو الوحيد المخوّل بالتّشريع، أمّا سُنّيّة الحكم فيكون الحكم نفسه سُنّة يُثاب فاعله، ولا يُعَاقب تاركه، كالتّسبيح ثلاثاً في الرّكوع مثلاً، فالسُّنّة هنا سُنّيّة حكم، ففِعْل الرّسول ﷺ كنصِّ القرآن الكريم تماماً.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾: أي: مُسجّل ومُسطّر في اللّوح المحفوظ، ولا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ وتأتي الأحداث بغير ذلك، بل لا بُدَّ أنْ يؤكّد هذه الحقائق القرآنيّة بأحداثٍ كونيّة واقعيّة.

---

(١) المعجم الأوسط للطّبرانيّ: باب الميم، من اسمه محمّد، الحديث رقم (٥٢٩٢).

(الآية ٥٩) - ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾: الآيات: جمع آية، وهي الأمر العجيب الّذي يلفت النّظر ويسترعي الانتباه، وهذه الآيات إمّا أن تكون آيات كونيّة نستدلّ بها على قدرة المدبِّر الأعلى سبحانه وتعالى، كالمذكورة في قوله عز وجل: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ﴾ [فصِّلت: من الآية ٣٧]، أو تكون الآيات بمعنى المعجزة الّتي تثبت صِدْق الرّسول في البلاغ عن ربّه جل جلاله، أو قد تكون الآيات بمعنى آيات القرآن الكريم الّتي يسمّونها حاملة الأحكام، فالآيات ثلاث: كونيّة، ومعجزات، وآيات القرآن الكريم، فأيّها المقصود في الآية: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾؟ الجواب: الآيات الكونيّة موجودة لا تحتاج إلى إرسال، والآيات القرآنيّة موجودة أيضاً، بقي المعجزات وهي موجودة، وقد جاءت معجزة كلّ نبيّ على حَسْب نبوغ قومه، فجاءت معجزة موسى عليه السلام من نوع السّحر الّذي نبغ فيه بنو إسرائيل، وكذلك جاءت معجزة عيسى عليه السلام ممّا نبغ فيه قومه من الطّبّ، وهنا جلس كفّار مكّة يقترحون الآيات ويطلبون المعجزات، والحقّ سبحانه وتعالى يُنزِل من المعجزات ما يشاء، وليس لأحدٍ أن يقترح عليه عز وجل شيء، قال سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦﴾ [يونس]، فالحقّ عز وجل قادرٌ أن يُنزل عليهم ما اقترحوه من الآيات، فهو سبحانه وتعالى لا يُعجِزه شيء، ولا يتعاظمه شيء، ولكن للبشر قبل ذلك سابقة مع المعجزات.

﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾: مبصرة: أي: آية بيّنة واضحة.

لقد طلب قوم ثمود معجزة بعينها فأجابهم الله ﷻ وأنزلها لهم، فما كان منهم إلّا أن استكبروا عن الإيمان، وكفروا بالآية الّتي طلبوها، بل وأكثر من ذلك ظلموا بها؛ أي: جاروا على النّاقة نفسها، وتجرّؤوا عليها فعقروها، وهذه السّابقة مع ثمود هي الّتي منعتنا عن إجابة أهل مكّة فيما اقترحوه من الآيات، وليس عَجْزاً مِنَّا عن الإتيان بها، وقوله ﷻ عن النّاقة أنّها آية ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾؛ لبيان وضوحها، كما في قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ [الإسراء: من الآية ١٢].

﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾: أي: نبعث بآيات غير المعجزات لتكون تخويفاً للكفّار والمعاندين، فمثلاً الرّسول ﷺ اضطهده أهل مكّة ودبَّروا لقتله جهاراً وعلانية، فخيّب الله ﷻ سَعْيهم، ورأوا أنّهم لو قتلوه لَطالبَ أهله بدمه، فحاكوا مؤامرة أخرى للفتك به ليلاً، واقترحوا أنْ يُؤْتَى من كلّ قبيلة بفتى جَلْدٍ، ويضربوه ضَرْبة رجلٍ واحدٍ، ولكنّ الله ﷻ أبطل هذه المكيدة، وخرج النّبيّ ﷺ من بين أظهرهم وأخبره الله ﷻ بما دُبِّر له، فلم يُفلحوا في التّبييت، ولم يفلح السّحر في النّيل من رسول الله ﷺ، فهذه من المعجزات الّتي حدثت للرّسول ﷺ، وهناك آيات أخرى تأتي لِرَدْع المكذّبين عن كذبهم، وتُخوّفهم بما حدث لسابقيهم من المُكذِّبين بالرّسل، حيث أخذهم الله ﷻ أَخْذ عزيزٍ مقتدر، ومن آيات التّخويف ما جاء في قوله ﷻ: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت]، فهذه آيات بعثها الله ﷻ على أممٍ من المكذِّبين، كُلٌّ بما يناسبه.

(الآية ٦٠) - ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ٦٠﴾:

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ﴾: أي: اذكر يا محمّد، وليذكر معك أصحابك إذ قلنا لك: إنّ ربّك أحاط بالنّاس، فلا يمكن أن يتصرّفوا تصرُّفاً، أو يقولوا قولاً يغيب عن عِلْمِه ﷻ؛ لأنّ الإحاطة تعني الإلمام بالشّيء من كُلّ ناحية، وما دام الأمر كذلك فاطمئنّ يا محمّد، واعلم أنّهم لن ينالوا منك لا جهرة ولا تبييتاً، ولا استعانة بالجنس الخفيّ (الجنّ)؛ لأنّ الله ﷻ محيطٌ بهم، وسيبطل سَعْيَهم، ويجعل كَيْدهم في نحورهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾: الإحاطة تقتضي العلم بهم والقدرة عليهم، فلن يُفلتوا من علم الله ﷯ ولا من قدرته، ولا بُدَّ من العلم مع القدرة؛ لأنّك قد تعلم شيئاً ضارّاً ولكنّك لا تقدر على دَفْعه، فالعلم وحده لا يكفي، بل لا بُدَّ له من قدرة على التّنفيذ، فإحاطته ﷻ بالنّاس تعني أنّه ﷻ يعلم كلّ أمر عنهم ويقدر على تنفيذ أمره فيهم، وكلمة (النّاس) تُطلَق إطلاقاتٍ متعدّدة، فما يسبق كلمة (النّاس) وما بعدها يُبيّن المراد، كما في قوله ﷻ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾ [النّاس]؛ أي: النّاس كلّهم، من آدم ؈ حتّى آخر إنسان على وجه الأرض، وقد يُراد بها بعض الخَلْق دون بعض، كما في قوله ﷻ: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾ [النّساء: من الآية ٥٤]، فالمراد بالنّاس هنا شخص الرّسول ﷺ حين قال

عنه كفّار مكّة: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزّخرف]، وكما في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ [آل عمران: من الآية ١٧٣]، فهؤلاء غير هؤلاء. وقد وقف العلماء عند كلمة (النّاس) في الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾، فبعضهم قصرها على الكافرين الّذين يقفون من رسول الله ﷺ موقف العداء، لكن لا مانع أن نأخذ هذه الكلمة على عمومها، فيُراد بها أحاط بالنّاس كلّهم، بالمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله ﷺ، وأحاط بالكافرين وعلى رأسهم صناديد الكفر في مكّة، لذلك فالإحاطة هنا ليست واحدة، فلكلّ منهما إحاطة تناسبه، فإنْ كنتَ تريد الإحاطة بالمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله ﷺ فهي إحاطة عناية وحماية حتّى لا ينالهم أذى، وإنْ أردتَ بها الكافرين فهي إحاطة حصار لا يُفلِتون منه ولا ينفكّون عنه، فاذكر جيّداً يا محمّد حين تنزل بك الأحداث، ويظنّ أعداؤك أنّهم أحاطوا بك، وأنّهم قادرون عليك، اذكر أنّ الله ﷻ أحاط بالنّاس، فأنت في عناية الله ﷻ فلن يصيبك شرٌّ من الخارج، وهم في حصار لن يُفلِتوا منه.

﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾: كلمة: ﴿ٱلرُّءۡيَا﴾ بالألف الممدودة مصدر للفعل رأى، وكذلك (رؤية) بالتّاء المربوطة مصدر للفعل رأى، فإنْ أردتَ الرّؤيا المناميّة تقول: رأيتُ رُؤْيا، وإنْ أردتَ رأى البصريّة تقول: رأيتُ رؤية، ومن ذلك قول يوسف عليه السلام في المنام الّذي رآه: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف: من الآية ١٠٠]، ولم يَقُلْ: رؤيتي، فالفعل واحد، والمصدر مختلف، وقد اختلف العلماء: ما هي الرّؤيا الّتي جعلها الله ﷻ فتنة للنّاس؟ بعضهم قال: إنّها الرّؤيا الّتي ثبتتْ في أوّل السّورة: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا

﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: من الآية ١]؛ أي: حادثة الإسراء والمعراج الّتي لم تكن رؤيا مناميّة وإنّما بصريّة، وبعضهم قال: إنّها الرُّؤْيا الّتي قال الله ﷻ فيها: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ٢٧﴾ [الفتح]، فقد وعد الله ﷻ رسولَه ﷺ بأنّه ومن معه سيدخلون المسجد الحرام في هذا العام، ولكن مُنِعوا من الدّخول عند الحديبية، فكانت فتنة بين المسلمين وتعجّبوا أنْ يعدهم رسول الله ﷺ وَعْداً ولا ينجزه لهم، ثمّ بيّن الحقّ ﷻ لهم الحكمة من عدم دخول مكّة هذا العام، فأنزل على رسوله ﷺ وهو في طريق عودته إلى المدينة: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥﴾ [الفتح]، فالحقّ ﷻ منعهم تحقيق هذه الرّؤيا في الحديبية؛ لأنّهم لو دخلوا مكّة مُحاربين حاملي السّلاح، وفيها مؤمنون ومؤمنات لا يعلمهم أحد، فسيصيبهم من الأذى وينالهم من هذه الحرب؛ لأنّهم لن يُميّزوا بين مؤمن وكافر، فقد يقتلون مؤمناً فتصيبهم مَعَرَّةٌ بقتله، لذلك كان من الطّبيعيّ أنْ يتشكَّكَ النّاس فيما حدث بالحديبية، وأن تحدث فتنة تزلزل المسلمين، حتّى إنّ الفاروق عمر رضي الله عنه ليقول لرسول الله ﷺ: "ألسنا على الحقّ؟ أليسوا هم على الباطل؟ ألستَ رسول الله؟"، فيقول أبو بكر رضي الله عنه: "الزم غَرْزَه يا عمر، إنّه رسول الله"، وقد ساهمتْ السّيّدة أمّ سلمة أمّ المؤمنين رضي الله عنها في حَلِّ هذا الإشكال الّذي حدث نتيجة هذه الفتنة، فلمّا اعترض النّاس على رسول

الله ﷺ في عودته من الحديبية دخل عليها، فقال: «**هَلَكَ الْمُسْلِمُونَ، أَمَرْتُهُمْ أَنْ يَحْلِقُوا وَيَنْحَرُوا فَلَمْ يَفْعَلُوا**»(١)، فقالت: يا رسول الله، إنّهم مكروبون، جاؤوا على شَوْق للبيت، ثمّ مُنِعوا وهم على مَقْرُبة منه، ولا شكَّ في أنّ هذا يشقّ عليهم، فَامْضِ يا رسول الله لما أمرك الله، فإذا رأوك عازماً امتثلوا، ونجح اقتراح السّيّدة أمّ سلمة في حلّ هذه المسألة، فخرج رسول الله ﷺ وتحلّل بقصّ شيءٍ من شعره، فامتثل الجميع للأمر، وقال بعضهم: إنّ المراد بالرّؤيا الّتي جعلها الله ﷻ فتنة ما رآه النّبيّ ﷺ قبل غزوة بدر: رَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﵁: جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِينَا مَصَارِعَ الْقَوْمِ لَيْلَةَ بَدْرٍ، «**هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غداً إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَهَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غداً إِنْ شَاءَ اللَّهُ**»، فَمَا أَمَاطَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنِ الْمَصْرَعِ الَّذِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ(٢)، فَقُلْ لي: بالله عليك، مَنِ الّذي يستطيع أنْ يحدّد الأماكن الّتي سيقتل فيها هؤلاء في معركة كهذه، الأصل فيها الكَرّ والفرّ، والحركة والانتقال؟! الجواب: إنّه رسول الله ﷺ.

﴿**فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ**﴾: أي: اختبار.

ما الحكمة من فتنة النّاس واختبارهم بمثل هذا الحدث؟ الحكمة هي تمحيص النّاس وصَهْرهم في بوتقة الإيمان؛ لنميز الخبيث من الطّيّب، والمؤمن من الكافر.

---

(١) فتح الباري: ج٥، ص ٣٤٧.

(٢) مسند البزّار: مسند عمر بن الخطّاب ﵁، وَمِمَّا رَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﵁، الحديث رقم (٢٢٢).

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾: أي: وما جعلنا الشّجرة الملعونة في القرآن الكريم إلّا فتنةً للنّاس أيضاً، لِمَ هي فتنة؟ لأنّها تخرج في أصل الجحيم، في قَعْر جهنّم، ومعلومٌ أنّ الشّجرة نبات لا يعيش إلّا بالماء والرّيّ، فكيف تكون الشّجرة في جهنّم؟! ومن هنا كانت الشّجرة فتنة تُمحّص إيمان النّاس؛ لذلك عندما سمع أبو جهل هذه الآية جعلها مُشكلة، وخرج على النّاس يقول: اسمعوا ما يحدّثكم به قرآن محمّد، يقول: إنّ في الجحيم شجرة تسمّى: (شجرة الزّقوم)، فكيف يستقيم هذا القول، والنّار تحرق كلّ شيء حتّى الحجارة؟ وهذا الاعتراض مقبولٌ عقلاً، لكنّ المؤمن لا يستقبل آيات الله سبحانه وتعالى استقبالاً عقليّاً فقط، وإنّما يعمل حساباً لقدرته جل جلاله؛ لأنّ الأشياء لا تأخذ قوامها بعنصر تكوينها، وإنّما تأخذه بقانون المعنصِر نفسه، فالخالق سبحانه وتعالى يقول للشّجرة: كوني في أصل الجحيم، فتكون في أصل الجحيم بطلاقة القدرة الإلهيّة الّتي قالت للنّار: ﴿كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ٦٩﴾ [الأنبياء: من الآية ٦٩]، فما أحرقته، وقد قال أبو جهل حينما سمع قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ٦٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ٦٤﴾ [الصّافّات]، "يُخَوِّفُنَا مُحَمَّدٌ بِشَجَرَةِ الزَّقُّومِ، هَاتُوا تَمْراً وَزُبْداً تَزَقَّمُوا"(١)؛ أي: استهزاءً بكلام الله عز وجل، وتكذيباً لرسوله صلى الله عليه وسلم، أمّا المؤمن فيستقبل هذه الآيات استقبالَ الإيمان والتّسليم بصدق كلام الله عز وجل، وبصدق المبلّغ عن الله سبحانه وتعالى الّذي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعلم أنّ الأشياء لا تأخذ صلاحيّتها بعنصر تكوينها، وإنّما بإرادة المعنْصِر الّذي يقول للشّيء: ﴿كُن﴾ فيكون؛ لأنّ المسألة ليست ميكانيكاً، أو نواميس تعمل

---

(١) مسند أبي يعلى الموصليّ: أوّل مسند ابن عبّاس، الحديث رقم (٢٧٢٠).

وتدير الكون، بل هي قدرة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وطلاقة هذه القدرة، ولسائل أن يقول: كيف يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن هذه الشّجرة: إنّها (ملعونة)؟ ما ذنب الشّجرة حتّى تُلْعَن، وهي آيةٌ ومعجزةٌ لله عَزَّ وَجَلَّ، وهي دليلٌ على قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعلى أنّ النّواميس لا تحكم الكون، بل ربّ النّواميس جَلَّ جَلَالُهُ هو الّذي يحكم ويُغيِّر طبائع الأشياء؟ كيف تُلْعَن، وهي الطّعام الّذي سيأكله الكافر ويتعذّب به؟ إنّها أداة من أدوات العقاب، ووسيلة من وسائل التّعذيب لأعداء الله عَزَّ وَجَلَّ، نقول: المراد هنا: الشّجرة الملعون آكلها؛ لأنّه لا يأكل منها إلّا الأثيم، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدّخان]، والأثيم لا شَكَّ ملعون، لكن لماذا لم يجعل الملعونيّة للآكل وجعلها للشّجرة؟ قالوا: لأنّ العربيّ دَرَجَ على أنّ كلّ شيءٍ ضارّ ملعونٌ؛ أي: مُبْعَد من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكأنّ الكافر حينما يرى هذه الشّجرة هو الّذي يلعنها، فهي ملعونةٌ من آكلها، وقد أكل منها؛ لأنّه ملعونٌ، فنستطيع القول: إنّها ملعونةٌ، وملعونٌ آكلها.

ومن الإشكالات الّتي أثارتها هذه الآية في العصر الحديث قول المستشرقين الّذين يريدون أن يتورّكوا على القرآن الكريم، ويعترضوا على أساليبه، مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن شجرة الزّقوم: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصّافّات]، ووَجْه اعتراضهم أنّ التّشبيه إنّما يأتي عادةً لِيُوضِّح أمراً مجهولاً من مخاطَب بأمرٍ معلوم له، أمّا في الآية فالمشبَّه مجهولٌ لنا؛ لأنّه غَيْبٌ لا نعلم عنه شيئاً، وكذلك المشبَّه به لم نَرَهُ، ولم يعرف أحدٌ مِنّا رأس الشّيطان، فكيف يُشبِّه مجهولاً بمجهول؟ لأنّنا لم نَرَ شجرة الزقوم لنعرف طَلْعها، ولم نَرَ الشّيطان لنعرف رأسه!! ثمّ يقولون: الّذي جعل المسلمين يمرُّون على هذه الآية أنّهم يُعطون للقرآن قداسة، هذه

القداسة تُربّي فيهم التّهيُّب أنْ يُقبلوا على القرآن بعقولهم ليفتّشوا فيه، ولو أنّهم تخلّصوا من هذه المسألة وبدؤوا البحث في أسلوب القرآن الكريم من غير تهيُّبٍ لاستطاعوا الخروج منه بمعطيات جديدة.. وللردِّ على قَوْل المستشرقين السّابق نقول لهم: لقد تعلّمتم العربيّة صناعةً، وليس عندكم المَلَكَة العربيّة أو التّذوّق الكافي لفهم كتاب الله ﷻ وتفسير أساليبه، وفَرْقٌ بين اللّغة كملَكَة واللّغة كصناعة فقط، الملَكة اللّغويّة تفاعلٌ واختمارٌ للّغة في الوجدان، فساعة أنْ يسمعَ التّعبير العربيّ يفهم المقصود منه، أمّا اللّغة المكتسبة -خاصّة على كِبَر- فهي مجرّد دراسة لإمكان التّخاطب، فلو أنّ عند هؤلاء المستشرقين هذه الملكة لما حدث منهم هذا الاعتراض، فالشّيطان، وإنْ لم يَرَهُ أحدٌ فإنّ النّاس تتخيّله في صورة بشعة وقبيحة ومخيفة، فلو كلّفنا جميع رسّامي الكاريكاتير في العالم برسم صورة مُتَخيّلة للشّيطان لَرَسَم كلّ واحدٍ منهم صورةً تختلف عن الآخر؛ لأنّ كلّاً منهم سيتصوّره بصورةٍ خاصّةٍ حَسْب تصوّره للشّيطان وجهة البشاعة فيه، فلو أنّ الله ﷻ شبّه طَلْع شجرة الزّقوم بشيءٍ معلومٍ لنا لَتصوّرناه على وجهٍ واحد، لكنّ الله ﷻ أراد أنْ يُشيعَ بشاعته، وأنْ تذهب النّفس في تصوُّر بشاعته كلّ مذهب، وهكذا يؤدّي هذا التّشبيه في الآية مَا لا يُؤدّيه غيره، ويُحدث من الأثر المطلوب ما لا يُحدِثه تعبيرٌ آخر.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾: أي: نُخوّفهم بأنْ يتعرّضوا للعقوبات الّتي تعرّض لها المكذِّبون للرّسل السّابقين، فالرّسل نهايتهم النّصر، والكافرون بهم نهايتهم الخُذْلان، وأنت حينما تُخوّف إنساناً أو تُحذِّره من شرٍّ سيقع له، فقد أحسنتَ إليه وأسديتَ إليه جميلاً ومعروفاً، كالوالد الّذي يُخوِّف

ابنه عاقبة الإهمال، ويُذكّره بالفشل واحتقار النّاس له، إنّه بذلك ينصحه ليلتفت إلى دروسه ويجتهد.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾: التّخويف هنا نعمةٌ من الله عَزَّوَجَلَّ عليهم؛ لأنّه يُشّع لهم الأمر حتّى لا يقعوا فيه.

﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾: أي: يزدادون بالتّخويف طغياناً، لماذا؟ لأنّهم لا يريدون مطلوبات الإيمان، ويعلمون تماماً أنّ كلمة لا إله إلّا الله تعني الكثير من الوظائف الإيمانيّة، وتعني أنّك ستكون مستقيماً ومحارِباً للفساد، ومنع أيّ ضررٍ للنّاس..، وهم يريدون الفساد ولا يريدون الإصلاح، والأنبياء يقولون كما جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: من الآية ٨٨].

(الآية ٦١) - ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾: أي: تذكّروا أنّ الحسد قديم قِدَم وجود الإنسان على هذه الأرض، تذكّروا ما كان من أمر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وإبليس -لعنه الله-، فهي مسألةٌ قديمةٌ ومستمرّةٌ في البشر إلى يوم القيامة.

والمعنى: واذكُرْ يا محمّد، وليذكر معك قومك، إذ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم، ونشير هنا إلى أنّ السّجود لا يكون إلّا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكن إذا كان الأمر بالسّجود لغير الله عَزَّوَجَلَّ من الله جَلَّ جَلَالُهُ، فليس لأحدٍ أن يعترض على هذا السّجود؛ لأنّه بأمر الله عَزَّوَجَلَّ، فأنت تسجد لأمر الآمر، وهو يعلم أنّ سجودهم لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس عَيْباً وليس قَدْحاً في دينهم وعبوديّتهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنّ العبوديّة

طاعة أوامر، والمراد بالملائكة المدبّرات أمراً، الّذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرّعد: من الآية ١١]، وقد أمرهم الله عزّ وجلّ بالسّجود لآدم عليه السلام؛ لأنّه سيكون أبا البشر، وسوف يُسَخَّر له الكون، حتّى هؤلاء الملائكة سيكونون في خدمته، وهو يتمتّع بالاختيار بين البدائل، يتمتّع بالعقل والعلم؛ لذلك أمرهم الله سبحانه وتعالى بالسّجود له سجودَ تحيّة، وسجود طاعة وخضوع لأمر الله عزّ وجلّ، فالسّجود لآدم عليه السلام ليس خضوعاً له، بل خضوع لأمر الله عزّ وجلّ ربّ آدم عليه السلام.

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾: فَهِم بعضهم منها أنّ إبليس كان من الملائكة، ونحن نعذر أصحاب هذا الفهم لو عزلنا هذه الآية عن بقيّة الآيات الّتي تحدّثتْ عن هذه القضيّة، لكن بما أنّنا نتكلّم في موضوعٍ عامٍّ مثل هذا، فيجب استحضار جميع الآيات الواردة في القرآن الكريم لتتّضح لنا الصّورة كاملة، ففي سورة الكهف قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: من الآية ٥٠]، كان الأمر للملائكة، وهو ليس من الملائكة، فسجدوا إلّا إبليس كان من الجنّ، لكنّه كان مع الملائكة؛ لأنّه كان طائعاً، فإنْ قال قائل: كيف يكون من الجنّ ويكون مع الملائكة؟ نقول: إبليس من الجنّ بالنّصِّ الصّريح للقرآن الكريم، هذا واضحٌ تماماً في سورة الكهف، وكان مطيعاً عن اختيار، والملائكة مطيعون ولكن ليس عن اختيار، بل عن جِبلَّة وعن طبيعة، فبذلك كانت منزلة إبليس عالية، أطاع مع قدرته على العصيان فأصبح جليس الملائكة، ويتباهى بأنّه صالح للاختيار في العصيان، ومع ذلك ألزم نفسه منهج الله عزّ وجلّ، هنا كان مع الملائكة وجاء الأمر الإلهيّ، سجد الملائكة فرفض هو

السّجود؛ لأنّه من طبيعته يستطيع أن يختار بين البدائل. ومن الإشكالات الّتي أثارها المستشرقون حول هذا الموضوع اعتراضهم على قول القرآن الكريم عن إبليس مرّة: ﴿أَبَىٰ﴾ [الحجر: من الآية ٣١]، ومرّة أخرى: ﴿ٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [ص: من الآية ٧٤]، ومرّة: ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: من الآية ٣٤]، وكذلك قول الحقّ ﷻ مرّة: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ [ص: من الآية ٧٥]، ومرّة أخرى يقول: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ [الأعراف: من الآية ١٢]، وقد سبق أن تحدّثنا عن قصور هؤلاء في فَهْم أساليب اللّغة العربيّة؛ لأنّها ليستْ لديهم ملَكَة، والمتأمّل في هذه الأساليب يجدها منسجمة يُكمل بعضها بعضاً، فالإباء قد يكون مجرّد امتناع لا عن استكبار، فالحقّ ﷻ يريد أن يقول: إنّه أبى استكباراً، فتنوّع الأسلوب القرآنيّ ليعطينا هذا المعنى، أمّا قول الله ﷻ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ [ص: من الآية ٧٥]، و﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ [الأعراف: من الآية ١٢]، صحيحٌ أنّ في الأولى إثباتاً وفي الأخرى نفياً، والنّظرة العجْلَى يُعتَقد أنّ ثمّة تعارضاً بين الآيتين، ممّا حمل العلماء على القول: بأنّ (لا) في الآية الثّانية زائدة، فالأصل: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ [ص: من الآية ٧٥]، والقول بوجود حروف زائدة في كتاب الله ﷿ قولٌ لا يليق، ونُنزّه المتكلِّم ﷻ أن يكون في كلامه زيادة، والمتأدِّب منهم يقول: (لا) حرف وَصْل، كأنّه يستنكف أن يقول: زائدة، والحقيقة أنّ (لا) هنا ليست زائدة، وليست للوَصْل، بل هي تأسيس تضيف معنى جديداً؛ لأنّ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ [ص: من الآية ٧٥]، كأنّه همَّ أن يسجد، فجاءه مَنْ يمنعه عن السّجود؛ لأنّه لا يُقال: ما منع من كذا إلّا إذا كان لديك استعداد للفعل، وإلّا من أيّ شيء سيمنعك؟ أمّا ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ [الأعراف: من الآية ١٢]، تعني: مَن منعك بإقناعك بأن لا تسجد، فالمعنيان مختلفان، ونحن في حاجة إليهما معاً.

﴿قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾: والهمزة للاستفهام الّذي يحمل معنى الاعتراض أو الاستنكار، وقد فُسِّرت هذه الآية بآياتٍ أخرى، مثل قوله ﷻ: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف: من الآية ١٢]، فالمخلوقيّة لله تعالى مُتّفقٌ عليها، إنّما الاختلاف في عنصر المخلوقيّة، هذا من نار وهذا من طين، الجنّ من نار وآدم عليه السلام من طين، لكن من قال لك يا إبليس: إنّ النّار فوق الطّين، أو خير منه؟! من أين أتيتَ بهذه المقولة وكلاهما مخلوق لله ﷻ، وله مهمّة في الكون؟! وهل نستطيع أن نقول: إنّ العين خيرٌ من الأُذُن مثلاً؟ أم أنّ لكلّ منهما مهمّتها الّتي لا تؤدّيها الأخرى عنها؟ فمن أين جاء إبليس بخيريّة النّار على الطّين؟ فالطّين هو الأصل، فقياس إبليس خاطئ.

ومعنى: ﴿خَلَقۡتَ طِينٗا﴾: يعني: خلقته حال كونه من الطّين، أو خلقتَه من طين، والخَلْق من الطّين مرحلة من مراحل الخَلْق؛ لأنّ الخَالِق ﷻ قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ [الحجر]، سبقتْه مراحل متعدّدة، قال عنها الخالق ﷻ مرّة: من الماء، ومرّة: من التّراب، ومرّة: من الطّين، والماء إذا خُلِط بالتّراب صار طيناً، وبمرور الوقت يسودُّ هذا الطّين، وتتغيّر رائحته، فيتحوّل إلى حمأٍ مسنون، وما أشبهَ الحمأ المسنون بما يفعله بعضهم في صناعة الطّوب، حيث يخلطون الماء بالتّراب بالقشِّ، ويتركونه فترة حتّى يختمر، وتتغيّر رائحته ويعطَن، ثمّ يصبُّونه في قوالب، فإذا ما تُرِك الطّين حتّى يجفّ، ويتحوّل إلى الصّلابة يصير صَلْصَالاً كالفخّار.. وبعد هذه المراحل كلّها يقول ﷻ: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ [الحجر]، فلا وَجْه للاعتراض على القرآن الكريم في قوله عن خلق الإنسان مرّة أنّه: من: ماء، أو من تراب، أو طين، أو حمأ مسنون، فهذه كلّها مراحل للمكوّن الواحد.

(الآية ٦٢) - ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢﴾:

﴿قَالَ﴾: أي: إبليس.

﴿أَرَءَيْتَكَ﴾: الهمزة للاستفهام، والتّاء للخطاب، وكذلك الكاف، وجمع بينهما في الخطاب للتّأكيد، كما تقول: أنت أنت تفعل ذلك؟! والمعنى: أخبرني؛ لأنّ رأى البصريّة تُطلق في القرآن الكريم على معنى العلم؛ لأنّ علم العين علمٌ مُؤكّد لا شكَّ فيه، لذلك قالوا: (ليس مع العين أَيْن)، فما تراه أمامك عياناً، وإنْ كان للعلم وسائل كثيرة فأقواها الرّؤية؛ لأنّها تُعطي علماً مؤكّداً على خلاف الأُذُن مثلاً، فقد تسمع بها كلاماً تعرف بعد ذلك أنّه كذب.

﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾: أي: أعلمني، لماذا فضّلته عليَّ؟! وكأنّ تفضيل آدم عليه السلام على إبليس مسألة تحتاج إلى برهان وتبرير، وكان على إبليس أن ينتظر إجابة هذا السّؤال الّذي توجّه به لربّه عزّ وجلّ، ولكنّه تعجَّل وحمله الغيظ والحسد على أن يقول:

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾: وهذا لأنّ حقده وعداوته لآدم عليه السلام مُسْبقة فلم ينتظر الجواب. ومعنى: ﴿أَخَّرْتَنِ﴾: أخَّرت أجلي عن موعده، كأنّه يعلم أنّ الله سبحانه وتعالى يجعل لكلّ نفسٍ من إنسٍ أو جنٍّ أجلاً معلوماً، فطلب أنْ يُؤخِّره الله عزّ وجلّ عن أجله، وهذه مبالغة منه في اللّدد والعناد، فلم يتوعّدهم ويُهدّدهم مدّة حياته هو، بل إلى يوم القيامة، فإن كانت البداية مع آدم عليه السلام فلن ينجو ولن تنجو ذرّيّته أيضاً، فالعداوة بين إبليس وآدم، فما

ذنب ذرّيّته من بعده؟! لقد كان عليه أن يقصر هذا الحقد، وهذه العداوة على آدم عليه السلام، ثمّ يوصي ذرّيّته بحمل هذا العداء من بعده، إنّه الغيظ الدّفين الّذي يملأ قلبه، وقد أمهله الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥﴾ [الأعراف].

﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾: اللّام للقسم، كما أقسم في آيةٍ أخرى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢﴾ [ص]، وعجيب أمر إبليس، يقسم بالله جلّ جلاله وهو يعلم أنّ العمر والأجل بيده سبحانه وتعالى، فيسأله أن يُؤخّره، ومع ذلك لا يطيع أمره.

والاحتناك: يَرِد بمعنيين: الأوّل: الاستئصال، ومنه قولهم: احتنك الجراد الزّرع؛ أي: أتى عليه كلّه واستأصله، والآخر: بمعنى القهر على التّصرّف، مأخوذٌ من اللّجام الّذي يُوضَع في حنَك الفرس، ويسمّونه (الحنكة) وبها تستطيع أن تُوجّه الفرس يميناً أو يساراً أو تُوقِفه، فهي أداة التّحكّم فيه، والسّيطرة عليه قَهْراً، فالاحتناك قد يكون استئصالاً للذّات، وقد يكون قهراً لحركتها.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: فيها دليلٌ على عِلْم إبليس ومعرفته بقدرة الله جلّ جلاله، فعندما أقسم: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢﴾ [ص: من الآية ٨٢]؛ أي: باستغنائك عن عبادة خلقك؛ لأنّك بعزّتك قلت: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩]، سأدخل من هذا الباب، أمّا عبادك الّذين هديتهم واصطفيتهم فلا دَخْلَ لي بهم، وليس لي عليهم سلطان، لقد تذكّر قدرة الله عزّ وجلّ، وأنّ الله سبحانه وتعالى إذا أراد إخلاص العبد فلن يستطيع الشّيطان أنْ يغويه، فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص]، فقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، هذا القليل المستثنى هم المؤمنون الّذين اختارهم الله سبحانه وتعالى وهداهم، ولم يجعل للشّيطان عليهم سبيلاً.

(الآية ٦٣) - ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ٦٣﴾:

﴿ٱذۡهَبۡ﴾: أمرٌ من الله عَزَّوَجَلَّ يحمل معنى الطّرد والإبعاد.

﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ﴾: أي: الّذين اتّبعوك وساروا في ركابك فجزاؤهم جهنّم. ونلاحظ أنّ الحقّ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿جَزَآؤُكُمۡ﴾، ولم يقل: (جزاؤهم)؛ لأنّه معهم وداخل في حكمهم، وهو سبب غوايتهم وضلالهم، وكذلك هو المخاطَب في الآية الكريمة، وحتّى لا يظنّ إبليس أنّ الجزاء مقصورٌ على العاصين من ذرّيّة آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، أو يحتجّ بأنّه يُنفّذ أوامر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الواردة في قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤﴾، فالأمر هنا لا يُؤخَذ على ظاهره، بل يُراد منه التّهديد.

﴿جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾: أي: وافياً مكتملاً لا نقصَ فيه، لا من العذاب، ولا من المعذّبين.

(الآية ٦٤) - ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤﴾:

﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾: هذا كما تستنهض ولدك الّذي تكاسل، وتقول له: انهض، وقُمْ من الأرض الّتي تلازمها كأنّها مُمسكة بك، وكما في قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [التّوبة: من الآية ٣٨]، فتقول للمتثاقل عن القيام:

فِزّ؛ أي: قُمْ وخِفّ للحركة، فالمعنى: استفزز مَنِ استطعت واخدعهم ﴿بِصَوْتِكَ﴾؛ أي: بوسوستك، أو بصوتك الشّرير، سواء أكان هذا الصّوت من جنودك من الأبالسة أمثالك، أم مِن جنودك من شياطين الإنس الّذين يساندونك.

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾: أجْلَبَ عليهم: صاح بهم، وأجلبَ على الجواد: صاح به راكبه ليسرع، والجَلْبة هي: الصّوت المزعج الشّديد، وما أشبه الجَلْبة بما نسمعه من صوت أبطال الكاراتيه، وهذه الأصوات مقصودة؛ لإرهاب الخصم وإزعاجه؛ وأيضاً لأنّ هذه الصّيحات تأخذ شيئاً من انتباه الخصم، فيضعف تدبيره لحركة مضادّة، فيسهل عليك التّغلّب عليه.

﴿بِخَيْلِكَ﴾: أي: صَوِّتْ وصِحْ بهم راكباً الخيل لتفزعهم، والعرب تطلق الخيل وتريد بها الفرسان، كما جاء في الحديث النّبويّ الشّريف: "فَنُودِيَ يَوْماً فِي الخَيْلِ: يَا خَيْلَ اللهِ ارْكَبِي"(١).

﴿وَرَجِلِكَ﴾: من قولهم: جاء راجلاً، يعني: ماشياً على رِجْلَيْه، و(رَجِل) يعني على سبيل الاستمرار، وكأنّ هذا عمله وديدنه، تقول: فلانٌ رَجْل؛ أي: دائماً يسير مُترجّلاً، مثل: حاذر وحَذِرْ.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾: فكيف يشاركهم أموالهم؟ الجواب: يُزيّن لهم المال الحرام، فيكتسبون من الحرام وينفقون في الحرام.

﴿وَالْأَوْلَادِ﴾: المفروض في الأولاد طهارة الأنساب، فدَوْر الشّيطان أنْ يُفْسِدَ على النّاس أنسابهم، ويُزيّن لهم الزّنا، فيأتون بأولاد من الحرام، أو يُغريهم بقتْلِ الأولاد مخافةَ الفقر أو غيره، هذا من مشاركة الشّيطان في الأولاد.

---

(١) شُعب الإيمان: الزّهد وقصر الأمل، الحديث رقم (١٠١٠٦).

﴿وَعِدۡهُمۡۚ﴾: أي: مَنِّيهم بأمانيك الكاذبة، كما قال ﷻ في آيةٍ أخرى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨﴾ [البقرة].

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾: أي: لا يستطيع أن يَغُرَّ بوعوده إلّا صاحب الغِرّة والغفلة، ومنها الغرور؛ أي: يُزيّن لك الباطل في صورة الحقّ فيقولون: غَرَّهُ، والله ﷻ يريد منّا أن نستخدم العقل، لذلك كثيراً ما يُخاطبنا الحقّ ﷻ بقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠﴾ [القصص: من الآية ٦٠]، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠﴾ [الأنعام: من الآية ٥٠]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ [النّساء: من الآية ٨٢]، وينادينا بقوله: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الطّلاق: من الآية ١٠]، وهذا كلّه دليل على أهمّيّة العقل، وحثٌّ على استعماله في أمورنا كلّها، فإذا سمعتم شيئاً فمرِّروه على عقولكم أوّلاً، فما معنى أن يطلب الله ﷻ منّا ذلك؟ ولماذا يُوقِظ فينا دائماً ملكة التّفكير والتّدبُّر في كلّ شيء؟ لا شكَّ في أنّ الّذي يُوقِظ فينا آلة الفكر والنّقد والتّمييز، ويدعونا إلى النّظر والتّدبّر واثق من حُسْن بضاعته، كالتّاجر الصّدوق الّذي يبيع الجيّد من القماش مثلاً، فيعرض عليك بضاعة في ثقة، ويدعوك إلى فحصها، وقد يشعل النّار لِيُريك جودتها وأصالتها، ولو أراد الله ﷻ أن يأخذنا هكذا على جهل وعمى ودون تبصُّر ما دعانا إلى التّفكُّر والتّدبُّر، وهكذا الشّيطان لا يُمنّيك ولا يُزيّن لك إلّا إذا صادف منك غفلة، إنّما لو كنت متيقّظاً له ومُسْتصحباً للعقل، عارفاً بحيله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ومن حيل الشّيطان أن يُزيّن الدّنيا لأهل الغفلة، ويقول لهم: إنّها فرصة للمتعة فانتهزها، وَخذْ حظّك منها فلن تعيش مرّتين، وإيّاك أن تُصدّق بالبعث أو الحساب أو الجزاء، وهذا هو تلبيس إبليس، فإذا

أعمل الإنسان عقله، فلن يكون في غفلة يستطيع الشّيطان أن ينفّذ حيله.

ففي الآيتين السّابقتين خمسة أوامر لإبليس: اذهب، واستفزز، وأَجْلب، وشاركهم، وعِدْهم، وهذه الأوامر ليست لتنفيذ مضمونها، بل للتّهديد ولإظهار عجزه عن الوقوف في وجه الحقّ، أو صَدّ النّاس عنه، وكأنّ الله ﷻ يقول له: افعل ما تريد ودبِّر ما تشاء، فلن توقِف الإيمان في قلوب المؤمنين؛ لذلك قال بعدها:

(الآية ٦٥) - ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ٦٥﴾:

وقد تحدّث الله ﷻ عن عباده وأصفيائه، كما في قوله ﷻ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ٦٤ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥﴾ [الفرقان]، فعباد الله ﷻ الّذين هم أصفياؤه وأحبّاؤه الّذين خرجوا من مرادهم لمراده، وفَضَّلوا أن يكونوا مقهورين لربّهم حتّى في الاختيار، فاستحقّوا هذه الحصانة الإلهيّة في مواجهة كيد الشّيطان ووساوسه وغروره:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ﴾: سبق أنْ تحدَّثنا في آياتٍ سابقة عن كَيْد الشّيطان الّذي قال الله ﷻ عنه: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ [النّساء: من الآية ٧٦]، ففي مُحاجّته يوم القيامة أمام ضحاياه الّذين أغواهم وأضلّهم، سيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِىۖ﴾ [إبراهيم: من الآية ٢٢]، فليس لي سلطان قَهْر أحملكم به على المعصية، ولا سلطان حُجَّة وبرهان فأُقنِعكم بها.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾: الوكيل: هو المؤيِّد، وهو النّاصر، تقول: وكّلت فلاناً؛ أي: وثقت به ليؤدّي لي كلّ ما أريد، فإنْ كان في البشر مَنْ تثق به، وتأتمنه على مصالحك، فما بالك إنْ كان وكيلك هو الله ﷻ؟! لا شكَّ إنْ كان وكيلك الله سبحانه وتعالى فهو كافيك ومؤيّدك وناصرك، فلا يُحوِجك إلى غيره جل جلاله.

(الآية ٦٦) - ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٦٦﴾:

﴿رَّبُّكُمُ﴾: الرّبّ: هو المتولّي تربيتك: خَلْقاً من عَدم، وإمداداً من عُدم، وقيُّوميّته سبحانه وتعالى عطاءٌ ينتظم المؤمن والكافر.

﴿يُزۡجِى﴾: الإزجاء: الإرسال بهوادة شيئاً فشيئاً.

﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾: هي السّفن وتُطلَق على المفرد وعلى الجمع، وعلى المذكّر والمؤنث، ومنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِى تَجۡرِى فِى ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: من الآية ١٦٤]، ومنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ [يونس: من الآية ٢٢].

﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾: الابتغاء: هو القصد إلى نافع يُطلَب من البحر، كالقوت أو غيره، كما قال سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾ [النّحل: من الآية ١٤]، فالبحر مصدرٌ من مصادر الرّزق والقُوت، ومُسْتودع لثروة عظيمة من فضل الله سبحانه وتعالى؛ لذلك قال بعدها:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾: والرّحمة اتّساع مَدَد الفضل من الله ﷻ، فالّذي أعطاكم البَرَّ بما فيه من خيراتٍ أعطاكم البحر أيضاً بما فيه من خيرات،

والأرض الّتي نعيش عليها هي بَرّ يسمّى يابسة، أو بحر، وإنْ كانت نسبة اليابس من الأرض الرُّبْع أو الخُمْس، فالباقي بحرٌ شاسع واسع يَزْخَر من خَيْرات الله ﷻ بالكثير.

وطُرُق السّير في اليابسة كثيرة متعدّدة، تستطيع أن تمشي أو تركب، وكُلُّ وسيلةٍ من وسائل الرّكوب حَسْب قدرة الرّاكب، فهذا يركب حماراً، وهذا يركب فرساً، وهذا يركب درّاجةً، وهذا يركب سيّارة، وتستطيع أن تنتقل فيها من مكانٍ إلى آخر، أمّا البحر فلا يمكن الانتقال فيه إلّا أنْ تُحملَ على شيءٍ، فمن رحمة الله ﷻ بنا أنْ جعل لنا السّفن آيةً من آياته تسير بنا على لُجَّة الماء، ويمسكها بقدرته ﷻ فنأمَن الغرق. وأوّل مَنْ صنع السّفن بوحيٍ من الله ﷻ نوحٌ ﵇، فلم تكُنْ معروفة قبله، بدليل قوله ﷻ: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾ [هود]، فلم يكُنْ للنّاس عهد بالسّفن، وكانت سفينة نوح ﵇ بدائيّة من ألواح الخشب والحبال، ولولا أنّ الله ﷻ دَلَّه على طريقة بنائها، وهداه إلى تنظيمها ما كان له عِلْمٌ بهذه المسألة، فكَوْنُ الحقّ ﷻ يهدينا بواسطة نبيٍّ من أنبيائه إلى مركب من المراكب الّتي تيسّر لنا الانتفاع بثلاثة أرباع الأرض، لا شكَّ في أنّها رحمةٌ بالإنسان وتوسيعٌ عليه، وكذلك من رحمته ﷻ بنا أنْ يسّر لنا تطوير هذا المركب على مرّ العصور، فبعد أن كان يتحرّك على سطح الماء بقوّة الهواء باستخدام ما يسمّى القلع الّذي يتحكّم في المركب من خلاله، ويستطيع الرّبّان الماهر تسفيح القلع، يعني توجيهه إلى النّاحية الّتي يريدها، فكانت الرّيح هي الأصل في سَيْر السّفن، ثمّ أتى التّقدّم العلميّ الّذي اكتشف البخار والآلات ثمّ

الكهرباء، وبذلك سهّل على الإنسان تحريك السّفن على سطح الماء بسهولةٍ ويُسْر، حتّى أصبحنا نرى الآن البوارج الكبيرة متعدّدة الأدوار، الّتي تشبه فعلاً الجبال، مِصْداقاً لقوله ﷻ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢﴾ [الشّورى]، يعني: كالجبال، وكأنّ الله ﷻ يُعطينا الدّليل على عِلْمه ﷻ بما سيصل إليه العالم من تقدّم، وما ستصل إليه صناعة السّفن من رقيٍّ يصل بها إلى أنْ تكونَ كالجبال، وإلّا ففي زمن نزول القرآن الكريم لم يكُنْ هناك بوارج عالية كهذه، إنّها لم توجد إلّا بعد قانون أرشميدس الّذي تُبْنَى على أساسه هذه البوارج، لكن مع هذا التّقدّم كلّه في مجال الملاحة البحريّة لا نغفل أنّ القدرة الإلهيّة هي الّتي تُسيِّر هذه السّفن، وتحملها بأمانٍ على صفحة الماء، ويجب ألَّا يغترّ الإنسان بما توصّل إليه من العلوم، ويظنّ أنّه أصبح مالكاً لزمام الأمور في الكون؛ لأنّ الحقّ ﷻ يقول: ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ﴾ [الشّورى: من الآية ٣٣]، والرّيح هي الأصل في تسيير السّفن، فإنْ قال قائلٌ الآن: إنْ توقّفت الرّيح استخدمنا القوى الأخرى، مثل البخار أو الكهرباء! نقول: لقد أخذتَ الرّيح على أنّه الهواء فقط، إنّما لو نظرنا إلى كلمة الرّيح، وماذا تعني لوجدنا أنّ معنى الرّيح القوّة المطلقة أيّاً كان نوعها، بدليل قَوْله ﷻ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: من الآية ٤٦]، فالمراد بالرّيح القوّة المطلقة، فمعنى: ﴿يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ [الشّورى: من الآية ٣٣]، يُسكِن القوّة المحرّكة للسّفن أيّاً كانت هذه القوّة: قوّة الرّيح أو البخار أو الكهرباء أو غيرها من القوى، فإنْ شاء ﷻ تعطّلَتْ هذه القوى كُلُّها.

(الآية ٦٧) - ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾:

البحر هو الضّائقة الّتي لا يستطيع الإنسان الخلاص منها إنْ أصابه فيه سوء، فالبرّ منافذ النّجاة فيه متعدّدة، أمّا البحر فلا نجاة فيه إلّا بعناية الله سبحانه وتعالى، يقول عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [يونس: من الآية ٢٢]، وهكذا الإنسان حتّى غير المؤمن، إذا ضاقتْ به الحِيَل ولم يجد مَنْفذاً يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى، المنفذ الحقيقيّ والمفرّج للكَرْب، والإنسان عادة لا يُسلم نفسه، ويظلّ مُتعلّقاً بالأمل في النّجاة.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: أي: أحاط بهم الخطر بالرّيح العاصف أو الموج العالي، وأحسُّوا بخطورة الموقف ولا مُنقِذَ لهم إلّا الله عز وجل، في هذا الموقف حتّى غير المؤمن يَصْدُق مع نفسه، ولا يخدعها ولا يكذب عليها؛ لأنّه عندها يلجأ إلى القوّة الّتي يمكن أن تنجيه، ويقول: يا ربّ، ولا يلجأ إلى الأصنام؛ لأنّه يعلم أنّها لا تسمع ولا تجيب، ولا تملك له نفعاً ولا نجاة.

﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: أي: ذهب عن بالكم مَن اتّخذتموهم آلهة، وغابوا عن خاطركم، سواء الآلهة من البشر أم من الحجر، فلن يقولوا هنا: يا هبل؛ لأنّهم لن يغشُّوا أنفسهم، ولن يقولوا: يا فلان، لن ينساقوا وراء الكذب في هذا الوقت العصيب، إنّهم في هذا الضّيق لن يتذكّروا آلهتهم؛ لأنّهم لن يجدوا ملجأً إلّا الله سبحانه وتعالى، ويطلبون منه المعونة، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ [الأنعام: من الآية ٤٣]، فإنْ دَعَوهُ سمع لهم وأجابهم على كفرهم وعنادهم؛ لأنّهم عباده

وخَلْقه وصَنْعته، فما أرحمه ﷻ حتّى بمَنْ كفر به! فغفر الله ﷻ لهم بذلك عندما لجؤوا إليه، وهو ربٌّ رحيم، يتضرّع الإنسان إليه ويدعوهُ، لينجيه المولى ﷻ.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾: فلمّا نجّاهم إلى البرّ أعرضوا، وتنكّروا للجميل والمعروف، لذلك قال ﷻ:

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾: كفور: صيغة مبالغة من الكفر؛ أي: كثير الكفر للنّعمة، ديدنه أن يكفر بهذه النّعمة، والله ﷻ يمهل الخلق.

(الآية ٦٨) - ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ٦٨﴾:

﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ﴾: فهؤلاء الّذين أعرضوا عن الله ﻷ بعد إذ نجّاهم في البحر أأَمِنُوا مكْر الله ﷻ في البرّ؟ وهل الخطر في البحر فقط؟ أليس الله ﷻ بقادرٍ على أن يُنزِل بهم العقاب في البرّ مثل ما أنزل بهم في البحر؟ كما قال ﷻ في شأن قارون: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [القصص: من الآية ٨١]، ولستم ببعدين عن هذا إنْ أراده الله ﻷ لكم، وإنْ كنّا نقول: (البرّ أمان)، فهذا فيما بيننا وبين بعضنا، أمّا إنْ جاء أمر الله ﻷ فلن يمنعنا منه مانع.

﴿أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾: أي: ريحاً تحمل الحصباء، وترجمكم بها رَجْماً، والحصباء: الحصى الصّغيرة، وهي لَوْنٌ من ألوان العذاب الّذي لا يُدفَع ولا يُرَدّ؛ لذلك قال بعدها:

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا﴾: أي: لا تجدوا مَنْ ينصركم، أو يدفع عنكم، فلا تظنّوا أنّ البرّ أمانٌ لا خطر فيه، بل خطري موجودٌ غير بعيد منكم، سواء أكنتم في البحر أم في البرّ.

(الآية ٦٩) - ﴿أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ٦٩﴾:

﴿أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾: أي: وإنْ نجّاكم من خطر البحر، فلا مجال للأمن في البرّ؛ لأنّه قادرٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُذيقكم بأسه في البرّ كما في البحر، أو يُعيدكم في البحر مرّة أخرى، ويُوقعكم فيما أوقعكم فيه من كَرْبٍ في المرّة الأولى، فالمعنى: أنجوتُمْ فأمنتُم؟! فعلى الإنسان أن يحتاط دائماً، فإن نجا فلا يكون بمأمنٍ إذا ارتكب المعاصي أن يأتيه العقاب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾: القاصف: هو الّذي يقصف بعنف وشدّة، ولا يكون إلّا في اليابس.

﴿فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ﴾: أي: بسبب كفركم بنعمة الله عَزَّ وَجَلَّ، وجحودكم لفضله، فقد نجّاكم في البحر فأعرضتم وتمرّدتم، في حين كان عليكم أن تعترفوا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالجميل، وتُقِرُّوا له بالفضل.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾: عندنا تابع وتبيع، التّابع: هو الّذي يتبعك لعمل شيءٍ فيك، أمّا التّبيع: فهو الّذي يُوالِي تتبّعك، ويبحث عنك لأَخْذ ثأره منك، فالمعنى: إنْ فعلنا بكم هذه الأفعال فلن تجدوا لكم تبيعاً يأخذ بثأركم أو ينتقم لكم، فلا أملَ لكم في ناصرٍ ينصركم، أو مدافعٍ عنكم يحميكم، وكأنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: أنا لا أخاف ردَّ الفعل منكم، والإنسان يُحجم عن الفعل مخافةَ ردِّ الفعل، أمّا الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلا أحدَ يستطيع ردّاً على انتقامه أو عذابه.

(الآية ٧٠) - ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا ٧٠﴾:

هذه الآية تكريمٌ كبيرٌ لبني آدم، وأولئك الّذين يتحدّثون عن حقوق الإنسان كان عليهم قبل أن يُلقوا علينا المواعظ والدّروس أن يأخذوا الدّروس من كتاب الله ﷻ، ومن تكريم الله سبحانه وتعالى لإنسانيّة الإنسان، فعندما نتحدّث عن الإنسان لا يوجد قانونٌ بشريٌّ يمكن أن يُعطي تكريماً للنّاس كهذه الآية، هل هناك تكريمٌ أعظم من أن يُعدّ المولى سبحانه وتعالى مقوّمات الحياة للبشر قبل أن يخلقهم؟! لقد رتّب لهم الكون وخلق من أجلهم الأشياء: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: من الآية ٢٩]، فكلّ ما في الوجود مُسَخّرٌ للإنسان من قبل أن يُوجَد؛ لأنّ خلق الله جميعاً إمّا أن تكون خادماً أو مخدوماً، وأنت أيّها الإنسان مخدومٌ من أجناس الكون كلّها، حتّى من الملائكة، ألم يقل المولى سبحانه وتعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرّعد: من الآية ١١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥﴾ [النّازعات]؟! فالكون كلّه يدور من أجل الإنسان، وفي خدمة الإنسان، يُعطي الإنسان عطاءً دائماً لا ينقطع من غير سعيٍ منه، لذلك نقول: كان من الواجب على العقل المجرّد أن يقف وقفة تأمّل وتفكّر ليصل إلى حَلٍّ للغز الكون، ويهتديَ إلى أنّ له خالقاً مُبدعاً، يكفي أن ننظر إلى آيات الله ﷻ الّتي تخدم النّاس وليس للنّاس قدرة عليها، وليست هي تحت سيطرة البشر، فالشّمس والقمر والنّجوم والأرض والهواء والماء والمطر والسّحاب..

كلّها تُعطي البشر قدرة، أليس من الواجب علينا عدلاً أن نقول: مَنِ الّذي أعدّ هذا كلَّه للإنسان؟ وما استطاع الإنسان أن يدّعي ذلك لنفسه.

ولقد اختلف العلماء في بيان أَوْجُه التّكريم في الإنسان، فمنهم مَنْ قال: كُرِّمَ بالعقل، وآخر قال: كُرِّمَ بالتّمييز، وآخر قال: كُرِّمَ بالاختيار، ومنهم مَنْ قال: كُرِّمَ الإنسان بأنّه يسير مرفوع القامة لا منحنياً إلى الأرض كالبهائم، ومنهم مَنْ يرى أنّه كُرِّمَ بشكل الأصابع وتناسقها في شكلٍ بديع يسمح لها بالحركة السّلسة في تناول الأشياء، ومنهم مَنْ يرى أنّه كُرِّم بأن يأكلَ بيده لا بفمه كالحيوان.. وهكذا كان لكلّ واحدٍ منهم مَلْحظٌ في التّكريم، وفي مسألة التّكريم هذه ملحظٌ آخر، وهو: أنّ الله سبحانه وتعالى خلق الكون كلّه بكلمة: ﴿كُن﴾ إلّا آدم عليه السلام، فقد خلقه الله سبحانه وتعالى بيده ونفخ فيه من روحه، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: من الآية ٧٥]، وقال جلّ جلاله: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ [الحجر]، فقمّة الفضل والتّكريم أن خلق الله سبحانه وتعالى أبانا آدم عليه السلام بيده، بدليل أنّ الله عزّ وجلّ جعلها حيثيّة له.

(الآية ٧١) - ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ٧١﴾:

﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾: أي: يوم القيامة، والدّاعي هو المنادي، والنّاس هم المدعوون، والنّداء على النّاس في هذا اليوم لا يكون بفلان بن فلان، بل ينادى القوم بإمامهم؛ أي: برسولهم، فيقال: يا أمّة محمّد، يا أمّة عيسى، يا أمّة موسى، يا أمّة إبراهيم.. وهكذا، ثمّ يُفصّل هذا الإجمال، فتُنادى كلّ جماعةٍ بمَنْ بلّغهم وهداهم ودلّهم ليُبيّن لهم الفضل.

وقال بعضهم: ﴿بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾؛ أي: بأمّهاتهم، وفي دعاء النّاس بأمّهاتهم في هذا الموقف تكريم لعيسى عليه السلام وللسّيّدة مريم.

﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ﴾: فكوْنه أخذ كتابه بيمينه، فهذه بشارة الخير وبداية السّلامة، فإذا به يُسارع إلى قراءته، بل ويتباهى به بين النّاس قائلاً: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾ [الحاقّة]، إنّه مسرورٌ بعمله الصّالح الّذي يحبُّ أنْ يطَّلِعَ عليه النّاس.

﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا﴾: الظّلم: أنْ تأخذ من خير غيرك ممّا ليس عندك، فعندك نقصٌ في شيءٍ تريد أنْ تحصل عليه ظلماً وعدواناً، والله سبحانه وتعالى لا ينقصه شيءٌ حتّى يظلم الخَلْق، إنّ الخلق يتّصفون بالظّلم؛ لأنّ الإنسان عادةً لا يرضى بما قسم الله سبحانه وتعالى له؛ لذلك يشعر بالنّقص فيظلم غيره، أمّا الله عز وجل فهو الغنيّ عن الخَلْق، فكيف يظلمهم وهم جميعاً بما يملكون هِبة منه سبحانه وتعالى؟!.

﴿فَتِيلٗا﴾: عادةً يضرب الحقّ سبحانه وتعالى الأمثال في القرآن الكريم بالمألوف عند العرب وفي بيئتهم، ومن مألوفات العرب التّمر، وهو غذاؤهم المفضّل والعَلف لماشيتهم، ومن التّمر أخذ القرآن الكريم النّقير والقطمير والفتيل، وهي ثلاثة أشياء نجدها في نواة الثّمرة، وقد استخدمها القرآن الكريم في تمثيل الشّيء الضّئيل القليل، وهي كما يأتي:

النّقير: هو تجويفٌ صغيرٌ في ظهر النّواة مثل النّقطة.

القطمير: هو اللّفافة الرّقيقة الشّفّافة بين الثّمرة والنّواة.

الفتيل: هو غلالة رقيقة تشبه الخيط في بطن النّواة.

فمعنى: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا﴾: أي: أنّه سبحانه وتعالى لا يظلم النّاس أبداً، فهو مُنزَّهٌ عن الظّلم مهما تناهى في الصِّغَر.

وفي مقابل: ﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ لم تذكر الآية: مَنْ أُوتي كتابه بشماله، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقّة]، وفي آيةٍ أخرى قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾﴾ [الانشقاق]، أمّا هنا فالله ﷻ يقول:

(الآية ٧٢) - ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾:

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ﴾: وهذا هو المقابل لمن أخذ كتابه بيمينه؛ لأنّه عميتْ بصيرته في الدّنيا فعمي في الآخرة، وبما أنّه كذلك فلا شَكَّ في أنّه من أهل الشّمال، فالآيات ذكرتْ مرّة السّبب، وذكرتْ مرّة المسبّب، ليلتقي السّبب والمسبّب، وهو ما يُعرَف باسم: الاحتباك البلاغيّ، فكأنّ الله ﷻ قال: إنّ مَنْ أُوتِي كتابه بيمينه وقرأه وتباهى به لم يكُنْ أعمى في دنياه، بل كان بصيراً واعياً، فاهتدى إلى منهج الله ﷻ وسار عليه، فكانت هذه نهايته وهذا جزاؤه العظيم، أمّا مَنْ أوتي كتابه بشماله فقد كان أعمى في الدّنيا عمى بصيرة لا عمى بصر؛ لأنّ عمى البصر حجب الأداة الباصرة عن إدراك المرائي، والكافرون في الدّنيا كانوا مُبصرين للمرائي من حولهم، مُدركين لمادّيّات الحياة، أمّا بصيرتهم فقد طُمِس عليها فلا ترى خيراً، ولا تهتدي إلى صلاح.

﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾: إنْ كان عماه في الدّنيا عمى بصيرة، فَعَماه في الآخرة عمى بصر؛ لأنّ البصيرة مطلوبة منه في الدّنيا فقط؛ لأنّ بها سيُعرف الخير من الشّرّ، وعليها يترتّب العمل، وليست الآخرة مجال عمل، فالعمى في الآخرة عمى البصر، كما قال ﷻ في آيةٍ أخرى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا

جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦﴾ [طه]، وقال عنهم في آيةٍ أخرى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾ [الإسراء: من الآية ٩٧]، لكن قد يقول قائلٌ: هناك آياتٌ أخرى تثبت لهم الرّؤية في الآخرة، مثل قوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ [مريم: من الآية ٧٥]، وقوله ﷻ: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: من الآية ٥٣]، وللجمع بين هذه الآيات وللتّوفيق بينها نقول: للكفّار يوم القيامة في مجال الرّؤية البصريّة حالتان:

الأولى: عند القيام وهَوْل المحشر يكونون عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً لتزداد حَيْرتهم ويشتدّ بهم الفزع حيث هم في هذا الكرب الشّديد، ولكن لا يعرف ما يحدث ولا أين المهرب، ولا يستمعون من أحدٍ كلمة، وهكذا هم في كَرْبٍ وحَيْرة لا يدرون شيئاً، وهذه حالة العمى البصريّ عندهم.

أمّا الحالة الثّانية: وهي الرّؤية، فتكون عندما يتجلّى الله ﷻ لأهل الموقف ويكشف الغطاء عن نفسه ﷻ، فهنا يصير الكافر حَادّ البصر، ليرى مكانه من النّار، ولا بُدَّ لنا هنا أن نلحظَ أنّ اللّفظ قد يكون واحداً ولكن يختلف السّياق، ففي قوله ﷻ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢﴾، فلفظ: ﴿أَعۡمَىٰ﴾ واحد، لكن في الآخرة قال: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾، فلا بُدَّ أنّ عمى الدّنيا أقلّ من عمى الآخرة، كما تقول: هذا خير، فمقابل خير: شرّ، أمّا لو قلت: هذا خَيْرٌ من هذا فقد فضَّلتَ الأوّل في الخيريّة عن الثّاني، فكلمة (خير) إمّا أنْ تأتي وَصْفاً، وإمّا أن تأتي تفضيلاً، ومن ذلك قول النّبيّ ﷺ:

«**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**»[1].

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾: معلومٌ أنّه كان ضالّاً في الدّنيا، فكيف يكون أضلَّ سبيلاً في الآخرة؟ قال العلماء: لأنّ ضلاله في الدّنيا كان يمكن تداركه بالرّجوع إلى المنهج والتّوبة والعودة إلى الطّريق السّويّ، أمّا في الآخرة فضلاله لا يمكن تداركه، فقد انتهى وقت الاختيار، فضلالهُ في الآخرة أشدّ وأعظمُ من ضلاله في الدّنيا.

(الآية ٧٣) - ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣﴾:

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ﴾: وهذه خبيثةٌ جديدة من خبائث المشركين مع رسول الله ﷺ، فقد كانوا يحاولون جادِّين أنْ يصرفوا رسول الله ﷺ عمّا بعثه الله ﷻ به، فمرّة يقولون له: دَعْ آلهتنا نتمتّع بها سنة و نأخذ الغنائم من ورائها، وتحرم لنا بلدنا؛ أي: ثقيف كما حرّمت مكّة، ومرّة يقولون له: لا تستلم الحجر، ويمنعونه من استلامه حتّى يستلم آلهتهم أوّلاً.

﴿كَادُوا۟﴾: أي: قاربوا، والمقاربة غير الفعل، فالمقاربة مشروع فعل وتخطيط له، لكنّه لم يحدث، إنّهم قاربوا أنْ يفتنوك عن الّذي أُنزِل إليك لكن لم يحدث؛ لأنّ محاولاتهم كانت من بعيد، وأنت رسول الله، فهي تحوم حول فتنة النّاس عن الدّين، كما قالوا مثلاً: نعبد إلهك سنة، وتعبد آلهتنا سنة.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب القدر، بَابٌ فِي الْأَمْرِ بِالْقُوَّةِ وَتَرْكِ الْعَجْزِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ وَتَفْوِيضِ الْمَقَادِيرِ لِلَّهِ، الحديث رقم (٢٦٦٤).

﴿لَيَفۡتِنُونَكَ﴾: لَيُحوّلونك ويَصْرِفونك عمّا أنزل الله تبارك وتعالى إليك، لماذا؟

﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾: كما حكى القرآن الكريم عنهم في آيةٍ أخرى: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ [يونس: من الآية ١٥]، فيكون الجواب من الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [يونس: من الآية ١٥]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦﴾ [يونس]، ونلاحظ في مثل هذا الموقف أنّ الله سبحانه وتعالى يتحمّل المشقّة والعنت عن رسوله ﷺ، وينقل المسألة من ساحة الرّسول إلى ساحته جل جلاله، لكي لا تكون عداوة بين محمّد ﷺ وقومه، فالأمر ليس من عند محمّد ﷺ، بل من عند الله عز وجل، يقول سبحانه وتعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ [الأنعام]، فلا تحزن يا محمّد، فأنت مُصَدَّق عندهم، لكنّ المسألة عندي أنا.

﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾: لا مجال بينك وبينهم للحُبّ والمودّة، وأن تكون خليلاً إلّا إذا ابتعدت عن منهج الله سبحانه وتعالى، ونزلْتَ عند رغبتهم، ولو أنّك تنازلتَ عن المنهج الّذي جاءك من الله سبحانه وتعالى لَصِرْتَ خليلاً لهم.

ويخاطب المولى سبحانه وتعالى رسوله ﷺ، فيقول:

(الآية ٧٤) - ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾:

﴿وَلَوۡلَآ﴾: أداة شرط إن دخلت على الجملة الاسميّة، وتفيد امتناع وجود الجواب لوجود الشّرط، ويسمّونها حرف امتناع لوجود، كما لو قلت: لولا زيدٌ

عندك لَزُرْتُكَ، فقد امتنعت الزّيارة لوجود زيد، فإنْ دخلت (لولا) على الجملة الفعليّة أفادتْ الحثَّ والحضَّ، كما في قوله ﷻ: ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ﴾ [النّور: من الآية ١٣]، ﴿وَلَوۡلَآ﴾ في الآية دخلتْ على جملة اسميّة؛ لأنّ ﴿أَن﴾ بعدها مصدريّة، فالمعنى: لولا تثبيتنا لك لقاربتَ أن تركنَ إليهم شيئاً قليلاً، فأنت بشرٌ يوحَى إليك: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: من الآية ١١٠].

والمتأمّل في هذه الآية يجدها تحتاط لرسول الله ﷺ عدّة احتياطات، فلم تقُلْ: (لولا تثبيتنا لك لَركنتَ إليهم)، لا، بل لَقاربتَ أنْ تركنَ إليهم ببشريّتك، فمنعتْ مجرّد المقاربة، أمّا الرّكون فهو أمرٌ بعيد وممنوعٌ نهائيّاً وغير مُتَصوّر من رسول الله ﷺ، ومع ذلك أكّد الله ﷻ هذا المعنى بقوله:

﴿شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾: أي: ركوناً قليلاً، ممّا يدلُّ على أنّ طبيعته ﷺ حتّى مِن غير الوحي من الله ﷻ طبيعةٌ سليمةٌ بفطرتها، فلو تصوَّرنا عدم التّثبيت له من الله ﷻ ماذا كان يحدث منه؟ يحدث مجرّد (كاد) أو (قَرُب) أنْ يركنَ إليهم شيئاً قليلاً، وقلنا: إنّ المقارنة تعني مشروعَ فِعْل، لكنّه لم يحدث، مِمّا يدلُّ على أنّ لرسول الله ﷺ ذاتيّة مستقلّة.

﴿ثَبَّتۡنَٰكَ﴾: التّثبيت هو منع المثبَّت أنْ يتأرجح، لذلك نقول للمتحرّك: اثبت.

﴿تَرۡكَنُ﴾: من ركون الإنسان إلى شيءٍ يعتصم به ويحتمي، ومن الرّكون قوله ﷻ عن لوط عليه السلام مع قومه: ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ [هود]؛ أي: أحتمي به وألجأ إليه.

(الآية ٧٥) - ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ٧٥﴾:

﴿إِذًا﴾: أي: لو كِدتَ تركن إليهم شيئاً قليلاً لأذقناك ضِعْف الحياة وضِعْف الممات، وبهذا التّهديد يرفع الله سبحانه وتعالى سخيمة الكُرْه من صدور القوم للنّبيّ ﷺ، وينقلها لساحته جل جلاله، فأيّ إنسانٍ يمكن أن يركن إليهم فسيذيقه الله عز وجل ضعف الحياة وضعف الممات.

﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾: الضّعْف: مضاعفة الشّيء مرّة أخرى؛ أي: قَدْر الشّيء مرّتين، ولا يُذاق في الحياة إلّا العذاب، فالمراد: لأذقناك ضِعْف عذاب الحياة وضِعْف عذاب الممات، لكن لماذا يُضاعَف العذاب هنا؟ الجواب: لأنّ النّبيّ ﷺ أُسْوة كبيرة وقُدْوة يقتدي النّاس بها، ويستحيل في حقّه هذا الفعل، وهكذا يجب أن تتعلّم القدوات، كما قال سبحانه وتعالى في نساء النّبيّ ﷺ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ٣٠﴾ [الأحزاب]؛ ذلك لأنّهنّ بيت النّبوّة وأمّهات المؤمنين، وهنَّ أُسْوة لغيرهنّ من نساء المسلمين، وكلّما ارتفع مقام الإنسان في مركز الدّعوة إلى الله تعالى فعليه أن يكون بَعيداً عن الشّبهة؛ لأنّه سيكون أُسْوة فعل، فإنْ ضَلَّ فلن يضلّ في ذاته فقط، بل سيضلّ معه غيره، وقد اختار الله سبحانه وتعالى لفظ: ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ﴾؛ لأنّ الإذاقة من الذَّوْق، وهو أعمّ الملكَات شُيوعاً في النّفس، فأنت ترى بعينك وتسمع بأذنك وتشمُّ بأنفك، لكنّ المذاق تشترك فيه الملكات كلّها.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾: أي: لا تجد مدافعاً يدافع عنك؛ أو ناصراً ينصرك؛ لأنّ مددَك منّي وحدي، فكيف يكون لك ناصرٌ من دوني؟! وهذا الكلام مخاطَبٌ به أمّة النّبيّ ﷺ، وهو أكبر تكريم لسيّدنا رسول الله ﷺ.

(الآية ٧٦) - ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦﴾:

﴿كَادُواْ﴾: أي: قاربوا، فهم لا يجرؤون على الفعل، ولا يستطيعون، فالأمر مجرّد القُرْب من الفعل، فإنّهم سيحاولون إخراجك يا محمّد، لكنّك لن تخرج إلّا بأمري وتقديري.

﴿لَيَسۡتَفِزُّونَكَ﴾: من استفزَّه؛ أي: طلب منه النّهوض والخِفّة إلى الفِعْل، كما تقول لأحدهم: (فِز)؛ أي: قُمْ وانهض، فهم يستحثّونك على الخروج ﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾: أي: من مكّة بإيذائهم لك، وعَنَتهم معك ليحملوك على الخروج، ويُكرّهوك على الإقامة بها، وكفّار مكّة يعلمون أنّ في خروجه ﷺ من مكّة راحة لهم، حتّى يبقى الفساد ويبقى العبيد وضعاف القوم فلا يتّبعونه.

﴿وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾: أي: لو أخرجوك من مكّة فلن يلبثوا فيها بعدك إلّا قليلاً، وقد حدث فعلاً، فبعد خروج النّبيّ ﷺ من مكّة بعام كانت غزوة بدر، فقُتِل سبعون من صناديد قريش، وأُسِرَ سبعون، وبعد أن خرج النّبيّ ﷺ من مكّة لم يتمتّعوا فيها بالنّعيم ولا بالسّيادة الّتي كانوا يَرجُونها بعد خروجه.

(الآية ٧٧) - ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧﴾:

﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ﴾: يُوضِّح المولى سبحانه وتعالى أنّ ما حدث هو سُنّة من سُنن الله سبحانه وتعالى في الرّسل، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصّافّات]، فكان عليهم

أنْ يأخذوا عِبْرةً من الرّسل السّابقين، وبما حلَّ بأعداء الرّسل من عذاب الله ﷻ، لقد أرسل الله ﷻ الرّسل -عليهم السّلام- فكُذِّبوا وعُودوا واضطهِدُوا، ومع ذلك نصرهم الله ﷻ، وجعل لهم الغَلبة في النّهاية.

﴿سُنَّةَ﴾: السُّنّة: هي العادة والطّريقة الّتي لا تتخلّف، والقانون الّذي لا يتبدَّل؛ لذلك يقول ﷻ بعدها: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا﴾؛ لأنّ السُّنّة لا تتحوّل ولا تتبدّل إلّا بالأقوى الّذي يأتي ليُغيّر هذه السُّنّة الّتي جرت على النّاس، فإذا كانت السُّنّة أو القانون من الله ﷻ القويّ، بل الأقوى، فهو ﷻ وحده الّذي يملك هذا التّحويل، ولا يستطيع أحدٌ أبداً تحويل سنّة الله ﷻ، فإذا قال ﷻ، فقوله الحقّ الّذي لا يُبدِّله أحدٌ، ولا يُعارضه أحدٌ.

وبعد أن تكلَّم الحقّ ﷻ عن الإلهيّات إيماناً بها، وعن النّبوّات تصديقاً لها، وعن القيامة ووجوب الإيمان بها وبما يحدث فيها من تناول الكتب، أراد ﷻ أنْ يأتي لنا بثمرة هذا المنهج وحصيلته النّهائيّة، وهي أنْ يستقيمَ لنا منهج الحياة وتنضبط حركتنا فيها، هذا المنهج الإلهيّ جاء في صورة أحكام، ولهذه الأحكام أركانٌ أساسيّة جمعها النّبيّ ﷺ في قوله: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**»(١)، فهذه هي الأركان الّتي بُنِي عليها الإسلام، لكن ما حظّ المسلم من هذه الأركان؟ لو تأمّلنا لوجدنَا أنّنا نشترك جميعاً في شهادة أنْ لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، وفي الصّلاة؛ لأنّها لا تسقط عن أحدٍ لأيّ

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»، الحديث رقم (٨).

سبب، وهي المكرَّرة في اليوم خمس مرّات، أمّا باقي الأركان، وهي: الزكاة، والصّوم، والحجّ فقد لا تنطبق شروطها على الجميع، فالفقير لا تُفرض عليه زكاة أو حجّ، والمريض لا يُفرض عليه الصّوم.. فالصّلاة هي عماد الدّين، مَن أقامها فقد أقام الدّين، ومن تركها فقد هدم الدّين، وهي الرّكن الرّكين من أركان الإسلام.

(الآية ٧٨) - ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾:

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: الصّلاة فريضةٌ ثابتةٌ متكرّرةٌ لا تسقط في حالٍ من الأحوال، فيها إعلانُ ولاء للإيمان بالله ﷻ كلّ يوم خمس مرّات، وفيها أيضاً أركان الإسلام كلّها؛ لأنّك في الصّلاة تشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله، فتقولها عدّة مرّات في كلّ صلاة أثناء التّشهّد، وهذا هو الرّكن الأوّل، كما أنّها تشتمل على الصّوم؛ لأنّك تصوم في أثناء الصّلاة فتمتنع عن شهوتَيْ البطن والفرج، وكذلك عن أيِّ فعلٍ غير أفعال الصّلاة، وتصوم عن الكلام في غير ألفاظ الصّلاة، ففي الصّلاة صيامٌ بالمعنى الأوسع للصّوم، وفي الصّلاة زكاة؛ لأنّ المال الّذي تكتسبه وتُزكِّيه ناتجٌ عن الحركة، والحركة فرع الوقت، وفي الصّلاة تُضحّي بالوقت، فكأنّ الزكاة في الصّلاة أبلغ، وكذلك في الصّلاة حجٌّ؛ لأنّك تتوجّه فيها إلى الكعبة المشرّفة، وتستحضرها في ذِهْنك وأمام ناظرَيْكَ، لذلك استحقّت الصّلاة أن تكون عماد الدّين، مَنْ أقامها فقد أقام الدّين، ومَنْ هدمها فقد هدم الدّين، ومن هنا جاءت الصّلاة في أوّل هذه الأحكام، فقال ﷻ في هذه السّورة: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: أدِّها أداءً كاملاً في أوقاتها، فالإقامة شيءٌ والأداء شيءٌ، الإقامة هي أداء كامل بشروطها في وقتها، والصّلاة لها

مَيْزة عن أركان الإسلام كلّها؛ لأنّ تكليفات الإسلام كلّها جاءت بواسطة الوحي (جبريل ﵇) لرسول الله ﷺ إلّا الصّلاة، فقد فُرِضَتْ بالمباشرة من الله ﷻ ليلة الإسراء والمعراج ممّا يدلُّ على أهمّيتها.

﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾: الحقّ ﷻ يريد أن يُبيّن لنا مواقيت الصّلاة.

الدّلوك: معناه: الزّوال من حركة إلى حركة، ومنها قولنا: فلان (المدلِّك)؛ أي: الّذي يتولّى عمليّة التّدليك، وتتحرّك يده من مكانٍ إلى مكان، والمراد بـ دلوك الشّمس: مَيْلها عن وسط السّماء إلى ناحية الغرب، والإنسان يرى الأفق الواسع إذا نظر إلى السّماء، فيراها على شكل قوسٍ ممتدٍّ وعلى حَسْب نظره وقوّته يرى الأفق، فإنْ كان نظره قويّاً رأى الأُفُقْ واسعاً، وإنْ كان نظره ضعيفاً رأى الأفق ضيّقاً؛ لذلك يقولون لقليل التّفكير: ضيّق الأفق، وأنت حين تقف في مكانك وتنظر إلى السّماء تراها على شكل نصف دائرة، وأنت مركزها، وساعةَ أنْ ترى الشّمس عموديّة عليك، فهذا وقت الزّوال، فإذا ما انحرفتْ الشّمس ناحية المغرب يُقَال: دلكت الشّمس؛ أي: مالت ناحية المغرب، وهذا هو وقت الظّهر، والمتأمّل في فَرْض الصّلاة على رسول الله ﷺ يجد أنّ الظُّهْر هو أوّل وقتٍ صَلَّاه رسول الله ﷺ؛ لأنّ الصّلاة فُرِضَتْ عليه في السّماء في رحلة المعراج، وكانت بليل، فلمّا عاد ﷺ كان يستقبل الظّهر، فكانت هي الصّلاة الأولى.

﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾: أي: أقِم الصّلاة عند دُلوك الشّمس، إلى متى؟ إلى غَسَق اللّيل؛ أي: ظلمته، وفي الفترة من دُلوك الشّمس إلى ظُلمة اللّيل تقع صلاة الظّهر والعصر والمغرب والعشاء، ولا يبقى إلّا صلاة الصّبح، فقال عنها ﷻ:

﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾: ونتساءل هنا: لماذا ذكر قرآن الفجر، ولم يَقُلْ: صلاة؟

قال العلماء: في هذا الوقت حيث سكون الكون وصفاء النّفوس، تتلقّى القرآن الكريم ندياً طريّاً وتستقبله استقبالاً واعياً قبل أن تنشغل بأمور الحياة.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾: أي: تشهده الملائكة، فالمشهوديّة لها دَخْل في العبادة، فإذا كانت مشهوديّة مَنْ لا تكليف عليه في الصّلاة جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حيثيّة، فكيف بمشهوديّة مَنْ كُلِّف بالصّلاة؟! فوقت الفجر وقت مبارك مشهود، تشهده ملائكة اللّيل.

ويجب أن نلتفت إلى أنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ربط الصّلوات الخمس بالوقت، وبآية كونيّة تدلُّ عليه هي الشّمس، فكيف العمل إذا غابت، أو حُجِبَتْ عنَّا بغيْم أو نحوه؟ فعلى الإنسان المؤمن أن يجتهد ويُعمِلَ تفكيره في إيجاد شيء يضبط به وقته، وفعلاً تفتّقتْ القرائح عن آلات ضبط الوقت الموجودة الآن، والّتي تُيسِّر كثيراً على النّاس؛ لذلك كانت الطّموحات الإنسانيّة لأشياء تخدم الدّين وتوضّح معالمه أمراً واجباً على علماء المسلمين، على اعتبار أنّ مَا لا يتمّ الواجب إلّا به فهو واجب.

(الآية ٧٩) - ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ٧٩﴾:

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾: الهجود: هو النّوم، وتهجَّد: أي: أزاح النّوم والهجود عن نفسه، وهذه خصوصيّة لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزيادة على ما فُرِض على أمّته أنْ يتهجَّد لله عَزَّ وَجَلَّ في اللّيل، كما قال له ربّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ٤﴾ [المزّمّل]، فهذه الخصوصيّة لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإنْ كانت فَرْضاً عليه، إلّا أنّها ليست في قالبٍ من

حديد، بل له ﷺ مساحة من الحرّيّة في هذه العبادة، المهمّ أن يقوم لله ﷻ جزءاً من اللّيل، لكن ما عِلَّة هذه الزّيادة في حَقِّ رسول الله ﷺ؟ العلّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا۝٥﴾ [المزمّل]، وكأنّ التّهجُّد ليلاً، والوقوف بين يدي الله ﷻ في هذا الوقت سيعطي رسول الله ﷺ القوّة والطّاقة اللّازمة للقيام بهذه المسؤوليّة الملقاة على عاتقه، ألَا وهي مسؤوليّة حَمْل المنهج وتبليغه للنّاس، وفي الحديث الشّريف: عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ، صَلَّى"(١)، ومعنى حَزَبه أَمْر: أي: ضاقت أسبابه عنه، ولم يَعُد له فيه منفذ، فإنْ ضاقت عليه الأسباب فليس أمام الرّسول ﷺ إلّا المسبِّب ﷻ يلجأ إليه ويهْرع إلى نجدته: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا۝٦﴾ [المزمّل]؛ لأنّك في الوقت الّذي ينام فيه النّاس ويخلدون إلى الرّاحة وتتثاقل رؤوسهم عن العبادة، تقوم بين يدي ربّك مناجياً مُتضرِّعاً، فتتنزّل عليك من الرّحمات والفيوضات، فَمَنْ قام من النّاس في هذا الوقت، واقتدى بسيّدنا رسول الله ﷺ فَلَهُ نصيبٌ من هذه الرّحمات، وحَظٌّ من هذه الفيوضات، أمّا مَنْ تثاقلتْ رأسه عن القيام فلا حَظَّ له، ففي قيام اللّيل قوّة إيمانيّة وطاقة روحيّة أعطيت لرسول الله ﷺ، ولـمّا كانت مهمّة الرّسول ﷺ فوق مهمّة الخَلْق كان حظّه من قيام اللّيل أكثر من حظّهم، فأعباء الرّسول ﷺ كثيرة، والعِبْءُ الثّقيل يحتاج إلى اتّصالٍ كبير بالأحدِ القَيُّوم، حتّى يستعين بلقاء ربّه على قضاء مصالحه.

﴿نَافِلَةً﴾: النّافلة: هي الزّيادة عمّا فُرِضَ على الجميع.

---

(١) سنن أبي داود: أبواب قيام اللّيل، بَابُ وَقْتِ قِيَامِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ، الحديث رقم (١٣١٩).

﴿لَّكَ﴾: أي: خاصّة بك دون غيرك، وهذا هو مقام الإحسان الّذي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦﴾ [الذّاريات]، والمحسن هو الّذي دخل مقام الإحسان، بأن يزيد من جنس ما فرضه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه؛ لذلك جاءت حيثيّة الإحسان: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾ [الذّاريات]، وهذا المقام ليس فرضاً علينا، فلنا أن نصلّي العشاء وننام حتّى صلاة الفجر، لكن إنْ أردنا أن نتأسَّى برسول الله ﷺ ونتشبّه به فلنُدخِلْ أنفسنا في مقام الإحسان على قَدْر استطاعتنا، وإن كانت لنا هموم ومشكلات في الحياة، وطلبات من ربّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فعلينا أن نتهجّد حتّى تكون لنا.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾: تحدّثتْ الآية في أوّلها عن التّكليف، أمّا الآن فعن الجزاء.

﴿عَسَىٰٓ﴾: تدلّ على رجاء حدوث الفعل، وبما أنّ الرّجاء من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو أمرٌ محقّق، وليس مستحيل الحدوث.

﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾: كلمة محمود: أي: الّذي يقع عليه الحمد، والحمد هنا مشاع، فلم يَقُلْ: محمود مِمَّنْ؟ فهو محمود مِمَّنْ يمكن أن يتأتّى منه الحمد، محمود من الكلّ من لَدُنْ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحتّى قيام السّاعة.

والمراد بالمقام المحمود: هو مقام الشّفاعة، حينما يقف الخَلْق في ساحة الحساب وهَوْل الموقف وشِدّته، حتّى ليتمنّى النّاس الانصراف ولو إلى النّار، وتتمنّى كُلُّ أمّة من نبيّها أن يشفع، فيقول: اذهبوا إلى خاتم المرسلين وسيّد الأنبياء، فيقول ﷺ: «أَنَا لَهَا»(١)، لذلك أمرنا النّبيّ ﷺ أن ندعو بهذا الدّعاء:

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب التّوحيد، بَاب ٣٦، الحديث رقم (٧٥١٠).

«وَابْعَثْهُ مَقَاماً مَحْمُوداً الَّذِي وَعَدْتَهُ»[1]، ولا شَكَّ في أنّه دعاءٌ لمصلحتنا.

(الآية ٨٠) - ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠﴾:

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾: من حيث النّظرة العامّة؛ لأنّه قبل أنْ يدخلَ الإنسان يطلب الخروج أوّلاً؛ لأنّك لن تدخلَ إلّا بعد أنْ تخرجَ، وإنْ كان التّرتيب الطّبيعيّ أن تقول: أخرجني مُخْرَج صدق، وأدخلني مُدْخَل صدق، ومعنى مخرجَ الصّدق، ومدخل الصّدق: أنّك لا تدخل أو تخرج من غير هدف، فإنْ خرجتَ من مكان فليكُن مخرجك مخرج صدق؛ أي: مطابقاً لواقع مهمّتك، وإنْ دخلتَ مكاناً فليكُنْ دخولك مدخل صدق؛ أي: لهدف محدّد تريد تحقيقه، فيكون دخولك وخروجك لله ﷻ، وهكذا كان خروج النّبيّ ﷺ من مكّة لله ﷻ ودخوله المدينة لله ﷻ، والإنسان دائماً عند الدّخول يجب أن يفكّر بالمخرج، حتّى في هذه الحياة، فالإنسان عندما يتحرّك أيّ حركة؛ يخرج من منزله يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾.

﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾: طلب النُّصْرة من الله ﷻ لرسوله ﷺ؛ لأنّه أرسله بمنهج الحقّ، وسوف يصطدم هذا الحقّ بأهل الباطل والفساد الّذين يحرصون على الباطل، وينتفعون بالفساد، وهؤلاء سوف يُعَادُون الدّعوة، ويُجابِهون النّبيّ ﷺ؛ لذلك توجّه رسول الله ﷺ إلى ربّه ﷻ الّذي أرسله واستعان به على مواجهة أعدائه.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الأذان، بَابُ الدُّعَاءِ عِنْدَ النِّدَاءِ، الحديث رقم (٦١٤).

﴿سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾: السّلطان: سبق أنْ أوضحنا أنّه يُراد به: إمّا حجّة تُقنع، وإمّا سيف يَرْدَع، وهذا واضحٌ في قَوْل الله ﷻ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: من الآية ٢٥]؛ أي: بالآيات الواضحات، وهذه أدوات الحجّة والإقناع، ثمّ يقول ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: من الآية ٢٥]، وهذه أدوات القوّة والرّدع، فالحقّ لا بدّ له من قوّة تحميه.

(الآية ٨١) - ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾:

﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾: هكذا أطلقها الله ﷻ شعاراً مُدوّياً ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾، وما دام قال للرّسول ﷺ: (قُلْ) فلا بُدَّ أنّ الحقّ قادمٌ لا شَكَّ فيه؛ لذلك أمره بهذا الأمر الصّريح، وبعد ذلك يقولها رسول الله ﷺ في عام الفتح، عندما دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ يَوْمَ الفَتْحِ، وَحَوْلَ البَيْتِ سِتُّونَ وَثَلَاثُ مِئَةِ نُصُبٍ فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ، وَيَقُولُ: «**جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ، جَاءَ الحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ البَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ**»[1]؛ أي: جاء الحقّ واندحر الباطل، ولم يَعُدْ لديْه القوّة الّتي يُبدِئ بها ويُعيد، فقد خَمدتْ قواه ولم يَبْقَ له صَوْلَة ولا كلمة، وقوله ﷻ: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ يُشعرنا بأنّ الحقّ أتى بنفسه؛ لأنّه نسب المجيء إلى الحقّ كأنّه أمرٌ ذاتيٌّ فيه، فلم يأْتِ به أحد، وكذلك في: ﴿وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ فالباطل بطبيعته زاهقٌ مُندحرٌ ضعيف لا بقاءَ له، فجاء الحقّ ليس لاستعباد النّاس، ولكن لراحتهم ورَفْع رؤوسهم.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب المغازي، بابٌ: أَيْنَ رَكَزَ النَّبِيُّ ﷺ الرَّايَةَ يَوْمَ الفَتْحِ، الحديث رقم (٤٢٨٧).

﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾: زَهُوق: صيغة مبالغة، فالباطل نفسه سريعاً ما يذهب ويندثر، ومن العَجَب أن نرى الباطل نفسه من جنود الله ﷻ؛ لأنّ الباطل لو لم يُؤلِم النّاس ويُزعجهم ما تشوّقوا للحقّ وما مالوا إليه، وما طلبت أنفسهم الحقّ، فإذا ما لدغهم الباطل واكتَووْا بناره عرفوا الحقّ، وقد ضرب الله ﷻ لنا مثلاً للحقّ وللباطل، فقال: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧﴾ [الرّعد]، الحقّ ﷻ يُمثّل للحقّ وللباطل بشيءٍ حِسّيٍّ نراه حينما ينهمر المطر على قمم الجبال، فيسيل الماء على الأودية بين الجبال حاملاً معه صغار الحصى والرّمال والقشّ، وهذا هو الزَّبَد الّذي يطفو على صفحة الماء ولا ينتفع النّاس به، وهذا الماء مثالٌ للحقّ الّذي ينفع النّاس، والزَّبَد مثال للباطل الّذي لا خَيْر فيه، أو: يعطينا المثال في صورةٍ أخرى: صورة الحدّاد أو الصّائغ الّذي يُوقِد النّار على الذّهب ليخرج منه ما علق به من شوائب.

(الآية ٨٢) - ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾:

كما نعرف جميعاً القرآن الكريم هو كلام الله ﷻ المنزّل على عبده ونبيّه محمّد ﷺ المبدوء بسورة الفاتحة والمختتم بسورة النّاس، جعله الله ﷻ عطاءً ومدداً ومعجزةً لرسولنا ﷺ ولأمّته وللعالمين، قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، والآية تُعطينا نموذجين لتلقّي القرآن الكريم: إنْ تلقّاه المؤمن كان له شفاء ورحمة، وإنْ تلقّاه الظّالم كان عليه خَسَاراً، والقرآن

الكريم حَدَّدَ الظّالمين لِيُبَيّن أنّ ظلمهم هو سبب عدم انتفاعهم بالقرآن الكريم؛ لأنّ القرآن الكريم خيرٌ في ذاته وليس خساراً، وقد سبق أن أوضحنا أنّ الفعل قد يكون واحداً، لكن يختلف القابل للفعل، ويختلف الأثر من شخصٍ لآخر، فسلامة الطّبع أو فساده لها أثرٌ في تلقِّي القرآن الكريم والانفعال به، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾ [التّوبة]، فالآية واحدة، لكنّ الطّبع المستقبل مختلف، فالمؤمن يستقبلها بملكاتٍ سليمة، فيزداد بها إيماناً، والكافر يستقبلها بملكَاتٍ فاسدة فيزدادَ بها كفراً، فالمشكلة في تلقّي الحقائق واستقبالها، فيجب أن تكون ملكاتُ التّلقّي غير فاسدة، فقول الله ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ متوقّفٌ على سلامة الطّبع والفهم عن الله ﷻ، وليس محاولة التّضليل.

والشّفاء: أن تعالج داءً موجوداً لتبرأ منه.

والرّحمة: أن تتّخذ من أسباب الوقاية ما يضمن لك عدم عودة المرض مرّة أخرى، فالرّحمة وقاية، والشّفاء علاج.

لكن، هل شفاء القرآن الكريم شفاءٌ معنويٌّ لأمراض القلوب وعِلَل النّفوس، فيُخلِّص الإنسان من القلق والحَيْرة والغَيْرة، ويجتثّ ما في نفسه من الغِلّ والحقد، والحسد، إلى غير هذا من أمراض معنويّة؟ أو كما يقول بعضهم: هو شفاءٌ للمادّيّات، ولأمراض البدن أيضاً؟ يجب أن نقف عند هذا الموضوع، بما أنّ الله ﷻ قال: إنّ القرآن الكريم هو شفاءٌ، ولم يحدّد، فبالمعنى العامّ لهذه

الكلمة، يكون شفاءً للمعنويّات ولكن قد يكون شفاءً للمادّيّات، بدليل ما رُوِي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ نَاساً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَتَوْا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ فَلَمْ يَقْرُوهُمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ لُدِغَ سَيِّدُ أُولَئِكَ، فَقَالُوا: هَلْ مَعَكُمْ مِنْ دَوَاءٍ أَوْ رَاقٍ؟ فَقَالُوا: إِنَّكُمْ لَمْ تَقْرُونَا، وَلَا نَفْعَلُ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلاً، فَجَعَلُوا لَهُمْ قَطِيعاً مِنَ الشَّاءِ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ بِأُمِّ القُرْآنِ...، فَبَرَأَ فَأَتَوْا بِالشَّاءِ، فَقَالُوا: لَا نَأْخُذُهُ حَتَّى نَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، فَسَأَلُوهُ فَضَحِكَ وَقَالَ: «وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ...»[1]؛ أي: أنّ الفاتحة رُقْية يُرقَى بها المريض فيبرأ بإذن الله سبحانه وتعالى.

ومن المعلوم أنّ بعض العلماء سئل عن الآية: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وكيف كان سيّدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يعود المرضى فيقرأ الفاتحة عند المريض فيبرأ، بينما نحن نقرأ الفاتحة والقرآن الكريم كاملاً فلا يبرأ، فقال بجوابٍ مختصر: هذه الفاتحة، فأين عمر؟! وفي هذا جوابٌ بليغ.

ونحن عندنا في الإسلام لكلّ داءٍ دواء، فتأخذ بالأسباب، تذهب إلى الطّبيب وتأخذ الدّواء وتأخذ الاحتياطات كلّها وبعد ذلك تقرأ الفاتحة وتقرأ ما يتيسّر من القرآن الكريم، وتدعو للمريض، هذا هو معنى الرّقية، وليس معنى الرّقية أن أداوي الإنسان المريض بقراءة الفاتحة فقط، فمن كان معه الزّائدة مثلاً هل أقرأ له فاتحة بدلاً من إجراء عمليّة؟! الجواب: بالتّأكيد لا، بل آخذه للطّبيب وتُجرى له عمليّة الزّائدة وأقرأ له الفاتحة، فأنت تأخذ الدّواء لكنّ الشّافي هو الله سبحانه وتعالى، فتقرأ كلام الله جلّ جلاله.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الطّبّ، بَابُ الرُّقَى بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ، الحديث رقم (٥٧٣٦).

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾: لأنّهم بظُلْمهم واستقبالهم لفُيوضات السّماء بملَكَاتٍ سقيمة، وأجهزة متضاربة متعارضة، لم ينتفعوا بالقرآن الكريم، ولن يستفيدوا من رحمات الله ﷻ.

(الآية ٨٣) - ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ٨٣﴾:

﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾: أي: أعرض عنّا وعن ذِكْرنا وانصرف عن منهجنا، ومِنَ النّاس مَنْ يُعرِض عن ذكر الله ﷻ، ولكنّه يؤدِّي منهجه، فإذا أدَّيت المنهج ذكرت صاحب المنهج، ويجب ألّا تنسى المُنعِم أبداً، وإذا شُغِل الإنسان بالنّعمة عن المُنعِم، فكأنّه يُخطئ بحقّ المُنعِم، كما قال ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ [العلق]، فالاستغناء هنا ليس ذاتيّاً في الإنسان، بل هو استغناءٌ موهوب، قد ينتهي في يومٍ من الأيّام ويعود الإنسان من جديد يطلب النّعمة من المنعِم ﷻ، يقول ﷻ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨﴾ [العلق].

ثمّ يتحدّث الحقّ ﷻ عن صفة أخرى في الإنسان:

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا﴾: وهذه صفة مذمومة في الإنسان الّذي إذا ما تعرّض لشرٍّ أو مسّه ضُرٌّ يقنط من رحمة الله ﷻ، وكأنّ الحقّ ﷻ يُخاطب عبده الّذي يقنط: لا يليق بك أن تقنط إذا ضاقتْ بك الدّنيا، وأنت مؤمن لا تعيش مع الأسباب وحدها إنّما مع المسبِّب ﷻ، وما دُمْتَ في رحاب مُسبِّب الأسباب فلا تقنط، لذلك يقولون: «لا كَرْبَ وأنت ربٌّ»، فقد يقنط الإنسان إن لم يكُنْ له رَبٌّ يتولّاه، أمّا والرّبّ موجودٌ فلا يليق به، كيف ومَنْ له أب لا

يُلقي لهموم الدّنيا بالاً، ويستطيع أن يعتمد عليه في قضاء حاجاته، فما بالك بمَنْ له رَبٌّ يرعاه ويتولّاه، ويستطيع أن يتوجّه إليه، ويدعوه في كلّ وقت؟

والله ﷻ حينما يُنبِّهنا إلى هذه المسألة يريد أنْ يُعطينا الأُسْوة به ﷻ، يريد أن يقول للإنسان: لا تحزن إن أدَّيْتَ للنّاس جميلاً فأنكروه، أو معروفاً فجحدوه، وكيف تحزن وهم يفعلون هذا مع ربّ العالمين، فكثيراً ما أنعم الله ﷻ على أُناس فأساؤوا وكفروا وجحدوا.

(الآية ٨٤) - ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ٨٤﴾:

﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾: أي: أنّ كلّ إنسانٍ يعمل على طريقته، وعلى طبيعته، وعلى مقدار ما تكوّنت به من خلايا الإيمان، أو من خلايا إيمان اختلطت بخلايا عصيان، أو بما عنده من خلايا كفر، فالنّاس مختلفون وليسوا على طبعٍ واحد، فلا تحاول أن تجعل النّاس على طبعٍ واحد.

وما دام الأمر كذلك، فليعمل كلّ واحدٍ على شاكلته، وحسب طبيعته، فإنْ أساء إليك إنسان سيّئ الطّبع فلا تقابله بسوء مثله، ولتعمل أنت على شاكلتك، ولتقابله بطبع طيّب؛ لذلك يقولون: لا نُكافئ مَنْ عصى الله فينا بأكثر من أنْ نُطيع الله فيه، وبذلك يستقيم الميزان في المجتمع، ولا تتفاقم فيه أسباب الخلاف.

﴿فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا﴾: والرّبُّ: المتولّي للتّربية، والمتولّي للتّربية لا شكّ في أنّه يعلم خبايا المربَّى، ويعلم أسراره ونيّاته، كما قال ﷻ: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك].

(الآية ٨٥) - ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾: السّؤال يَرِد في القرآن الكريم بمعانٍ متعدّدة، ووردتْ هذه الصّيغة ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ في مواضع عِدّة: فإنْ كان السّؤال عن شيءٍ نافع يضرّ الجهل به أجابهم القرآن الكريم، كما في قوله سُبحانه وتعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: من الآية ٢٢٢]، وقوله جلَّ جلاله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة]، أمّا إنْ كان السّؤال عن شيءٍ لا يضرّ الجهل به، لفت القرآن الكريم أنظارهم إلى ناحيةٍ أخرى نافعة، كما في سؤالهم عن الأهِلّة: كيف يبدو الهلال صغيراً ثمّ يكبر ويكبر إلى أن يصير بدراً، ثمّ يأخذ في التّناقص ليعود كما بدأ؟ فالحديث مع العرب الّذين عاصروا نزول القرآن الكريم في هذه الأمور الكونيّة الّتي لم نعرفها إلّا حديثاً أمرٌ غير ضروريّ، وفوق مستوى فهمهم، ولا تتّسع له عقولهم، ولا يترتّب عليه حكم، ولا ينتج عن الجهل به ضرر، ولو أخبرهم القرآن الكريم في إجابة هذا السّؤال بحقيقة دوران القمر بين الأرض والشّمس وما يترتّب على هذه الدّورة الكونيّة من ليل ونهار، وهم لا يعرفون شيئاً عن معلومات الفضاء لاتّهموا القرآن الكريم بالتّخريف، ولربّما انصرفوا عن أصل الكتاب كلّه، لكن يُحوّلهم القرآن الكريم، ويُلفت أنظارهم إلى ما يمكن الانتفاع به من الأهِلّة: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٩]، وقد يأتي السّؤال، ويُرَاد به اختبار رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك ما حدث من اتّفاق كفّار مكّة واليهود، حيث قالوا لهم: اسألوه عن الرّوح،

وهم يعلمون تماماً أنّ هذه مسألة لا يعلمها أحد، لكنّهم أرادوا الكيد لرسول الله ﷺ، فلعلّه يقول في الرّوح كلاماً يأخذونه عليه ويستخدمونه في صَرْف النّاس عن دعوته، ولا شَكَّ في أنّه سؤال خبيث؛ لأنّ الإنسان عامّة يحبّ أن يظهر في مظهر العالم، ولا يحبّ أن يعجز أمام محاوره، فاستغلّوا هذه العاطفة، فالرّسول ﷺ لن يُصَغِّر نفسه أمام سائليه من أهل مكّة، وسوف يحاول الإجابة عن سؤالهم، ولكنّ الله سبحانه وتعالى خَيَّب سَعْيهم، فكانت الإجابة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾، فعندما سمع أهل الكتاب هذه الإجابة آمن كثيرٌ منهم؛ لأنّها طابقت ما قالته كتبهم عن الرّوح، وأنّها من عند الله عزّ وجلّ.

و﴿ٱلرُّوحُ﴾ لها إطلاقات مُتعدِّدة، منها: الرُّوح الّتي تمدُّ الجسم بالحياة إن اتّصلت به، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ [الحجر]، فإذا ما فارقتْ هذه الرّوح الجسد فقد فارق الحياة، وتحوَّل إلى جثّة هامدة، وفيها يقول عزّ وجلّ: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ٨٣﴾ [الواقعة]، وقد تأتي الرّوح لتدلّ على أمين الوحي جبريل عليه السلام، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشّعراء]، وقد تُطلَق الرّوح على الوحي ذاته، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشّورى: من الآية ٥٢]، وتأتي بمعنى التّثبيت والقوّة، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة: من الآية ٢٢]، وأُطلِقَتْ الرّوح على عيسى ابن مريم عليه السلام في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النّساء: من الآية ١٧١]، فلهذه الكلمة إطلاقات مُتعدِّدة، فما العلاقة بينها؟ قال العلماء:

الرّوح الّتي بها حركة الحياة إذا وُجِدَتْ في الإنسان تعطي مادّيّة الحياة، ومادّيّة الحياة شيء، وقيَمُ الحياة شيء آخر، فإذا ما جاءك شيء يعدّل لك قيم الحياة فهل تُسمِّيه روحاً؟ لا، بل هو روح الرّوح؛ لأنّ الرّوح الأُولى قصاراها الدّنيا، لكنّ روح المنهج النّازل من السّماء فخالدة في الآخرة، فأيُّهما حياته أطول؟

وهنا يقول ﷻ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾؛ أي: أنّ هذا من خصوصيّاته هو سبحانه، وبما أنّها من خصوصيّاته هو ﷻ، فلن يطلع أحداً على سِرِّها، وهل هي جوهر يدخل الجسم فيحيا ويسلب منه فيموت، أو هي مراد بـ ﴿كُن﴾ من الخالق ﷻ، فإنْ قال لها: ﴿كُن﴾، تحيا، وإنْ قال: مِتْ، تموت؟

إنّ علم الإنسان سيظلّ قاصراً عن إدراك هذه الحقيقة، وسيظلّ بينهما مسافات طويلة؛ لذلك قال ﷻ بعدها:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾: وهل عرف العقل البشريّ كلّ شيءٍ حتّى يبحث في أسرار الرّوح؟! فالاستفادة بالشّيء لا تحتاج معرفة كلّ شيء عنها، فيكفيك أنْ تستفيد بها دون أن تُدخِل نفسك في متاهات البحث عن حقيقتها، والله ﷻ حينما قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ كان يخاطب بها المعاصرين لرسول الله ﷺ منذ ما يزيد على ألف وأربعمئة عام، ومازال يخاطبنا ويخاطب مَنْ بعدنا من الأجيال، وإلى أن تقوم السّاعة بهذه الآية مع ما توصّلتْ إليه البشريّة من علم، وكأنّه ﷻ يقول: يا بن آدم، إلزم غرزك، فإن وقفت على سِرٍّ فقد غابتْ عنك أسرار، وقد أوضح الله ﷻ لنا هذه المسألة في قوله: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصّلت: من الآية ٥٣]، وها هم العلماء والباحثون يقفون كلّ يوم على جديد في الكون

الفسيح وفي الإنسان، ولو تابعناهم لَهالنا ما توصَّلوا إليه من آيات وعجائب في خَلْق الله ﷻ، لكن هل معنى ذلك أنّنا عرفنا كلّ شيء؟ كلّما ازددت علماً زادني علماً بجهلي، إنّ كلمة: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ ستظلّ تعمل إلى قيام السّاعة.

(الآية ٨٦) - ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾:

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: الحقّ ﷻ في هذه الآية يريد أنْ يُربِّي الكفّار ويُؤنّبهم، ويريد أن يُبَرّئ ساحة رسوله ﷺ ويتحمّل عنه المسؤوليّة، فالرّسول ﷺ مُبلّغ عن الله ﷻ، وإيّاكم أن تقولوا عنه: مُفْترٍ، أو أتى بشيءٍ من عنده، بدليل أنّني لو شِئْتُ لسلبتُ ما أوحيتُه إليه وقرأه عليكم، وسمعتموه أنتم، وكتبه الصّحابة -كتبة الوحي-.

فإنْ سأل متسائل: وكيف يذهب الله ﷻ الوحي المُنزّل على رسوله ﷺ بعد أن حُفظ وكُتِب، وسمعه الكفّار؟ نقول: إنّ سياق الآية يدلُّنا على أنّ هذه العمليّة لم تحدث؛ لأنّ الحقّ ﷻ يقول: ﴿وَلَئِن شِئْنَا﴾، بمعنى: لو شِئْنا فعلنا ذلك، فالفعل لم يحدث، والمراد بيان إمكانيّة ذلك ليُبَرِّئ موقف الرّسول ﷺ، وأنّه ليس له من الأمور شيء، والغريب أن يفهم بعضهم من قوله ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: من الآية ١٢٨] أنّها ضدّ رسول الله ﷺ، وقَدْح في شخصه، وليس الأمر كذلك؛ لأنّ ربّه ﷻ يريد أنْ يتحمّل عنه ما يمكن أن يُفسِد العلاقة بينه وبين قومه، كما قال ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ [الغاشية]، ونلاحظ في الآية جملة شرطيّة، أداة الشّرط فيها (إنْ)، وهي تُستَخدم للأمر

المشكوك في حدوثه، على خلاف (إذا) فتأتي للأمر المحقّق. ثمّ يُوضِّح لنا الله ﷻ أنّه إنْ ذهب بما أوحاه لرسوله ﷺ، فلن يستطيع أحد إعادته، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا﴾، فالأمر كلّه بيد الله ﷻ، فإذا شاء المولى ﷻ ذلك فهو يستطيع أن يُذهب الوحي.

(الآية ٨٧) - ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ٨٧﴾:

﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾: أي: أنّك لا تجد لك وكيلاً في أيِّ شيءٍ إلّا من جانب رحمتنا نحن؛ لأنّ فَضْلنا عليك كبير.

ثمّ يخاطب الحقّ ﷻ رسوله ﷺ ليعلن تحدّيه للعالمين:

(الآية ٨٨) - ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾:

﴿قُل﴾: لا يقولها الحقّ تبارك وتعالى بينه وبين رسوله ﷺ، بل المراد: أعلنها يا محمّد على الملأ، وأسمِعْ بها النّاس جميعاً؛ لأنّ القضيّة قضيّة تَحَدٍّ للجميع.

﴿لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾: وهما الثّقلان اللّذان يكوّنان أمّة التّكليف لما منحهما الله ﷻ من نعمة الاختيار الّذي هو مَناطُ التكليف.

وقد أرسل النّبيّ ﷺ إليهما جميعاً، وقد استمعت الجنّ إلى القرآن الكريم كما استمعت إليه البشر: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢﴾ [الجنّ]، والتّحدِّي معناه الإتيان بآية معجزة يعجز عنها المعارِض، لكن من جنس ما نبغ فيه المعارِض،

فلا يتحدّاهم بشيءٍ لا عِلْم لهم به، وهذا يردّ على مَنْ قال: إنّ التّحدّي بالمعنى لا بالكلمات، لذلك جاءت معجزات الرّسل كلّها من جنس ما نبغ فيه القوم ليكون التّحدِّي في محلِّه، ولا يعترضون عليه بأنّه خارج عن نطاق علمهم ومقدرتهم، فكانت معجزة موسى عليه السلام العصا واليد، وهي من جنس ما نبغ فيه قومه من السِّحْر، وجاءت معجزة عيسى عليه السلام إحياء الموتى بإذن الله عز وجل، وإبراء الأكمة والأبرص؛ لأنّ قومه نبغوا في الطّبّ، وكانت معجزته صلى الله عليه وسلم في البلاغة والفصاحة الّتي نبغ فيها العرب، فالقرآن الكريم هو معجزة النّبيّ صلى الله عليه وسلم، إضافة إلى المعجزات المادّيّة الّتي جاء بها، كنبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم، والإسراء والمعراج، فالتّحدّي هنا في البلاغة والفصاحة وصناعة اللّغة العربيّة، لقد جاءت بلاغة القرآن الكريم وفصاحته للأمّة المتلقِّية للدّعوة الأولى، العرب الّذين سيحملون عِبْءَ الدّعوة، ويَسِيحُون بها في شتّى بقاع الأرض، فإذا ما انتشرت الدّعوة كانت المعجزة للنّاس الآخرين من غير العرب شيئاً آخر، فالغيبيّات الّتي يخبرنا بها، والكونيّات الّتي يُحدّثنا عنها، والّتي لم تكُنْ معلومة لأحد نجدها موافقة تماماً لما جاء به القرآن الكريم، وهو مُنزَّل على نبيٍّ أُمّيٍّ، وفي أُمّة أُمّيّة غير مثقّفة، فهذه كلّها نواحي إعجاز للعرب ولغيرهم، وما زِلْنا حتّى الآن نقف أمام آيات، وننتظر من العلم أنْ يكشفَ لنا عن معناها، وفي الماضي القريب توصّل العلم إلى أنّ الذّرّة أصغر شيء في الوجود، وقد ذكر القرآن الكريم الذّرّة في مثل قوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزّلزلة]، وبتقدُّم وسائل البحث توصَّلوا إلى ما ذكره القرآن الكريم كلّه، فتحدّاهم الحقّ سبحانه وتعالى بقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾، وأُدخِل الجنّ في

مجال التّحدّي؛ لأنّ العرب كانوا يعتقدون أنّ لكلّ شاعر نابغ، أو أديب مُفوّه، أو عبقريّ عنده نبوغٌ بيانيٌّ شيطاناً يُلهِمه، وهذه الشّياطين تسكن وادياً عندهم يسمّونه: «وادي عَبْقَر»، لذلك لم يكتَف القرآن الكريم بتحدّيهم هم، بل تحدّى أيضاً مَنْ يُلهمونهم، أو مَنْ ينسبونَ إليهم القوّة في هذا الأمر، فلئن اجتمع الإنس والجنّ جميعهم، على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لن يستطيعوا ولو تساندوا ولو تكاتفوا ولو اجتمعوا جميعاً.

﴿عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾: فالتّحدِّي أنْ يأتوا ﴿بِمِثۡلِهِۦ﴾، فلا يمكن أنْ يأتوا به نفسه مرّة أخرى؛ لأنّه نزل من عند الله ﷻ وانتهى الأمر، فالواقع لا يقع مرّتين، فالمتصوَّر في مجال التّحدّي أنْ يأتوا بمثله، فلو قلت: هذا الشّيء مثل هذا الشّيء، فلا شَكَّ في أنّ المشبَّه به أقوى وأصدق من المشبّه، ولا يرتقي المشبّه ليكون هو المشبّه به، بل مثله، فالحقّ ﷻ في قوله: ﴿لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾، لا ينفي عنهم أن يأتُوا بقرآن، بل بمثل القرآن الكريم، فإذا كانوا لا يأتون بالصّورة، فهل يقدرون على الأصل؟! ثمّ يقول ﷻ زيادةً في التّحدِّي:

﴿وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾: والظّهير: هو المعاون والمساعد والمعين على الأمر، قد يقول قائل: إنّ هذه المهمّة لا يقوم بها فردٌ واحد، فقال لهم تبارك وتعالى: بل هاتوا كلّ ما لديكم من طاقاتٍ إبداعيّة وعبقريّات بيانيّة، واستعينوا بما تزعمون من إلهام الجنّ، وتعاونوا جميعاً في سبيل هذا التّحدّي، حتّى إذا كان في أحدكم نقص أكمله الآخر، لكن، لن تستطيعوا أنْ تأتُوا بمثل هذا القرآن الكريم أبداً.

(الآية ٨٩) - ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٨٩﴾:

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ﴾: التّصريف: هو التّحويل والتّنويع بأساليب مختلفة لزيادة البيان، والمراد أنّ القرآن الكريم لا يعالج القضايا بأسلوب رتيب جامد، بل يُحوِّل الكلام بين أساليب متعدِّدة؛ لأنّه يخاطب طباعاً متعدّدة، ويتعرّض لموضوعات ومعانٍ مختلفة، فلا بُدَّ أن يُصَرِّف الأسلوب ويَقلِبه على أكثر من وجه، فالّذي لا يفهم هذه يفهم هذه، وتمتاز لغة العرب بالمثل والحكمة؛ لذلك كان من التّصريف في أسلوب القرآن الكريم استخدام المثل، وهو تعبير مُوجَز، يحمل المعاني الكثيرة وتتعشّق لفظه، وتقوله كما هو دون تغيير إذا جاءت مناسبته، فلأهمّيّة المثل في لغة العرب جعله القرآن الكريم لَوْناً أسلوبيّاً، وأداةً للإقناع، كما في قوله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٦]، فالله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يخاطب بالقرآن الكريم عقولاً مختلفة وطبائع متعدّدة؛ لذلك لا يستحي أن يضرب المثل بأحقر مخلوقاته لِيُقنِعَ الجميع كُلّاً بما يناسبه، وقد يقول قائل: لماذا قال: ﴿فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾، فالعجيب هنا مسألة الصِّغَر؟ نقول: المراد بما فوقها؛ أي: في المعنى المراد، وهو الصِّغر؛ أي: ما فوقها في الصِّغر لا أكبر منها، ثمّ يأتي بالمعنى في صورةٍ أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحجّ]، وفي آيةٍ أخرى يقول سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ

بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت]، فيُصرِّف الله سبحانه وتعالى الأمثال ويُحوِّلها ليأخذ كلّ طَبْع ما يناسبه وما يقتنع به، وليس القرآن الكريم على وتيرة واحدة أو مزيج واحد يُعطَى للجميع، بل يُشخّص الأدواء ويُحلّلها ويعالجها بما يناسبها؛ لذلك يأتي الأسلوب مختلفاً، وهذه المسألة واضحة في الحديث النّبويّ الشّريف، حيث كان الصّحابة الكرام رضوان الله عليهم يسألون رسول الله ﷺ السّؤال الواحد، وتأتي الإجابة مختلفة من شخص لآخر؛ لأنّ رسول الله ﷺ يراعي حال سائله، ويحاول أنْ يعالج نقطة الضّعف فيه، فالأمر ليس ثابتاً يعطيه للجميع، بل هي مراعاة الأحوال والطّباع، وهذا هو الدّين الإسلاميّ لا يأتي لإجبار البشر ولا للتّضييق عليهم، وإنّما يتوافق ويناسب طباعهم.

﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾: نعرف أنّ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، تُخرِج ما بعدها من حكم ما قبلها، كما تقول: جاء القوم إلّا زيداً، ولو طبَّقْنَا هذه القاعدة على الآية لا يستقيم معناها، كما لو قلت: ضربت إلّا زيداً، والآية أسلوب عربيّ فصيح، نقول: لأنّ معنى (أبى): لم يقبل ولم يَرْضَ، فالمراد: لم يَرْضَ إلّا الكفور، فلا بُدَّ للاستثناء المفرّغ أنْ يُسبَق بنفي.

(الآية ٩٠) - ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾:

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ﴾: (لن) تُفيد تأبيد نَفْي الفعل في المستقبل، تقول: أنا لم أصنع هذا، ولن أصنعه؛ أي: في المستقبل، ومعلوم أنّ الإنسان ابن أغيار، ولا يحكمه حال واحد بل هو مُتقلِّب بين أحوال شتّى طوال حياته، والله سبحانه وتعالى

وحده هو الّذي لا يتغيّر، وما دام الإنسان ابنَ أغيار ويطرأ عليه حال بعد حال، فليس له أنْ يحكمَ على شيء حُكْماً قاطعاً في مستقبل هو لا يملكه، فالّذي يملك الحكم القاطع هو الحقّ ﷻ الّذي لا تتناوله الأغيار، فـ ﴿لَن﴾ تُفيد تأبيد النّفي في المستقبل، وهذا أمرٌ لا يملكه إلّا مالك الأحداث ﷻ، أمّا صاحب الأغيار فليس له ذلك، والّذين آمنوا فيما بعد برسول الله ﷺ ممَّنْ قالوا هذه المقولة: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾، نستطيع أن نقول لهم: لقد أوقعتْكم (لن) في الكذب؛ لأنّكم أبّدتُم نَفْي الإيمان، وها أنتم مؤمنون، ولم يُفجِّر لكم النّبيّ ﷺ ينبوعاً من الأرض! وعند فتح مكّة وقف عكرمة بن أبي جهل وقال في الخَنْدَمَة ما قال، ثمّ رجع إلى النّبيّ ﷺ مؤمناً مُعتذراً وخرج محارباً مع خالد بن الوليد رضي الله عنه في اليرموك، وحين طُعِن الطّعنة المميتة، وحمله خالد، فإذا به يقول له: أهذه ميتة تُرضِي عنّي رسول الله؟ فمَنْ يقول كلمة عليه أن يكون قادراً على تنفيذها، مالكاً لزمامها، ضامناً لنفسه ألَّا يتغيّر، وألَّا تتناوله الأغيار، ولا يملك ذلك إلّا الله ﷻ.

﴿حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾: وفي آية أخرى قال: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونًا﴾ [القمر: من الآية ١٢]، فالتّفجير: أن تعمل في الأرض عمليّة تُخرِجِ المستتر في باطنها على ظهرها، وعين الماء تُخرِج لك الماء من الأرض، وتأخذ من حاجتك فلا ينقص، أمّا الينبوع فتراه يفيض باستمرار دون أن ينقص فيه منسوب الماء، كما في زمزم مثلاً، ولا شكَّ في أنّ هذا المطلب منهم جاء نتيجة حرمانهم من الماء، وحاجتهم الشّديدة إليه.

ويذكر الله ﷻ أنّهم واصلوا حديثهم للرّسول ﷺ، فقالوا:

(الآية ٩١) - ﴿أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١﴾:

سبق أن طلبوا الماء لأنفسهم، وهنا يطلبون للرّسول ﷺ ﴿جَنَّةٞ﴾؛ أي: بستان أو حديقة من النّخيل والعنب؛ لأنّهما الصِّنْفان المشهوران عند العرب.

﴿فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا﴾: أي: خلال هذه الحديقة حتّى تستمرّ ولا تذبل.

ويواصلون تحدّيهم لرسول الله ﷺ، فيقولون:

(الآية ٩٢) - ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢﴾:

﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾: الزَّعْم: هو القبول المخالف للواقع، ويقولون: الزّعم مطيّة الكذب، قال سبحانه وتعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْ﴾ [التّغابن: من الآية ٧]، ولذلك طلبوا من رسول الله ﷺ أنْ يُوقِع بهم هذا التّهديد، فيسقط السّماء كسفاً.

﴿كِسَفًا﴾: أي: قِطَعاً، ومفردها: كسفة كقطعة.

﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾: أي: نراهم أمامنا هكذا مُقابلةً عياناً، وقد جاء هذا المعنى أيضاً في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان: من الآية ٢١]، والمتأمّل فيما طلبه الكفّار من رسول الله ﷺ يجده تعجيزاً بعيداً كُلَّ البعد عن الواقع، ممّا يدلّنا على أنّهم ما أرادوا الإيمان والهداية؛ لأنّ الإيمان يكون بالأمور الغيبيّة وليس المشاهدة، بل قصدوا

الجدل والعناد؛ لذلك يقول الحقّ سبحانه وتعالى ردّاً على لجَج هؤلاء وتعنّتهم: ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ﴾ [الأنعام: من الآية ١١١].

(الآية ٩٣) - ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣﴾:

﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ﴾: البيت: هو المكان المعدّ للبيتوتة، والزّخرف: أي: المُزَيَّن، وكان الذّهب وما يزال أجمل أنواع الزّينة؛ لأنّ كلّ زُخْرف من زخارف الزّينة يطرأ عليه ما يُغيّره فيبهت لونه، وينطفئ بريقه، وتضيع ملامحه إلّا الذّهب، ونرى الّذين يُحبُّون أن ينافقوا نفاقَ الحضارات، ويتبارَوْنَ في زخرفة الصّناعات يُلصِقون على المصنوعات الخشبيّة مثلاً طبقة أو قشرة من الذّهب؛ لتظلَّ محتفظة بجمالها.

﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: أي: يكون لك سُلَّم تصعد به في السّماء، ويظهر أنّهم تسرّعوا في هذا القول، ورَأَوْا إمكانيّة ذلك، فسارعوا إلى إعلان ما تنطوي عليه نفوسهم من عناد: ﴿وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ﴾، وكأنّهم يُبيّتون العناد لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فهم كاذبون في الأولى وكاذبون في الثّانية، ولو نزّل الله عز وجل عليهم الكتاب الّذي أرادوا ما آمنوا، وقد رَدَّ عليهم الحقّ سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ [الأنعام].

وانظر إلى ردّ القرآن الكريم على هذا التّعنّت السّابق كلّه:

﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي﴾: وكلمة: ﴿سُبۡحَانَ﴾ كلمة التّنزيه العُلْيا للحقّ ﷻ، وقد تحدَّى بها الكون كلّه؛ لأنّها كلمة لا تُقَال إلّا لله ﷻ، ولم يحدث أبداً بين النّاس أنْ قالها أحدٌ لأحد، مع ما في الكون من جبابرة وعُتَاة، يحرص النّاس على منافقتهم وتملُّقهم، وهذه كلمة اختياريّة يمكن أن يقولها كلّ إنسان، لكن لم يجرؤ أحد على قَوْلها لأحد، هذا لم يحدث؛ لأنّ المتكلّم هو الله ربُّ العالمين.

ومن هذا التّحدّي أنّ الحقّ ﷻ له صفات وله أسماء، الأسماء مأخوذة من الصّفات، إلّا اسم واحد مأخوذ للذّات، هو لفظ الجلالة (ٱللَّهُ)، فهو عَلَم على الذّات الإلهيّة لم يُؤخَذ من صفة من صفاته ﷻ، فالقادر والغفور والحيّ والقيوم وغيرها من الأسماء مأخوذة من صفات، إنّما (ٱللَّهُ) عَلَم على الذّات الجامعة لهذه الصّفات كُلِّها، لذلك تحدَّى الخالق ﷻ الخَلْق جميعهم، وقد أعطاهم الحرّيّة في اختيار الأسماء أنْ يُسمُّوا أنفسهم أو أبناءهم بهذا الاسم (ٱللَّهُ)، ويعلن هذا التّحدّي في كتابه الكريم فيقول: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: من الآية ٦٥]؟ ومع ذلك لم يجرؤ أحدٌ على ذلك أبداً.

﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي﴾؛ لأنّ الأمور الّتي طلبوها أمورٌ بلغتْ من العجب حَدّاً، ولا يمكن أن يُتعجّب منها إلّا بـ (سبحان الله)؛ لأنّها كلمة التّعجُّب الوحيدة الّتي لا تُطلَق لغير الله ﷻ، وكأنّه أرجع الأمور كلّها لله ﷻ، ولقد كان لهم غِنىً عن ذلك في كتاب الله ﷻ الّذي نزل إليهم.

﴿هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾: هل ادّعيْتُ لكم أَنِّي إله؟! ما أنا إلّا بشر أبلّغكم رسالة ربّي، وأفعل ما يأمرني به، كما في قوله ﷻ: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ

﴿...أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [يونس: من الآية ١٥].

(الآية ٩٤) - ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤﴾:

أي: ما منعهم من الإيمان إلّا أن يكون الرّسول بشراً، هذه هي القضيّة الّتي وقفت في حلوقهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾؟ والمتأمِّل في مسألة التّبليغ عن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجد أنّها لا يمكن أنْ تتمّ إلّا ببشر، فكيف يُبلّغ البشر جنس آخر؟ وكيف يكون أسوة للنّاس إذا كان من الملائكة؟ ولا بُدَّ للتّلقّي عن الله عَزَّ وَجَلَّ من وسائط بين الحقّ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبين النّاس؛ لأنّ البشر لا يستطيع أنْ يتلقّى عن القُوّة العليا مباشرة، فهناك مراحل: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١﴾ [الشّورى]، لكنّ الرّسول البشريّ كيف يُكلِّم الله عَزَّ وَجَلَّ؟ لا بُدَّ أنْ نأتي برسولٍ من الجنس الأعلى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾ [الحجّ: من الآية ٧٥] وهذه مرحلة، ثمّ يصطفي رسولاً من البشر يتلقّى عن الملَكِ كي يستطيع أنْ يُبلِّغ النّاس؛ لأنّ النّاس لا يقدرون على اللّقاء المباشر مع الملائكة، والمهمّ هو الأسوة السّلوكيّة من بشر لبشر، هؤلاء البشر يتمتّعون بصفات وأخلاق تكون عنواناً للجميع، فماذا يُزعجكم في أنْ يكون الرّسول بشراً؟ ولماذا تعترضون على هذه المسألة وهي أمرٌ طبيعيٌّ؟ يقول سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: من الآية ٢].

(الآية ٩٥) - ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾:

﴿قُل﴾: أي: رَدّاً عليهم، لو أنّ الملائكة يمشون في الأرض مطمئنّين لَنزّلنا عليهم مَلَكاً رسولاً لكي يكون من طبيعتهم، فلا بُدَّ أنْ يكون المبلِّغ من جنس المبلَّغ، وهذا واضح في حديث جبريل عليه السلام الطّويل حينما جاء إلى رسول الله ﷺ يسأله عن بعض أمور الدّين لِيُعلّم الصّحابة: ما الإحسان؟ ما الإيمان؟ ما الإسلام، فيأتي جبريل عليه السلام مجلس رسول الله ﷺ في صورة رجلٍ من أهل البادية، وبعد أنْ أدّى مهمّته انصرف دون أنْ يشعر به أحد، فلمّا سألوا عنه قال لهم رسول الله ﷺ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»[1].

شيء آخر يقتضي بشريّة الرّسول، وهو أنّ الرّسول أسوة سلوك لقومه، كما قال جل جلاله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: من الآية ٢١]، فكيف تتمّ هذه الأسوة؟ وكيف يقتدي النّاس بها إنْ كان الرّسول مَلَكاً؟ فالرّسول عندما يُبلّغ منهج الله سبحانه وتعالى عليه أنْ يُطبّق هذا المنهج في نفسه أوّلاً، فلا يأمرهم أمراً، وهو عنه بِنَجْوَة، بل هو إمامهم في القول والعمل، لذلك كان سيّدنا عمر رضي الله عنه إذا أراد أن يُقنّن قانوناً ويرى أنّه سيتعب بعض الظّالمين والمنحرفين يجمع أهله ويخبرهم بما أراد، ثمّ يُحذّرهم من المخالفة: "فو الذي نفسي بيده، مَنْ خالفني منكم إلى شيء لأجعلنّه نكَالاً للمسلمين، وأنا أوّل مَنْ أُطبّقه على نفسي".

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، بَابُ معرفة الإِيمَانِ، وَالإِسْلَامِ، والقَدَرِ وَعَلَامَةِ السَّاعَةِ، الحديث رقم (٨).

(الآية ٩٦) - ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٩٦﴾:

﴿قُلۡ﴾: أي: رَدّاً على ما اقترحوه من الآيات وعلى اعتراضهم على بشريّة الرّسول.

﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾: الشّهيد إنّما يُطلَب للشّهادة في قضيّة ما، فما القضيّة هنا؟ القضيّة هي قضيّة تعنُّت الكفّار مع رسول الله ﷺ؛ لأنّهم طلبوا منه مَا ليس في وُسْعه، والرّسول ﷺ لا يعنيه المتعنّتون في شيء؛ لأنّ أمره مع ربّه ﷻ؛ لذلك قال: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا﴾، فإنْ كانت شهادة الشّاهد في حوادث الدّنيا تقوم على الإخبار بما حدث، وعليها يترتّب الحكم فإنّ شهادة الحقّ سبحانه وتعالى تعني أنّه جلّ جلاله الشّهيد الّذي رأى، والحاكم الّذي يحكم، والسّلطة التّنفيذيّة الّتي تنفِّذ، لذلك قال: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا﴾، فهو كافيك هذا الأمر؛ لأنّه كان بعباده ﴿خَبِيرَۢا﴾ يعلم خفاياهم ويطّلع على نيّاتهم من وراء هذا التّعنُّت، ﴿بَصِيرٗا﴾ لا يخفى عليه شيء من أمرهم.

(الآية ٩٧) - ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ٩٧﴾:

﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾: سبق أنْ قُلْنا: إنّ الهداية نوعان:

الأولى: هداية الدّلالة المطلقة الّتي تكون لجميع الخلق المؤمن والكافر، فقد دَلَّ الله سبحانه وتعالى المؤمن والكافر على الطّريق المستقيم، وبيّنه لهم، وأرشدهم إليه.

والأخرى: هداية التّوفيق والمعونة للقيام بمطلوبات المنهج الّذي آمنوا به، وهذه خاصّة بالمؤمن، فبعد أنْ دَلَّه الله ﷻ آمن وصدَّق واعترف لله ﷻ بالفضل والجميل، بأن أنزل له منهجاً ينظّم حياته، فأتحفه الله ﷻ بهداية التّوفيق والمعونة.

فالمولى ﷻ يهدي الجميع هداية إرشاد وبيان ودلالة، ويختصّ مَنْ آمن بهداية المعونة والتّوفيق للقيام بمقتضيات المنهج، كما قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمّد]، وقال عن الآخرين: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الصّفّ: من الآية ٧]، لكن يهدي العادلين، وقال ﷻ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصّفّ: من الآية ٥]، لكن يهدي الطّائعين، وقال ﷻ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: من الآية ٢٦٤]، لكن يهدي المؤمنين، فبيَّن الحقّ ﷻ في أساليب القرآن الكريم مَنْ شاء هدايته، أمّا مَنْ آثر الكفر وصمّم ألَّا يؤمن فهو وشأنه، بل ويزيده الله ﷻ من الكفر ويختم على قلبه، كما قال ﷻ: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: من الآية ١١٠].

﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ﴾: قلنا: إنّ (مَن) اسم موصول بمعنى (الّذي)، واستخدام (مَن) كاسم موصول لا يقتصر على (الّذي) فقط، بل تستخدم لجميع الأسماء الموصولة: الّذي، الّتي، اللّذان، اللّتان، الّذين، اللّاتي، فنقول: مَنْ جاءك فأكرِمْه، ومَنْ جاءتك فأكرمْها، ومَنْ جاءاك فأكرمهما، ومَنْ جاءتاك فأكرمهما، ومَنْ جاؤوك فأكرمهم، ومَنْ جِئْنَكَ فأكرمْهُنّ، فهذه ستّة أساليب تؤدِّيها (مَنْ)، فهي صالحة للمذكّر والمؤنّث والمفرد والمثنّى والجمع، وعلينا أن نلحظ (مَنْ) في الآية: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ جاءت (مَنْ) دالَّة على المفرد

المذكّر، وهي في الوقت نفسه دالّة على المثنّى والجمع والمذكّر والمؤنّث، ونسأل: لماذا جاءت (مَنْ) دالّة على المفرد المذكّر بالذّات دون غيره في مجال الهدى، أمّا في الضّلال فجاءتْ (مَنْ) دالّة على الجمع المذكّر؟ هنا مَلْحظ دقيق يجب تدبُّره: في الاهتداء جاء الأسلوب بصيغة المفرد: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِّ﴾؛ لأنّ للاهتداء سبيلاً واحداً لا غير، هو منهج الله ﷻ وصراطه المستقيم، فللهداية طريقٌ واحد أوضحه رسول الله ﷺ بقوله: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ»[1]، أمّا في الضّلال، فجاء الأسلوب بصيغة الجمع: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ لأنّ طرق الضّلال متعدّدة ومناهجه مختلفة، فللضّلال ألف طريق، وهذا واضح في قول الحقّ ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥٣]، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﵁، قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطّاً، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطاً عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ مُتَفَرِّقَةٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»[2]، فالهداية لها طريقٌ واحد، والضّلال له أَلْف مذهب، وألف منهج؛ لذلك لو نظرتَ إلى أهل الضّلال لوجدتَ لهم في ضلالهم طُرُق، ولكلّ واحد منهم هواه الخاصّ في الضّلال، فعلينا أنْ نقرأ هذه الآية بوعيٍ وتأمُّلٍ وفَهْمٍ لمراد المتكلّم ﷻ، ومن هنا تتّضح توقيفيّة القرآن الكريم، حيث دقّة الأداء الإلهيّ الّتي وضعتْ كُلَّ حَرْف في موضعه.

(١) السُّنّة لابن أبي عاصم: ج١، بَاب ٦، الحديث رقم (١٥).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل: مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ، مُسْنَدُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﵁، الحديث رقم (٤١٤٢).

﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: أي: نُصَراء ومعاونين ومُعينين.

﴿مِن دُونِهِۦۖ﴾: أي: من بعده.

﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: الحشْر: القيام من القبر والجمع للحساب.

﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾: هنا تعجّب بعض الصّحابة، فسألوا رسول الله ﷺ: وكيف يسير الإنسان على وجهه؟ فقال ﷺ: «**إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ**»[1].

بل: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾، هذا استطراق لوسائل الإهانة، ففضلاً عن مَشْيهم على الوجوه فهم عُمْي لا يروْنَ شيئاً، ولا يهتدون، وهم صُمٌّ لا يسمعون نداءً، وهم بُكْمٌ لا يقدرون على الكلام، ولك أنْ تتصوَّر إنساناً جمعت عليه كلّ هذه الوسائل ليس في يومٍ عاديّ، بل في يوم البعث والنّشور، فإذا به يُفَاجأ بهَوْل البعث، وقد سُدَّت عليه جميع منافذ الإدراك، فهو في قلب هذا الهَوْل والضّجيج، ولكنّه حائر لا يدري شيئاً، ولا يدرك ما يحدث من حوله.

ولنا هنا لفتة على هذه الآية، فقد ورد في القرآن الكريم كثيراً: (صُمٌّ بُكْم) بهذا التّرتيب إلّا في هذه الآية جاءت: ﴿وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾، ومعلوم أنّ الصَّمَم يسبق البَكَم؛ لأنّ الإنسان يحكي ما سمعه، فإذا لم يسمع شيئاً لا يستطيع الكلام، واللّغة بنت السّماع، وهي ظاهرة اجتماعيّة ليستْ جنساً وليست دَمَاً، وسبق أنْ قُلْنا: إنّ الولد الإنجليزيّ إذا تربَّى في بيئة عربيّة يتكلّم بالعربيّة والعكس؛ لأنّ اللّغة ليست جنساً، بل ظاهرة اجتماعيّة تقوم على السّماع، فما تسمعه الأذن

---

(١) سنن التّرمذيّ: أَبْوَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابٌ: وَمِنْ سُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، الحديث رقم (٣١٤٢).

يحكيه اللّسان، حتّى العربيّ نفسه الّذي يعيش في بيئة عربيّة، إلّا أنّه لم يسمع هذه الألفاظ الغريبة المتقعِّرة لا يستطيع محاكاتها ولا يعرف معناها، لكن في هذه الآية جاء البكَم أوّلاً، لماذا؟ لأنّه ساعة يُفاجأ بهوْلِ البعث والحشر كان المفروض أن يسأل أوّلاً عَمَّا يحدث، ثمّ يسمع بعد ذلك إجابة على ما هو فيه، لكنّه فُوجئ بالبعث وأهواله، ولم يستطع حتّى الاستفسار عَمَّا حوله، وهكذا سبق البكَم الصَّمَم في هذا الموقف.

وهنا أيضاً اعتراض لبعض المستشرقين ومَنْ يُجارونهم، يقولون: القرآن يقول: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾، فينفي عنهم الرّؤية، وفي آيات أخرى يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ [مريم: من الآية ٧٥]، ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: من الآية ٥٣]، فأثبت لهم الرّؤية، فكيف نجمع بين هذه الآيات؟ والمتأمّل في حال هؤلاء المعذَّبين في موقف البعث يجد أنّ العمى كان ساعة البعث، حيث قاموا من قبورهم عُمْياً لِيتحقّقَ لهم الإذلال والحيرة والارتباك، ثمّ بعد ذلك يعودون إلى توازنهم ويعود إليهم بصرهم ليشاهدوا به ألوان العذاب الخاصّة بهم، وهكذا جمع الله ﷻ عليهم الذّلّ في الحاليْن: حال العمى وحال البصر، لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ٢٢﴾ [ق].

﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾: مأواهم: أي: مصيرهم ونهايتهم.

﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾: خَبَتْ: خبت النّار؛ أي: ضَعُفَت أو انطفأتْ، لكن ما دام المراد من النّار التّعذيب، فلماذا تخبو النّار أو تنطفئ؟ أليس في ذلك راحة لهم من العذاب؟ الجواب: إنّ المتأمّل في الآية يجد أنّ

خفوت النّار وانطفاءها هو في حَدِّ ذاته لَوْنٌ من العذاب؛ لأنّ استدامة الشّيء يُوطِّن صاحبه عليه، واستدامة العذاب واستمراره يجعلهم في إِلْف له، فإنْ خَبتِ النّار أو هدأتْ فترةً فإنّهم سيظنّون أنّ المسألة انتهت، ثمّ يُفاجئهم العذاب من جديد، فهذا أنكَى لهم وآلم في تعذيبهم، فمن أين عرف العرب هذه النّظريّات العلميّة الدّقيقة؟ ومَنْ أخبر بها الرّسول ﷺ؟ إنّه لَوْنٌ من ألوان الإعجاز القرآنيّ للعرب ولغيرهم.

(الآية ٩٨) – ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ٩٨﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: أي: ما حدث لهم من العذاب الّذي نستبشعه.

﴿جَزَآؤُهُم﴾: أي: حاق بهم العذاب عَدْلاً لا ظُلْماً، فإيّاك حين تسمع آيات العذاب هذه أن تأخذَك بهم رَأْفة أو رحمة؛ لأنّهم أخذوا جزاء عملهم وعنادهم وكفرهم، والّذي يُعطِّف قلوب النّاس على أهل الإجرام هو تأخير العقاب، فهناك فَرْقٌ بين العقوبة في وقت وقوع الجريمة، وهي ما تزال بشعةً في نفوس النّاس، وما تزال نارها تشتعل في القلوب، فإنْ عاقبتَ في هذا الجوّ كان للعقوبة معنىً، وأحدثتْ الأثر المرجوّ منها وتعاطفَ النّاس مع المظلوم بدلَ أنْ يتعاطفوا مع الظّالم، وبين تأخير عقوبة المجرم في ساحات المحاكم لعدّة سنين، عندها لا شَكَّ في أنّ الجريمة ستُنْسَى وتبرد نارها، وتتلاشى بشاعتها، ويطويها النّسيان، فإذا ما عوقب المجرم فلن يبدو للنّاس إلّا ما يحدث من عقوبته، فترى النّاس يرأفون به ويتعاطفون معه، فعلينا أن نحذر أن تأخذنا رأفة بهذا الأمر؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى هو الأعلم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ [النّور: من الآية ٢]، ثمّ يوضّح سبحانه وتعالى حيثيّة هذا العذاب:

﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: والآيات تُطلق على الآيات الكونيّة، أو على آيات المعجزات المؤيّدة لِصِدْق الرّسول، أو آيات القرآن الكريم الحاملة للأحكام، وقد وقع منهم الكفر بالآيات كلّها، فكفروا بالآيات الكونيّة، ولم يستدلّوا بها على الخالق ﷻ، ولم يتدبّروا الحكمة من خَلْق هذا الكون البديع، وكذلك كفروا بآيات القرآن الكريم ولم يُؤمنوا بما جاءتْ به، وهذا كلّه يدلُّ على نقص في العقيدة، وخَلَل في الإيمان الفطريّ الّذي خلقه الله ﷻ فيهم، وكذلك كذَّبوا بمعجزات الرّسول ﷺ، فدلَّ ذلك على خَلَل في التّصديق، ومن باطن هذا الكفر ومن نتائجه أنْ قالوا:

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾: وهذا القول منهم تكذيبٌ لآيات القرآن الكريم الّتي جاءتْ على لسان رسول الله ﷺ لتخبرهم أنّهم مبعوثون يوم القيامة ومُحاسَبُون، وهم بهذا القَوْل قد نقلوا الجدل إلى مجال جديد هو: البعث بعد الموت.

﴿عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا﴾: الرّفات: هو الفُتَات وَزْناً ومعنىً، وهو: الشّيء الجافّ الّذي تكسّر؛ لذلك جاءت بالتّرتيب، هكذا: عظاماً ورُفَاتاً؛ لأنّ جسم الإنسان يتحلّل وتمتصُّ الأرض عناصر تكوينه، ولا يبقى منه إلّا العظام، وبمرور الزّمن تتكسّر هذه العظام، وتتفتّتْ وتصير رفاتاً، وهم يستبعدون البعث بعد ما صاروا عظاماً ورفاتاً.

﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾: الهمزة هنا استفهام يُفيد الإنكار، فلماذا ينكر هؤلاء مسألة البعث بعد الموت؟ فمثلاً: علماء الجيولوجيا والحَفْريات يقولون: إنّ الأشياء المطمورة في باطن الأرض تتغيّر بمرور الزّمن، وتتحوّل إلى موادّ أخرى،

ففيها حركة وتفاعل، أو قُلْ: فيها حياة خاصّة بها تناسبها، فليست الحياة قاصرة على حركتنا في الحياة الدّنيا، بل للحياة معنى آخر أوسع بكثير من الحياة الّتي يفهمها هؤلاء، فالإنسان الحيّ مثلاً له في مظهريّة أموره حالتان: حالة النّوم وحالة اليقظة، فحياته في النّوم محكومة بقانون، وحياته في اليقظة محكومة بقانون، هذا وهو ما يزال حيّاً يُرزَق، فعندما نخبرك أنّ لك قانوناً في الموت وقانوناً في البعث فعليك أنْ تُصدِّق، ألم تَرَ النّائم وهو مُغْمَض العينين يرى الرّؤيا، ويحكيها بالتّفصيل وفيها حركة وأحداث وألوان، وهو يدرك هذا كلّه وكأنّه في اليقظة؟ حتّى مكفوف البصر الّذي فقد هذه الحاسّة، هو أيضاً يرى الرّؤيا كما يراها المبصر تماماً ويحكيها لك، يقول: رأيتُ كذا وكذا، كيف وهو في اليقظة لا يرى؟ نقول: لأنّ للنّوم قانوناً آخر، وهو أنّك تدرك بغير وسائل الإدراك المعروفة، ولك في النّوم حياة مستقلّة غير حياة اليقظة، وقد ترى الرّؤيا تحكيها لصاحبك في نصف ساعة، في حين أنّ العلماء توصّلوا إلى أنّ أقصى ما يمكن للذّهن متابعته في النّوم لا يتجاوز سبع ثوان، ممّا يدلُّ على أنّ الزّمن في النّوم مُلْغى، كما أنّ أدوات الإدراك ملغاة، فحياتك في النّوم غير حياتك في اليقظة، وكذلك في الموت لنا حياة، وفي البعث لنا حياة، ولكلٍّ منهما قانون يحكمها بما يتناسب معها، وقد يقول قائلٌ عن الرُّؤَى: إنّها مجرّد تخيُّلات لا حقيقةَ لها، لكن يَرُدّ هذا القول ما نراه في الواقع من صاحب الرُّؤْيا الّذي يحكي لك أنّه أكل طعاماً، أو شرب شراباً ما يزال طَعْمه في فمه، وهكذا، فهذا يُكذِّب هذه الأقوال، فالحقّ ﷻ يريد أنْ يُوضّح لنا أنّنا في النّوم لنا حياة خاصّة وقانون خاصّ، لنأخذ من هذا دليلاً على حياة أخرى بعد الموت.

والعلماء قالوا في هذه المسألة بظاهرة المتواليات، والمراد بها: إذا كانت اليقظة لها قانون، والنّوم له قانون ألطف وأخفّ من قانون اليقظة، فبالتّالي للموت قانون أخفّ من قانون النّوم، وللبعث قانون أخفّ من قانون الموت، وقد حَسَم القرآن الكريم هذه القضيّة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: من الآية ٨٨]؛ أي: كلُّ ما يُقَال له شيء في الوجود هالك إلّا الله سبحانه وتعالى فهو الباقي، والهلاك ضدّه الحياة، بدليل قوله جلّ جلاله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: من الآية ٤٢]، فلكلّ شيء مهما صَغُر في كَوْن الله عزّ وجلّ حياة خاصّة تناسبه قبل أنْ يعتريه الهلاك، فنستطيع القول: بأنّ للعظام وللرّفات حياةً، ولك أيّها المنكر وجود حتّى بعد أنْ صِرْتَ رُفاتاً، فشيء منك موجود يمكن أن يكون نواةً لخلْقِك من جديد، وبمنطق هؤلاء المنكرين: أيّهما أهوَنْ في الخَلْق، الخَلْق من شيءٍ موجود، أم الخَلْق ابتداءً؟ وقد ردّ عليهم الحقّ سبحانه وتعالى بقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝٤﴾ [ق]؛ أي: في علمه سبحانه وتعالى عدد ذرّات كلّ مِنّا، وكم في تكوينه من موادّ، لا ينقص من ذلك شيء، وهو سبحانه وتعالى قادرٌ على جمع هذه الذّرّات مرّة أخرى، وليس أمره جلّ جلاله متوقّفاً على العلم فقط، بل عنده كتاب دقيق يحفظ التّفاصيل كلّها، ولا يغيب عنه شيء، وقال عزّ وجلّ كذلك في الرّدّ عليهم: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾ [ق]؛ أي: في خَلْط وشَكٍّ وتردُّد، وقد ناقشنا كثيراً حول هذا الأمر.

﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾: إنّهم يستبعدون البعث من جديد؛ لذلك فالحقّ سبحانه وتعالى يجاري هؤلاء ويتسامح معهم، فيقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرّوم: من الآية ٢٧]، فإعادة شيء كان موجوداً أسهلُ وأهونُ من

إيجاده مِنْ لا شيء، والحديث هنا عن بَعْث الإنسان، هذا المخلوق الّذي أبدعه الخالق ﷻ، وجعله سيّد هذا الكون، وجعل عمره محدوداً، فما بالكم تنشغلون بإنكار بعث الإنسان عن باقي المخلوقات وهي أعظم الخَلْقِ في الإنسان، وأطول منه عُمراً؟! فإنكار البعث هو إنكار للإيمان بالله ﷻ.

(الآية ٩٩) - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: إذا جاءت همزة الاستفهام بعدها واو العطف وبعدها نفي، فاعلم أنّ الهمزة دخلتْ على شيءٍ محذوف، فتقدير الكلام هنا: أيقولون ذلك، ويستبعدون البعث، ولم يَرَوْا أنّ الله ﷻ الّذي خلق السّموات والأرض قادر على أنْ يخلق مثلهم؟!

﴿مِثْلَهُمْ﴾: أي: يخلقهم ويُعيدهم من جديد؛ لأنّ الخَلْق إنشاء جديد، فهُمْ خَلْق جديد مُعَادٌ، فالمثليّة هنا في أنّهم مُعَادون، أو يكون المراد ﴿مِثْلَهُمْ﴾؛ أي: ليسوا هم، بل خَلْق مختلف عنهم على اعتبار أنّهم كانوا في الدّنيا مختارين، ولهم إرادات، أمّا الخلق الجديد في الآخرة وإنْ كان مثلهم في التّكوين إلّا أنّه عاد مقهوراً على كلّ شيء لا إرادةَ له؛ لأنّه الآن في الآخرة الّتي سينادي فيها الخالق ﷻ: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: من الآية ١٦].

﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾: أي: أنّ القيامة الّتي كذَّبوا بها وأنكروها واقعة لا شكّ فيها، لكنّ هؤلاء مهما أتيتَ لهم بالأدلّة،

ومهما ضربتَ لهم الأمثلة، فإنّهم مُصمِّمون على الإنكار؛ لأنّ الإيمان سيسلبهم ما هم فيه من السّيادة والفساد والطّغيان، وسيُسوّي بينهم وبين بقيّة النّاس، وسيُقيّد حرّيّتهم فيما كانوا فيه من ضلال وفساد، لكنّ هؤلاء السّادة والعظماء الّذين تأبَّوْا على الإيمان، وأنكروا البعث خوفاً على مكانتهم وسيادتهم، ألم يتعرَّضوا لظلمٍ من أحد في الدّنيا؟ ألم يعتَدِ عليهم أحد؟ ألم يسرق منهم أحد ولم يتمكّنوا من الإمساك به ومعاقبته؟ لقد كان أَوْلَى بهم الإيمان بالآخرة، حيث تتحقّق عدالة العقاب، وينالون حقوقهم مِمَّنْ ظلمهم، أو اعتدى عليهم.

ثمّ ينتقل السّياق القرآنيّ إلى موضوعٍ جديد، حيث يقول سبحانه وتعالى:

(الآية ١٠٠) - ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾:

﴿قُل﴾: أمر من الله سبحانه وتعالى أنْ يقولَ النّبيّ صلى الله عليه وسلم لأمّته هذا الكلام.

﴿لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ﴾: الخزائن: هي ما يُحفظ بها الشّيء النّفيس لوقته، فالخزائن مثلاً لا نضع فيها التّراب، بل الأشياء الثّمينة ذات القيمة.

﴿خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ﴾: أي: خَيْرات الدّنيا من لَدُن آدم عليه السلام وحتّى قيام السّاعة، وإنْ من شيء يحدث إلى قيام السّاعة إلّا عند الله سبحانه وتعالى خزائنه، فهو موجود بالفعل، ظهر في عالم الواقع أم لم يظهر: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١﴾ [الحجر: من الآية ٢١]؛ أي: أنّه موجود في عِلْم الله عز وجل، إلى حين الحاجة إليه.

﴿إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾: أي: لو أنّ الله سبحانه وتعالى ملَّك خزائن خيراته ورحمته للنّاس، فأصبح في أيديهم خزائن لا تنفد، ولا يخشى

صاحبها الفقر، لو حدث ذلك لأمسك الإنسان وبَخِلَ وقَتَر خوف الفقر؛ لأنّه جُبِل على الإمساك والتّقتير حتّى على نفسه، وخوف الإنسان من الفقر ولو أنّه يملك خزائن رحمة الله ﷻ الّتي لا نفادَ لها ناتج عن عدم مقدرته على تعويض ما أَنفق؛ ولأنّه لا يستطيع أنْ يُحدِث شيئاً، والبخل يكون على الآخرين، فإنْ كان على النّفس فهو التّقتير، وهو أمرٌ مُخزٍ، فقد يقبل أن يُضَيِّق الإنسانُ على غيره، أمّا أنْ يُضيّق على نفسه فهذا منتهى ما يمكن تصوّره.

(الآية ١٠١) - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ﴾: وقد سبق أن اقترح كفّار مكّة على رسول الله ﷺ عدّة آيات ذُكِرَتْ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء]، فأراد الله سبحانه وتعالى أنْ يُلفِت نظره أنّ سابقيهم من اليهود أتتهم تسع آيات، ونزلت عليهم دون أنْ يطلبوها، ومع ذلك كفروا، فالمسألة كلّها تعنّت وعناد من أهل الكفر في كلّ زمان ومكان.

﴿بَيِّنَٰتٍۖ﴾: أي: واضحات مشهورات كالصّبح؛ لأنّها حدثت جميعها على مَرْأى ومشهد من النّاس، والمراد بالآيات التّسع هنا هي الآيات الخاصّة بفرعون؛ لأنّ كثيرين يخلطون بين معجزات موسى عليه السلام إلى فرعون، ومعجزاته إلى بني إسرائيل، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ﴾ هي الآيات الّتي

أُرسِل بها إلى فرعون وقومه، وهي: العصا الّتي انقلبتْ حيّة، واليد الّتي أخرجها من جيبه بيضاء مُنوّرة، وأَخْذ آل فرعون بالسّنين ونَقْصٍ من الأموال والأنفس والثّمرات، ثمّ لمّا كذَّبوا أنزل الله ﷻ عليهم الطّوفان، والجراد، والقُمّل، والضّفادع، والدّم، هذه تسع آيات خاصّة بما دار بين موسى عليه السلام وفرعون، أمّا المعجزات الأخرى لسيّدنا موسى عليه السلام، مثل العصا الّتي ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، ونَتْقُ الجبل فوقهم كأنّه ظُلَّة، وإنزال المنّ والسَّلْوى عليهم، فهذه آيات خاصّة ببني إسرائيل.

﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾: والأمر هنا لرسول الله ﷺ، لكن كيف يسأل بني إسرائيل الّذين جاءهم موسى عليه السلام وقد ماتوا، والموجود الآن ذرّيّتهم؟ نقول: لأنّ السّؤال لذرّيّتهم هو عَيْن سؤالهم؛ لأنّهم تناقلوا الأحداث جيلاً بعد جيل؛ لذلك قال سبحانه وتعالى مُخاطباً بني إسرائيل المعاصرين لرسول الله ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [إبراهيم]، والنّجاة لم تكُنْ لهؤلاء، بل لأجدادهم المعاصرين لفرعون، لكن خاطبهم الله ﷻ بقوله: ﴿أَنجَىٰكُم﴾؛ لأنّه سبحانه وتعالى لو أهلك أجدادهم لما وُجِدُوا هم، فكأنّ نجاة السّابقين نجاةٌ للّاحقين، وسؤال رسول الله ﷺ لبني إسرائيل سؤال حُجَّةٍ واستشهاد؛ لذلك قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ﴾ [الإسراء: من الآية ٥٩]؛ أي: الّتي اقترحوها ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ﴾ [الإسراء: من الآية ٥٩]، وما دام كذَّب بها الأوّلون فسوف يُكذِّب بها هؤلاء؛ لأنّ الكفر مِلَّة واحدة في كلّ زمان ومكان، فمسألة طلب الآيات واقتراح المعجزات ليستْ في

الحقيقة رغبة في الإيمان، بل مجرّد عناد ولَجَج ومحاولة للتّعنُّت والجدَل العقيم لإضاعة الوقت.

﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ﴾: أي: بعد أنْ رأى الآيات كلّها:

﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾: فاتّهمه بالسّحر بعد أنْ أراه كُلَّ هذه الدّلائل والمعجزات، وكلمة ﴿مَسۡحُورٗا﴾: اسم مفعول بمعنى سحره غيره، وقد يأتي اسم المفعول دالّاً على اسم الفاعل لحكمة، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥﴾ [الإسراء]، فقوله ﴿مَسۡحُورٗا﴾ تفيد أنّه سحَر غيره، أو سحره غيره؛ لأنّ المسحور هو الّذي أَلَمَّ به السّحر، إمّا فاعلاً له، أو مفعولاً عليه، وهذه الكلمة قالها كفّار مكّة لرسول الله ﷺ فقالوا: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٤٧﴾ [الإسراء: من الآية ٤٧]، والمسحور بمعنى المخبول الّذي أثّر فيه السّحر، فصار مخبولاً مجنوناً، وهذا كذب وافتراء على رسول الله ﷺ.

(الآية ١٠٢) - ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾:

﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾: أي: قال موسى عليه السلام لفرعون، والتّاء في ﴿عَلِمۡتَ﴾ مفتوحة؛ أي: تاء الخطاب، فهو يُكلِّمه مباشرة ويُخاطبه: لقد علمتَ يا فرعون عِلْمَ اليقين أنّني لستُ مسحوراً ولا مخبولاً، وأنّ ما معي من الآيات ممّا شاهدته وعاينته من الله ربّ السّموات والأرض، وأنت تعلم ذلك جيّداً إلّا أنّك تنكره، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ [النّمل: من الآية ١٤].

﴿بَصَآئِرَ﴾: أي: أنزل هذه الآيات بصائر تُبصّر النّاس، وتفتح قلوبهم، فيُقبلوا على ذلك الرّسول الّذي جاء بآية معجزة من جنس ما نبغَ فيه قومه، ثمّ لم يَفُتْ موسى عليه السلام وقد ثبتتْ قدمه، وأرسى قواعد دعوته أمام الجميع أنْ يُكلِّم فرعونَ من منطلق القوّة، وأن يُجابه واحدة بواحدة، فيقول:

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾: فقد سبق أنْ قال فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ فواحدة بواحدة، والبادي أظلم.

﴿مَثۡبُورٗا﴾: المثبور: الهالك، أو الممنوع من كُلِّ خير، وكأنّ الله سبحانه وتعالى أطْلَعَ موسى عليه السلام على مصير فرعون، وأنّه هالكٌ عن قريب.

نعود إلى قصّة موسى عليه السلام وفرعون لنستنبط منها بعض الآيات والعجائب، وأوّل ما يدعونا للعجب أنّ فرعون هو الّذي ربَّى موسى عليه السلام منذ أنْ كان وليداً، وفي وقتٍ كان يقتل فيه الذّكور من أبناء قومه، لنعلم أنّ الله سبحانه وتعالى يحول بين المرء وقلبه، وأنّ إرادته جل جلاله نافذة، فقد وضع محبّة موسى عليه السلام في قلب فرعون وزوجته فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ [القصص: من الآية ٩]، فأين ذهبت عداوتُه وبُغْضه للأطفال؟ ولماذا أحبَّ هذا الطّفلَ بالذّات؟ ألم يكُنْ من البديهيّ أنْ يطرأ على ذِهْن فرعون أنّ هذا الطّفل ألقاه أهله في اليَمّ لينجو من القتل؟ ولماذا لم تطرأ هذه الفكرة البديهيّة على ذِهْنه؟ اللّهمّ إلّا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال: من الآية ٢٤]، لقد طمس الله عز وجل على قلب فرعون حتّى لا يفعل شيئاً من هذا، وحال بينه وبين قلبه.

(الآية ١٠٣) - ﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ١٠٣﴾:

﴿فَأَرَادَ﴾: أي: فرعون.

﴿أَن يَسۡتَفِزَّهُم﴾: كلمة (استفزَّ) سبق الكلام عنها في قوله ﷻ: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾ [الإسراء: من الآية ٦٤]، فالاستفزاز هو الإزعاج بالصّوت العالي، وهذا الصّوت أو هذه الصَّيْحة يُخرجها الفارس أو اللّاعب كما نرى في لعبة الكاراتيه مثلاً لِيُزعِج الخصم ويُخيفه، وأيضاً فإنّ هذه الصّيحة تشغَل الخَصْم، وتأخذ جزءاً من تفكيره، فيقِلّ تركيزه، فيمكن التّغلُّب عليه، فالمعنى: أراد فرعون أنْ يستفزّهم ويخدعهم خديعة تُخرِجهم من الأرض، فتخلو له من بعدهم، وهذا دليلٌ على غباء فرعون وحماقته، فما جاء موسى عليه السلام إلّا ليأخذ بني إسرائيل، كما جاء في قوله جل جلاله: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٧﴾ [الشّعراء]، فكأنّ غباء فرعون أعان القدر الّذي جاء به موسى عليه السلام، ولكن كان لله ﷻ إرادة فوق إرادة فرعون، فقد أراد أن يُخرج بني إسرائيل وتخلو له الأرض، وأراد الحقّ ﷻ أن يستفزّه هو من الأرض كلّها ومن الدّنيا، فأغرقه الله عز وجل وأخذه أَخْذَ عزيز مقتدر، وعاجله قبل أنْ يُنفِّذ ما أراد، فأغرقه الله جل جلاله ومَنْ معه جميعاً.

(الآية ١٠٤) - ﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ١٠٤﴾:

﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾: أي: من بعد موسى عليه السلام.

﴿ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾: أغلب العلماء قالوا: أي: الأرض المقدّسة الّتي هي بيت المقدس، الّتي قال ﷻ عنها: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: من الآية ٢١]، فكان ردّهم على أمر موسى عليه السلام بدخول البيت المقدّس: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ [المائدة: من الآية ٢٢]، وقالوا: ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: من الآية ٢٤]، لكنّ كلمة: ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ هنا جاءت مجرّدة عن الوَصْف: ﴿ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ من غير أنْ يُقيّدها بوصفٍ، كما نقول: أرض الحرم، أرض المدينة، وإذا أردتَ أنْ تُسكِنَ إنساناً وتُوطّنه تقول له: اسكن؛ أي: استقرّ وتوَطّن في دمشق، أو حلب، أو طرطوس، مثلاً، لكن: اسكن الأرض، كيف وأنا موجود في الأرض بالفعل؟! لا بُدَّ أن تُخصِّص لي مكاناً اسكن فيه، نقول: جاء قوله ﷻ: ﴿ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ هكذا دون تقييد بمكان معيّن، لينسجم مع آيات القرآن الكريم الّتي حكمتْ عليهم بالتّفرُّق في أنحاء الأرض، فلا يكون لهم وطن يتجمّعون فيه، كما قال ﷻ: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗا﴾ [الأعراف: من الآية ١٦٨]، والواقع يُؤيّد هذا، حيث نراهم مُتفرِّقين في شتَّى البلاد، إلّا أنّهم ينحازون إلى أماكن مُحدَّدة لهم يتجمَّعون فيها، ولا يذوبون في الشّعوب الأخرى، فتجد كلّ قطعة منهم كأنّها أمّة مُستقلّة بذاتها لا تختلط بغيرها، فلا حقّ لهم في فلسطين، ولا حقّ لهم في المسجد الأقصى.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا﴾: والمراد بوَعْد الآخرة: هو الإفساد الثّاني لبني إسرائيل، حيث قال ﷻ عن إفسادهم الأوّل على عهد رسول الله ﷺ: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤ فَإِذَا

﴿جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥﴾ [الإسراء]، فقد جاس رسول الله ﷺ والمؤمنون خلال ديارهم في المدينة، وفي بني قريظة وبني قَيْنُقاع، وبني النّضير، وأجلاهم، ثمّ انقطعت الصّلة بين المسلمين واليهود فترة من الزّمن، ثمّ يقول سبحانه وتعالى عن الإفسادة الثّانية لبني إسرائيل: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ۝٧﴾ [الإسراء: من الآية ٧]، وهذه الإفسادة هي ما نحن بصدده الآن، حيث سيتجمّع اليهود في وطنٍ واحد ليتحقّق وَعْد الله عزّ وجلّ بالقضاء عليهم، وهل يستطيع المسلمون أن ينقضُّوا على اليهود وهم في شتيت الأرض؟ لا بُدَّ أنّ الله سبحانه وتعالى أوحى إليهم بفكرة التّجمُّع في وطن قوميّ لهم كما يقولون، حتّى إذا أراد أَخْذهم لم يُفلتوا، ويأخذهم أخْذ عزيز مقتدر، وهذا هو المراد من قوله سبحانه وتعالى: ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا﴾؛ أي: مجتمعين بعضكم إلى بعض من شتّى البلاد، وهو ما يحدث الآن على أرض فلسطين.

(الآية ١٠٥) - ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝١٠٥﴾:

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾: الحقّ هو الشّيء الثّابت الّذي لا يطرأ عليه التّغيير أبداً، أمّا الباطل فهو مُتغيّر مُتلوّن؛ لأنّه زَهُوق، والباطل له ألوان متعدّدة، والحقّ ليس له إلّا لون واحد، لذلك لـمّا ضرب الله سبحانه وتعالى لنا مثلاً للحقّ والباطل، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ۝١٧﴾ [الرّعد]، فإنْ رأيت في

عَصْر من العصور خَوَراً يصيب أهل الحقّ، وعُلُوّاً يحالف أهل الباطل فلا تغترّ به، فهو عُلُوّ الزَّبَد يعلو صَفْحة الماء، ولا ينتفع النّاس به، وسرعان ما يذهب جُفَاءً.

﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾: نلاحظ هنا أنّ ضمير الغائب في: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ لم يتقدَّم عليه شيء يُوضِّحه ويعود إليه، صحيح أنّ الضّمير أعْرفُ المعارف، لكن لا بُدَّ له من مرجع يرجع إليه، وهنا لم يُسبق الضّمير بشيء، كما سُبق بمرجع في قوله ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ [الإسراء: من الآية ٨٨]، فهنا يعود الضّمير في: ﴿بِمِثۡلِهِۦ﴾ إلى القرآن الكريم الّذي سبق ذكره، نقول: إذا لم يُسبَق ضمير الغائب بشيءٍ يرجع إليه، فلا بُدَّ أن يكون مرجعه مُتعيّناً لا يختلف فيه اثنانِ، كما في قوله ﷻ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص]، فهو ضمير للغائب لم يسبق بمرجع له؛ لأنّه لا يرجع إلّا إلى الله ﷻ، وهذا أمر لا يُختَلفُ عليه، كذلك في قوله ﷻ: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾؛ أي: القرآن الكريم؛ لأنّه شيءٌ ثابت مُتعيّن لا يُختَلف عليه، وجاء الفعل (أنزل) للتّعدية، فكأنّ الحقّ ﷻ كان كلامه وهو القرآن الكريم محفوظاً في اللّوح المحفوظ، إلى أنْ يأتيَ زمان مباشرة القرآن الكريم لمهمّته، فأنزله الله ﷻ جملة واحدة من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ [القدر]، وهذا هو المراد من قوله ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، ثمّ نُنزّله مُنجّماً حَسْب الأحداث في ثلاث وعشرين سنة مُدَّة الدّعوة كلّها.

﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾: أي: نحن، فالمراد الحقّ ﷻ هو الّذي حفظه في اللّوح المحفوظ، وهو الّذي أنزله، وأنزله على الأمين من الملائكة الّذي اصطفاه لهذه المهمّة،

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشّعراء]؛ أي: جبريل عليه السلام الّذي كرّمه الله سبحانه وتعالى وجعله روحاً، كما جعل القرآن الكريم روحاً في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشّورى: من الآية ٥٢]، وقال عنه أيضاً: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩﴾ [التّكوير]، والكريم لا يكتم شيئاً ممّا أُوحي إليه: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ٢١﴾ [التّكوير]، هذه صفات جبريل عليه السلام الّذي نزل بالوحي من الحقّ سبحانه وتعالى.

﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾: الأولى كانت: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أي: الوسائل الّتي نزل بها كلمة ثابتة، وكلّها حَقٌّ لا رَيْبَ فيه ولا شَكَّ، ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾؛ أي: مضمونه، وما جاء به منهج، معجزة حقٌّ؛ لأنّه تحدّى الفُصَحاء والبلغاء وأهل اللّغة والعالم فأعجزهم في مراحل التّحدّي كلّها، والقرآن الكريم يحتوي على منهج حقّ، ونزل بما هو حقّ من: إلهيّات وملائكة ونبوّات ومعجزات وأحكام وشرائع وقصص، كلّها حَقٌّ ثابت لا شَكَّ فيه، فنزل الحقّ الثّابت من الله سبحانه وتعالى بواسطة مَنِ اصطفاه من الملائكة بالحقّ وهو جبريل عليه السلام، على مَنِ اصطفاه من النّاس وهو محمّد صلى الله عليه وسلم، وصدق الحقّ سبحانه وتعالى حين قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر]، ونسوق هنا دليلاً عصريّاً على أنّ كتاب الله عز وجل جاء بالحقّ الثّابت الّذي لا يتغيّر على مَرِّ العصور، ففي ألمانيا استحدث أحد رجال القانون قانوناً للتّعسّف في استعمال الحقّ، وظنّوا أنّهم جاؤوا بجديد، واكتشفوا سلاحاً جديداً للقانون ليعاقب مَنْ له حَقّ ويتعسّف في استعمال حقّه، ثمّ سافر إلى هناك محامٍ عربيّ مسلم للدّراسة، فقرأ عن القانون الجديد الّذي ادَّعَوْا السّبق إليه، فأخبرهم أنّ هذا القانون الّذي تدَّعُونه لأنفسكم قانون إسلاميّ

ثابت وموجود في سُنّة رسول الله ﷺ، فعمدوا إلى كتب السّيرة، فوجدوا قصّة الرّجل الّذي شكا إلى رسول الله ﷺ أنّ رجلاً له نخلة يمتلكها داخل بيته، أو أنّها تميل في بيته، فأخذها ذريعة وجعل منها مسمار جحا، وأخذ يقتحم على صاحب البيت بيته بحجّة أنّه يباشر نخلته، فماذا كان حكم الرّسول ﷺ في هذه المسألة؟ هذا الرّجل له حَقٌّ في النّخلة، فهي مِلْكٌ له لكنّه تعسَّف في استعمال حقّه، وأتى بما لا يليق من المعاملة، فالمفروض ألَّا يذهب إلى نخلته إلَّا لحاجة، مثل: تقليمها، أو تلقيحها، أو جمع ثمارها، لقد أحضر رسول الله ﷺ الرّجل وطلب منه أن يهبَ له هذه النّخلة، أو أنْ يبيعها له، وإمّا تُقطَع..، أليس ذلك من الحقّ الذي سبق به الإسلام؟ وأليس دليلاً على استيعاب شرع الله ﷻ لكلّ كبيرة وصغيرة في حياة النّاس؟ أَضِفْ إلى ذلك ما قاله بعض العلماء من أهل الإشراقات في معنى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾؛ أي: وعلى الحقّ الّذي هو رسول الله ﷺ نزل القرآن الكريم كما تقول: ذهبت إلى حلب ونزلت بفلان؛ أي: نزلت عنده أو عليه.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾: والبشارة تكون بالخير، والنّذارة تكون بالشّرّ، ويُشترط في التّبشير والإنذار أن تُعطَى للمبشَّر أو للمُنْذَر فرصة يراجع فيها نفسه، ويُعدّل من سلوكه، وإلّا فلا فائدة، ولا جدوى منهما، فتُبشّر بالجنّة وتُنذَر بالنّار في مُتَّسَع من الوقت ليتمكّن هذا من العمل للجنّة، ويتمكّن هذا من الإقلاع عن سبيل النّار، فالمعنى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية].

(الآية ١٠٦) - ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾:

﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾: أي: فصّلناه، أو أنزلناه مُفرّقاً مُنجّماً حَسْب الأحداث.

﴿عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾: على تمهُّل وتُؤدَة وتأنٍّ.

وقد جاءت هذه الآية للردِّ على الكفّار الّذين اقترحوا أن ينزل القرآن الكريم جملة واحدة، كما قال ﷻ حكاية عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ [الفرقان]؛ أي: نَزَّلْناه مُرتّلاً مُفرّقاً آيةً بعد آية، والرّتل: هو المجموعة من الشّيء، كما نقول: رتل من السّيّارات، وهكذا نزل القرآن الكريم مجموعة من الآيات بعد الأخرى، وهذه الطّريقة في التّنزيل تُيسِّر للصّحابة حِفْظ القرآن الكريم وفَهْمه والعمل به.

فكيف كانت معالجة هذه الآفة الّتي تمكّنتْ من النّاس لو نزل القرآن الكريم جملة واحدة؟ إنّ الحقّ ﷻ بنزول القرآن الكريم مُفَرّقاً مُنجّماً حَسْب الأحداث، كأنّه يُجري مشاركة بين آيات التّنزيل والمنفعلين بها الّذين يُصِرّون على تنفيذ مطلوباتها، حتّى إنّهم ليبادرون رسول الله ﷺ بالسّؤال، مع أنّه ﷺ قد نهاهم أن يبدؤوه بالسّؤال، كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ [المائدة: من الآية ١٠١]، فالقرآن الكريم نزل مُفرّقاً مُنجّماً عبر ثلاث وعشرين سنة على قلب النّبيّ ﷺ حسب الأحداث ليكون هناك انفعال معها، وأحياناً تنزل الآيات إجابة على تساؤلات بعضهم، فالقرآن الكريم موجودٌ منذ الأزل، ولكنّ مشيئة الله ﷻ أن ينزل من السّماء الدّنيا مفرّقاً: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ [الفرقان: من الآية ٣٢].

(الآية ١٠٧) - ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ١٠٧﴾:

﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾: آمنوا: أمر، ولا تؤمنوا: نَهْي، والأمر والنّهي نوعان من الطّلب، والطّلب أن تطلب من الأدنى أن يفعل، والنّهي أنْ تطلبَ من الأدنى ألّا يفعل، فإنْ كان الطّلب من مُساوٍ لك فهو التماس، وإنْ كان من أعلى منك فهو دعاء، لذلك حينما نقول للطّالب أعرب: (رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ)، يقول: اغفر: فعل أمر، نقول له: أنت سطحيّ العبارة؛ لأنّ الأمر هنا من الأدنى للأعلى، من العبد لربّه جل جلاله، فلا يقال: أمر، إنّما يقال: دعاء، والطّاعة أن تمتثل الأمر والنّهي، فهل نقول في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾ أنّها للتّخيير، فإنْ آمنوا فقد أطاعوا، وكذلك إنْ لم يؤمنوا فقد أطاعوا أيضاً؟ الجواب: بالتّأكيد لا، فالأمر والنّهي هنا لا يُراد منه الطّلب، بل يراد به التّهديد أو التّسوية، كما تقول لابنك حين تلاحظ عليه الإهمال: ذاكر أو لا تذاكر، أنت حرّ، ولا شكّ في أنّك لا تقصد النّهي عن المذاكرة، بل تقصد تهديده وحثّه على المذاكرة، فقوله: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾ للتّسوية، كما قال جل جلاله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩]، فهذا ليس أمراً بحيث أنّ الّذي يفعل الأمر أو النّهي يكون طائعاً، بل المراد هنا التّهديد أو التّسوية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾: أي: أتباع الرّسالات السّابقة الّذين نزلت عليهم الكتب السّماويّة، وقرؤوا التّوارة والإنجيل.

﴿إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾: أي: القرآن الكريم.

﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدًا﴾: كلمة: ﴿يَخِرُّونَ﴾ توحي بأنّهم يسارعون إلى السّجود، وكأنّها عمليّة انفعاليّة غير إراديّة، فبمجرّد سماع القرآن الكريم يرتمون على الأرض ساجدين؛ لأنّهم تفاعلوا معه، واختمر الإيمان في نفوسهم.

﴿لِلۡأَذۡقَانِ﴾: جمع ذَقن، وهي أسفل الفَكِّ السّفليّ، ومعلومٌ أنّ السّجود يكون على الجبهة، أمّا هؤلاء فيسجدون بالوجه كلّه، وهذا دليل على الخضوع والاستسلام لله سبحانه وتعالى.

(الآية ١٠٨) - ﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨﴾:

أي: يقولون حال سجودهم: سبحان ربّنا الّذي وَفّى بوعده في التّوراة والإنجيل، وبعث الرّسول الخاتم محمّد صلى الله عليه وسلم ومعه القرآن الكريم، سبحانه فقد حقّق لنا وَعْده وأدركناه.

(الآية ١٠٩) - ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩﴾:

﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ﴾: لقد خرُّوا ساجدين لله سبحانه وتعالى قبل ذلك؛ لأنّهم أدركوا القرآن الكريم الّذي نزل على محمّد صلى الله عليه وسلم، وهو ما قرؤوه في كتبهم، فإنّهم عاصروا زمن هذا النّبيّ صلى الله عليه وسلم، أمّا المرّة الثّانية فيخرّون ساجدين لـمّا سمعوا القرآن الكريم تفصيلاً وانفعلوا به، فيكون له انفعال آخر، لذلك يزيد هنا الخشوع والخضوع، فيقول:

﴿وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩﴾: فكلّما قرؤوا آية ازدادوا بها خشوعاً وخضوعاً لله تبارك وتعالى.

(الآية ١١٠) - ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠﴾:

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ﴾: أي: اذكروا، أو نادوا، أو اطلبوا.

﴿ٱللَّهَ﴾: عَلَم على واجب الوجود ﷻ، ومعنى: عَلَم على واجب الوجود أنّها إذا أُطْلِقَتْ انصرفتْ للذّات الواجبة الوجود، وهو الحقّ ﷻ، كما نُسمِّي شخصاً، فإذا أُطْلِق الاسم ينصرف إلى المسمَّى، والأسماء عندنا أنواع كثيرة: إمّا اسم، أو كُنْية، أو لَقَب، فالاسم: يُطلَق على المولود بعد ولادته ويُعرَف المولود به، والكُنْية: تُطلَق على الإنسان، وتُسبَق بأب أو أمّ أو ابن أو بنت، كما نقول: أبو بكر، وأمّ المؤمنين، واللّقب: وصف يُشْعِر بالمدح أو الذّمّ، كما نقول: الصِّدّيق، الشّاعر، الفاروق، فإذا كان الاسم معه شريك غيره لا بُدَّ لتمييزه من وَصْفه وَصْفاً يُعْرف به، فشخصين اسمهما محمّد، نضيف لقب يميّز أحدهما عن الآخر، فإذا أُطلِق الاسم بصفته ينصرف إلى شخص معيّن.

والحقّ ﷻ سَمَّى نفسه بأسمائه الّتي قال عنها: الأسماء الحُسْنى، وكلمة (حُسْنى) أفعل تفضيل للمؤنّث، مثل: كبرى، والمذكّر منها أحسن، لكن لماذا وَصَف أسماءه ﷻ بالحسنى؟ الجواب: أنّ الأسماء عند البشر قد لا تنطبق على المسمَّى الّذي أُطلقت عليه، فقد نُسمِّي شخصاً: «سعيد» وهو شقيّ، وهذا ليس بحَسنٍ في الأسماء، الحسَن في الاسم أنْ يطابق الاسم المسمَّى، ويتوفّر في الشّخص الصّفة الّتي أُطلِقت عليه، لكنّه لا يأخذ الحُسْن الأعلى؛ لأنّ الحُسن الأعلى لأسماء الله ﷻ الّتي سَمّى بها نفسه، فله الكمال المطلق.

فلفظ الجلالة ﷲ عَلَم على واجب الوجود، وبعد ذلك جاءت صفات غلبت عليه، بحيث إذا أُطلِقَتْ لا تنصرف إلّا إليه، فإذا قُلْنا: العزيز على إطلاقه فإنّها لا تنصرف إلّا لله ﷻ، لكن يمكن أن نقول: فلان العزيز في قومه، فلان الرّحيم بمَنْ معه، فلان النّافع لمَنْ يتّصل به، إنّما لو قُلْت: النّافع، على إطلاقه فهو الله ﷻ، لذلك حَلّتْ الصّفات محلّ اسم الذّات ﷲ؛ لأنّها إذا أُطْلِقَتْ لا تنصرف إلّا إليه ﷻ، فأسماءُ الله الحُسْنى هي في الأصل صفات له سبحانه، ولو تأمّلنا هذه الأسماء لوجدناها على قسمين: أسماء ذات، وأسماء صفات فعليّة، اسم الذّات لا يتّصف الله ﷻ بمقابله، فالعزيز مثلاً اسم ذات، فلا نقول في مقابله: الذّليل، والحيّ اسم ذات فلا نقول: الميّت، أمّا اسم الصّفة الفعليّة فيكون له مقابل، فالمعزّ صفة فعل يعني يُعِزّ غيره، ومقابلها المذلّ، والضَّارّ مقابلها النّافع، والمحيي مقابلها المميت.. وهكذا، فإنْ وجدتَ للاسم مقابلاً فاعلم أنّه اسمٌ لصفة الفعل من الله ﷷ، وإذا لم يكن له مقابل فهو اسم ذات، لكن تقف مثلاً عند السَّتَّار وهي صفة فعل؛ لأنّه يستر غيره، لكن ليس لها مقابل فلا نقول: الفضَّاح، لماذا؟ لأنّه ﷻ يريد أنْ يتخلّق خَلْقه بهذه الصّفة، وأنْ يُربّب صفة السّتر عند النّاس للنّاس، فلو علم النّاس، عن أحد أمراً فاضحاً لزهدوا في كلّ ما يأتي من عنده ولو كان حسنة، وبذلك يُحرَم المجتمع من طاقات كثيرة من الخير، لكن حين تستر على صاحب العيب عيبه، فإنّك تعطي للمجتمع فرصة لينتفع بما لديه من صفات الخير وليتحسّن ويتوب؛ لذلك الله ﷻ يُعصَى ويحبّ أن يُستَر على عبده العاصي؛ لكي يستمرّ دولاب الحياة؛ لأنّه لا يوجد أحد له كمال إلّا النّبيّ ﷺ.

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾: ٱللَّهَ: العَلَم على واجب الوجود، وهو اسم ذات لا يدلُّ على صفةٍ معيّنة، لكنّه يحمل في طيّاته كلّ صفات الكمال فيه، فإنْ كانت للأسماء الأخرى مجالات، فالقادر في القدرة، والحكيم في الحكمة، والقابض في القبض، والعزيز في العزّة، فإنّ لكلّ اسم مجالاً، فإنّ ٱللَّهَ هو الاسم الجامع للصّفات كلّها، لذلك في الحديث النّبويّ الشّريف: «**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِاسْمِ الله فَهُوَ أَبْتَرُ**»(١)، فيكفي أن تقولَ في الإقدام على الفعل: باسم الله؛ لأنّك ذكرتَ الاسم الجامع لكلِّ صفات الكمال.

﴿أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾: واختار الرّحمن دون الجبار أو القهّار؛ لأنّ الرّحمة صفة التّحنين للخلق، فالحقّ سُبحانه وتعالى يُظهِر هذه الصّفة لعباده حتّى في أسماء الجبّار والقهّار؛ لأنّها من خَدَم الرّحمة ومن أسبابها؛ لأنّ العبد إذا عرف لله سُبحانه وتعالى صفة الجبروت، وصفة القهر، وصفة الانتقام انتهى عن أسباب الوقوع تحت طائلة هذه الصّفات، فكأنّه يرحم عباده حتّى بصفات القهر والانتقام، وكذلك اختار اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾؛ لأنّ مجال التّكليف كلّه الرّحمة، وما نزل المنهج من الله سُبحانه وتعالى إلّا لينظّم حياة النّاس ويُحقّق لهم السّعادة في حركة الحياة، فيتكامل الخَلْق فيما بينهم، ويتعاونون، ويتساندون ولا يتعاندون، ويكونون جميعاً على قلب رجلٍ واحد، هذه غاية المنهج الإلهيّ في دنيا النّاس أنْ يعيشَ المجتمع آمناً سالماً، فالرّحمانيّة الإلهيّة هي الغالبة في التّشريع كلّه، وهي السِّمَة العامّة، يقول سُبحانه وتعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾ [الرّحمن]، فالقرآن الكريم الّذي نزل لِيُنظّم حياة النّاس،

---

(١) الفتح السّماويّ للمناويّ: ج١، سورة الفاتحة، الحديث رقم (٤).

ويصلح حركة الحياة، ويضع السّلام بينك وبين الله ﷻ، وبينك وبين نفسك، وبينك وبين النّاس، هذا القرآن الكريم مظهر من مظاهر هذه الرّحمانيّة الإلهيّة.

ونقف على لطيفة أخرى لاستخدام اسم الله ﷻ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩﴾ [الفرقان: من الآية ٥٩]؛ أي: بعد أن خلق الخَلْق كلّه، بسمائه وأرضه وما فيهما استوى على العرش؛ لأنّ الاستواء على العرش يعني أنّ كلّ شيء تَمَّ له سُبحانه وتعالى خَلْقاً وإيجاداً، فيعني مباشرة الملك والقدرة ولكن برحمته وليس بجبروته، فاختار صفة الرّحمة ليوحي لنا أنّ العرش والقوّة والقهر والجبروت إنّما يكون من رحمة الله سُبحانه وتعالى، وليرحم بعضنا بعضاً، لذلك قال ﷺ: «لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تَرَاحَمُوا»[1]، «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[2].

﴿أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾: فأيُّ اسم تدعو به، فأسماؤه كلّها حُسْنى، فتدعو بما يناسب حاجتك، فإنْ أردت عِلْماً فقُلْ: يا عالم علِّمني، وإنْ كنتَ ضعيفاً فقُلْ: يا قويّ قَوِّني، وإنْ أردتَ العزّة فَقُلْ: يا عزيز أعِزَّني.. وهكذا، فتستطيع أن تدعو بأيّ اسمٍ من أسماء الله ﷻ.

﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾: الصّلاة يراد بها كلّ أعمال الصّلاة.

﴿وَلَا تَجۡهَرۡ﴾: فالجهر منهيٌّ عنه.

﴿وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾: أي: لا تُسِرَّها بحيث لا تُسْمع نفسك، وهذا منهيّ عنه أيضاً.

---

(١) السّنن الكبرى للنّسائيّ: كِتَابُ الْقَضَاءِ، حُكْمُ الحَاكِمِ فِي دَارِهِ، الحديث رقم (٥٩٢٨).

(٢) سنن التّرمذيّ: أَبْوَابُ البِرِّ وَالصِّلَةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي رَحْمَةِ الْمُسْلِمِينَ، الحديث رقم (١٩٢٤).

فكِلَا الطّرفين مذموم، وخَيْر الأمور الوسط، ونُوضِّح هنا: إذا كان الجهر بالصّلاة منهيّاً عنه فارتفاع الصّوت عالياً من باب أَوْلَى، فأنت حين ترفع صوتك بالقرآن الكريم، قد تُوقِع بعض النّاس في الإثم والحرج، ولعلّ غيرك في هذا الوقت يريد أن يستغفر، أو يُسبِّح أو يصلّي، أو يقوم بعملٍ آخر، والحقّ ﷻ يقول: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤﴾ [الأعراف]، فلا نُدخِل النّاس في هذا الأمر.

﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾: أي: بين الجهر والإسرار، واسلك سبيل الوسطيّة الّتي جاء بها الشّرع، وتأسّ برسول الله ﷺ حينما كان يتفقّد الصّحابة ليلاً فوجد أبا بكر رضي الله عنه يقرأ، ولا يكاد يسمع صوته، فلمّا سأله، قال: يا رسول الله، أناجي ربّي وهو عالم بي، فلمّا ذهب إلى عمر رضي الله عنه وجده يقرأ بصوت عالٍ، فلمّا سأله قال: يا رسول الله، أزجر به الشّيطان، عندها أمر ﷺ أبا بكر أنْ يرفع صوته قليلاً، وأمر عمر أن يخفض صوته قليلاً، وهذا الاعتدال وهذه الوسطيّة أُمِرْنا بها حتّى في الدّعاء، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [الأعراف: من الآية ٢٠٥]، فكلمة: ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾: البينيّة هذه تكاد تشيع في أحكام الدّين كلّه؛ لأنّ القرآن الكريم جاء لأمّة وسط بالأمور الوسط في شؤون الحياة كلّها.

(الآية ١١١) - ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾:

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾: فما المحمود عليه في الآية؟ الجواب: كلّ ما ورد بعدها.

﴿ٱلَّذِى لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يتّخذ ولداً، وهذا نعمة كبيرة على العباد يجب أنْ يحمدوه عليها.

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِى ٱلۡمُلۡكِ﴾: ولو أنّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شريكاً في الملْك، لذهب كلّ إلهٍ بما خَلَق، وهذا أيضاً من النِّعَم الّتي تستوجب الحمد.

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِىّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ﴾: الوليّ: هو الّذي يليك، وأنت لا تجعل أمرك إلّا لمن تثق به أنّه يجلب لك نَفْعاً، أو يدفع عنك ضُرّاً، والحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس له وليٌّ يلجأ إليه ليعزّه؛ لأنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العزيز المعِزّ القائم بذاته جَلَّ جَلَالُهُ، ولا حاجة له إلى أحد، فلا تجعل ولايتك إلّا لله عَزَّ وَجَلَّ، فهو العزيز سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾: لأنّ عظمة الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في نفس المؤمن أكبر من كلّ شيء، وأكبر من كلّ كبير؛ لذلك جُعلتْ (الله أكبر) شعار الأذان والصّلاة، فلا بُدَّ أن تُكبِّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتجعله أكبر مِمّا دونه من الأغيار، فإنْ ناداك وأنت في أيّ عمل فقُلْ: الله أكبر من عملي، وإنْ ناداك وأنت في حضرة عظيم، فقل: الله أكبر من أيِّ عظيم، كبِّره تكبيراً بأن تُقدِّم أوامره ونواهيه على كلّ أمر، وعلى كلّ نهي، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذاته أكبر من أيّ شيء، حتّى إن كانت الجنّة، ففي آخر سورة الكهف يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف: من الآية ١١٠]، فلم يَقُلْ: مَنْ كان يرجو جزاء ربّه، أو جنّة ربّه، أو نعيم ربّه، إنّ المؤمن الحقّ لا ينظر إلى النّعيم، بل يطمع في لقاء المُنعِم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❁ ❁ ❁

سُورَةُ (الكهف)

الآيات: (١-٧٤)

سورة الكهف

نبدأ بتدبّر سورة الكهف، ومن منّا لم يحفظ أو يقرأ أو يستفد من هذه السّورة الكريمة العظيمة المباركة.

سورة الكهف سورةٌ مكيّةٌ، وهي نورٌ لمن يقرؤها، وقد ورد كثيرٌ من الأحاديث النّبويّة الشّريفة الّتي تدلّ على ذلك، منها:

– ما ورد عن أبي سعيد الخدريّ ﷺ أنّ النّبيّ ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ كَمَا أُنْزِلَتْ، كَانَتْ لَهُ نُوراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ مَقَامِهِ إِلَى مَكَّةَ، وَمَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِهَا ثُمَّ خَرَجَ الدَّجَّالُ لَمْ يُسَلَّطْ عَلَيْهِ»(١).

– وقال ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ»(٢).

وسورة الكهف نورٌ بين الجمعتين، كما ورد عن أبي سعيدٍ الخدريّ ﷺ قول النّبيّ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ»(٣).

---

(١) المستدرك على الصّحيحين: كتاب فضائل القرآن، ذِكْرُ فضائلِ سورٍ وآيٍ مُتَفَرِّقَةٍ، الحديث رقم (٢٠٧٢).

(٢) الجامع الصّحيح للسّنن والمسانيد: كتاب القرآن الكريم، فضل بعض السّور والآيات، فضل سورة الكهف، الحديث رقم (٣٤٠٧).

(٣) الجامع الصّحيح للسّنن والمسانيد: كتاب القرآن الكريم، فضل بعض السّور والآيات، فضل سورة الكهف، الحديث رقم (٣٣٩٢).

وتستحبّ قراءة سورة الكهف كلّ يوم جمعة، فقد كان الصّحابيّ الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقرؤها لما لها من الثّواب والأجر الكبير، وقد تكون نوراً حقيقيّاً حسّيّاً، كما ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الكَهْفِ يَوْمَ الجُمُعَة سَطَعَ لَهُ نُورٌ مِنْ تَحْتِ قَدَمِهِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ يُضِيءُ لَهُ يومَ القِيَامَةِ، وغَفَرَ لهُ مَا بَينَ الجُمْعَتَين»(١).

وسورة الكهف تحمي وتقي قارئها وتحفظه من فتنة المسيح الدّجّال، وذلك بحفظ أوّل عشر آياتٍ منها، وقد وردت العديد من الأحاديث الّتي تؤكّد ذلك، منها:

- ما ورد عن أبي الدّرداء رضي الله عنه أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ»(٢).

- وما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في حديثٍ طويلٍ يتعلّق بالدّجّال، منه قوله صلى الله عليه وسلم: «فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ»(٣).

بعضهم قال: هي آخر عشر آياتٍ من سورة الكهف، كما ورد في الرّواية

---

(١) فتح الغفّار الجامع لأحكام سنّة نبيّنا المختار: أبواب الجمعة، باب ما جاء في الصّلاة بعد الجمعة، الحديث رقم (١٩٧١).

(٢) صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسيّ، الحديث رقم (٨٠٩).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط السّاعة، باب ذِكْر الدّجّال وصفته وما معه، الحديث رقم (٢٩٣٧).

الّتي أخرجها الإمام أحمد في مسنده وابن حبّان في صحيحه، قال النّبيّ ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ، عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ**»(١).

وقد يتساءل بعض النّاس: متى الوقت الأفضل لقراءة سورة الكهف يوم الجمعة؟ الجواب: لم تحدَّد بزمنٍ، إنّما تكون في أيّ وقتٍ من يوم الجمعة وليلتها، ومن غير تحديد أيّ مكان، فتصحّ في المسجد، أو في الطّريق إليه، أو في البيت.

وقد وردت عدّة أسباب نزول لسورة الكهف، منها:

أنّه لـمّا كثر عدد المسلمين، وأصبح الوافدون من القبائل العربيّة إلى مكّة يُكثرون السّؤال حول دعوة النّبيّ ﷺ أرسل المشركون رجلين، هما: النّضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى المدينة المنوّرة ليسألوا أحبار اليهود فيها عن رأيهم في أمر محمّد ﷺ ودعوته، وحين أتَوْهم وصفوه لهم وأخبروه بما يقول، وطلب الأحبار منهم أن يسألوه عن ثلاث مسائل، فإن أجاب عنها فهو نبيٌّ، وإن لم يُجب فهو يدّعي النّبوّة، وكانت المسائل الثّلاث عن أمر فتيةٍ في الأمم السّالفة؛ أي: فتية الكهف، وعن ماهيّة الرّوح، وعن أمر رجلٍ جاب الأرض مشرقها ومغربها؛ أي: ذي القرنين، فلمّا رجعوا ذهب عددٌ من مشركي قريشٍ إلى النّبيّ ﷺ وسألوه عمّا أخبرهم به اليهود، فأجابهم أنّه سيخبرهم بجواب ما سألوه غداً، وجاء في بعض الرّوايات أنّه لم يقل: إن شاء الله، فتأخّر عنه الوحي ثلاثة أيّام، وهذه روايةٌ مشكوكٌ فيها، ثمّ أنزل الله سبحانه وتعالى جبريل عليه السلام بسورة الكهف متضمّنةً جواب سؤالهم عن أمر الفتية وذي القرنين، أمّا أمر الرّوح فقد

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: مسند القبائل، بقيّة حديث أبي الدّرداء رضي الله عنه، الحديث رقم (٢٧٥١٦).

نزل في سورة الإسراء، وأنزل الله سبحانه وتعالى مع الجواب توجيهاً للنّبيّ ﷺ، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف].

ولن نتوقّف عند أسباب النّزول؛ لأنّه يوجد روايات كثيرة حولها، والمهمّ أن نقرأ سورة الكهف ونستفيد منها في كهف الحياة، وأن نأخذ منها مدداً، فالحياة فيها من الكهوف الكثير، وفيها من رحمة الله سبحانه وتعالى الأكبر والأكثر، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: من الآية ١٦]، والكهف هو المكان المظلم، ومع ذلك قال: ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾، سبحان الله، فلنبدأ بهذه السّورة العظيمة.

(الآية ١) - ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾﴾:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾: ختم المولى سبحانه وتعالى سورة الإسراء بالحمد، وبدأ سورة الكهف بالحمد، والحمد لله سبحانه وتعالى هو الشّعار الّذي أطلقه رسول الله ﷺ في خير الكلمات: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر)، (سبحان الله) بدأتْ بها سورة الإسراء، و﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ بدأت بها سورة الكهف.

سبحان الله تنزيهٌ لذاته سبحانه وتعالى أن يكون له شريكٌ، لا في الذّات، ولا في الأفعال، ولا في الصّفات، والحمد لله كذلك تكبرةٌ للذّات، وبعد ذلك جاء العطاء من الذّات، فسبحان الله تنزيهٌ، والحمد لله شكرٌ على العطاء.

والحمد يشترك معه في المعنى العامّ: ثناءٌ وشُكْرٌ ومدحٌ، إلّا أنّ هذه الألفاظ وإنْ تقاربت في المعنى العامّ فلكُلٍّ منها معناه الخاصّ، وكلّ هذه

الألفاظ فيها ثناءٌ، إلّا أنّ الشّكر يكون من مُنعَمٍ عليه بنعمةٍ خاصّةٍ به، كأن يُسدي لك إنسانٌ جميلاً لك وحدك، فتشكره عليه.

أمّا الحمد فيكون على نعمةٍ عامّةٍ لك ولغيرك، فرُقْعة الحمد أوسع من رُقْعة الشّكر، أمّا المدح فقد تمدح ما لا يعطيك شيئاً، كأن تمدح مثلاً الشّكل الجميل لمجرّد أنّه أعجبك.

وكلمة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ هذه هي الصّيغة الّتي علّمنا الله ﷻ أنْ نحمدَهُ بها، وإلّا فلو ترك لنا حرّية التّعبير عن الحمد، ولم يُحدِّد لنا صيغة نحمده ونشكره بها، لاختلف الخَلْق في الحمد حَسْب قدراتهم وتمكّنهم من الأداء، وحَسْب قدرتهم على استيعاب النِّعَم، ولوجدنا البليغ صاحب القدرة الأدائيّة أفصح من الأُمّيّ، فتحمّل الله ﷻ عنّا جميعاً هذه الصّيغة، وجعلها متساويةً للجميع، فالحمد لله على ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، فالكلّ يقول: الحمد لله، البليغ يقولها والأمّيّ يقولها، لذلك يقول ﷺ وهو يحمد الله ﷻ ويُثني عليه: «**لَا أُحصي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»(١)، فاستواء النّاس جميعاً في الحمد نعمةٌ كبرى في ذاتها تستحقّ الحمد، فنقول: الحمد لله على ما عَلِمنا من الحمد لله، والحمْد الأوّل أيضاً نعمة، وبذلك نقول: الحمد لله على ما عَلِمنا من الحمد لله بالحمد لله.

وهكذا، لو تتبّعنا الحمدَ لوجدناه سلسلةً لا تنتهي، حَمْدٌ على حَمْدٍ على حَمْدٍ على حَمْدٍ، فيظلّ الله ﷻ محموداً دائماً، ويظلّ العبد حامداً إلى ما لا نهاية.

و﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ استهلّ بها الله ﷻ خمس سورٍ من القرآن الكريم:

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الصّلاة، باب ما يُقال في الرّكوع والسّجود، الحديث رقم (٤٨٦).

١ - ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة].

٢ - ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام].

٣ - ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١﴾ [الكهف].

٤ - ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١﴾ [سبأ].

٥ - ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝١﴾ [فاطر].

ولكن لكُلِّ حَمْدٍ في كلّ سورةٍ حيثيّةٌ خاصّةٌ، فالحمد في سورة الفاتحة؛ لأنّ الله ربُّ العالمين، وربٌّ يعني الخالق والمتولّي للتّربية، خلق من عدمٍ، وأمدَّ من عُدمٍ، وتولّى تربية عباده، فهو رَبٌّ لكلّ العالمين؛ لذلك يجب أنْ نحمدَ الله ﷻ على أنّه هو الرّبُّ الّذي خلق العالمين، وأمدَّهم بفضله.

وفي السّورة الثّانية نحمده ﷻ؛ لأنّه خلق السّموات والأرض، وجعل الظّلمات والنّور، وهذه آياتٌ من آيات الله ﷻ ونِعَمٌ من نِعَمه، فالسّموات والأرض فيها قيام البشر بما يمدُّ حياتهم بالقوت، ويستبقي نوعهم بالتّكاثر، والظّلمات والنّور مِن نعم الله ﷻ، وهما متكاملان لا متضادّان.

وفي السّورة الثّالثة من السّور الّتي افتتحها الحقّ ﷻ بـ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ وهي سورة الكهف الّتي نحن بصددها، أراد الحقّ ﷻ أنْ يُوضّح أنّه لم يُربِّ الخلْق تربيةً مادّيّةً فقط، بل هناك تربية أعلى، وهي تربيةٌ روحيّةٌ قيميّةٌ، فذكر هنا الحيثيّة الحقيقيّة لخَلْق الإنسان، فهو لم يُخلق لمادّته فحسْب، ولكن لرسالةٍ أسمى،

خُلِق ليعرف القيم والرّب والدّين، وأنْ يعملَ لحياةٍ أخرى غير هذه الحياة المادّيّة، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾، فحيثيّة الحمد في سورة الكهف هنا إنزالُ الكتاب الّذي يجمع القيم، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ قَيِّمٗا﴾ وقلنا: إنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى محمودٌ برحمانيّته قبل أنْ يخلق الخَلْق، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾ [الرّحمن]، فتعليم القرآن الكريم جاء قبل خَلْق الإنسان، فقد وضع الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعباده المنهج المنظِّم لحياتهم قبل أن يخلقَهم، لعِلْمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بطبيعة خَلْقه، وبما يصلحهم، كالمخترع للآلة الّتي يعلم مهمّتها ويُحدّد قانون صيانتها، فالكتاب الّذي نزل على محمّدٍ ﷺ هو المهمّة الأساسيّة، فيجب أنْ نوطّن عليها أنفسنا، ونعلَم أنّه المنظِّم لحياتنا، وبه قانون صيانتنا.

﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِ﴾: كما قلنا في سورة الإسراء: إنّ العبوديّة كانت حيثيّة الرِّفْعة في الإسراء، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: من الآية ١]، حقّق ﷺ معنى العبوديّة الكامل فرفعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأسرى به، فالعبوديّة رفعته إلى حضرته جَلَّ جَلَالُهُ؛ لأنّه كان عبداً بحقٍّ، وهذا يعني إنزال الكتاب عليه، فكان عبداً بحقٍّ قبل أن يُسرَى به، وحمل منهج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أوّلاً فالتفتَ لربّه لَفْتةً أراد أنْ يلفتَ بها سواه، فأخلص هو أوّلاً في العبوديّة، وتحمَّل ما تحمّل، فكان من جزائه أن يرتفع إلى مقام الحضرة فَعُرِج به، وهناك أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الصّلاة مفتاح المعراج إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لينزلَ بها إلى الخَلْق، ويرفع بها النّاس إلى مقام: «**يا بلال، أقم الصّلاة، أرحنا بها**»(١).

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، الحديث رقم (٤٩٨٥).

فالنّبيّ ﷺ تناول ليناوِل، وتناول؛ لأنّه أخلصَ العبوديّة، فصعد إلى حضرة ربّه، وأخذ فريضة الصّلاة وبلّغها لقومه، وكأنّه يقول لهم: مَنْ أراد أن يلتقي بالله ﷻ، فليدخل في الصّلاة.

وعندما نتحدّث عن العبوديّة لله ﷻ، فالعبوديّة له ﷻ عزٌّ ورفعةٌ؛ لأنّك تستغني عن البشر، وعندما تستغني عن البشر فأنت حرٌّ، بل وسيّد الأحرار، قال الشّاعر:

حسبُ نفسي عزّاً بأنّي عبدُ   يحتفي بي بلا مواعيد ربُّ
هو في قُدْسِه الأعزّ ولكن   أنا ألقاه متى وأين أحبّ

فمتى ما شئت تتوضّأ وتصلّي ركعتين، فتلتقي مع الله ﷻ وتتّصل به، فلا بوّاب ولا حاجز ولا حرس ولا شيء.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: هو القرآن الكريم، وترتيب سورة الكهف بين سور المصحف السّورة الثّامنة عشرة؛ أي: أنّ القرآن الكريم لم يكتمل بعد، فلماذا قال ﷻ: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو لم يكتمل بعد؟ نقول: الكتاب يُطلَق ويُرَادُ به بعضه، كما في قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾ [القيامة]، فالآية الواحدة تُسمَّى قرآناً، والسّورة تُسمَّى قرآناً، والكلّ نُسمِّيه قرآناً، أو: يكون المراد نزول القرآن الكريم جملةً واحدةً من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا، ثمّ نزوله بعد ذلك مُنَجّماً حَسْب الوقائع، فالمراد هنا الإنزال لا التّنزيل.

﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾: أي: جعله مستقيماً، لا عِوجَ فيه، كما قال ﷻ في آيةٍ أخرى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزّمر: من الآية ٢٨]، والاعوجاج: أن يأخذ الشّيءُ امتداداً مُنْحنياً ملتوياً، أمّا الاستقامة فهي الامتداد في نفس الاتّجاه، لا

يميل يميناً أو شمالاً، ومعلومٌ أنّ الخطّ المستقيم يمثّل أقرب مسافة بين نقطتين، ولا تستقيم حياة النّاس في الدّنيا إلّا إذا ساروا جميعاً على منهجٍ مستقيمٍ يعصمهم من التّصادم في حركة الحياة.

ثمّ يقول الله سُبحانه وتعالى واصفاً القرآن الكريم:

(الآية ٢) - ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾:

﴿قَيِّمًا﴾: أي: القرآن الكريم، قيِّم: يعني مستقيم، كأنّها تأكيدٌ لقوله سُبحانه وتعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾؛ لأنّ الاستقامة والعِوَج قد لا يُدرَك بالعين المجرّدة، فتحتاج إلى ميزانٍ دقيقٍ يكشف لك مدى العِوَج أو الاستقامة.

ومن معاني القَيِّم: المهيمن على ما دونه، كما تقول: فلانٌ قَيِّمٌ على فلانٍ؛ أي: مُهيمنٌ عليه وقائمٌ على أمره، فالقرآن الكريم لاعِوَج فيه، وهو أيضاً مُهيمنٌ على الكتب السّابقة، وله الوصاية عليها، كما قال سُبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: من الآية ٤٨]، ومنه قوله سُبحانه وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الرّوم: من الآية ٤٣]؛ أي: المهيمن على الأديان السّابقة.

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾: هذه هي العِلّة في الإنزال.

والإنذار: التّخويف بشَرٍّ قادمٍ، والمنْذَر هنا هم الكفّار؛ لأنّه لا يُنذَر بالعذاب الشّديد إلّا الكفّار، ثمّ ضَخّم العذاب بأنّه شديدٌ، ليس ذلك فقط، بل قال سُبحانه وتعالى: ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾، والعذاب يتناسب مع المعذِّب وقوّته، فإنْ كان العذاب من الله عزّ وجلّ فلا طاقة لأحدٍ به، ولا مهربَ لأحدٍ منه.

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: والبشارة تكون بالخير المنتظر في المستقبل، ونلاحظ أنّه في البشارة ذكر المبشَّر: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ولم يسكت عنهم كما سكت عن الكفّار في الإنذار، فهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى بنا حتّى في الأسلوب.

﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنًا﴾: والبشارة هنا بالأجر الحسن؛ لأنّه أجرٌ من الكريم المتفضّل سبحانه وتعالى؛ لذلك قال الحقّ سبحانه وتعالى بعدها:

(الآية ٣) - ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ٣﴾:

﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾: أي: باقين فيه بقاءً أبديّاً، وكان لا بدّ أنْ يوصَف أجر الله سبحانه وتعالى الحسن بأنّه دائمٌ، وأنّهم ماكثون فيه أبداً؛ لأنّ هناك فرقاً بين أجر النّاس للنّاس في الدّنيا، وأجر المنعِم سبحانه وتعالى في الآخرة، لقد أَلِفَ النّاس الأجر على أنّه جُعِلَ على عملٍ، فإنْ لم تعمل فلا أجرَ لك، بينما المولى سبحانه وتعالى أخبر بأنّ كلّ مَن عمل صالحاً فإنّ له أجراً حسناً، لا يفوته ولا يتركه.

(الآية ٤) - ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ٤﴾:

﴿وَيُنذِرَ﴾: والإنذار هنا غير الإنذار الأوّل، فلقد كرّر الإنذار ليكون خاصّاً بقمّة المعاصي، إنذارٌ للّذين يشركون بالله سبحانه وتعالى، فالله جلّ جلاله واحدٌ أحدٌ فردٌ صمدٌ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فالإنذار الأوّل لمطلق الكفر والمعصية، والثّاني لإعادة الخاصّ مع العامّ، لهؤلاء الّذين نسبوا لله سبحانه وتعالى ما لا يُنسَب له عزّ وجلّ، سبحانه عمّا يقولون علوّاً كبيراً.

(الآية ٥) - ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةً تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ٥﴾:

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ﴾: فهذه القضيّة الّتي ادَّعَوْها، وهذه المقولة الّتي كذبوها

على الله سبحانه وتعالى من أين أَتَوْا بها؟ الحقيقة أنّهم ادّعَوْها ولا علمَ لهم بها، والعلم إمّا ذاتيّ، وإمّا ورثوه عن آبائهم وأجدادهم، وهم لا يملكون شيئاً من هذا، ويقولون بأمرٍ لا واقع له؛ لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ﴾.

﴿كَبُرَتۡ﴾: أي: عَظُمَتْ وتناهت في الإثم؛ لأنّهم تناولوا مسألةً فظيعةً، كَبُرَتْ أن تخرج هذه الكلمة من أفواههم.

﴿كَلِمَةٗ﴾: الكلمة قولٌ مُفردٌ ليس له نسبة، كأن تقول: (أحمد) أو (ذَهَبَ) أو (في)، فالاسم والفعل والحرف كلٌّ منها كلمةٌ مستقلّةٌ، والكلمة تُطلَق ويُراد بها الكلام، فالآية عَبَّرتْ عن قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ٤﴾ بأنّها كلمة، كما تقول: ألقى فلانٌ كلمةً، ويكون بالواقع خطاباً طويلاً، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾ [المؤمنون]، فسمَّى قولهم هذا: ﴿كَلِمَةٌ﴾ وهي عدّة كلمات.

﴿تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ﴾: أي: أنّ هذه الكلمة كَبُرت؛ لأنّها خرجت منهم وقالوها فعلاً، ولو أنّهم كتموها في نفوسهم ولم يجهروا بها، واستعظموا أن تخرجَ منهم لكانوا في عداد المؤمنين.

﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾: فهذا الكلام كذبٌ على الله سبحانه وتعالى؛ أي: ما يقولونه هو كذبٌ لا يُطابق الكلام واقع الأمر، فالعاقل قبل أن يتكلّم يُدير الكلام في ذِهْنه ويَعْرضه على تفكيره، فتأتي النّسبة في ذِهْنه وينطقها لسانه، وهذه النّسبة قبل أن يفكّر فيها وينطق بها لها واقعٌ، فهذه النّسبة الكلاميّة إن لم يكن لها واقعٌ فهي كاذبةٌ.

(الآية ٦) - ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾:

﴿بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ﴾: أي: تجهد نفسك في دعوة قومك إجهاداً يُهلكها، وفي الآية إشفاقٌ على رسول الله ﷺ؛ لأنّه حمّل نفسه في سبيل هداية قومه ما لم يحمّله الله سبحانه وتعالى، وما لا يُلزمه عزّ وجلّ به، فقد كان ﷺ يدعو قومه فيُعرضوا ويتولّوْا عنه فيبقى آثارٌ من الحزن والأسف عند النّبيّ ﷺ.

والأسف: هو الحزن العميق، كما يقول يعقوب عليه السلام: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: من الآية ٨٤].

وقد حدّد الله سبحانه وتعالى مهمّة الرّسول ﷺ وهي البلاغ، وجعله بشيراً ونذيراً، ولم يُكلّفه من أمر الدّعوة ما لا يطيق، ففي الآية مظهرٌ من مظاهر رحمة الله جلّ جلاله برسوله ﷺ.

(الآية ٧) - ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾:

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا﴾: وكأنّ هذه الآية تعقيبٌ على سابقتها، وإشارةٌ لرسول الله ﷺ بأنّ الدّنيا قصيرةٌ، والمسألة قريبةٌ فلا داعيَ أنْ تُهلِك نفسك حُزْناً على عناد قومك، فالدّنيا لكلّ إنسانٍ هي مدّة بقائه بها، وعمرها قصيرٌ، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا﴾؛ أي: كلّ ما على الأرض هو زينة، والزّينة زائلةٌ، وهي ليست من جنس الشّيء، وإنّما تكون فوق الشّيء، والزّينة هي الزّخرف الّذي يبرق أمام الأعين فيُغريها، ثمّ يندثر ويتلاشى،

وقد أوضح لنا القرآن الكريم هذه المسألة في قوله ﷻ: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ [الكهف: من الآية ٤٥]، فإيّاك يا محمّد أنْ يأخذك هذا الزّخرف؛ لأنّه سرعان ما يذبل ويصير حُطاماً.

﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ﴾: البلاء يعني: الامتحان، وليس المصيبة كما يظنّ بعضهم، وإنّما امتحان الحياة، والمهمّ في الابتلاء هو النّتيجة.

معنى: ﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ﴾؛ أي: بلاء شهادة منهم على أنفسهم.

﴿أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾: فالقضيّة قضيّة أعمالٍ، وليست قضيّة أقوالٍ.

(الآية ٨) - ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ٨﴾:

﴿صَعِيدٗا﴾: الصّعيد: هو طبقة التّراب الّتي تظهر على وجه الأرض، ولا نباتَ فيها.

﴿جُرُزًا﴾: هي الأرض الخالية من النّبات، وقد يكون بها نباتٌ، إلّا أنّ الجراد أكله، أو جاءته جائحةٌ أهلكتْه، يقول ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ٢٧﴾ [السّجدة].

وما دام الأمر كذلك والدّنيا زُخْرفٌ سرعان ما يزول، فالأجل قريبٌ، فدَعْهم لي يا محمّد أختبرهم، وأُجَازيهم بأعمالهم.

(الآية ٩) - ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ٩﴾:

وردتْ قصّة أهل الكهف نتيجةً لسؤال كفّار مكّة الّذين أرادوا أن يُحرجوا رسول الله ﷺ، ويُروى أنّهم أرسلوا رجلين منهم، هما: النّضر بن الحارث وعقبة

ابن أبي معيط إلى أهل الكتاب في المدينة ليسألوهم عن صدق رسول الله ﷺ، فعلّمهم أحبار اليهود أن يسألوه: ما قصّة القوم الّذين ذهبوا في الدّهر مذاهب عجيبة؟ وما قصّة الرّجل الطّوّاف الّذي طاف الأرض شرقاً وغرباً؟ وما الرّوح؟ فنزلت هذه الآيات: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ⑨﴾، وهذه الآية هي بداية الإجابة.

﴿أَمْ﴾: حرفٌ من حروف العطف، ويُفيد الإضراب عَمَّا قبله، وتوجيه الاهتمام إلى ما بعده، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرّعد: من الآية ١٦].

فالمراد إنْ سألك كفّار مكّة عن مسألة أصحاب الكهف على أنّها معضلة يريدون إحراجك بها، فدعْكَ من كلامهم، ودَعْك من سوءِ نيّتهم، ولا تحسب أنّ أهل الكهف هي العجيبة الوحيدة لدينا، فالعجائب عندنا كثيرةٌ، وهذه واحدةٌ منها.

﴿ٱلْكَهْفِ﴾: الفجوة في الجبل.

﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾: الشّيء المرقوم؛ أي: المكتوب عليه كحجرٍ أو نحوه، ولعلّه حجرٌ كان على باب الكهف رُقِم عليه أسماء هؤلاء الفتية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ⑨﴾ [المطفّفين]؛ أي: مكتوبٌ.

﴿كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾: أي: ليست هذه هي العجيبة الوحيدة، فكلّ آياتنا عجيبةٌ تستحقّ التّأمّل.

ثمّ تأخذ الآيات في تفصيل هذه العجيبة، فيقول سبحانه وتعالى:

(الآية ١٠) - ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾:

﴿أَوَى﴾: من المأوى، وهو المكان الّذي يأوي إليه الإنسان ويلجأ إليه.

﴿ٱلۡفِتۡيَةُ﴾: جمع فتى، وهو الشّابّ في مُقْتبل العمر، والشّباب هم مَعْقِد الآمال في حَمْل الأعباء والنّهوض بكلّ أمرٍ صعب، وهؤلاء شبابٌ مؤمنٌ وقفوا يحملون في ذلك الزّمن الغابر راية الإيمان أمام جبروت الكفر وطغيان الشّرك، فهم فتوّة في إيمان وعقيدة، لجؤوا إلى الكهف مُخلِّفين وراءهم أموالهم وأهلهم وكلّ ما يملكون، وفرُّوا بدينهم إلى هذا المكان الضّيّق الخالي من أيّ مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة؛ لأنّهم لا يشغلون أنفسهم بهذه المقوّمات، بل يعلمون أنّ لهم ربّاً سيتولّى أمرهم؛ لذلك ضَرَعُوا إليه قائلين:

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾: فهم خرجوا من ضيق الدّنيا إلى سعة الكهف، مع أنّ الكهف هو الضّيّق والدّنيا هي الواسعة، بدليل قولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾؛ ففي كهف الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سعةٌ ورحمةٌ.

﴿مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ﴾: أي: رحمةً من عندك، ترحم بها ما نحن فيه من انقطاعٍ عن مُقوِّمات الحياة، فالرّحمة في فجوة الجبل لن تكون من البشر، الرّحمة هنا لا تكون إلّا من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾: أي: يَسِّر لنا طريقاً سديداً للخير والحقّ.

هؤلاء الفتية المؤمنون حينما ألجأهم الكفر إلى ضيق الكهف تضرَّعوا

واتّجهوا إلى ربّهم ﷻ، فهو وحده القادر على أن يُوسّع عليهم هذا الضّيق، كما قال ﷻ: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ [الأنعام: من الآية ٤٣].

(الآية ١١) - ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ١١﴾:

﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾: يُقَال: ضُرِبت الخيمة على الأرض؛ أي: غُطِيت الأرض بها بعد أنْ كانت فضاءً، والضّرب: أن تلمس شيئاً بشيءٍ بشدّةٍ شريطة أن يكون المضروب به أقوى من المضروب، وإلّا لكان الضّارب ضارباً لنفسه، لذلك عندما تكلّم الشّاعر عن المعترضين على القدر قال:

أَيَا هَازِئاً مِنْ صُنُوفِ القَدَرِ بنفْسِكَ تُعنِّف لَا بالقَدَر
وَيَا ضَارِباً صَخْرَةً بِالعَصَا ضَربْتَ العَصَا أَمْ ضربْتَ الحَجَر؟

فمعنى: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾؛ أي: غطّيناها بغطاءٍ محكمٍ يحجبهم عن العالم الخارجيّ، والضّرب على آذانهم هو الرّحمة الّتي دعوا الله ﷻ بها وطلبوها؛ لأنّ الإنسان الّذي يحمل الفأس مثلاً ويعمل بها إنْ تعب وأجهده العمل يقف بعض الوقت ليستريح، فإنْ تعب من الوقوف قعد، فإنْ تعب من القعود استلقى واضطجع، فإنْ لم يسترح فلا يبقى إلّا أن ينام، ففي النّوم تهدأ الأعصاب، ويستريح الإنسان، حتّى مع الآلام إذا نام المريض لا يشعر بشيءٍ من الألم؛ لذلك اختار لهم ربّهم هذا الوضع ليريحهم به طوال فترة مُكْثهم في الكهف، فالحقّ ﷻ إذن هو الضّارب، والمضروب هو الآذان، والضّرب على الآذان هنا للرّحمة لا للعذاب؛ لأنّ الله ﷻ أراد لهم أقصى درجات الرّاحة والنّوم الهادئ الّذي لا يُعكّر صَفْوه شيءٌ، والنّوم هو الرّاحة التّامّة الّتي تطغى على الآلام العضويّة في الذّات الإنسانيّة.

وقد اختار الحقّ سبحانه وتعالى الضّرب على آذانهم؛ لأنّ حاسّة السّمع هي أوّل الحواسّ عملاً في الإنسان، وهي أوّل آلة إدراكٍ تُؤدّي مهمّتها في الطّفل، كما قال الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٧٨﴾ [النّحل]، هذه الحواسّ هي منافذ العلم والإدراك للإنسان، فلو وضعتَ أصبعك أمام عين الطّفل المولود تراه لا يرمش؛ لأنّه لا يرى إلّا بعد ثلاثة إلى عشرة أيّام، أمّا لو صرختَ في أُذنه فإنّه ينتبه، فحاسّة السّمع تؤدّي مهمّتها منذ ولادته، وكذلك فالأُذن تمتاز أيضاً بأنّها الإدراك الوحيد الّذي لا يتعطّل ولا يتوقّف أثناء النّوم؛ لأنّ بها يتمّ استدعاء الإنسان من النّوم. وهؤلاء الفتية دخلوا وأَوَوْا إلى الكهف، وهو فَجْوةٌ في جبلٍ في صحراءٍ وهو عُرْضةٌ للعواصف والرّياح وأصوات الحيوانات وأشياء كثيرة يمكن أن تزعج النّائم، فلو تركهم الله سبحانه وتعالى في نومهم هذا على طبيعتهم لأزعجتهم هذه الأصوات وأقلقتْ راحتهم وأيقظتهم من نومهم؛ لذلك عطّل حاسّة السّمع عندهم، وبذلك استطاعوا أن يناموا هذه المدّة.

﴿فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾: ومعنى عدداً؛ أي: سنين كثيرةً؛ لأنّ القليل لا يُعَدُّ، فإنْ ذكر العدّ فاعلم أنّه للشّيء الكثير، كما تقول: فلانٌ عنده مليون عَدّاً ونقداً.

(الآية ١٢) - ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ١٢﴾:

﴿بَعَثْنَٰهُمْ﴾: أي: أيقظناهم من نومهم الطّويل، وما داموا قد ناموا فالأمر ليس موتاً، إلّا أنّهم لمّا طالتْ مدّة نومهم شبّهها بالموت.

﴿لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ﴾: أيّ الفريقين منهم؛ لأنّهم سأل بعضهم بعضاً عن مُدَّة لُبْثهم، فقالوا: يوماً أو بعض يوم.

أو: المراد الفريقان من النّاس الّذين اختلفوا في تحديد مدّة نومهم.

﴿أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾: أي: لنرى أيّ الفريقين سيُقدِّر المُدّة تقديراً صائباً، والأمد: هو المدّة وعدد السّنين.

والمتأمّل في الآيات السّابقة يجد فيها ملخّصاً للقصّة وموجزاً سريعاً لها، وكأنّها برقيّة سريعة بما حدث، فأهل الكهف فتيةٌ مؤمنون فرّوا بدينهم إلى كهفٍ من الكهوف، وضرب الله سبحانه وتعالى على آذانهم فناموا مدّةً طويلةً، ثمّ بعثهم الله عز وجل ليعلم مَنْ يحصي مدّة نومهم، وهذه البرقيّة لم تُعطِنا تفصيلاً للقطات القصّة كلّها؛ لذلك تبدأ الآيات في التّفصيل:

(الآية ١٣) - ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣﴾:

﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ﴾: نحن؛ أي: الله سبحانه وتعالى، فهو الّذي يقصُّ ما حدث بالحقّ، فلو أنّ القاصَّ غير الله جل جلاله لتُوُقّع منه الخطأ أو النّسيان، أو ترك شيءٍ من الأحداث لِهوَىً في نفسه، إنّما إنْ جاءك القصص من الله عز وجل فهو الحقّ، كما قال سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: من الآية ٣]، فهناك قصَصٌ ليس بالحسن، وهو القَصَص غير الدّقيق، فالقصَصُ القرآنيّ يضمن لك منتهى الدّقّة في عرض الأحداث.

﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾: هؤلاء الفتية آمنوا بالله سبحانه وتعالى فحدثت مشكلةٌ؛ لأنّ قومهم مشركون وكفّارٌ، طاردوهم وحاربوهم وآذوهم

وأجبروهم على الكفر، وبما أنّهم اختاروا الإيمان زدناهم هدىً، ولقد تحدّثنا في بداية سورة البقرة: بأنّ الهداية إمّا هداية دلالةٍ أو هداية معونةٍ، فالله ﷻ يهدي البشر كلّهم، قال ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: من الآية ٩]، لكن هناك أناسٌ صمٌّ بكمٌ عميٌ لا يريدون الهداية، أمّا إذا أخذ الإنسان بهذه الهداية كما قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمّد]، فتأتي هداية المعونة، فهؤلاء الفتية اختاروا الإيمان فزادهم الله ﷻ هدىً وإيماناً على إيمانهم.

(الآية ١٤) - ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾:

﴿وَرَبَطْنَا﴾: الرّبط يعني أن تربط على الشّيء وتشدّ عليه لتحفظ ما فيه، كما تربط الجرّة حتّى لا يسيل الماء، وتربط الدّابّة حتّى لا تنفلت، وقد وردتْ مادّة (ربط) في القرآن الكريم كثيراً، منها قوله ﷻ في قصّة أمّ موسى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص].

وهنا يقول الحقّ ﷻ في أهل الكهف: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ لتظلّ بداخلها العقيدة والإيمان بالله ﷻ لا تتزعزع ولا تُخرِجها الأحداث والشّدائد، وهذا من زيادة الهدى الّذي أَخبرتْ به الآية السّابقة.

﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: القيام هنا دليلٌ على مواجهتهم للباطل ووقوفهم في وجهه، وأنّ الباطل أفزعهم فهبّوا للتّصدِّي له بقولهم: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ولا بدّ أنّهم سمعوا كلاماً يناقض قولهم،

وتعرّضوا في دعوتهم للحرب والاضطهاد والعذاب، فالآية تعطي صورةً لفريقين: فريق الكفر الّذي ينكر وجود الله ﷻ أو يشرك به، وفريق الإيمان الّذي يُعلنها مُدوّيةً: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وإنْ كان فريق الكفر يدعو إلى عبادة آلهةٍ من دون الله سبحانه وتعالى، فإنّ فريق الإيمان يقول:

﴿لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ﴾: فرفضوا أن يشركوا بالله سبحانه وتعالى.

﴿لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾: فقد تجاوزنا الحدّ، وبَعُدْنا عن الصّواب.

(الآية ١٥) - ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾:

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ﴾: وهنا يخبر أهل الكهف الفتية المؤمنون عن قومهم أنّهم اتّخذوا من غير الله سبحانه وتعالى آلهةً متعدّدةً، من غير أن يكون لهم دليلٌ أو حُجّةٌ واضحةٌ على صِدْق ما ذهبوا إليه من عبادة هذه الآلهة.

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾: فأفظع الظّلم وأقبحه أنْ نفتريَ على الله سبحانه وتعالى الكذب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: من الآية ١٣].

(الآية ١٦) - ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾:

هذا حديث الفتية بعضهم إلى بعض: ما دُمْنا اعتزلنا أهل الكفر، ونَأَيْنا عن طريقهم، وسلكنا مسلكَ الإيمان بالله سبحانه وتعالى الّذي يسّره الله جلّ جلاله لنا، فهيّا بنا إلى الكهف نلجأ إليه ونحتمي فيه فراراً بديننا، ومخافة أن يفتننا القوم عن ديننا.

ويلفتنا هنا إلى فرار هؤلاء الفتية ليس إلى بلدٍ آخر فيه مُتّسع للحياة، بل إلى كهفٍ ضيّقٍ في جبلٍ في صحراء، وليس به مُقوّم من مُقوّمات الحياة؛ لذلك ينبّهنا الله ﷻ: إيّاك أن تقول: إنّ الكهف ضيّق، وكيف يعيشون فيه؟ لأنّهم هاجروا إلى الله ﷻ ولجؤوا إليه وتوكّلوا عليه، لذلك قال بعدها:

﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ﴾: فالضّيق يقابلُه البَسْط والسّعة، لقد قالوا هذه الكلمة وهم واثقون في رحمة الله ﷻ، معتقدون أنّ الّذي لجؤوا إليه لن يُسلمهم ولن يخذلهم، وسوف يُوسِّع عليهم برحمته ضيق الكهف وضيق الحياة، وقد وَسَّعه الله تعالى عليهم فعلاً حين أنامهم، ألَا ترى النّائم لا تحدُّه حدود؟

﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾: والمراد بالمرفق جمع مرافق، وهي مُقوّمات الحياة الّتي لا يستغني عنها الإنسان، فلمّا أنامهم الله ﷻ أغناهم عن مرافق الحياة؛ لأنّهم إنْ ظلّوا في حال اليقظة فلا بدّ أنْ يحتاجوا إلى هذه المرافق.

(الآية ١٧) - ﴿۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾:

﴿۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾: بعد أنْ ضرب الله ﷻ على آذانهم فعصمهم من الأصوات الّتي تُزعجهم وتُقلِق نومهم عصمهم أيضاً من ضوء الشّمس، وقد أثبتت الأبحاث خطر الأشعة خاصّة على النّائم، وأنّ للظُّلمة مهمّةً، فبها تهدأ الأعصاب وترتاح الأعضاء، والشّمس خَلْقٌ من خَلْق الله ﷻ، لها مَدارٌ ثابتٌ وقانونٌ لا يتخلّف، كما قال ﷻ: ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ

﴿يَسۡبَحُونَ ٣٣﴾ [الأنبياء: من الآية ٣٣]، ولكنّ الخالق ﷻ خرق لهم نظام الشّمس حتّى لا يزعجهم ضوؤها فجعلها ﴿تَّزَٰوَرُ﴾؛ أي: تميل عند طلوعها عن الكهف، ومنه الزُّور؛ أي: الميل عن الحقّ، وازورّ عن الشّيء؛ أي: مال عنه، فكانت الشّمس إذا طلعتْ تميل عن الكهف جهة اليمين.

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾: والقرْض كما هو معلومٌ أنْ تعطي غيرك شيئاً يحتاج إليه، فكأنّ الشّمس تقرضهم وتسلفهم، كونها لا تدخل عليهم عند غروبها، وهذا أمرٌ ليس من حقّهم، فكأنّها تقرضهم إيّاه، ولا شَكَّ في أنّ هذه العمليّة مظهرٌ من مظاهر قدرة الله ﷻ الّتي تصنع الشّيء وضدّه.

ونلحظ أنّ الله ﷻ جعل الفعل للشّمس في: ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ و﴿تَّقۡرِضُهُمۡ﴾، وكأنّها تفعل ذلك من نفسها بعد أنْ ضبط الله ﷻ حركتها على هذه الأفعال كما تُضبَط الآلة اليوم.

﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُ﴾: أي: في الكهف.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾: وما دامت هذه الأفعال للشّمس آيةً من آيات الله ﷻ، ومعجزةً من معجزاته ﷻ، فإيّاك أنْ تعترضَ: كيف تميل الشّمس؟ وكيف تُغيّر اتّجاهها؟ لأنّ الخالق ﷻ خلق الخَلْق، وأعطى لكلّ مخلوقٍ قانونه الّذي يسير به، ومع ذلك لم يترك لكلّ مخلوقٍ أنْ يفعل بقانونه ما يريد، بل له ﷻ قيُّوميّة على القانون، تبطله إنْ شاء، وتحرّكه إنْ شاء.

﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾: فقضيّة الهداية والإضلال قائمةٌ من قديم، ولا تزال ذيول هذه المعركة موجودة إلى الآن، فهناك دائماً من يقول: إذا كان الله ﷻ هو الهادي والمُضِلّ، فلماذا يعذّبني إن ضللت؟ وشاع هذا السّؤال وأخذه

المستشرقون والفلاسفة، ويراد منه إيجاد مبرّرٍ للنّفس العاصية، وكما قلنا: الهداية نوعان، هداية الدّلالة وهي للجميع، وأمّا هداية المعونة فلا تكون إلّا للمؤمن، وقد قال ﷻ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩]، فمن أخذ بهداية الدّلالة أتته هداية المعونة.

(الآية ١٨) - ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾: أي: لو أتيح لك النّظر إليهم لخُيّل إليك أنّهم أيقاظٌ غير نائمين؛ ذلك لأنّ ربّهم ﷻ حفظهم على حال اليقظة وعلى هيئتها.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾: ثمّ أظهر فيهم آيةً أخرى مِن الإعجاز بأنْ يُقلِّبهم في نومهم مرّةً ناحية اليمين، وأخرى ناحية الشّمال، لتظلّ أجسامهم على حالها، ولا تأكلها الأرض، ومعلومٌ أنّ الإنسان إذا قُدِّر له أنْ ينام فترةً طويلةً على سرير المرض يُصاب بمرضٍ آخر يُسمُّونه قرحة الفراش، نتيجةً لنومه المستمرّ على جانبٍ واحدٍ -عافانا الله وإيّاكم- وقد جعل لهم هذا التّقليب ذات اليمين وذات الشّمال على هيئة الإيقاظ.

﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾: يبدو أنّهم كانوا من الرّعاة، فتبعهم كلبهم وجلس مَادّاً ذراعَيْه بفناءِ الكهف أو على بابه.

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾: ألقى الله ﷻ مهابتهم والخوف منهم في نفوس النّاس، فإذا ما اطّلع عليهم إنسانٌ خاف ووَلّى

هارباً يملؤه الرّعب؛ لأنّ هيئتهم تُوحي بذلك، حيث يتقلّبُون يميناً وشمالاً، ومع ذلك لا يصحُو منهم أحدٌ، ولا يقوم منهم أحدٌ طوال هذه المدّة.

(**الآية ١٩**) - ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ١٩﴾:

﴿بَعَثْنَٰهُمْ﴾: أي: أيقظناهم من نومهم؛ لأنّ نومهم الطّويل الّذي استغرق ثلاثمئة سنة وتِسْعاً أشبه الموت، فقال ﷻ: ﴿بَعَثْنَٰهُمْ﴾، والبعْثُ هنا لقضيّةٍ خاصّة بهم، وهي أنْ يسأل بعضهم بعضاً عن مُدّة لُبثهم في الكهف، وقد انقسموا في سؤالهم هذا إلى فريقين، الفريق الأوّل: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾، فردَّ الفريق الآخر بما تقتضيه طبيعة الإنسان في النّوم العاديّ، فقال: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، فالإنسان لا يستطيع تقدير مدّة نومه بالضّبط، لكنّ المعتاد في النّوم أن يكون يوماً أو بعض يوم.

وقد أخذ العلماء من هذا القول أنّهم حين تساءلوا هذا السّؤال لم يجدوا في ذواتهم شيئاً يدلُّ على مرور زمنٍ طويلٍ، حيث وجدوا أنفسهم على الحال الّتي ناموا عليها، فلم يتغيّر مثلاً حالهم من الشّباب إلى الشّيخوخة، ولم يتغيّر شعرهم مثلاً إلى البياض؛ لذلك قالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، ولو وجدوا أنفسهم شيباً لقدَّروا الزّمن المناسب لهذا الشّيب، لا شكَّ في أنّنا أمام آيةٍ من آيات الخالق ﷻ، ومعجزةٍ من معجزاته لا يقدر عليها إلّا المالك للزّمان والمكان، القابض للزّمان ليومٍ أو بعض يوم، الباسط له إلى مئة عامٍ.

﴿قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾: وهو قَوْل الجماعة الّذين أرادوا إنهاء الخلاف في هذه المسألة، فقالوا لإخوانهم: دعونا من هذه القضيّة الّتي لا تُفيد، واتركوا أمرها لله ﷻ. ونجد دائماً أنّ الحقّ ﷻ يأمرنا أنْ ننقلَ الجدل من شيءٍ لا ننتهي فيه إلى شيءٍ، ونُحوّله إلى الأمر المثمر النّافع؛ لذلك قالوا:

﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾: والوَرِق: يعني العملة من الفضّة، فأرادوا أنْ يرسلوا أحدهم بما معهم من النّقود ليشتري لهم من المدينة طعاماً؛ لأنّهم بمجرّد استيقاظهم انتهت حالتهم الاستثنائيّة، وعادوا إلى طبيعتهم؛ لذلك طلبوا الطّعام، لكن نلحظ هنا أنّ الجوع لم يحملهم على طلب مطلق الطّعام، بل تراهم حريصين على تزكية طعامهم واختيار أَطيبه وأَطْهره، وأبعده عن الحرام.

﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾: وكذلك لم يَفُتْهم أنْ يكونوا على حذرٍ من قومهم، فَمْن سيذهب منهم إلى هذه المهمّة عليه أن يدخل المدينة خِلْسةً، وأن يتلطّف في الأمر حتّى لا يشعر به أحدٌ من القوم؛ ذلك لأنّهم استيقظوا على الحالة الّتي ناموا عليها، وما زالوا على حَذَرٍ من قومهم يظنّون أنّهم يتتبّعونهم ويبحثون عنهم، ويسعَوْن للقضاء عليهم.

(الآية ٢٠) - ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٢٠﴾:

وهذا احتياطٌ منهم للدّين، وحمايةٌ للعقيدة الّتي فرُّوا بها، فإن يرجموكم فسينتصرون عليكم في الدّنيا، إنّما ستأخذون الآخرة، وإن ردّوكم إلى دينهم، فلن تفلحوا في الدّنيا ولا في الآخرة.

(الآية ٢١) - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾: يقيم الله سبحانه وتعالى من أهل الكهف دليلاً على قيام السّاعة والبعث بعد الموت، فها هم أصحاب الكهف ما زالوا على قَيْد الحياة وفي سَعَة الدّنيا، ومع ذلك أنامهم الله سبحانه وتعالى هذه النَّوْمة الطّويلة ثمّ بعثهم وقد عُثِر عليهم، وما زالت فيهم حياة.

﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ﴾: حدث هذا التّنازع من الجماعة الّذين عثروا عليهم، ويبدو أنّهم كانوا على مِسْحة من الدّين، فأرادوا أنْ يحافظوا على هذه الآية الإلهيّة، ويصحّ أنّهم بمجرّد أنْ عثروا عليهم قضي أجلهم فماتوا، والقرآن الكريم لم يوضّح طريقة موتهم، فالمهمّ الهدف، والقصص القرآنيّ هادفٌ، وهذه مسألةٌ يجب أن يُؤَرَّخ لها، وأن تخلّد؛ لذلك جعلوها مثلاً للعالم كلّه لتُعرَف قصّة هؤلاء الفتية الّذين ضَحَّوْا في سبيل عقيدتهم وفَرُّوا بدينهم من سَعَة الحياة إلى ضيق الكهف؛ ليكونوا مثلاً لأهل العقيدة، ودليلاً على أنّ الله سبحانه وتعالى ينصر أهله ويدافع عنهم ويُخلِّد ذكراهم إلى قيام السّاعة، لذلك قال بعضهم لبعض: ﴿ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗا﴾؛ أي: مطلق البنيان، وهذا دليلٌ على أنّهم بمجرّد أن عثروا عليهم ماتوا، انتهت الغاية، فعارضهم آخرون بأنّ البناء يجب أن يكون مسجداً.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾: غلبوا على أمرهم يعني كان رأيهم أقوى، فقالوا: نبني عليهم مسجداً ليكون موضعاً للسّجود لله ﷻ وللعبادة، ليتناسب مع هذه الآية العظيمة الخالدة الّتي ستبقى مدى الدّهر.

ثمّ تحدَّث الحقّ ﷻ عن الاختلاف الّذي نشأ عن فضول النّاس لمعرفة عدد أهل الكهف، وما يتعلَّق بهم من تفصيلاتٍ هي في حقيقتها عِلْمٌ لا ينفع وجَهْلٌ لا يضرّ، فقال ﷻ:

(الآية ٢٢) - ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ٢٢﴾:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾: اختلف القوم في عدد أهل الكهف، منهم مَنْ قال: ثلاثةٌ رابعهم كلبهم، ومنهم مَنْ قال: خمسةٌ سادسهم كلبهم، وعلَّق الله ﷻ على هذا القول بأنّه: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾؛ لأنه قَوْلٌ بلا عِلْم، ممّا يدلُّنا على خطئه ومخالفته للواقع.

﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾: ومنهم مَنْ قال: سبعةٌ وثامنهم كلبهم، ولم يعلّق القرآن الكريم على هذا الرّأي ممّا يدُّل على أنّه الأقرب للصّواب. ثمّ يأتي القول الفَصْل في هذه المسألة:

﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾: فلم يُبيّن لنا الحقّ ﷻ عددهم الحقيقيّ، وأمرنا أن نترك هذا لعلمه ﷻ، ولا نبحث في أمرٍ لا طائل منه، ولا فائدة من ورائه، فالمهمّ أنْ يثبت أَصْل القصّة وهو: الفتية الأشدّاء في دينهم

والّذين فَرُّوا به وضَحَّوْا في سبيله حتّى لا يفتنهم أهل الكفر والطّغيان، وقد لجؤوا إلى الكهف ففعل الله ﷻ بهم هذه المعجزة، وجعلهم آيةً وعبرةً ومثَلاً وقدْوةً، أمّا فرعيّات القصّة فهي أمورٌ ثانويّةٌ لا تُقدّم ولا تُؤخّر؛ لذلك قال ﷻ بعدها:

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾: أي: لا تجادل في أمرهم، ثمّ يأتي فضول النّاس ليسألوا عن زمن القصّة ومكانها، وعن أشخاصها وعددهم وأسمائهم، حتّى كلبهم تكلّموا في اسمه.. وهذه كلُّها أمورٌ ثانويّةٌ لا تنفع في القصّة ولا تضرُّ، ويجب هنا أن نعلم أنّ القَصَص القرآنيّ حين يُبهم أبطال القصّة يبهمهم لحكمةٍ، فلو تأمّلنا إبهام الأشخاص في قصّة أهل الكهف لوجدناه عَيْن البيان لأصل القصّة؛ لأنّ القرآن الكريم لو أخبرنا مثلاً عن مكان هؤلاء الفتية لقال بعضهم: إنّ هذا الحدث من الفتية خاصٌّ بهذا المكان؛ لأنّه كان فيه قدر من حريّة الرّأي، ولو حدّد زمانهم لَقال بعضهم: لقد حدث ما حدث منهم؛ لأنّ زمانهم كان من الممكن أن يتأتّى فيه مثل هذا العمل، ولو حدّد الأشخاص وعيَّنهم لقالوا: هؤلاء أشخاص لا يتكرّرون مرّةً أخرى، لذلك أبهمهم الله ﷻ لتتحقّق الفائدة المرجوّة من القصّة، أبهمهم زماناً، وأبهمهم مكاناً، وأبهمهم عدداً، وأبهمهم أشخاصاً ليشيع خبرهم بهذا الوصف في الدّنيا كلّها، فلا يرتبط بزمانٍ ولا مكانٍ ولا أشخاص، فحَمْل راية الحقّ، والقيام به أمرٌ واجبٌ وشائعٌ في الزّمان والمكان والأشخاص، وهذا هو عَيْن البيان للقصّة القرآنيّة، كما قال ﷻ في آيةٍ أخرى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر: من الآية ٢٨]، هكذا ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ من غير أن يذكر عنه شيئاً، فالمهمّ أنّ الرّجولة في الإيمان، أيّاً كان هذا المؤمن في أيّ زمانٍ، وفي أيّ مكانٍ، وبأيّ اسمٍ، وبأيّ

صفةٍ. كذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ﴾ [التّحريم: من الآية ١٠]، ولم يذكر عنهما شيئاً، ولم يُشخِّصهما؛ لأنّ التّشخيص هنا لا يُفيد، فالمهمّ والمراد من الآية بيانُ أنّ الهداية بيد الله سبحانه وتعالى وحده، وأنّ النّبيّ المرسَل من الله عزَّ وجلّ لم يستطع هداية زوجته وأقرب النّاس إليه، وأنّ للمرأة حرّيّةً عَقَديّةً مُطْلقةً. وكذلك في قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾ [التّحريم: من الآية ١١]، ولم يذكر لنا مَنْ هي، ولم يُشخِّصها؛ لأنّ تعيُّنها لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر، المهمّ أن نعلم أنّ فرعونَ الّذي ادَّعى الألوهيّة وبكلّ جبروته وسلطانه، والّذي قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النّازعات: من الآية ٢٤]، لم يستطع أنْ يحمل امرأته على الإيمان به، فالعقيدة والإيمان أمرٌ شخصيٌّ قلبيٌّ، لا يُجبَر عليه الإنسان، وها هي امرأة فرعون تؤمن بالله سبحانه وتعالى وتقول: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التّحريم: من الآية ١١].

أمّا في قصّة مريم، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ﴾ [التّحريم: من الآية ١٢]، فشخَّصها باسمها واسم أبيها؛ لأنّ الحدث الّذي ستتعرَّض له حَدَثٌ فريدٌ وشيء خاصٌّ بها لن يتكرّر في غيرها؛ لذلك عيَّنها الله سبحانه وتعالى وعرَّفها، أمّا الأمر العامّ الّذي يتكرّر، فمن الحكمة أنْ يظلَّ مُبْهماً غير مرتبط بشخصٍ أو زمانٍ أو مكانٍ، كما في قصّة أهل الكهف، فقد أبهمها الحقّ سبحانه وتعالى لتكون مثالاً وقُدْوةً لكلّ مؤمنٍ في كلّ زمانٍ ومكانٍ.

(الآية ٢٣) - ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣﴾:

تتجلّى في هذه الآية رحمة الله سبحانه وتعالى بالمحبوب محمّد صلى الله عليه وسلم، فلم يُرِدْ سبحانه وتعالى أن يصدم رسوله بأيّ مسألة مخالَفَةٍ، بل أعطاه ما أراد، وأجابه إلى ما طَلب من

مسألة أهل الكهف، ثم ذكَّره بأنّ على كلّ مؤمنٍ بالله ورسوله أن يربط الأمر دائماً بمشيئة الله سبحانه وتعالى، وهناك روايات أنّ النّبيّ ﷺ قال لهم: «أجيبكم غداً..»، بغضّ النّظر عن صحّة هذه الرّواية، إلّا أنّ هذا يتعلّق بعموميّة المعنى وليس بخصوصيّة السّبب.

(الآية ٢٤) - ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ٢٤﴾:

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾: وهذه مخاطبةٌ من الله سبحانه وتعالى لنا جميعاً لنعلّق أيّ أمرٍ بمشيئة الله سبحانه وتعالى؛ لأنّنا غير قادرين على إنفاذ أيّ أمرٍ في المستقبل، فقد يموت الإنسان وقد لا يملك، فلا أحد فعّالٌ لما يريد إلّا الله سبحانه وتعالى.

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾: أي: على فَرْض أنّ الإنسان نسي المشيئة ساعة البَدْء في الفعل، فعليه أن يعيدها ثانيةً ليتدارك ما حدث منه من نسيان.

وذِكْرُ الله سبحانه وتعالى هو عمدةٌ في العبادات، والذّكر بعمومه يطلق على القرآن الكريم.. لكنّ الذّكر هو ضدّ النّسيان، أن نشعر دائماً برقابة الله جلّ جلاله، وأنّه معنا أينما كنّا، نشعر دائماً بالوازع الدّينيّ فنعبد الله سبحانه وتعالى كأنّنا نراه فإن لم نكن نراه فإنّه يرانا.

﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾: أي: يهديني ويعينني، فلا أنسى أبداً، وأجعل ذِكْره لازمةً من لوازمي في كلّ عملٍ من الأعمال، فلا أبدأ عملاً إلّا بقوْل: إنْ شاء الله تعالى، ورَبْطُ الأمرِ بمشيئة الله سبحانه وتعالى أملٌ أن يتحقّق هذا الأمر.

(الآية ٢٥) - ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥﴾:

هذه الآية تعطينا لقطةً من المذكّرة التّفصيليّة الّتي أعطاها الله ﷻ لرسوله ﷺ عن أهل الكهف، وقد حدّد المولى ﷻ عدد السّنين الّتي قضاها الفِتْية في كهفهم بأنّها ثلاثمئة سنة وازدادوا تسعاً، ثلاثمئة سنة، هذا هو عددها الفعليّ بحساب الشّمس؛ لذلك فالحقّ ﷻ لم يَقُلْ: (ثلاثمئة وتسعاً)، بل قال: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾، ولمّا سمع أهل الكتاب هذا القول اعترضوا وقالوا: نعرف ثلاثمئة سنة، ولكن لا نعرف التّسع؛ ذلك لأنّ حسابهم لهذه المدّة كان حساباً شمسيّاً.

ومعلومٌ أنّ الخالق ﷻ حينما خلق السّموات والأرض قسّم الزّمن تقسيماً فلكيّاً، فجعل الشّمس عنواناً لليوم، نعرفه بشروقها وغروبها، ولمّا كانت الشّمس لا تدلّنا على بداية الشّهر جعل الخالق ﷻ الشّهر مرتبطاً بالقمر الّذي يظهر هلالاً في أوّل كلّ شهرٍ، وقد قال ﷻ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [التّوبة: من الآية ٣٦]، فلو حسبنا ثلاثمئة سنة هذه بالحساب القمريّ لوجدناها ثلاثمئة سنة وتسعاً، فهي في حسابكم الشّمسيّ ثلاثمئة سنة، وفي حسابنا القمريّ ثلاثمئة وتسعاً، ونعرف أنّ السّنة الميلاديّة تزيد عن الهجريّة بأحد عشر يوماً تقريباً في كلّ عام.

ومن حكمة الخالق ﷻ أن ترتبط التّوقيتات في الإسلام بالأهلّة، ولنا أن نتصوّر لو أنّ الحجّ ارتبط مثلاً بشهرٍ واحدٍ من التّوقيت الشّمسيّ في طقسٍ واحدٍ لا يتغيّر، فإنْ جاء الحجّ في الشّتاء يظلّ هكذا في كلّ عام، وكم في هذا من مشقّةٍ على مَنْ لا يناسبهم الحجّ في فصل الشّتاء، وكذلك الأمر في الصّيام، أمّا في التّوقيت القمريّ فإنّ هذه العبادات تدور بمدار العام، فتأتي هذه

العبادات مرّةً في الصّيف، ومرّةً في الخريف، ومرّةً في الشّتاء، ومرّةً في الرّبيع، لذلك قالوا: يا زمن وفيك كلّ الزّمن.

والمتأمّل في ارتباط شعائر الإسلام بالدّورة الفلكيّة يجد كثيراً من الآيات والعجائب، فلو تتبّعنا مثلاً الأذان للصّلاة في ظلّ هذه الدّورة لوجدنا أنّ كلمة: «الله أكبر» نداءٌ دائمٌ لا ينقطع في ليلٍ أو نهارٍ من مُلْك الله سبحانه وتعالى، وفي الوقت الّذي تنادي فيه: «الله أكبر»، يُنادي آخر: «أشهد ألّا إله إلّا الله»؛ لأنّه يكون هناك فرقٌ في الزّمن، وينادي آخر: «أشهد أنّ محمّداً رسول الله»، وهكذا دواليك في منظومةٍ لا تتوقّف. وكذلك في الصّلاة، ففي الوقت الّذي تصلّي فيه أنت الظّهر، هناك آخرون يُصلّون العصر، وآخرون يُصلُّون المغرب، وآخرون يُصلّون العشاء، فلا يخلو كَوْنُ الله سبحانه وتعالى في لحظةٍ من اللّحظات من قائمٍ أو راكعٍ أو ساجدٍ، فلفظ الأذان وأفعال الصّلاة شائعةٌ في أوقات الزّمن كُلِّها، وبكُلِّ ألوان العبادة.

وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى في هذه الآية برقم (٣٠٩)؛ لأنّ هذه المعلومة مهمّة جدّاً، وهي جزءٌ من المعجزة، فقد ناموا (٣٠٠) سنة وقاموا كما هم، فهي تتعلّق بقضيّةٍ عقائديّةٍ، وهي قضيّة البعث بعد الموت.

(الآية ٢٦) - ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٦﴾:

﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ﴾: الأسلوب هنا أسلوب تعجُّبٍ؛ أي: ما أشدّ بصره، وما أشدّ سمعه؛ لأنّه البصر والسّمع المستوعِب لكلِّ شيءٍ بلا قانون.

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾: كأنّ الله سبحانه وتعالى يُطمئِن عباده بأنّ كلامه حَقٌّ لا يتغيّر ولا يتبدّل؛ لأنّه سبحانه وتعالى واحدٌ أحدٌ لا شريك له، فالخبر من الله جل جلاله هو الخبر الصّادق، فهو خبرٌ من العليم القدير الّذي وضع مقادير كلّ شيءٍ، وعلمه أزليٌّ، وهو سبحانه وتعالى يعلم غيب السّموات والأرض، فعندما يُخبر عن شيءٍ نقول: صدق الله العظيم، فعلم الله سبحانه وتعالى هو علمٌ تامٌّ.

(الآية ٢٧) - ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾:

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾: أي: بعد هذه الأسئلة الّتي سألك إيّاها كفّار مكّة، وأخبرك الله سبحانه وتعالى بها فأجبتهم، اعلمْ أنّ لك ربّاً رفيقاً بك، لا يتخلّى عنك ولا يتركك لكيدهم، فإنْ أرادوا أن يصنعوا لك مأزقاً أخرجك الله جل جلاله منه، وإيّاك أنْ تظنَّ أنّ العقبات الّتي يقيمها خصومك ستُؤثّر في أمر دعوتك.

كلمة (تلاوة) تدلّ على شيءٍ يتلو شيئاً، والقرآن الكريم كان هو الأساس بالنّسبة إلى حياة النّبيّ صلى الله عليه وسلم، وكان كما وصفته أمّ المؤمنين السّيّدة عائشة رضي الله عنها: «كان خُلقه القرآن»[1]، وهذا امتثالٌ لأمر الله عز وجل: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾، فكان صلى الله عليه وسلم دائماً في يقظته وفي حياته وفي حركته وفي سكنته وفي قوله وفي فعله وفي انتهائه عن أيّ أمرٍ إنّما يتلو ما أوحي إليه من كتاب ربّه جل جلاله.

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: الْمُلْحَقُ الْمُسْتَدْرَكُ مِنْ مُسْنَدِ الأَنْصَارِ بَقِيَّةُ خَامِسَ عَشَرَ الأَنْصَارِ، مسند الصّدّيقة عائشة بنت الصّدّيق رضي الله عنها، الحديث رقم (٢٤٦٠١).

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: لأنّ كلمات الله سبحانه وتعالى لا يستطيع أحدٌ أنْ يُبدِّلها إلّا أنْ يكون معه جل جلاله إلهٌ آخر، فما دام هو سبحانه وتعالى إلهاً واحداً لا شريك له، فاعلمْ أنّ قوله الحقّ الّذي لا يُبدّل ولا يُغيّر.

﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾: ملتحداً؛ أي: ملجأً تذهب إليه.

فلن تجد من دونه ملجأً؛ لأنّ حَسْبك الله جل جلاله وهو نِعْم الوكيل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [العنكبوت].

(الآية ٢٨) - ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾:

﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾: نزلتْ هذه الآية في أهل الصُّفَّة، وهم جماعةٌ من أهل الله سبحانه وتعالى، انقطعوا للعبادة فتناولتهم ألسنة النّاس واعترضوا عليهم، لماذا لا يعملون؟ ولماذا لا يشتغلون كباقي النّاس؟ بل وذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: نريد أن تلتفت إلينا، وأن تترك هؤلاء المجاذيب، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾، لذلك علينا حينما نرى مثل هؤلاء الّذين يُسمِّيهم بعض النّاس المجاذيب الّذين انقطعوا لعبادة الله سبحانه وتعالى ألّا نحتقرهم، ولا نُقلِّل من شأنهم أو نتّهمهم؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى جعلهم موازين للتّكامل في الكون، ذلك أنّ صاحب الدّنيا الّذي انغمس فيها وعاش لها وباع دينه من أجل دُنْياه يرى هذا العابد قد نفض يديه من الدّنيا، وألقاها وراء ظهره، وراح يستند إلى حائط المسجد،

لا تعنيه أمور الدّنيا بما فيها، وأهل الصّفّة هم حالةٌ خاصّةٌ، فديننا هو دين العمل، يقول ﷻ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٠﴾ [الجمعة].

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾: أي: اجعل عينيك فيهم، ولا تصرفها عنهم إلى غيرهم من أهل الدّنيا؛ لأنّ مَدد النّظرة من رسول الله ﷺ زادٌ للمؤمن.

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: لأنّك إنْ فعلتَ ذلك وانصرفتَ عنهم، فكأنّك تريد زينة الحياة الدّنيا وزخارفها، وفي أمر الرّسول ﷺ بملازمة أهل الصُّفَّة وعدم الانصراف عنهم إلى أهل الدّنيا ما يُقوّي هؤلاء النّفر من أهل الإيمان الّذين جعلوا دَيْدنهم وشاغلهم الشّاغل عبادة الله ﷻ والتّقرُّب إليه.

لكن، هل المطلوب أن يكون النّاس جميعاً كأهل الصُّفَّة منقطعين للعبادة؟ بالتّأكيد لا، فالحقّ ﷻ جعلهم بين النّاس قِلّة، ففي كلّ بلدٍ واحدٌ أو اثنان تُذكِّر النّاس وتكبح جماح تطلّعاتهم إلى الدّنيا.

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾: لأنّه لا يأمرك بالانصراف عن هؤلاء والالتفات إلى أهل الدّنيا إلّا مَنْ غفل عن ذكر الله ﷷ، أمّا مَن اطمأنّ قلبه إلى ذِكْرنا وذاق حلاوة الإيمان فإنّه لا يأمر بمثل هذا الأمر، بل هو أقرب ما يكون إلى هؤلاء المجاذيب من أهل الصُّفَّة، بل وربّما تراوده نفسه ألّا ينصرف عنهم ليرى بعض الحقائق، فالدّنيا بأهلها في خدمة المؤمن الّذي يعمر الإيمانُ قلبه، وليس في باله إلّا الله ﷻ في كلّ ما يأتي أو يَدَع.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾: أي: أنّ هذا الّذي يُحرِّضك على أهل الصُّفَّة ما غفل قلبه عن ذكرنا إلّا لأنّه سار خلف هواه، فأخذه هواه وألهاه عن ذكر الله ﷷ، فما

دام قد انشغل بشيءٍ يوافق هواه فلن يهتمّ بمطلوب الله سبحانه وتعالى، إنّه مشغولٌ بمطلوب نفسه؛ لذلك يقول ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ»[1]، فالمؤمن الحقّ سليم الإيمان مَنْ كان هواه ورغبته موافقة لمنهج الله عز وجل، لا يحيد عنه، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [المؤمنون: من الآية ٧١]، وبالتّأكيد فالنّبيّ ﷺ لم يتّبع أهواءهم؛ لأنّه سبحانه وتعالى قال: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾، فهل يتّبع الحقّ أهواءهم؟ وهل ينصرف النّبيّ ﷺ عن أهل الإيمان؟ بالتّأكيد لا ينصرف أبداً، فهذا أمرٌ لأمّة النّبيّ ﷺ.

﴿أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾: أي: كان أمره ضياعاً وهباءً، فكأنّه أضاع نفسه.

(الآية ٢٩) - ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾:

﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾: أي: جاء من ربّكم، واختار كلمة الرّبّ ولم يَقُلْ: (من الله)؛ لأنّ الكلّ معتقدٌ أنّ الرّبّ هو الّذي خلق، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٨٧﴾ [الزّخرف]، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: من الآية ٢٥].

والرّبّ هو المتولّي بالنّعم والتّربية والعطاء، فمعنى: ﴿مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾: أي: بإقراركم أنتم، فالّذي خلقكم وربّاكم وتعهّدكم هو الّذي نزّل لكم هذا الحقّ.

---

(١) جامع العلوم والحكم: ج١، ص٤٣، الحديث رقم (٤١).

والحقّ: هو الشّيء الثّابت، وما دام من الله ﷻ فلن يُغيِّره أحد؛ لأنّ الّذي يتغيّر كلامه هو الّذي يقضي شيئاً ويجهل شيئاً مُقبلاً، وبعد ذلك يُعدِّل، فالحقّ من الله ﷻ؛ لأنّه ﷻ لا يَخْفَى عليه شيءٌ، ولا يَعْزُب عن ملكه شيءٌ، لذلك لا استدراك على حُكْمٍ من أحكامه ﷻ.

فما دُمْتم مؤمنين بربوبيّته وخلقه وإمداده وإنعامه، فعليكم أن تؤمنوا بما جاء من ربّكم، ومع فضل الله ﷻ ونعمه عليهم قُلْ لهم: لا جبرَ في الإيمان، وهذه أكبر ردٍّ على التّكفيريّين، وعلى من يتّهمون ديننا بأنّه دين السّيف والعنف والقتل، إذا كان الله ﷻ يخيّر النّاس فيقول:

﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾: لأنّ منفعة الإيمان عائدةٌ عليكم أنتم، وقد جاء في الحديث القدسيّ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»(١)، وفي

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم الظّلم، الحديث رقم (٢٥٧٧).

روايةٍ: «وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ، اجْتَمَعُوا عَلَى أَشْقَى قَلْبٍ مِنْ قُلُوبِ عِبَادِي، مَا نَقَصَ فِي مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي، مَا زَادَ فِي مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ، اجْتَمَعُوا، فَسَأَلَنِي كُلُّ سَائِلٍ مِنْهُمْ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ سَائِلٍ مِنْهُمْ مَا سَأَلَ، مَا نَقَصَنِي، كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِشَفَةِ الْبَحْرِ فَغَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً ثُمَّ انْتَزَعَهَا، كَذَلِكَ لَا يَنْقُصُ مِنْ مُلْكِي، ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ صَمَدٌ، عَطَائِي كَلَامٌ، وَعَذَابِي كَلَامٌ، إِذَا أَرَدْتُ شَيْئاً فَإِنَّمَا أَقُولُ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ»[١]، ففائدة الإيمان تعود على المؤمن وليس على الرّبّ جَلَّ جَلَالُهُ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصّلت: من الآية ٤٦]، لكنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحبّ الخير لخلقه، فأعطاهم خير الدّنيا، وخير الآخرة.

جاءت هذه الآية بعد قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، وكان خصوم الإسلام حينما يَرَوْنَ الدّعوة تنتشر شيئاً فشيئاً يحاولون إيقافها، لا من جهتهم بالعدوان على مَنْ يؤمن، ولكن من جهته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأرسلوا إليه وَفْداً، قالوا: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا قَدْ بَعَثْنَا إِلَيْكَ لِنُكَلِّمَكَ، وَإِنَّا وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُ رَجُلاً مِنَ الْعَرَبِ أَدْخَلَ عَلَى قَوْمِهِ مِثْلَ مَا أَدْخَلْتَ عَلَى قَوْمِكَ، لَقَدْ شَتَمْتَ الْآبَاءَ، وَعِبْتَ الدِّينَ، وَشَتَمْتَ الْآلِهَةَ، وَسَفَّهْتَ الْأَحْلَامَ، وَفَرَّقْتَ

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: مسند الأنصار، حديث أبي ذرّ الغفاريّ، الحديث رقم (٢١٣٦٧).

الْجَمَاعَةَ، فَمَا بَقِيَ أَمْرٌ قَبِيحٌ إِلَّا قَدْ جِئْتَهُ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ -أَوْ كَمَا قَالُوا لَهُ- فَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا جِئْتَ بِهَذَا الْحَدِيثِ تَطْلُبُ بِهِ مَالاً جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالاً، وَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تَطْلُبُ بِهِ الشَّرَفَ فِينَا، فَنَحْنُ نُسَوِّدُكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ مُلْكاً مَلَّكْنَاكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رِئْياً تَرَاهُ قَدْ غَلَبَ عَلَيْكَ -وَكَانُوا يُسَمُّونَ التَّابِعَ مِنْ الْجِنِّ رِئْياً- فَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ، بَذَلْنَا لَكَ أَمْوَالَنَا فِي طَلَبِ الطِّبِّ لَكَ حَتَّى نُبْرِئَكَ مِنْهُ، أَوْ نُعْذِرَ فِيكَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا بِي مَا تَقُولُونَ، مَا جِئْتُ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ أَطْلُبُ أَمْوَالَكُمْ، وَلَا الشَّرَفَ فِيكُمْ، وَلَا الْمُلْكَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولاً، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَاباً، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيراً وَنَذِيراً، فَبَلَّغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي، وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَإِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُمْ بِهِ، فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنَّ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**»، أَوْ كَمَا قَالَ ﷺ(١)، وكانت هذه المحاولة بينهم وبينه ﷺ لعلّ الأمر حين يكون سرّاً يتساهل فيه رسول الله ﷺ، ولكنّه كان حاسماً في هذا الأمر، وقد توسّلوا إلى النّبيّ ﷺ بمَنْ يُحِبّ، ولم يتركوا شيئاً حتّى ذهبوا إلى عمّه أبي طالب، فلمّا كلّمه عمّه قال قولته المشهورة: «**يَا عَمُّ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ، مَا تَرَكْتُهُ**»(٢).

---

(١) سيرة ابن هشام: ج١، ص٢٩٦.

(٢) سيرة ابن هشام: ج١، ص٢٦٦.

فلمّا فشلت هذه المحاولة أيضاً أتَوْهُ من ناحيةٍ ثالثة، فحاولوا التّشكيك وقالوا: دَعْكَ من هؤلاء الفقراء، واصْرِف وجهك عنهم، ولا تربط نفسك بهم، فأنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾.

ثمّ بيَّن الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنّ الإسلام أو الدّين الّذي أَنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يأخذ أحكامه من القوم الّذين أُنزِل عليهم؛ لأنّ رسول الله ﷺ إنّما أُرسِلَ ليضع لهم موازين الحقّ، ويدعو قومه إليها، فلا يحقّ لهم أن يضعوا الموازين، ويأمروا رسول الله ﷺ بأنْ يصرف وجهه عن الفقراء ويتوجّه إليهم، لذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾؛ لأنّه بعثني بالحقّ رسولاً إليكم، وما جئت إلّا لهدايتكم، فإنْ كنتم تريدون غير ذلك حسْب أهوائكم فلن أنصرف عن هؤلاء الّذين يدعُون ربّهم بالغداة والعشيّ وأتوجّه إليكم، فهذا دليلٌ على عدم صِدْق إيمانكم.

وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾؛ أي: ادخلوا على هذا الأساس: أنّ كلّ حَقٍّ ينزل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعلى النّاس الاختيار فمَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء فليكفر، وهذا يدلّ على حريّة الاعتقاد، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦]؛ لأنّ الدّين محلّ اعتقادٍ، والاعتقاد محلّه القلب، ولا يمكن أن تجبر أحداً على أن يحبّ شيئاً أو أن يكرهه.

ولو أخذنا الآية على إطلاقها لَكانَ مَنْ آمن مُطيعاً للأمر: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن﴾، والعاصي أيضاً مطيعٌ للأمر: ﴿وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾، فالأمر هنا ليس على حقيقته، وإنّما هو للتّسوية والتّهديد؛ أي: سواءٌ عليكم آمنتم أم لم تؤمنوا، فأنتم أحرارٌ في هذه المسألة؛ لأنّ الإيمان حصيلته عائدةٌ إليكم، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غنيٌّ

عنكم وعن إيمانكم، وكذلك خَلْق الله ﷻ الّذين آمنوا بمحمّدٍ هم أيضاً أغنياء عنكم، وسوف ينتصر محمّد ﷺ وينتشر دين الله ﷻ بكم أو بغيركم.

فهذا المعنى العامّ والرّدّ الأمثل لمن يريد أن يسوق النّاس إلى الإسلام بالسّوط، وإنّما يُساق النّاس بالحبّ، وبالقناعة، لذلك فدين الإسلام دين عقلٍ وعلمٍ وحجّةٍ وبرهانٍ وإقناعٍ، فإن استطعت أن تُقنع شخصاً دَخَل الإيمان قلبه، وإن لم تستطع أن تقنعه فقد يقول لك قائلٌ: آمنت بلساني، كما قال ﷻ: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: من الآية ١٤]، فهذه قضيّةٌ تتعلّق بالقلب، والقلب لا يطّلع عليه إلّا الله ﷻ.

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾: والعذاب هنا لمن اختار الكفر، لكن لماذا تُهوّل الآية وتُفخّم أمر العذاب؟ الجواب: لأنّ الإعلام بالعقاب وتهويله وتفظيعه والإنذار به لا ليقع النّاس في موجبات العقاب، بل لينتهوا عن الجريمة، وينأوْا عن أسبابها، فتفظيع العقاب وتهويله رحمة من الله ﷻ بالعباد؛ لأنّ خَوْف العذاب سيمنعهم من الجريمة.

﴿أَعۡتَدۡنَا﴾: أي: أعددنا، فالمسألة منتهيةٌ مُسْبقاً، فالجنّة والنّار مخلوقتان فعلاً، ومُعدَّتان ومُجهّزتان، لا أنّهما ستُعَدّان في المستقبل، وقد أُعِدَّتا إعداد قادرٍ حكيمٍ، فأعدَّ الله ﷻ الجنّة لتتّسع لكلّ الخَلْق إنْ آمنوا، وأعدّ النّار لتتّسع لكلّ الخلق إنْ كفروا، فإنْ آمن بعض الخلق وكفر بعضهم، فالّذي آمن وَفّر مكانه في النّار، والّذي كفر وفَّر مكانه في الجنّة، لذلك قال ﷻ في هذه المسألة: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧٢﴾ [الزّخرف].

﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾: الظّلم أن تأخذ حقّاً وتعطيه لغير صاحبه، وللظّلم أشكالٌ كثيرةٌ، أفظعها وأعظمها الإشراك بالله ﷿.

﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾: السّرادق، كما نقول الآن: أقاموا السّرادق؛ أي: الخيمة، ومعنى سرادق: أي: محيط بهم، فكأنّ الله ﷻ ضرب سرادقاً على النّار يحيط بهم ويحجزهم، بحيث لا تمتدّ أعينهم إلى مكانٍ خالٍ من النّار؛ لأنّ رؤيته لمكان خَالٍ من النّار قد تُوحي إليه بالأمل في الخروج.

﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ﴾: الاستغاثة: صَرْخة ألم من متألّمٍ كي يُدفَع عنه ذلك الألم، فالإنسان حين يُعذَّب بالنّار يصرخ من العذاب ويتمنّى لو أنّه لم يكن من أهل النّار.

﴿يُغَاثُواْ﴾: يتبادر إلى الذِّهْن أنّهم يُغَاثُون بشيءٍ من رحمة الله تبارك وتعالى، فتأتيهم نفحةٌ من الرّحمة أو يُخفّف عنهم العذاب.. ولكنّ ذلك لا يحدث، وإنّما:

﴿بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾: فإنْ طلبوا الغَوْث بماءٍ باردٍ يُخفِّف عنهم ألم النّار، فإذا بهم بماءٍ كالمهل، والمهْل: هو عُكَارة الزّيت المغلي الّذي يسمّونه الدُّرْدِيّ، أو هو المذاب من المعادن كالرّصاص ونحوه، وهذا يحتاج إلى حرارةٍ أعلى من غَلْي الماء، فيزدادون حرارةً فوق حرارة النّار، ويُعذَّبون من حيث ينتظرون الرّحمة.

﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾: فالماء من شدّة حرارته يشوي وجوههم قبل أن يدخل أجوافهم.

﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾: أي: الّذي يُغَاثون به.

﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾: المرتفق: هو الشّيء الّذي يضع الإنسان عليه مِرْفقه ليجلس مُستريحاً، ولكن في جهنّم لا يوجد راحة.

(الآية ٣٠) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾:

المتكلّم ربٌّ حكيمٌ، فما من حرفٍ بكلامه إلّا وله مغزى ووراءه حكمة، فعندما تكلّم المولى ﷻ عن الإيمان جعله اختياراً خاضعاً لمشيئة العبد، لكنّه ﷻ رجّح أن يكونَ الإيمانُ أوّلاً وأنْ يسبق الكفر، أمّا حينما يتكلّم عن حكم كلٍّ منهما، فقد بدأ بحكم الكفر من باب: (دَرْءَ المفسدة مُقدَّمٌ على جَلْب المنفعة).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: هنا نلاحظ أنّ الله ﷻ عطف على الإيمان العملَ الصّالح؛ لأنّ الإيمان هو عقيدةٌ في القلب ينبع عن أصلها السّلوك، فلا جدوى من الإيمان بلا عملٍ بمقتضى هذا الإيمان، وفائدة الإيمان أنّك تعمل الخير للنّاس؛ أي: العمل الصّالح، لذلك قال النّبيّ ﷺ: «**الإيمان بضعٌ وسبعون، أو بضعٌ وستّون شعبة، فأفضلها قول: لَا إِلَه إِلَّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطّريق**»(١)، فإماطة الأذى عن الطّريق إيمان، وقال ﷻ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر]؛ لأنّ المؤمن إذا ما أثمر فيه الإيمانُ فإنّه سيعمل عملاً صالحاً، وسيتعرّض للمتاعب والمشاقّ، لذلك لا بدّ من الصّبر والتّواصي بالحقّ والتّواصي بالصّبر كما جاء في سورة العصر.

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾: نلاحظ أنّ: ﴿مَنۡ﴾ هنا عامّة؛ لذلك لم يَقُل ﷻ: (إنَّا لا نضيع أجر مَنْ أحسن الإيمان)؛ لأنّ العامل الّذي يُحسِن

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، الحديث رقم (٣٥).

العمل قد يكون كافراً، ومع ذلك لا يبخسه الله سبحانه وتعالى حَقّه، بل يعطيه حظّه من الجزاء في الدّنيا، فالكافر إن اجتهد وأحسن في علمٍ أو زراعةٍ أو تجارةٍ لا يُحرم ثمرة عمله واجتهاده، لكنّها تُعجَّل له في الدّنيا وتنتهي المسألة حيث لا حَظَّ له في الآخرة، كما قال جل جلاله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء].

(الآية ٣١) - ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: أي: الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات.

﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾: رأينا صورةً من الجنّات في الدّنيا، وتُطلق الجنّة إطلاقاً شرعيّاً وإطلاقاً لغويّاً، أمّا الشّرعيّ: فهو الّذي نعرفه من أنّها الدّار الّتي أعدَّها الله سبحانه وتعالى لثواب المؤمنين في الآخرة، أمّا المعنى اللّغويّ: فهي المكان الّذي فيه زرعٌ وثمارٌ وأشجار تستر مَنْ سار فيها؛ ومادّة الجيم والنّون تدور كلّها حول الاستتار والاختفاء، فالجنون استتار العقل، والجنّ مخلوقاتٌ لا تُرَى، والمِجَنّ الدّرع الّذي يستر الجسم عن المهاجم.. إلخ.

والحقّ سبحانه وتعالى حينما يُحدِّثنا عن شيءٍ غيبيٍّ يُحدِّثنا بما يوجد في لغتنا من ألفاظ، واللّغة الّتي نتكلّم بها، يُوجَد المعنى أوّلاً ثمّ يوجد اللّفظ الدّالّ عليه، فإذا عرفنا أنّ هذا اللّفظ موضوعٌ لهذا المعنى، فإنْ نُطِق اللّفظ نفهم معناه، فإذا كانت الأشياء الّتي يُحدِّثنا الله سبحانه وتعالى عنها غيباً، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن

الجنّة: «**فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»(١)، فمن أين نأتي بالألفاظ الدَّالّة على هذه المعاني ونحن لم نعرفها؟ لذلك يُعبِّر عنها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالشّبيه لها في لغتنا، لكن يعطيها الوصف الّذي يُميّزها عن جنّة الدّنيا، كما جاء في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمّد: من الآية ١٥]، ونحن نعرف النّهر، ونعرف الماء، لكن يأتي قوله: ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ ليميّز ماء الآخرة عن ماء الدّنيا، وكذلك في قوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ [محمّد: من الآية ١٥]، ونحن نعرف العسل ونأخذه من الجبال، ولكن لا يوجد منه أنهارٌ في الدّنيا؛ وكذلك في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨﴾ [الواقعة]، ونعرف سدر الدّنيا، وهو نوعٌ من الشّجر له شوكٌ، وليس كذلك سِدْر الجنّة؛ لأنّه سدرٌ مخضود لا شوك فيه، فميَّز الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الجنّة في الآخرة عن جنّات الدّنيا، فقال: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾؛ أي: إقامة دائمة لا تنتهي ولا تزول، وليست كذلك جنّات الدّنيا، فهَبْ أنّ إنساناً يتمتّع في الدّنيا بالدُّور والقصور والحدائق والبساتين الّتي هي جنّة الدّنيا، فهي غير دائمة، فإمّا أن يتركها أو أن تتركه، إمّا أنْ يفوتها، وإمّا أنْ تفوته، والعَدْن: اسمٌ للجَنّة، فهناك فَرْقٌ بين الجنّة والمسكن في الجنّة، كما ترى حدائق عامّة وحدائق خاصّة، فالمؤمن في الجنّة له مسكنٌ خاصٌّ في جنّة عدن.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾ [محمّد: من الآية ١٢]، وفي آيةٍ أخرى يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التّوبة: من الآية ١٠٠]، ليعطينا صورتين لجريان الماء فيها، ففي قوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يدلُّ

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، الحديث رقم (٢٨٢٥).

على أنّ الماء يأتيها من بعيدٍ، وقد تخشى أن يمنعه أحدٌ عنك ويَسُدَّه دونك؛ لذلك يقول لك: اطمئنّ فالماء يجري ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾؛ أي: ينبع من الجنّة ذاتها لا يمنعه أحدٌ عنك.

وكأنَّ الحقّ سبحانه وتعالى يعطينا إشارةً لطيفةً إلى أنّنا نستطيع أن نجعل لنا مساكن على صفحة الماء في الدّنيا، وأن نستغلّ المسطّحات المائيّة في إقامة المباني عليها.

﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾: وقد يقول قائلٌ: ما هذه الأساور من الذّهب؟ هي من الزّينة الّتي نراها في طموحات الإنسان في زُخْرفيّة الحياة، بينما في الآخرة تختلف، وفي آيةٍ أخرى، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ [الإنسان: من الآية ٢١]، ومرّةً أخرى يقول: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣﴾ [فاطر: من الآية ٣٣]، فالأساور إمّا من ذهبٍ أو فضةٍ أو لؤلؤٍ؛ لذلك قال صلى الله عليه وسلم عن هذه الحلية في الآخرة: «تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ، حَيْثُ يَبْلُغُ الْوَضُوءُ»[1]. ونلحظ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ أنّ التّحلية هنا للزّينة، وليست من الضّروريّات، فجاء الفعل: ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾؛ أي: حلّاهم غيرهم ولم يقل: (يتحلّون)، وعندما تكلّم بعدها عن الملبس، وهو من الضّروريّات قال: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ فأتى بالفعل مبنيّاً للمعلوم؛ لأنّ الفعل حدث منهم أنفسهم بالعمل، أمّا الأولى فكانت بالفضل من الله سبحانه وتعالى، وقد قُدّم الفضل على العمل، كما قال سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الطّهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، الحديث رقم (٢٥٠).

﴿فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس]، فقوله: ﴿وَيَلْبَسُونَ﴾؛ أي: بما عملوا، أمّا في الزّينة فقال: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾، فهناك فضلٌ في الجنّة وعدلٌ بعملك الّذي عملته في الدّنيا.

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾: واللّباس من ضروريّات الحياة الّتي امتنّ الله ﷻ بها على عباده، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: من الآية ٢٦]، والرّيش: هو كماليّات.

﴿مِّن سُندُسٍ﴾: هو الحرير الرّقيق.

﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾: الإستبرق هو الحرير الغليظ السّميك.

وقد وقف العلماء عند هذه الكلمة: ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وغيرها من الكلمات غير العربيّة، مثل: القسطاس، وهي كلماتٌ فارسيّة الأصل، أو كلمة: (آمين) وأصلها يمنيٌّ أو حبشيٌّ، وقالوا: كيف يستخدم القرآن الكريم مثل هذه الألفاظ، وهو قرآنٌ عربيٌّ؟ نقول: هل أدخل القرآن الكريم هذه الألفاظ في لغة العرب ساعةَ نزل، أو جاء القرآن الكريم وهي سائرةٌ على ألسنة النّاس يتكلّمون بها ويتفاهمون؟! لقد عرف العرب هذه الكلمات واستعملوها، وأصبحت ألفاظاً عربيّةً دارتْ على الألسنة، وجرتْ مجرى الكلمة العربيّة، ومن الكلمات الّتي دخلتْ العربيّة حديثاً استخدمت ككلمة عربيّة (بنك)، وربّما كانت أخفّ في الاستعمال من كلمة: (مصرف)؛ لذلك أقرَّها مَجْمع اللّغة العربيّة وأدخلها العربيّة. فهذا القول يمكن أن يُقبَل لو أنّ القرآن الكريم جاء بهذه الألفاظ مجيئاً أوّليّاً، وأدخلها في اللّغة ولم تكُن موجودة، لكنّ القرآن الكريم جاء ليخاطب العرب، وما داموا قد فهموا هذه الألفاظ وتخاطبوا بها، فقد أصبحت جُزْءاً من لغتهم.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ﴾: الاتّكاء: أن يجلس الإنسان على الجنب الّذي يُريحه، والأرائك: هي السُّرر الّتي لها حِلْيةٌ مثل النّاموسيّة مثلاً.

﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾: كلامٌ منطقيٌّ.

﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾: أي: أنّ هذا هو مُقْتضى الحال فيها، على خلاف ما أخبر به عن أهل النّار: ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾.

(الآية ٣٢) - ﴿۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢﴾:

ما زال الكلام موصولاً بالقوم الّذين أرادوا أن يصرفوا رسول الله ﷺ عن الّذين يدعُونَ ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه، وبذلك انقسم النّاس إلى قسميْن: قسم مُتكبّر حريص على جاهه وسلطانه وماله، وقسم ضعيف مستكين لا جاهَ له ولا سلطان ولا مال، لكنّ الله ﷻ يريد استطراق آياته استطراقاً يشمل الجميع، ويُسوّي بينهم؛ لذلك أراد الله ﷻ أن يضرب لنا مثلاً موجوداً في الحياة، ففي النّاس الكافر الغنيّ والمؤمن الفقير، وعلينا أنْ نتأمّل موقف كلٍّ منهما.

﴿۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا﴾: قلنا سابقاً: إنّ الضّرب معناه أن تلمس شيئاً بشيءٍ أقوى منه بقوّةٍ تؤلمه، ولا بُدّ أن يكون الضّارب أقوى من المضروب، إلّا فلو ضربتَ بيدك شيئاً أقوى منك فقد ضربتَ نفسك، ومن ذلك قول الشّاعر:

وَيَا ضَارِباً صَخْرةً بِالعَصَا ضَرَبْتَ العَصَا أَمْ ضَرَبْتَ الحَجَر؟

وهنا يقول الله ﷻ: اضرب لهم يا محمّد مثلاً للكافر إذا استغنى، والفقير إذا رَضِي بالإيمان.

﴿رَّجُلَيۡنِ﴾: أي: هما مَحَلُّ المثل.

﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾: لكن، هل هذا المثل كان موجوداً بالفعل، وكان للرّجلين وجودٌ فِعليٌّ في التّاريخ؟ تقول بعض الكتب: كانوا واقعاً عند بني إسرائيل، وهما براكوس ويهوذا، وكان يهوذا مؤمناً راضياً، وبراكوس كان مستغنياً، وقد ورثا عن أبيهم ثمانية آلاف دينار لكلٍّ منهما، أخذ براكوس نصيبه واشترى به أرضاً يزرعها وقَصْراً يسكنه وتزوّج فأصبح له ولدان وحاشية، أمّا يهوذا، فقد رأى أنْ يتصدّق بنصيبه، وأن يشتري به أرضاً وقصراً في الجنّة، فوزّعه على الفقراء، وهكذا استغنى براكوس بما عنده واغترَّ به، كما قال ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ [العلق]، وأوّل الخيبة أن تشغلك النّعمة عن المنعِم، وتظنّ أنّ ما أنت فيه من نعيمٍ ثمرةُ جهدك وعملك، ونتيجة لسعْيك، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: من الآية ٧٨]، فتركه الله ﷻ لِعلْمه ومهارته، فليحرص على ماله بما لديه من علمٍ وقوّةٍ، قال ﷻ: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [القصص: من الآية ٨١]، ولم ينفعه ماله أو علمه. فهاتان صورتان واقعيّتان في المجتمع: كافرٌ يستكبر ويستغني ويستعلي بماله وغناه وسلطانه، ومؤمنٌ قَنُوعٌ بما قسم الله ﷻ له.

وانظر إلى الهندسة الزّراعيّة في قوله ﷻ: ﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾، فقد علّمنا الله ﷻ أن نجعل حول الحدائق والبساتين سُوراً من النّخيل ليكون سياجاً يصدُّ الهواء والعواصف، وذكر الله سبحانه النّخل والعنب وهي من الفاكهة قبل الزّرع الّذي منه القوت الضّروريّ، كما ذكرَ من قبلُ الأساورَ من ذهب، وهي للزّينة قبل الثّياب.

﴿جَنَّتَيۡنِ﴾: وصفهما الله سبحانه وتعالى بهذه الأوصاف، وقال جل جلاله في آيةٍ أخرى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥﴾ [سبأ].

(الآية ٣٣) - ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣﴾:

﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾: أي: أعطتْ الثّمرة المطلوبة منها، والأُكُل: هو ما يُؤكل، ونعرف أنّ الزّراعات تتلاحق ثمارها فتعطيك شيئاً اليوم، وشيئاً غداً، وشيئاً بعد غد.. وهكذا.

﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾: كلمة: ﴿تَظۡلِم﴾ تعطينا إشارةً إلى عمل الخير في الدّنيا، فالأرض وهي جمادٌ لا تظلم، ولا تمنعك حقّاً، ولا تهدِر لك تعباً، فإنْ أعطيتَها جهداً وعملاً جادتْ عليك، تضع فيها البذرة الواحدة فتُغِلُّ عليك الآلاف، فهي كريمةٌ جوادةٌ شريطة أن تعمل ما عليك من حَرْثٍ وبَذْرٍ ورعايةٍ وسُقْيا، وقد أراد الله سبحانه وتعالى أنْ يضرب لنا المثل في مضاعفة الأجر، فقال جل جلاله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ [البقرة: من الآية ٢٦١]، فإذا كانت الأرض تعطيك بالحبّة سبعمئة حبّة، فما بالك بخالق الأرض؟ لا شكّ في أنّ عطاءه سيكون أعظم؛ لذلك قال سبحانه وتعالى بعدها: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾ [البقرة: من الآية ٢٦١]، فالأرض لا تظلم، ومن عدل الأرض أنْ تعطيك على قَدْر تعبك وكَدِّك فيها، والله سبحانه وتعالى يُقدِّر لك هذا التّعب، ويشكر لك هذا المجهود، وعلى أصحاب القدرة والطّاقة أنْ يعملوا لما يكفيهم، ويكفي العاجزين عن العمل، ولنفرض أنّك لن تتصدّق

بشيءٍ للمحتاج، لكنّك ستبيع الفائض عنك، وهذا في حدّ ذاته نوعٌ من التّيسير على النّاس والتّعاون معهم.

وما أشبه الأرض في عطائها وسخائها بالأمّ الّتي تُجزِل لك العطاء إنْ برِرْتَ بها، وكذلك الأرض، بل إنّ الأمّ بطبيعتها قد تعطيك من غير مقابلٍ وتحنو عليك وإنْ كنت جاحداً، وكذلك الأرض ألَا تراها تُخرج لك من النّبات ما لم تزرعه أو تتعب فيه؟ فكيف إذا أنت أكرَمتها بالبرّ؟ لا شكّ في أنّها ستزيد لك العطاء. والحقيقة أنّ الأرض ليست أُمَّنا على وجه التّشبيه، بل هي أُمّنا على وجه الحقيقة؛ لأنّنا من ترابها وجزءٌ منها، فالإنسان إذا مرض مثلاً يصير ثقيلاً على النّاس، فلا يتحمّله ويحنو عليه ويزيل عنه الأذى مثل أمّه، وكذلك إن مات وصار جيفةً يأنف منه كلّ أخٍ محبٍّ وكلّ قريبٍ، في حين تحتضنه الأرض، وتمتصّ كلّ ما فيه، وتستره في يومٍ هو أحوج ما يكون إلى السّتر.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾: ذلك لأنّ الماء هو أَصْل الزّرع، فجعل الله سبحانه وتعالى للجنّتين ماءً مخصوصاً يخرج منهما ويتفجّر من خلالهما، لا يأتيهما من الخارج فيحجبه أحدٌ عنهما.

(الآية ٣٤) - ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴿٣٤﴾﴾:

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾: أي: لم يقتصر الأمر على الجنّتين اللّتين فيهما النّخيل والأعناب والزّرع الّذي يُؤتي أُكُله، بل كان له فوق ذلك ثمرٌ؛ أي: موارد أخرى من ذهبٍ وفضّةٍ وأولاد؛ لأنّ الولد ثمرة أبيه.

ثمّ تدور بينهما هذه المحاورة:

﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾: دليلٌ على أنّ ما تقدّم ذِكْره من أمر الجنّتين وما فيهما من نِعَم دَعَتْهُ إلى الاستعلاء.

﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾: الصّاحب: هو مَنْ يصاحبك ولو لم تكن تحبّه.

﴿يُحَاوِرُهُۥٓ﴾: أي: يجادله بأن يقول أحدهما فيرد عليه الآخر حتّى يصلوا إلى نتيجةٍ.

فماذا قال صاحبه؟ قال: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾، يقصد الجنّتين وما فيهما من نِعَمٍ، وقوله: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ داخلة في قوله: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ﴾، وهكذا استغنى بالمال والولد.

(الآية ٣٥) - ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥﴾:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾: عرفنا أنّهما جنّتان، فلماذا قال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ ولم يقل: (ودخل جنّتيه)؛ لأنّ الإنسان إنْ كانت له جنّتان فلنْ يدخلهما معاً في وقتٍ واحدٍ، بل حَالَ دخوله سوف يواجه جنّةً واحدةً، وهذا من دقّة الأداء القرآنيّ، ثمّ بعد ذلك يدخل الأخرى.

﴿وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾: قد يظلم الإنسان غيره، لكن كيف يظلم نفسه؟ يظلم الإنسان نفسه حينما يُرخِي لها عنان الشّهوات، فيحرمها من مشتهيات أخرى، ويُفوِّت عليها ما هو أبقى وأعظم، وظلم الإنسان يقع على نفسه؛ لأنّ النّفس لها جانبان: نفسٌ تشتهي، ووجدان يردع بالفطرة.

﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا﴾: فهل معنى هذا أنّه ظالمٌ لنفسه بالدّخول؟ لا؛ لأنّها جنّتُه يدخلها كما يشاء، إنّما المراد بالظّلم هنا ما دار في خاطره، وما حَدَّث به نفسه حالَ دخوله، فقد ظلم نفسه عندما خطر بباله الاستعلاء بالغِنَى، والغرور بالنّعمة، فقال: ما أظنُّ أنْ تبيدَ هذه النّعمة، أو تزول هذه الجنّة الوارفة أو تهلك، لقد غَرَّهُ واقعٌ ملموسٌ أمام عينيه استبعد معه أن يزول عنه كلّ هذا النّعيم، ليس هذا فقط، بل دعاه غروره إلى أكثر من هذا فقال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾، أطلق لغروره العنان.

(الآية ٣٦) - ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦﴾:

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾: لمّا أنكر قيام السّاعة هَزَّته الأوامر الوجدانيّة، فاستدرك قائلاً:

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾: أي: على كلّ حالٍ إنْ رُددتُ إلى ربّي في القيامة، فسوف يكون لي أكثر من هذا وأعظم، وكأنّه ضمن أنّ الله سبحانه وتعالى أَعدَّ له ما هو أفضل من هذا.

ونقف لنتأمّل قَوْل هذا الجاحد المستعلي بنعمة الله عز وجل عليه، المفتون بها: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ فهو يعرف أنّ له ربّاً سيرجع إليه، وهذا تناقضٌ مع نفسه، لكنّه ينكر استعلاءً وغروراً وشكّاً في قيام السّاعة.

﴿مُنقَلَبٗا﴾: أي: مرجعاً.

(الآية ٣٧) - ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾:

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾: هنا يردُّ عليه صاحبه المؤمن مُحَاوراً ومُجادلاً ليجُلِّيَ له وَجْه الصّواب:

﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾: أي: كلامك السّابق أنا.. أنا.. أنا، وما أنت فيه من استعلاءٍ وإنكارٍ، أتذكر هذا كلّه ولا تذكر بدايتك ومنشأك من ترابٍ الّذي هو أصل خَلْقك.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾: وهي أصل التّناسل.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾: أي: كاملاً مُسْتوياً.

والتّسوية: هي إعداد الشّيء إعداداً يُناسب مهمّته في الحياة، وقلنا: إنّ العود الحديد السَّويّ مستقيم، والخطّاف في نهايته أعوج، والاعوجاج في الخطّاف هو عَيْن استقامته واستواء مهمّته؛ لأنّ مهمّته أن نخطف به الشّيء، ولو كان الخطّاف هذا مستقيماً لما أدَّى مهمّته المرادة.

والهمزة في ﴿أَكَفَرْتَ﴾ ليست للاستفهام، بل هي استنكارٌ لما يقوله صاحبه، وما بدر منه من كُفْرٍ ونسيانٍ لحقيقة أمر الإنسان وبداية خَلْقه. والتّراب هو أَصْل الإنسان، وهو أيضاً مرحلةٌ من مراحل خَلْقه؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى ذكر في خلق الإنسان مرّة: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ [السّجدة: من الآية ٨]، ومرّةً: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ [الرّوم: من الآية ٢٠]، ومرّة: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: من الآية ٢٦]، ومرّة: ﴿مِن صَلْصَالٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرّحمن: من الآية ١٤]، ومرّة: ﴿مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: من الآية ٢]، لذلك يعترض

بعضهم على هذه الأشياء المختلفة في خَلْق الإنسان، والحقيقة أنّها شيءٌ واحدٌ، له مراحل متعدّدة انتقاليّة، فإنْ أضفْتَ الماء للتّراب صار طيناً، فإذا ما خلطْتَ الطّين بعضه ببعضٍ صار حمأً مسنوناً، فإذا تركته حتّى يجفّ ويتماسك صار صَلْصَالاً، فهي مرحليّاتٌ لشيءٍ واحدٍ.

(الآية ٣٨) - ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨﴾:

﴿لَّٰكِنَّا۠﴾: أي: لكن أنا، فحذفت الهمزة وأُدغمت النّون في النّون. و(لكن) للاستدراك، فالمؤمن يستدرك على ما قاله صاحبه: أنا لستُ مثلك فيما تذهب إليه، فإنْ كنتَ قد كفرتَ بالّذي خلقك من تراب ثمّ من نطفةٍ ثمّ سوَّاك رجلاً، فأنا لم أكفر بمَنْ خلقني، فقَوْلي واعتقادي الّذي أؤمن به:

﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾: ونلاحظ أنّ الكافر لم يَقُلْ: (الله ربّي)، إنّما جاءتْ ربّي على لسانه في معرض الحديث، والفرْق كبيرٌ بين القولين؛ لأنّ الرّبّ هو الخالق المتولّي للتّربية، وهذا أمرٌ لا يشكّ فيه أحدٌ، ولا اعتراض عليه، إنّما الشّكّ في الإله المعبود المطاع، فالرّبوبيّة عطاءٌ، ولكنّ الألوهيّة تكليفٌ؛ لذلك اعترف الكافر بالرّبوبيّة، وأنكر الألوهيّة والتّكليف.

ثمّ يؤكّد المؤمن إيمانه فيقول:

﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾: ولم يكتفِ المؤمن بأن أبانَ لصاحبه ما هو فيه من الكفر، بل أراد أنْ يُعدّي إيمانه إلى الغير، فهذه طبيعة المؤمن أنْ يكون حريصاً على هداية غيره، لذلك بعد أنْ أوضح إيمانه بالله ﷻ أراد أن يُعلِّم صاحبه كيف يكون مؤمناً، ولا يكمُل إيمان المؤمن حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، فأراد المؤمن أن يهدي الكافر، وها هو يدعو صاحبه، فيقول:

(الآية ٣٩) - ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾:

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾: يريد أنْ يُعلّمه سبيل الإيمان في استقبال النّعمة، بأنْ يردَّ النِّعَم إلى المنعِم؛ لأنّ النّعمة الّتي يتقلّب فيها الإنسان لا فضْلَ له فيها، فكلّها موهوبةٌ من الله سبحانه وتعالى، فهذه الحدائق والبساتين كيف آتتْ أُكُلها؟ إنّها الأرض الّتي خلقها الله سبحانه وتعالى لك، حرثْتها بآلةٍ من الخشب أو الحديد، وهي موهوبةٌ من الله عزّ وجلّ لا دَخْلَ لك فيها، والقوّة الّتي أعانتك على العمل موهوبةٌ لك من الله جلّ جلاله يمكن أن تُسلبَ منك في أيِّ وقتٍ، فتصير ضعيفاً لا تقدر على شيءٍ.

فحينما تنظر إلى هذه المسائل تجدها منتهيةً إلى عطاء الله سبحانه وتعالى الأعلى، لذلك يُعلّمنا سبحانه وتعالى الأدب في نعمته علينا، بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة]، هذه الحبّة الّتي بذرتها في حقلك، هل جلستَ بجوارها تنمّيها وتشدّها من الأرض، فتنمو معك يوماً بعد يوم؟ إنّ كل عملك فيها أن تحرث الأرض وتبذر البذور، حتّى عمليّة الحرث سخّر الله سبحانه وتعالى لك فيها البهائم لتقوم بها، وما كان بوُسْعك أنْ تُطوّعها لهذا العمل لولا أنْ سخّرها الله جلّ جلاله لك، وذلّلها لخدمتك، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس]، فلو حلّلْتَ أيَّ نعمةٍ من النِّعَم الّتي لك فيها عملٌ لوجدت أنّ نصيبك فيها راجعٌ إلى الله عزّ وجلّ، وموهوبٌ منه جلّ جلاله، وحتّى بعد أن ينمو الزّرع ويُزهر أو يُثمر لا تأمن أن تأتيه آفةٌ أو تحلُّ به جائحةٌ فتهلكه؛

لذلك يقول سبحانه وتعالى بعدها: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ٦٥ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ٦٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٦٧﴾ [الواقعة]، كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ١٨ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ٢٠﴾ [القلم]، وكذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ٦٩﴾ [الواقعة]، هذا الماء الّذي تشربونه عَذْباً زلالاً، هل نعرف كيف نزل؟ هل رأينا بخار الماء الصّاعد إلى الجوّ؟ وكيف ينعقد سحاباً تسوقه الرّياح؟ هل عرفنا بهذه العمليّة؟ ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ٧٠﴾ [الواقعة]؛ أي: مِلْحاً شديداً لا ننتفع به.

فحينما يمتنُّ الله سبحانه وتعالى على عبيده بأيّ نعمةٍ يُذكِّرهم بما ينقضها، فهي ليست من سَعْيهم، وعليهم أنْ يشكروه سبحانه وتعالى عليها لتبقى أمامهم ولا تزول، وإلّا فَلْيحافظوا عليها هم إنْ كانت من صُنْع أيديهم!

وكذلك في مسألة خَلْق الإنسان يوضّح الله سبحانه وتعالى أنّه يمنح الحياة وينقضها بالموت، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٥٩ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٦٠﴾ [الواقعة]، فإنْ كنتم الخالقين، فحافظوا عليه وادفعوا عنه الموت، فذكر الله سبحانه وتعالى النّعمة في الخَلْق، وما ينقضها بالموت.

نعود إلى المؤمن الّذي ينصح صاحبه الكافر، ويُعلِّمه كيف يستقبل نعمة الله سبحانه وتعالى عليه قائلاً له: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾.

﴿وَلَوۡلَآ﴾: بمعنى: هلّا، وهي للحثِّ والتّحضيض، وعلى الإنسان إذا رأى ما يعجبه في مالٍ أو ولدٍ أن يقول: ما شاء الله لا قوّة إلّا بالله، وفي الحديث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فِي أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ وَلَدٍ،**

فَقَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَيَرَى فِيهِ آفَةً، دُونَ الْمَوْتِ»[1]، فساعة أن تطالع نعمة الله ﷻ كان من الواجب عليك ألّا تُلهيكَ النّعمة عن المنعم، كان عليك أن تقول: ما شاء الله لا قوّة إلّا بالله؛ أي: أنّ هذا ليس بقوّتي وحيلتي، بل فضلٌ من الله ﷻ، فتردّ النّعمة إلى خالقها ومُسديها، وما دُمْنا قد رددْنا النّعمة إلى خالقها ﷻ فقد استأمنّاهُ عليها، وضمنّا بذلك بقاءها.

وذكرنا سابقاً أنّ سيّدنا جعفر الصّادق رضي الله عنه كان عالماً بكنوز القرآن الكريم، ورأى النّفس البشريّة، وما يعتريها من تقلُّبات تعكّر على الإنسان صَفْو الحياة من خوفٍ أو قلقٍ أو همٍّ أو حزنٍ أو مكرٍ، أو زهرة الدّنيا وطموحات الإنسان فيها، فكان رضي الله عنه يُخرج لهذه الدّاءات ما يناسبها من علاجات القرآن الكريم، فكان يقول في الخوف: "عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله ﷻ: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: من الآية ١٧٣]، فإنّي سمعت الله بعقبها يقول: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: من الآية ١٧٤]، وعجبتُ لمن اغتمَّ -والغَمّ انسداد القلب وبلبلة الخاطر من شيءٍ لا يُعرف سببه- ولم يفزع إلى قول الله ﷻ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: من الآية ٨٧]، فإنّي سمعت الله ﷻ بعقبها يقول: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: من الآية ٨٨]"، وكأنّها (وصْفة) عامّة لكلّ مؤمنٍ، وليست خاصّة بنبيّ الله يونس عليه السلام، فقوْل المؤمن الّذي أصابه الغمّ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾؛ أي: لا مفزع لي سواك، ولا ملجأ لي

(١) المعجم الأوسط للطّبرانيّ: باب العين، من اسمه العبّاس، الحديث رقم (٤٢٦١).

غيرك: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اعترافٌ بالذّنب والتّقصير، فلعلّ ما وقعتُ فيه من ذنبٍ وما حدث من ظلمٍ لنفسي هو سبب هذا الغمّ الّذي أعانيه، ونتابع قول الإمام جعفر رضي الله عنه: "وعجبتُ لمن مُكر به، كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [غافر: من الآية ٤٤]، فإنّي سمعت الله سبحانه وتعالى بعقبها يقول: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾ [غافر: من الآية ٤٥]"، فالله سبحانه وتعالى هو الّذي سيتولّى الرّدّ عليهم ومقابلة مكرهم بمكره سبحانه وتعالى، كما قال جلّ جلاله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ [آل عمران]، "وعجبتُ لمن طلب الدّنيا وزينتها -أي: صاحب الطّموحات في الدّنيا المتطلّع إلى زخرفها- كيف لا يفزع إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [الكهف: من الآية ٣٩]، فإنّي سمعت الله بعقبها يقول: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ [الكهف: من الآية ٤٠]"، فإن قلتها على نعمتك حُفظتْ ونمَتْ، وإن قلتها على نعمة غيرك أعطاك الله سبحانه وتعالى فوقها.

ويستطرد المؤمن، فيُبيِّن لصاحبه ما عَيَّره به من أنّه فقيرٌ وهو غنيٌّ، وما استعلى عليه بماله وولده: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩﴾، ثمّ ذكّره بأنّ الله تعالى قادرٌ على أنْ يُبدِّل هذا الحال، فقال:

(الآية ٤٠) - ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠﴾:

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ﴾: عسى للرّجاء، فإن كان الرّجاء من الله سبحانه وتعالى فهو واقعٌ لا شكَّ فيه؛ لذلك حينما تقول عند نعمة غيرك: (ما شاء الله لا قوّة إلّا بالله) يعطيك الله سبحانه وتعالى خيراً ممّا قُلْت عليه: (ما شاء الله لا قوّة إلّا بالله)، وإن اعترفتَ

بنعمة الله جل جلاله عليك ورددْت الفضل إليه سبحانه وتعالى زادك، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: من الآية ٧]، فقوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾؛ أي: ينقل مسألة الغنى والفقر ويُحوّلها، فأنت لا قدرة لك على حفظ هذه النّعمة، كما أنّك لا قدرةَ لك على جَلْبها من البداية.

﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾: هذه النّعمة الّتي تعتزّ بها وتفخر بزهرتها وتتعالى بها على خَلْق الله يمكن أنْ يُرسلَ الله عز وجل عليها حُسْباناً.

والحُسْبان: الشّيء المحسوب المقدَّر بدقّةٍ وبحساب، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [الرّحمن].

﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾: أي: أنّ هذه الجنّة العامرة بالزّروع والثّمار، المملوءة بالنّخيل والأعناب بعد أن أصابتها الصّاعقة أصبحتْ صَعيداً؛ أي: جدباء يعلُوها التّراب، ليس هذا فقط، بل: ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾؛ أي: تراباً مُبلّلاً تنزلق عليه الأقدام، فلا يصلح لشيءٍ، حتّى المشي عليه.

(الآية ٤١) - ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۝٤١﴾:

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾: أي: غائراً في الأرض، فإنْ قُلْت: يمكن أنْ يكونَ الماء غائراً، ونستطيع إخراجه بالآلات مثلاً، فإنّ القرآن الكريم قطع الأمل في أيّ حيلةٍ فقال:

﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾: أي: لن تصل إليه بأيّ وسيلةٍ من وسائلك، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾ [الملك].

لاحظ أنّ هذا الكلام من المؤمن لصاحبه الكافر مجرّد رجاء يخاطبه به ليذكّره بالإيمان: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ﴾، رجاء لم يحدث بَعْد، ولم يصل إلى إيقاعيّات القدر.

(الآية ٤٢) - ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴿٤٢﴾﴾:

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾: هكذا انتقل الرّجاء إلى التّنفيذ، وكأنّ الله ﷻ استجاب للرّجل المؤمن ولم يكذّب توقّعه.

أحيط: كأنّه جعل حول الثّمر سوراً يحيط به، فلا يكون له منفذٌ، كما قال في آيةٍ أخرى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ [يونس: من الآية ٢٢].

ونلاحظ أنّه ﷻ قال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾، ولم يقُلْ مثلاً: أحيط بزرعه أو بنخله؛ لأنّ الإحاطة قد تكون بالشّيء، ثمّ يثمر بعد ذلك، لكنّ الإحاطة هنا جاءت على الثّمر ذاته، وهو قريب الجنْي قريب التّناول، وبذلك تكون الفاجعة فيه أشدَّ، والثّمر هو الغاية والمحصّلة النّهائيّة للزّرع.

ثمّ يُصوِّر الله ﷻ ندم صاحب الجنّة وأَسَفه عليها:

﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾: أي: يضرب كَفّاً بكفٍّ، كما يفعل الإنسان حينما يفاجئه أمرٌ لا يتوقّعه، فيقف مبهوتاً لا يدري ما يقول، فيضرب كفّاً بكفٍّ لا يتكلّم إلّا بعد أن يُفيق من هَوْل هذه المفاجأة.

يُقلِّب كفَّيْه على أيِّ شيءٍ؟ يُقلِّب كفّيه ندماً على ما أنفق فيها.

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: خاوية: أي: خَربة جَرْداء جَدْباء، كما قال تبارك وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٩]، ومعلومٌ أنّ العروش تكون فوق، فلمّا نزلت عليها الصّاعقة من

السّماء دكَّتْها، وجعلت عاليها سافلها، فوقع العرش أوّلاً، ثمّ تهدَّمتْ عليه الجدران.

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾: بعد أن ألجمتْه الدّهشة عن الكلام، فراحَ يضرب كفَّاً بكفٍّ، أفاق من دهشته، ونزع هذا النّزوع القوليّ الفوريّ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ يتمنّى أنّه لو لم يشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أحداً؛ لأنّ الشّركاء الّذين اتّخذهم من غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم ينفعوه، لذلك قال بعدها:

(الآية ٤٣) - ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ٤٣﴾:

﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: ليس لديه أعوانٌ ونُصراء يدفعون عنه هذا الّذي حَلّ به، ويمنعون عنه الخراب الّذي حاقَ بجنّته.

﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾: أي: ما كان ينبغي له أن ينتصر أبداً، ولا يجوز له الانتصار.

(الآية ٤٤) - ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ٤٤﴾:

﴿هُنَالِكَ﴾: أي: في وقت الحالة هذه، وقتَ أنْ نزلتْ الصّاعقة من السّماء فأتتْ على الجنّة، وجعلتها خاوية على عروشها، هناك تذكّر المنعمَ وتمنّى لو لم يشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾؛ أي: في الوقت الدّقيق وقت القمّة، قمّة النّكَد والكَدَر.

و﴿هُنَالِكَ﴾ جاءت في القرآن الكريم في الأمر العجيب، من ذلك قصّة سيّدنا زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ لمّا دخل على السّيّدة مريم، فوجد عندها رزقاً: ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ

لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ [آل عمران: من الآية ٣٧]، وكان زكريّا عليه السلام هو المتكفّل بها، الّذي يُحضِر لها الطّعام والشّراب، فلمّا رأى عندها أنواعاً من الطّعام لم يأْتِ بها سألها: من أيْن؟ فقالت: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: من الآية ٣٧]، فأطمع هذا القولُ النّبيّ زكريّا عليه السلام في فضل الله تبارك وتعالى، وأراد أن يأخذ بالأسباب، فدعا الله عز وجل أن يرزقه الولد، وقد كانت امرأته عاقراً، فقال جل جلاله: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ﴾ [آل عمران: من الآية ٣٨].

﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾: أن يكون لك وليٌّ ينصرك، فالوليّ هو الّذي يليك، ويدافع عنك وقت الشّدّة، وفي قراءةٍ أخرى: (هُنَالِكَ الْوِلايَةُ) بكسر الواو يعني الملك، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: من الآية ١٦].

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾: لأنّه سيجازى على العمل الصّالح بثواب، هو خيرٌ من الدّنيا وما فيها.

﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾: أي: خير العاقبة بالرّزق الطّيّب في جنّة الخلد.

هكذا ضرب الله سبحانه وتعالى لنا مثلاً، وأوضح لنا عاقبة الغنيّ الكافر، والفقير المؤمن، وبيّن لنا أنّ الإنسان يجب ألّا تخدعه النّعمة ولا يغرّه النّعيم؛ لأنّ كلّ هذا موهوبٌ من الله سبحانه وتعالى، فلا ينسى المنعِمَ سبحانه وتعالى، كي يحافظ له على النّعمة، ولا يكون جاحداً يغترّ بنعمة الله عز وجل.

وينتقل الله سبحانه وتعالى من هذا المثل لحال الحياة الدّنيا؛ لذلك انتقل الحقّ جل جلاله من المثل الجزئيّ إلى المثل العامّ، فقال سبحانه وتعالى:

(الآية ٤٥) - ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾: الله سبحانه وتعالى في هذه الآية يوضّح المجهول لنا بما عُلِم لدينا، ويقول أهل البلاغة: في هذه الآية تشبيه تمثيل؛ لأنّه سبحانه وتعالى شبّه حال الدّنيا في قِصَرها وسرعة زوالها بالماء الّذي نزل من السّماء، فارتوتْ به الأرض، وأنبتتْ ألواناً من الزّروع والثّمار، ولكن سرعان ما يذبلُ هذا النّبات ويصير هشيماً مُتفتّتاً تذهب به الرّيح، وهذه صورةٌ، كما يقولون، منتزعةٌ من مُتعدّدٍ؛ أي: أنّ وجه الشّبه فيها ليس شيئاً واحداً، بل عِدّة أشياء، فإن كان التّشبيه مُركّباً من أشياء متعدّدة فهو مَثَل، وإنْ كان تشبيه شيءٍ مفرد بشيءٍ مفرد يُسمُّونه مِثْل، نقول: هذا مِثْل هذا، وهكذا الدّنيا تبدو جميلةً مُزهِرةً مُثمِرةً حُلْوةً نَضِرةً، فجأة لا تجد في يديك منها شيئاً؛ لذلك سمّاها القرآن الكريم دُنْيا، وهو اسمٌ يُوحي بالحقارة، وإلّا فأيّ وصفٍ أقلّ من هذا يمكن أن يصفها به؟ لنعرف أنّ ما يقابلها حياةٌ عُلْيا في الآخرة. وكأنّ الحقّ سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم: كما ضربتُ لهم مَثَل الرّجلين وما آل إليه أمرهما، اضرب لهم مثل الحياة الدّنيا، وأنّها تتقلّب بأهلها، وتتبدّل بهم، واضرب لهم مثلاً للدّنيا من واقع الدّنيا نفسها.

﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾: أي: اختلط بسببه نبات الأرض، وتداخلَ بعضُه في بعض، وتشابكتْ أغصانه وفروعه، وهذه صورة النّبات في الأرض الخِصْبة، أمّا إنْ كانت الأرض مالحة غير خِصْبة فإنّها تُخرِج النّبات مفرداً، عودٌ

هنا وعودٌ هناك، لكن، هل ظلّ النّبات على حال خُضْرته ونضارته؟ لا، بل سرعان ما جفَّ وتكسّر وصار هشيماً تطيح به الرّيح وتذروه، هذا مثلٌ للدّنيا حين تأخذ زخرفها وتتزيَّن، كما قال سُبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: من الآية ٢٤].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾: لأنّه سُبحانه وتعالى القادر دائماً على إخراج الشّيء إلى ضِدّه، كما قال جلّ جلاله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ۝١٨﴾ [المؤمنون: من الآية ١٨]، فقد اقتدر سُبحانه وتعالى على الإيجاد، واقتدر على الإعدام، فلا تنفكّ عنه صفة القدرة أبداً، أحيا وأمات، وأعزَّ وأذلَّ، وقبض وبسط، وضَرَّ ونفع.

ولمّا كان الكلام السّابق عن صاحب الجنّة الّذي اغترّ بماله وولده فناسب الحديث عن المال والولد، فقال سُبحانه وتعالى:

(الآية ٤٦) - ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝٤٦﴾:

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: تلك هي العناصر الأساسيّة في فتنة النّاس في الدّنيا: المال والأولاد، لكن لماذا قدَّم المال؟ أهو أغلى عند النّاس من الأولاد؟ نقول: قدَّم الله سُبحانه وتعالى المال على الأولاد، ليس لأنّه أعزُّ أو أغلى؛ إنّما لأنّ المال عامٌّ في المخاطب على خلاف البنين، فكلُّ إنسان لديه المال وإنْ قلَّ، أمّا البنون فهذه خصوصيّة، ومن النّاس مَنْ حُرِم منهم، كما أنّ البنين لا تأتي إلّا بالمال؛ لأنّه يحتاج إلى الزّواج والنّفقة لكي يتناسل ويُنجب، فكلّ إنسانٍ له مال، وليس لكلّ إنسانٍ أولاد، والحكم هنا قضيّةٌ عامّةٌ، وهي: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

﴿زِينَةُ﴾: أي: ليست من ضروريّات الحياة، فهو مجرّد شكلٍ وزخرف؛ لأنّ المؤمن الرّاضي بما قُسِمَ له يعيش حياته سعيداً من غير مال وأولاد؛ لأنّ الإنسان قد يشقَى بماله، أو يشقى بولده، لدرجة أنّه يتمنّى لو مات قبل أن يُرزقَ هذا المال أو هذا الولد، وقد باتت مسألة الإنجاب عُقْدةً ومشكلةً عند كثيرٍ من النّاس، فترى الرّجل كَدِراً مهموماً؛ لأنّه يريد الولد ليكون له عِزْوة وعِزّة، وربّما يُرزَق الولد ويرى الذُّلَّ على يديه، وكم من المشكلات تُثار في البيوت؛ لأنّ الزّوجة لا تنجب، ولو أيقن النّاس أنّ الإيجاد من الله سُبحانه وتعالى نعمةٌ، وأنّ السَّلْب منه سُبحانه وتعالى أيضاً نعمةٌ لاستراح الجميع، ألم نقرأ قول الله سُبحانه وتعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشّورى]، فالعُقْم في ذاته نعمةٌ من الله جلّ جلاله لو قبلها الإنسان من ربّه لَعوَّضه الله سُبحانه وتعالى عن عُقْمه بأنْ يجعل أبناء المجتمع أبناءه، ينظرون إليه ويعاملونه كأنّه أبٌ لهم، فيذوق من خلالهم لذَّة الأبناء.

كذلك، من يتكدّر لأنّ الله سُبحانه وتعالى رزقه بالبنات من غير البنين، ويكون كالّذي قال الله سُبحانه وتعالى فيه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النّحل]، إنّه يريد الولد ليكون عِزْوةً وعِزّةً، ونسي أنّ عزّة المؤمن بالله سُبحانه وتعالى لا بغيره، نقول له: والله لو استقبل الإنسان البنت بالفرح والرّضا على أنّها هِبَةٌ وعطاءٌ من الله جلّ جلاله لكانتْ سبباً في البرّ وسبباً في سعادة الأب والأمّ، قد لا يأتي بها الولد.

فالمال والبنون من زينة الحياة وزخرفها، وليسا من الأساسيّات، وقد حدّد لنا النّبيّ ﷺ الدّنيا، فقال: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِناً فِي سِرْبِهِ مُعَافىً فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»(١)، فما زاد عن ذلك فهو زينة الحياة الدّنيا، فالإنسان يستطيع في هذه الحياة أن يعيش بالقليل من المال، أو من غير ولد.

﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا﴾: لأنّ المال والبنين لن يدخلا معك القبر، ولن يمنعاك من العذاب، ولن ينفعك إلّا الباقيات الصّالحات، والنّبيّ ﷺ حينما أُهديَتْ إليه شاة، وكانت السّيّدة عائشة رضي الله عنها تعرف أنّ رسول الله ﷺ يحبّ من الشّاة الكتف؛ لأنّه لَحْم رقيق خفيف؛ لذلك احتفظتْ لرسول الله ﷺ بالكتف وتصدّقت بالباقي، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا بَقِيَ مِنْهَا؟»، قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلّا كَتِفُهَا، قَالَ: «بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا»(٢)، وفي حديثٍ آخر قال ﷺ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟»(٣)، فالخير بالعطاء والإنفاق، ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾.

والسّؤال الّذي يتبادر إلى الذِّهْن الآن: إذا لم يكُنْ المال والبنون يمثّلان ضرورة من ضروريّات الحياة، فما الضّروريّات في الحياة؟ الضّروريّات في الحياة

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب الزّهد، الحديث رقم (٢٣٤٦).
(٢) سنن التّرمذيّ: أبواب صفة القيامة والرّقائق والورع، الحديث رقم (٢٤٧٠).
(٣) صحيح مسلم: كتاب الزّهد والرّقائق، الحديث رقم (٢٩٥٨).

هي كُلُّ ما يجعل الدّنيا موصولة بالآخرة، ووسيلة لحياة باقية دائمة ناعمة مُسعدة، بالعمل الصّالح وإسعاد الآخرين.

الضّروريّات هي القيم ومنهج الله سبحانه وتعالى الّذي يحدّد حركة الحياة وَفْق ما أراده الله سبحانه وتعالى من خلقه.

وما دام قال: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ﴾ فمعنى هذا أنّ ما قبلها لم يكُنْ من الباقيات، بل هو زائلٌ بزوال الدّنيا، لذلك كان سيّدنا عمر بن عبد العزيز يقول: "يا ساكن القبر غداً، ما غرّك من الدّنيا، هل تعلم أنّك تبقى أو تبقى لك؟! جاء الأمر من السّماء، جاء غالب القدر والقضاء، جاء من الأمر الأجل ما يمتنع منه، هيهات يا مغمض الوالد والولد والأخ ومكفّنه، يا مغسّل الميّت ومخلّيه، يا تاركه وذاهباً عنه ماذا تقول لملك الموت؟".

ثمّ وصفها بالصّالحات ليفرّق بينها وبين الباقيات السّيّئات الّتي يخلّد الإنسان بها في النّار.

﴿خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾: خيرٌ عند مَنْ؟ لأنّ كلّ مضافٍ إليه يأتي على قوّة المضاف إليه، فخَيْرك غير خير مَنْ هو أغنى منك، غير خير الحاكم، فما بالك بخيرٍ عند الله عزّ وجلّ؟

﴿وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾: الأمل: ما يتطلّع إليه الإنسان ممّا لم تكُنْ به حالته، فإنْ كان عنده خيرٌ تطلّع إلى أعلى منه، فالأمل الأعلى عند الله سبحانه وتعالى، كُلُّ هذا يُبيّن لنا أنّ هذه الدّنيا زائلةٌ، وأنّنا ذاهبون إلى يوم بَاقٍ؛ لذلك أردف الحقّ سبحانه وتعالى بعد الباقيات الصّالحات ما يناسبها:

(الآية ٤٧) - ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ٤٧﴾:

﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾: أي: اذكر يوم نُسيِّر الجبال وتنتهي هذه الدّنيا، واعملوا الباقيات الصّالحات؛ لأننا سنُسيّر الجبال الّتي ترونها ثابتةً راسخةً تتوارث الأجيال حجمها وجِرْمها، وقوّتها وصلابتها، وهي باقيةٌ على حالها.

ومعنى تسيير الجبال: إزالتها عن أماكنها، كما قال سُبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ٢٠﴾ [النّبأ]، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣﴾ [التّكوير]، وقال جلّ جلاله: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ١٠﴾ [المرسلات]، وقال سُبحانه وتعالى: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٩﴾ [المعارج].

ونلحظ أنّ الحقّ سُبحانه وتعالى ذكر أقوى مظهرٍ ثابتٍ في الحياة الدّنيا، وإلّا ففي الأرض أشياء أخرى قويّة وثابتة كناطحات السّحاب، والشّجر الكبير الضّخم وغيرها كثير، فإذا كان الحقّ سُبحانه وتعالى سينسف هذه الجبال ويُزيلها عن أماكنها، فغيرها ممّا على وجه الأرض زائلٌ من باب أَوْلَى.

﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ﴾: الأرض: كُلّ ما أقلَّك من هذه البسيطة الّتي نعيش عليها، وكلّ ما يعلوك ويُظِلُّك فهو سماء.

﴿بَارِزَةٗ﴾: البَرَازُ: هو الفضاء؛ أي: وترى الأرض فضاءً واسعاً خاليةً ممّا كان عليها من أشكال الجبال والمباني والأشجار، حتّى البحر الّذي يغطّي جزءاً كبيراً من الأرض، كلّ هذه الأشكال ذهبتْ لا وجودَ لها، فكأنّ الأرض بَرَزَتْ بعد أنْ كانت مختبئة، بعضها تحت الجبال، وبعضها تحت الأشجار، وبعضها

تحت المباني، وبعضها تحت الماء، فأصبحتْ فضاءً واسعاً، ليس فيه مَعْلَمٌ لشيءٍ. ومن ذلك ما نُسمّيه نحن المبارزة، فنرى الفتوّة يقول للآخر: (ابرز لي)؛ أي: في مكانٍ خالٍ حتّى لا يجد شيئاً يحتمي به.

﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ﴾: أي: جمعناهم ليوم الحساب؛ لأنّهم فارقوا الدّنيا على مراحل من لَدُن آدم عليه السلام، والموت يحصد الأرواح، وقد جاء اليوم الّذي يُجمع فيه هؤلاء.

﴿فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾: أي: لم نترك منهم واحداً، كلُّهم سيعرضون على الله تعالى، وكلمة: ﴿نُغَادِرۡ﴾ من مادّة (غدر) وتؤدّي جميعها معنى التّرْك، فالغدر مثلاً تَرْك الوفاء وخيانة الأمانة، حتّى غدير وهو جدول الماء الصّغير سُمّي غديراً؛ لأنّ المطر حينما ينزل على الأرض يذهب ويترك شيئاً قليلاً في المواطئ.

(الآية ٤٨) - ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ٤٨﴾:

﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾: العرض: أن يستقبل العارض المعروضَ استقبالاً مُنظّماً يدلّ على كُلِّ هيئاته، كما يستعرض القائد الجنود في العرض العسكريّ مثلاً، فيرى كلّ واحدٍ من جنوده.

﴿صَفّٗا﴾: أي: صُفوفاً منتظمة، حتّى الملائكة تأتي صُفوفاً، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ [الفجر]؛ أي: أنّها عمليّةٌ مُنظّمةٌ لا يستطيع فيها أحدٌ التّخفّي، ولن يكون لأحدٍ منها مفرٌّ، وهي صفوفٌ متداخلةٌ بطريقةٍ لا يُخفي فيها صَفٌّ الصّفَّ الّذي يليه، فالجميع واضحٌ بكلّ أحواله، وفي الحديث عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعَالَى يُنَادِي**

يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَوْتٍ رَفِيْعٍ غَيْرِ فَظِيْعٍ: يَا عِبَادِي، أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ، وَأَحْكَمُ الحَاكِمِيْنَ، وَأَسْرَعُ الحَاسِبِينَ، يَا عِبَادِي، لَا خَوْفٌ عَلَيْكُم الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُوْنَ، فَأَحْضِرُوا حُجَّتَكُمْ وَيَسِّرُوا جَوَاباً، فَإِنَّكُمْ مَسْؤُوْلُوْنَ مُحَاسَبُوْنَ، يَا مَلَائِكَتِي، أَقِيْمُوا عِبَادِي صُفُوفاً عَلَى أَطْرَافِ أَنَامِلِ أَقْدَامِهِمْ لِلْحِسَابِ»[1]، ولنا أنْ نتصوَّر هذا الموقف العظيم الّذي يتمّ فيه الحساب والوقوف بين يدي الله سُبحانه وتعالى.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: أي: على الحالة الّتي نزل بها الإنسان من بطن أمّه، لا يملك شيئاً، وقد فُصِّل هذا المعنى في قوله سُبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام].

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾: والخطاب هنا مُوجَّهٌ للكفّار الّذين أنكروا البعث والحساب.

﴿زَعَمْتُمْ﴾: والزّعْم مطيّة الكذب.

(الآية ٤٩) - ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾:

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾: أي: وضعته الملائكة بأمرٍ من الله سُبحانه وتعالى، فيعطون كلّ واحدٍ كتابه، فهي صورٌ متعدّدةٌ، فمَنْ أخذ كتابه بيمينه فرح وقال: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا

(١) جامع الأحاديث: حرف الهمزة، الحديث رقم (٧٣٤١).

﴿كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾ [الحاقّة: من الآية ١٩]، يعرضه على ناسٍ وهو فخورٌ بما فيه ويتباهى به؛ لأنّه كتابٌ مُشرِّفٌ ليس فيه ما يُخجِل، وهذا بخلاف مَنْ أوتي كتابه بشماله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ٢٦ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ٢٧ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ [الحاقّة]، إنّه الخزي والانكسار والنّدم على صحيفةٍ مُخْجِلةٍ.

﴿فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾: أي: خائفين يرتعدون، والحقّ جلّ وعلا يصوّر لنا حالة الخوف هذه لِيُحذّر العباد ويُضخِّم لهم العقوبة، وهم ما يزالون في وقت التّدارك والتّعديل في الحياة، وهذا من رحمة الله تبارك وتعالى بعباده.

﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا﴾: يا: أداةٌ للنّداء، كأنّهم يقولون: يا حسرتنا.. يا هلاكنا، ومن ذلك قوله ﷻ في قصّة ابنَي آدم ؈ لمّا قتل قابيل هابيل، وكانت أوّل حادثة قتلٍ؛ لذلك بعث الله ﷻ له غراباً يُعلِّمه كيف يدفن أخاه، فقال: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾ [المائدة: من الآية ٣١]، يا ويلتى؛ أي: يا هلاكي.

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾: أي: لا يترك كبيرةً أو صغيرةً إلّا عدَّها وحسبها وبيّنها ووضّحها.

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾: فكلّ ما فعلوه مُسجَّلٌ مُسطّرٌ في كُتبهم.

﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾: لأنّه ﷻ عادلٌ لا يؤاخذهم إلّا بما عملوه، كما قال ﷻ: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾ [الأنبياء].

(الآية ٥٠) - ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ٥٠﴾:

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾: تكرّرتْ قصّة سجود الملائكة لآدم عليه السلام كثيراً في القرآن الكريم، وفي كلّ مرّةٍ تُعطينا الآياتُ لقطةً معيّنة، والله سبحانه وتعالى في هذه الآية يقول لنا: يجب عليكم أنْ تذكروا جيّداً عداوة إبليس لأبيكم آدم، وتذكروا جيّداً أنّه أخذ العهد على نفسه أمام الله سبحانه وتعالى أنْ يُغويكم أجمعين، فكان يجب عليكم أن تنتبهوا لهذه العداوة، فإذا حدّثكم بشيءٍ فاذكروا عداوته لكم.

والحقّ سبحانه وتعالى حينما يُحذّرنا من إبليس فإنّه يُربِّي فينا المناعة الّتي نُقاومه بها، والمناعة أنْ تأتيَ بالشّيء الّذي يضرُّ مستقبلاً حين يفاجئك وتضعه في الجسم في صورة مكروب خامد، وهذا هو التّطعيم الّذي يُعوِّد الجسم على مدافعة المرض ويتغلَّب عليه إذا أصابه.

والمناعة ضدّ إبليس، هو التّذكير بما كان منه لأبينا آدم عليه السلام واستكباره عن السّجود له، وأن نذكر دائماً قوله: ﴿أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٢﴾ [الإسراء: من الآية ٦٢]، فانتبهوا ما دام الله سبحانه وتعالى سيُسيّر الجبال، ويُسوّي الأرض، ويحضر لكلٍّ كتابه، فاحذروا أنْ تقفوا موقفاً حرجاً يوم القيامة، ثمّ تُفَاجؤوا بكتابٍ لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً، فيذكّرنا الله سبحانه وتعالى من الآن في وقت السَّعة والتّدارك، أن ننتبه ونتوب.

والأمر هنا جاء للملائكة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾؛ لأنّهم أشرف المخلوقات، حيث لا يعصون الله ﷻ ما أمرهم، ويفعلون ما يُؤمَرُون، وحين يأمر الله ﷻ الملائكة بالسّجود لآدم، فهذا يعني الخضوع لأمر الآمر، وليس السّجود لغير الله ﷻ، فآدم ﷺ هو خليفة الله ﷻ على الأرض الّذي آمُرُكُم أنْ تكونوا في خدمته، لذلك سمَّاهم: المدبّرات أمراً، وقال ﷻ عنهم: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرّعد: من الآية ١١]، فكأنّ مهمّة هؤلاء الملائكة أن يكونوا مع البشر وفي خدمتهم، فإذا كان الله ﷻ قد جنَّد هؤلاء الملائكة وهم أشرفُ المخلوقات لخدمة الإنسان، وأمرهم بالسّجود له إعلاناً للخضوع، فمن باب أَوْلى أن يخضع له الكون كلّه بسمائه وأرضه، وأن يجعلَه في خدمته، وإنّما ذكر أشرف المخلوقات لينسحب الحكم على مَنْ دونهم. واختلف بعض العلماء على ماهيّة إبليس: أهو من الجنّ أم من الملائكة، وقد قطعت هذه الآية هذا الخلاف وحَسَمَتْه، فقال ﷻ:

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾: وبما أنّ القرآن الكريم جاء بالنّصّ الصّريح الّذي يُوضّح جنسيّته، فليس لأحدٍ أن يقول: إنّه كان من الملائكة، وما دام كان من الجنّ، وهم جنسٌ مختارٌ في أنْ يفعل أو لا يفعل، فقد اختار ألَّا يفعل.

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾: أي: رجع إلى أصله، وخرج عن الأمر الّذي جاء للعموم ورفض الامتثال.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾: فهذا أمرٌ عجيبٌ، فكيف بعد ما حدث منه تجعلونه وليّاً من دون الله ﷻ الّذي خلقكم ورزقكم؟

﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾: تدلّ على تناسل إبليس، وأنّ له أولاداً، وأنّهم يتزاوجون،

ويمكن أن نقول: ذرّيّته: كلّ مَنْ كان على طريقته في الضّلال والإغواء، ولو كان من الإنس، كما قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: من الآية ١١٢].

﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾: أي: بئس البدل أن تتّخذوا إبليس الّذي أبى واستكبر أنْ يسجدَ لأبيكم وَليّاً، وتتركوا ولاية الله ﷻ الّذي أمر الملائكة أنْ تسجدَ لأبيكم.

(الآية ٥١) - ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١﴾:

﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: إنّ هذا الشّيطان الّذي واليتموه من غير الله ﷻ، وأعطيتموه الميْزة، واستمعتم إليه ما أشهدته ولا أحداً غيره خَلْق السّموات والأرض مجرّد المشاهدة، لم يحضروها؛ لأنّ خَلْق السّموات والأرض كان قبل خَلْقهم، وكذلك ما شَهِدوا خَلْق أنفسهم، فهم لم يشهدوا شيئاً من ذلك لكي يخبروكم.

والله ﷻ هو الّذي أخبر بكيفيّة خلق الإنسان، فعندما يقول: من تراب.. من ماء.. من طين.. من صلصال.. من حمأ مسنون.. عندما يتحدّث المولى ﷻ عن هذه العوامل متفرّقةً أو مجتمعةً فإنّ الله ﷻ بيّنها بنقيضها عند الموت كيف يتحلّل جسد الإنسان بعد خروج الرّوح، وكيف تنعكس الأمور كما بدأت، فعندما تخرج الرّوح من الجسد يصبح الجسد كالصّلصال ثمّ طيناً ثمّ يتبخّر الماء ويتحوّل إلى ترابٍ، والله ﷻ هو الّذي أخبرنا بذلك.

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾: أي: مساعدين ومعاونين ومساندين، فما أشهدتهم الخَلْق وما عاونني فيه أحدٌ.

والعَضُد: هو القوّة الّتي تُسعفك وتسندك، وهو مأخوذٌ من عَضُد الإنسان، حيث يزاول أغلب أعماله بيده، وحين يزاول أعماله بيده تتحرّك فيه مجموعةٌ من الأعضاء قَبْضاً وبَسْطاً واتّجاهاً يميناً وشمالاً، وأعلى وأسفل، وهذه الحركات لا بُدَّ لها من مُنظِّمٍ هو العضد، وفي حركة اليد ودقّتها في أداء مهمّتها آياتٌ عُظْمى تدلُّ على دِقَّة الصَّنْعة.

وحينما صنع الإنسان ما يشبه الذّراع واليد البشريّة من الآلات الحديثة، تجده يقوم بعدّة حركات لكي يُحرِّك هذه الآلة، أمّا أنت فتحرِّك يدك كما شئْتَ من غير أن تعرف ماذا يحدث؟ وكيف تتمّ لك هذه الحركة بمجرّد أن تُفكِّر فيها من غير جهد منك أو تدبير؟ فكلّ أجزائك مُسخَّرة لإرادتك، فإنْ أردتَ القيام مثلاً قمتَ على الفور؛ لذلك إيّاك أنْ تظنّ أنّك خَلْقٌ ميكانيكيٌّ، بل أنت صَنْعةٌ ربّانيّةٌ، بدليل أنّه إذا أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُوقِف جزءاً منك أمر المخّ أنْ يقطعَ صِلَته به، فيحدث الشّلل التّامّ، ولا تستطيع أنت دَفْعَه أو إصلاحه.. ونرى في آياتٍ أخرى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قصّة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: من الآية ٣٥]؛ أي: نُقوِّيك ونُعطيك السَّنَد والعَوْن.

(الآية ٥٢) - ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ٥٢﴾:

يعني: اذْكر يا محمّد، ولتذْكُرْ معك أمّتك هذا اليوم:

﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾: يقول الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للكفّار: ادعوا شركائي الّذين اتّخذتموهم من دوني.

﴿زَعَمۡتُمۡ﴾: أي: كذّبتم في ادّعائكم أنّهم آلهة.

﴿فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾: ومنهم مَنِ اتّخذوا آلهةً أخرى، كالشّمس والقمر والأصنام وغيرها، ومنهم مَنْ عبد أناساً مثلهم وأطاعوهم، وهؤلاء كانوا موجودين معهم، ويصحّ أنّهم دَعَوْهم ونادوهم: تعالوا، جادلوا عنّا، وأخرجونا ممّا نحن فيه، لقد عبدناكم وكنّا طَوْعَ أمركم، كما قال ﷻ عنهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزّمر: من الآية ٣]، ولكن، أنَّى لهم ما يريدون؟ فقد تقطّعتْ بينهم الصّلات، وانقطعت حجّتهم: ﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾، ثمّ جعل الله ﷻ بين الدّاعي والمدعو وادياً سحيقاً:

﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا﴾: والمَوْبِق: المكان الّذي يحصل فيه الهلاك، قال العلماء: هو وَادٍ من أودية جهنّم يهلكون فيه جميعاً، أو: أنّ بين الدّاعي والمدعو مكاناً مُهْلكاً، فلا الدّاعي يستطيع أنْ يلوذَ بالمدعو، ولا المدعو يستطيع أنْ ينتَصرَ للدّاعي ويُسعفه؛ لأنّ بينهم منبعَ هلاك، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ٣٣ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ٣٤﴾ [الشّورى]، يعني: يهلكهنّ، ومن العجيب أن تكون هذه أوّلَ إطاعة منهم لله ﷻ، فلمّا قال لهم: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾، استجابوا لهذا الأمر، في حين أنّهم لم يطيعوا الأوامر الأخرى في الدّنيا.

(الآية ٥٣) - ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ٥٣﴾:

﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾: الرّؤية: وقوع البصر على المرئيّ، والرّؤية هنا مِمّن سيُعذّب في النّار، وقد تكون الرّؤية من النّار الّتي ستعذِّبهم؛ لأنّها تراهم

وتنتظرهم وتناديهم، كما قال ﷻ: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ۝٣٠﴾ [ق]، فهي مستعدّةٌ لملاقاتهم.

المجرمون: الّذين ارتكبوا الجرائم، وعلى رأسها الكفر بالله ﷯.

فالرّؤية هنا متُبَادلة: المعذِب والمعذَّب، النّار ومن سيقع في النّار، كلاهما يرى الآخر ويعرفه.

﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾: الظّنّ: هنا يُراد منه اليقين؛ أي: أيقنوا أنّهم واقعون فيها، كما جاء في قول الحقّ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦﴾ [البقرة]؛ أي: يوقنون.

﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا﴾: أي: في حين أنّ بينهما مَوْبقاً، وأيضاً لا يجدون مفرّاً يفرّون منه، أو ملجأً يلجؤون إليه، أو مكاناً ينصرفون إليه بعيداً عن النّار، فالمَوْبِق موجودٌ، والمصْرِف مفقودٌ.

(الآية ٥٤) - ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ۝٥٤﴾:

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾: سبق أن تكلّمنا عن تصريف الآيات، وقلنا: إنّ التّصريف معناه تحويل الشّيء إلى أشياء متعدّدة، كما يصرّف الله ﷻ الرّياح مثلاً، فلا تأتي من ناحيةٍ واحدة، بل تأتي مرّةً من هنا، ومرّةً من هناك، كذلك صرّف الله ﷯ الأمثال؛ أي: أتى بأحوالٍ متعدّدةٍ وصُورٍ شتّى منها.

والحقّ ﷻ يضرب الأمثال كأنّه يقرع بها آذان النّاس لأمرٍ قد يكون غائباً عنهم، فيمثّله بأمرٍ واضحٍ لهم، مُحَسٍّ ليتفهّموه تفهّماً دقيقاً.

وما دام الحقّ ﷻ صرّف في هذا القرآن الكريم من كلّ مثَلٍ، فلا عُذْر لمن لم يفهم، فالقرآن الكريم قد جاء على وجوهٍ شتّى ليُعلّم النّاس على اختلاف أفهامهم ومواهبهم؛ لذلك نرى الأمّيّ يسمعه فيأخذ منه على قدر فَهْمه، والنّصف مثقّف يسمعه فيأخذ منه على قدر ثقافته، والعالم الكبير يأخذ منه على قدر علمه ويجد فيه بُغْيته، بل وأكثر من ذلك، فالمتخصّص في أيّ علمٍ من العلوم يجد في كتاب الله ﷿ أدقّ التّفاصيل؛ لأنّ الحقّ ﷻ بيّن فيه كلّ شيءٍ.

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾: أي: كثير الخصومة والتّنازع في الرّأي، والجدل: هو المحاورة ومحاولة كلّ طرفٍ أن يثبت صِدْق مذهبه وكلامه، والجدل إمّا أن يكون بالباطل لتثبيت حجّة الأهواء وفيه مراوغة لتبرير خطأ، وهذا هو الجَدل المعيب القائم على الأهواء، وإمّا أن يكون الجدل بالحقّ، وهو الجدل البنّاء الّذي يستهدف الوصول إلى الحقيقة، وهذا بعيدٌ كلّ البعد عن التّحيّز للهوى أو الأغراض.

ولمّا تحدَّث القرآن الكريم عن الجدل قال ﷻ: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: من الآية ٤٦]، وقال ﷻ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: من الآية ١٢٥]، والنّبيّ ﷺ لمّا مرَّ على عليٍّ وفاطمة ﵄ ليوقظهما، وطرق عليهما الباب مرّةً بعد أخرى، ويبدو أنّهما كانا مستغرقيْن في نومٍ عميق، فنادى عليهما ﷺ: «أَلَا تُصَلُّونَ؟»، فَقَالَ عَلِيٌّ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَالَ لَهُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ شَيْئاً، ثُمَّ سَمِعَهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ، يَضْرِبُ فَخِذَهُ

وَهُوَ يَقُولُ: «﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾»[1]؛ لأنّ الإنسان له أهواءٌ متعدّدةٌ وخواطر متباينة، ويحاول أنْ يُدلّل على صحّة ذلك بالحجّة، وهناك أناسٌ يقارعون الحقّ ويغالطون ويراوغون، ولو دقّقنا في رأيهم لوجدنا لهم هوىً يسعون إليه ويميلون إلى تحقيقه.

(الآية ٥٥) - ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ٥٥﴾:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾: ما الّذي منعهم أن يؤمنوا بعد أن أنزل الله سبحانه وتعالى عليهم القرآن الكريم، وصرّف فيه من الآيات والأمثال، بعد أن جاءهم مطابقاً لكلّ الأحوال؟

﴿وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ﴾: أي: على ما فات من المهاترات والتّعنّتات والاستكبار على قبول الحقّ.

وفي آيةٍ أخرى، أوضح الله سبحانه وتعالى سبب إعراضهم عن الإيمان، فقال جلّ جلاله: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٨٩ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣﴾ [الإسراء]، فكلُّ هذه التّعنّتات وهذا العناد هو الّذي حال بينهم وبين الإيمان بالله عزّ وجلّ، والله سبحانه وتعالى

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة، باب قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾، الحديث رقم (٧٣٤٧).

حينما يأتي بآيةٍ طلبها القوم، ثمّ لم يؤمنوا بها يُهلكهم؛ لذلك قال ﷻ بعدها:

﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: أي: بهلاك المكذّبين، فهذه هي الآية الّتي تنتظرهم: أن تأتيهم سُنَّة الله ﷻ في إهلاك مَنْ كذّب الرّسل، فقبل الإسلام، كانت السّماء هي الّتي تتدخّل لنُصْرة العقيدة، فكانت تدكُّ عليهم قُراهم ومساكنهم، فالرّسول عليه الدّعوة والبلاغ، ولم تكن من مهمّته دعوة النّاس إلى الحرب، والخارجين عن طاعة الله ﷻ كانت السّماء تتدخّل كما حدث مع الأقوام السّابقة.

﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾: أي: مُقابِلاً لهم، وعياناً أمامهم.

أو ﴿قُبُلٗا﴾: جمع قبيل، وهي ألوانٌ متعدّدةٌ من العذاب، كما قال ﷻ: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: من الآية ٤٧]؛ أي: لهم عذابٌ غير النّار، فألوان العذاب لهم متعدّدة.

ثمّ يُسلّي المولى ﷻ قلب النّبيّ ﷺ حتّى لا يأبه لعمل الكفّار، ولا يهلك نفسه أَسَفاً على إعراضهم، فيقول ﷻ:

(الآية ٥٦) - ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ٥٦﴾:

﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾: قلنا: إنّ الجدل قد يكون بالحقّ، وقد يكون بالباطل كما يفعل الّذين كفروا هنا، فيجادلون بالباطل ويستخدمون كلّ الحِيَل لدحْضِ الحقّ؛ أي: ليُعطّلوه ويزيلوه.

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾: أي: الآيات الكونيّة الّتي جاءت لتصديق الرّسل، وكذلك آيات القرآن الكريم، وآيات الأحكام اتّخذوها سُخْريةً واستهزاءً، ولذلك قال الحقّ سُبحانه وتعالى:

(الآية ٥٧) - ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٥٧﴾:

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾: جاء الخبر على صورة الاستفهام لتأكيد الكلام، فهنا الهمزة للاستفهام، وعندما تقول لشخصٍ ما: صنعتُ معك كذا وكذا على سبيل الخبر منك، فالكلام يحتمل الصّدق ويحتمل الكذب، إنّما لو عرضْتَ المسألة على سبيل الاستفهام فقُلْتَ له: ألم أصنع معك كذا؟ فسوف تجتذب منه الإقرار بذلك، وتُقيم عليه الحجّة من كلامه هو، وأنت لا تستفهم عن شيءٍ من خَصْمٍ إلّا وأنت واثقٌ أنّ جوابه لا يكون إلّا بما تحبّ، وهكذا أخرج الحقّ سُبحانه وتعالى الخبر إلى الاستفهام: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾؟ وترك لنا الجواب لنقول نحن: لا أحدَ أظلمُ ممَّنْ فعل ذلك، والإقرار سيّد الأدلّة.

﴿فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾: تركها.

﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾: نسي السّيّئات، وكان من الواجب أن ينتبه إلى هذه الآيات فيؤمن بها، لعلّ الله عزّ وجلّ يتوب عليه بإيمانه، فيُبدِّل سيّئاته حسناتٍ.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: أكنّة: جمع كِنّ، أغطية، فجعل الله ﷻ على قلوبهم أغطيةً، فلا يدخلها الإيمان، ولا يخرج منها الكفر، وليس هذا اضطهاداً منه ﷻ لعباده، تعالى الله ﷻ عن ذلك علوّاً كبيراً، بل استجابةً لما طلبوا، وتلبيةً لما أحبُّوا، فلمّا أحبُّوا الكفر وانشرحتْ به صدورهم زادهم منه؛ لأنّه رَبٌّ يعطي عبده ما يريد، كما قال عنهم في آيةٍ أخرى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾ [البقرة]، وقال تبارك وتعالى في هذا المعنى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: من الآية ٧].

﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾: أي: يفهمونه، يفهمون آيات الله ﷻ؛ لأنّهم سبق أنْ ذُكِّرُوا بها فأعرضوا عنها، فحرَمهم الله ﷻ فقهها وفهمها.

﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾: أي: صمماً، فلا يسمعون.

﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾: وهذا أمرٌ طبيعيٌّ، بعد أن ختم الله ﷻ على قلوبهم وعلى أسماعهم، وسدّ عليهم منافذ العلم والهداية؛ لأنّ الهدى ناشئٌ من أن تسمع كلمة الحقّ، فيستقبلها قلبك بالرّضا، فتنفعل لها جوارحك بالالتزام، فتسمع بالأذن، وتُقْبِل بالقلب، وتنفعل بالجوارح طاعةً والتزاماً بما أُمِرَتْ به، وما دام في الأذن وَقْرٌ وصَمَمٌ فلن تسمع، وإنْ سمعتْ شيئاً أنكره القلب، والجوارح لا تنفعل إلّا بما شُحِن به القلب من عقائد. وعندما يقول الله ﷻ: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾، فمهما كانت الدّعوة إلى الهدى فلن يهتدوا؛ لأنّهم أصمّوا آذانهم وأغلقوا قلوبهم، وهم الّذين جعلوا الرّان والأكنّة على قلوبهم.

(الآية ٥٨) - ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ۝٥٨﴾:

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾: فمن رحمة الله ﷻ بالكفّار أنّه لم يعاجلهم بعذابٍ يستأصلهم، بل أمهلهم وتركهم؛ لأنّ لهم موعداً لن يهربوا منه، ولن يُفلِتوا، ولن يكون لهم مَلْجأٌ يحميهم منه، ولا شكَّ أنّ في إمهالهم في الدّنيا حكمةً لله ﷻ بالغةً، ولعلّ الله سبحانه وتعالى يُخرِج من ظهور هؤلاء مَنْ يؤمن به، ومَنْ يحمل راية الإيمان ويدافع عنها، وقد حدث هذا كثيراً في تاريخ الإسلام، فمِنْ ظَهْر أبي جهلٍ جاء عكرمة، وأمهل الله سبحانه وتعالى خالد بن الوليد، فكان من أعظم القادة في الإسلام.

﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ﴾: أي: في الدّنيا.

﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ﴾: وهو يوم القيامة.

﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾: موئلاً؛ أي: ملجأً.

(الآية ٥٩) - ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ۝٥٩﴾:

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾: تلك: أداة إشارة لمؤنّث؛ أي: هي القرى، والكاف للخطاب، والخطاب هنا للنّبيّ ﷺ، وأمّته مُنْضويةٌ في خطابه؛ لأنّ خطابَ الرّسول ﷺ خطابٌ لأمّته، لكنّ الإشارة لا تكون إلّا لشيءٍ معلومٍ موجودٍ مُحَسٍّ، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧﴾ [طه]، فأين هذه القُرَى؟ وهل كان لها وجودٌ على عهد النّبيّ ﷺ؟ نعم، كان لهذه القرى

آثارٌ وأطلالٌ تدلّ عليها، ويراها النّبيّ ﷺ ويراها النّاس في رحلاتهم إلى الشّام وغيرها، مثل: قُرَى ثمود قوم صالح عليه السلام، وقرى قوم لوط عليه السلام، وقد قال سبحانه وتعالى عنها: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾ [الصّافّات]، فتلك: إشارةٌ إلى موجود مُحَسٍّ دَالٍّ بما تبقّى منه على ما حاق بهذه القرى من عذاب الله عز وجل، وما حلَّ بها من بأْسِه الّذي لا يُرَدُّ عن القوم الظّالمين.

﴿ٱلۡقُرَىٰٓ﴾: جمع قرية، وتُطلَق على المكان الّذي تتوفّر فيه مُقوِّمات الحياة وضروريّاتها، بل بها ما يزيد على الضّروريّات ومُقوّمات الحياة العاديّة؛ لأنّ القرية لا تُطلَق إلّا على مكانٍ تتّسع فيه مُقوِّمات الحياة اتّساعاً يكفي لمن يطرأ عليها من الضّيوف فيجد بها قِرىً، فإنْ كانت قريةً كبيرةً يأتيها الرّزق الوفير من كلّ مكانٍ كأنّها أُمٌّ، نسمّيها (أمّ القرى).

﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾: نتيجة ظلمهم كان الإهلاك.

﴿وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾: الإهلاك له موعدٌ، فلا يشترط أن يأتي الإهلاك مجرّد حدوث الظّلم، لذلك عندما جادل إبراهيم عليه السلام عن قوم لوط قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾ [هود]، انتهى الأمر.

(الآية ٦٠) - ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠﴾:

وصلنا للقصّة المهمّة المتعلّقة بسيّدنا موسى عليه السلام والرّجل الصّالح، وهناك أقوالٌ بأنّه الخَضِر، فأرى أن نلتزم تفسير الآيات الّتي وردت من غير الغوص بالمسمّيات، بل نغوص بلآلئ القرآن الكريم بغضّ النّظر عن المسمّيات، فالغاية

والهدف والعلّة الّتي أرادها الله ﷻ هو أن نعرف حكماً عظيمةً جدّاً ممّا جرى مع سيّدنا موسى عليه السلام والرّجل الصّالح.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾: أي: اذكر يا محمّد عندما قال موسى لفتاه، وهو خادمه يوشع بن نون الّذي كان من نَسْل يوسف عليه السلام وكان يتبعه ويخدمه ليتعلّم منه.

﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾: لكن، ما حكاية موسى عليه السلام مع فتاه؟ وما مناسبتها للكلام هنا؟

مناسبة قصّة موسى عليه السلام هنا أنّ كفّار مكّة بعثوا إلى يهود المدينة يسألونهم عن خبر النّبيّ ﷺ؛ لأنّهم أهل كتابٍ وأعلم بأخبار السّماء، فأرادوا رأيهم في محمّدٍ ﷺ، فقال اليهود لوفد مكّة: اسألوه عن ثلاثة أشياء، فإن أجابكم فهو نبيٌّ: اسألوه عن الفتية الّذين ذهبوا في الدّهر -يقصدون أصحاب الكهف-، والرّجل الطّوّاف الّذي طاف البلاد -يقصدون ذي القرنين-، وعن الرّوح، فما كان منهم إلّا أن سألوا رسول الله ﷺ هذه الأسئلة، فجاءت الإجابات في كتاب الله ﷻ.

جاءت قصّة موسى عليه السلام لتردّ على مهاترات القوم، ولتقول لليهود ومَنْ لَفَّ لَفَّهم من كفّار مكّة: أنتم متعصِّبون، وها هو موسى عليه السلام يتعلّم ليس من الله ﷻ مباشرةً، بل يتعلّم من عبدٍ مثله، ويسير تابعاً له طلباً للعلم. وجاءت الآيات لتقول لهم: يا مَنْ لقّنتم كفّار مكّة هذه الأسئلة وأظهرتم الشّماتة وحاولتم أن تسيئوا إلى النّبيّ محمّد ﷺ، انظروا إلى صدق محمّد وأمانته: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ٢٤﴾ [التّكوير].

وسبب قصّة موسى عليه السلام، يُقال: إنّه سأل الله عز وجل، وكان له دلالٌ على ربّه عز وجل: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: من الآية ١٤٣]، والّذي أطمعه في هذا المطلب أنّ الله سبحانه وتعالى كلّمه: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾ [طه]، فأراد أن يأنس بالله عز وجل أكثر، فأطال موسى عليه السلام الكلام مع ربّه سبحانه وتعالى، لذلك قال موسى عليه السلام: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨﴾ [طه: من الآية ١٨]، وهكذا أطال موسى عليه السلام مدّة الأنس بالله سبحانه وتعالى والحديث معه جل جلاله، لذلك سأله: يا ربّ، أيوجد في الأرض أعلم منّي؟ فأجابه ربُّه جل جلاله: نعم في الأرض مَنْ هو أعلم منك، فاذهب إلى مجمع البحرين، وهناك ستجد عبداً من عبيدي هو أعلم منك، فأخذ موسى عليه السلام فتاه وذهب إلى مَجْمع البحرين، وقد ورد في الحديث عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم: «**أَنَّ مُوسَى قَامَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ خَطِيباً، فَقَالُوا لَهُ: مَنْ أَعْلَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: أَنَا، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنَّ لِي عَبْداً أَعْلَمَ مِنْكَ...**»(١)، حتّى يعلم موسى عليه السلام أنّه فوق كلّ ذي علمٍ عليم.

﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾: لا أبرح؛ أي: لا أترك، وبعضهم يظنّ أنّ قوله: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ تعني: لا أترك مكاني الّذي أنا فيه، لكنّها تعني: لا أترك ما أنا بصدده، فإنْ كنتُ قاعداً لا أترك القعود، وإنْ كنتُ ماشياً لا أترك المشي، وقد قال موسى عليه السلام هذا القول وهو يبتغي بين البحرين، ويسير متّجهاً إليه، فيكون المعنى: لا أترك السّير إلى هذا المكان حتّى أبلغ مجمع البحرين. وقد وردت مادة (برح) في قوله سبحانه وتعالى في قصّة يوسف عليه السلام: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: مسند الأنصار، حديث عبد الله بن عبّاس عن أبيّ بن كعب، الحديث رقم (٢١١١٤).

﴿ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ [يوسف: من الآية ٨٠]، قالها كبيرهم بعد أن أخذ يوسفُ عليه السلام أخاه بنيامين ومنعه من الذّهاب معهم، فهنا استحى الأخ الأكبر من مواجهة أبيه الّذي أخذ عليهم العهد والميثاق أنْ يأتوا به ويُعيدوه إليه.

﴿مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾: أي: موضع التقائهما، حيث يصيران بحراً واحداً، كما يلتقي مثلاً دجلة والفرات في شَطِّ العرب.

﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾: الحُقُب: جمع حِقْبة، وهي الفترة الطّويلة من الزّمن، وقد قدَّروها بحوالي سبعين أو ثمانين سنة، فإذا كان أقلّ الجمع ثلاثة، فمعنى ذلك أن يسير موسى عليه السلام مئتين وعشر سنوات، على اعتبار أنّ الحِقْبة سبعون سنة، ويكون المعنى: لا أترك السّير إلى هذا المكان ولو سِرْتُ مئتين وعشر سنوات؛ لأنّ موسى عليه السلام كان متشوّقاً لرؤية هذا الرّجل الأعلم منه، كيف وهو النّبيّ الرّسول الّذي أوحى الله عز وجل إليه؛ لذلك أخبره ربّه سبحانه وتعالى أنّ عِلْم هذا الرّجل علمٌ من لدنّا، فهو علمٌ من الله سبحانه وتعالى لا من البشر.

(الآية ٦١) - ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١﴾:

﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾: أي: موسى عليه السلام وفتاه.

﴿مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا﴾: أي: مجمع البحرين.

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾: أي: حدث النّسيان منهما معاً، وإنْ كان حمل الحوت منوطاً بفتى موسى وقد نسيه، فكان على موسى عليه السلام أنْ يُذكّره به، وأن يعقّب ساعة قيامهم لمتابعة السّير، ويُذكِّر فتاهُ بما معهم من لوازم الرّحلة.

والحوت: نوعٌ من السّمك معروفٌ، وفي بعض البلاد يُطلِقون على كلّ سمكٍ حُوتاً، وقد أعدُّوه للأكل إذا جاعوا أثناء السّير، وكان الفتى يحمله وهو مشويٌّ في مكتلٍ.

﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾: أي: خرج الحوت المشوي من المكتل، وتسرَّب نحو البحر، والسَّرَب: مثل النّفق أو السّرداب، أو هو المنحدر، كما نقول: تسرّب الماء من القِرْبة مثلاً؛ ذلك لأنّ مستوى الماء في القِرْبة أعلى فيتسرَّب منها، وهذه من عجائب الآيات أن يقفز الحوت المشويّ، وتعود له الحياة، ويتوجّه نحو البحر؛ لأنّه يعلم أنّ الماء مسكنه ومكانه.

(الآية ٦٢) - ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾:

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾: أي: جاوزا في سيرهما مجمع البحرين ومكان الموعد.

﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾: قال موسى عليه السلام لفتاه: أحضر لنا الغداء فقد تعبنا من السّفر، والنَّصَب: هو التّعب، فمعنى ذلك أنّهما سارا حتّى مجمع البحرين، ثمّ استراحا، فلمّا جاوزا هذا المكان بدا عليهما الإرهاق والتّعب؛ لذلك طلب موسى عليه السلام الطّعام، وهنا تذكَّر الفتى ما كان من نسيان الحوت:

(الآية ٦٣) - ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾:

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾: هذا كلام فتى موسى عليه السلام.

أرأيت عندما لجأنا إلى الصّخرة لنستريح عند مَجْمع البحرين.

﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾: ونلحظ أنّه قال هنا: ﴿نَسِيتُ﴾، وقال في الآية السّابقة: ﴿نَسِيَا﴾؛ ذلك لأنّ الأولى إخبارٌ من الله ﷻ، والثّانية كلام فتى موسى ؈، فكلام الله ﷻ يدلُّنا على أنّ رئيساً متبوعاً لا يترك تابعه ليتصرّف في كلّ شيءٍ؛ لأنّ تابعه قد لا يهمّه أمر المسير في شيءٍ، وقد ينشغل ذِهْنه بأشياء أخرى تُنسِيه ما هو منُوطٌ به من أمر الرّحلة.

ثمّ يعتذر الفتى عمّا بَدَر منه من نسيان الحوت، ويقول:

﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾: فالشّيطان هو الّذي لعب بأفكاره وخواطره حتّى أنساه واجبه، وأنساه ذكْر الحوت.

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾: أي: اتّخذ الحوتُ طريقه في البحر عَجَباً، في الآية السّابقة قال: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾ وهذه حال الحوت، وهنا يقول: ﴿عَجَبٗا﴾؛ لأنّه يحكي ما حدث ويتعجّب منه، وكيف أنّ الحوت المشويّ تدبّ فيه الحياة حتّى يقفز من المكتل، ويتّجه صَوْبَ الماء، فهذه حقّاً عجيبةٌ من العجائب؛ لأنّها خرجتْ عن المألوف.

(الآية ٦٤) - ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾:

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ﴾: أي: قال موسى ؈، نبغ: أي: نطلب.

فهذا المكان الّذي فُقِد فيه الحوت هو المكان المراد، فكأنّ الحوت كان أعلم بالموعد من موسى ؈، وهكذا عرف عنوان المكان، وهو مَجْمع البحرين، حيث يلتقي البحران فيصيران بحراً واحداً.

وهذه الصّورة لا توجد إلّا في مسرح بني إسرائيل في سيناء، وهناك خليج العقبة وخليج السّويس، ويلتقيان في بحرٍ واحدٍ.

﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾: أي: عادا على أثر الأقدام كما يفعل قَصَّاصُو الأثر، ومعنى: ﴿قَصَصٗا﴾؛ أي: بدقةٍ إلى أنْ وصلَا إلى المكان الّذي تسرَّب فيه الحوت، وهو الموعد الّذي ضربه الله ﷻ لموسى عليه السلام حيث سيجد هناك العبد الصّالح.

(الآية ٦٥) - ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥﴾:

﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾: سبق أن تحدّثنا عن العبوديّة، فإنْ كانت لله ﷻ فهي العزّ والشّرف؛ لأنّك تستغني فيها عن الخلق، وإنْ كانت لغير الله ﷻ فهي الذّلُّ والهوان، وقلنا: إنّ النّبيّ ﷺ لم يأخذ حَظْوة الإسراء والمعراج إلّا لأنّه كان أعبد العابدين لله ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: من الآية ١]، كما أنّ العبوديّة لله ﷻ يأخذ فيها العبد خَيْر سيّده، أمّا العبوديّة للبشر فيأخذ البشر خَيْر العبد.

﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾: وقد تكلّم العلماء في معنى الرّحمة هنا، فقالوا: الرّحمة وردتْ في القرآن الكريم بمعنى النّبوّة، كما في قوله ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزّخرف]، فكان رَدُّ الله ﷻ عليهم: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾ [الزّخرف: من الآية ٣٢]؛ أي: النّبوّة، ومطلق الرّحمة تأتي على يد جبريل عليه السلام وعلى يد الرّسل، أمّا هذه الرّحمة، فمن عندنا مباشرةً من غير واسطة الملَك؛ لذلك قال ﷻ: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾، فالإتيان والعنديّة من الله ﷻ مباشرةً.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾: أي: من عندنا لا بواسطة الرّسل؛ لذلك يسمّونه العلم اللّدنيّ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد اختار عبداً من عباده، وأنعم عليه بعلمٍ خاصٍّ من وراء النّبوّة، فعلينا أن نفرّق بين علمٍ وفيوضاتٍ تأتي عن طريق الرّسول وتوجيهاته، وعلمٍ وفيوضاتٍ تأتي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مباشرةً لمن اختاره من عباده، وهذا العلم يسمّى علمٌ لدنيّ، فالرّسل -عليهم السّلام- يأتون بالأحكام والتّكاليف، وكلّها ظاهرةٌ، لكن هناك عِلَلٌ وأمورٌ باطنةٌ قد يختصّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها هذا العبد الصّالح، وقد ورد عن النّبيّ ﷺ أنّ اسمه الخضر، ففي صحيح البخاريّ: «بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَداً أَعْلَمَ مِنْكَ؟، قَالَ مُوسَى: لَا، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوسَى: بَلَى، عَبْدُنَا خَضِرٌ، فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ الحُوتَ آيَةً»(١)، فأتى الخضر وأتلف السّفينة، وقتل الغلام، واعترض موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على هذه الأعمال؛ لأنّه لا علم له بعِلّتها، ولو أنّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلِمَ العِلّة في خرق السّفينة لبادر هو إلى خرقها، فَعِلْمُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ غير علم الخضر؛ لذلك قال له: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾ [الكهف: من الآية ٦٧- الآية ٦٨]، فهذا عِلْمٌ ليس عند باقي البشر، فهو عِلْم ولاية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(الآية ٦٦) - ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦﴾:

كأنّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يُعلِّمنا أدب تلقّي العلم وأدب التّلميذ مع المعلّم، فمع أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمره أن يتّبع الخَضِر، فلم يقُل له مثلاً: إنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمرني أن أتّبعك، بل تلطّف معه واستسمحه بهذا الأسلوب: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾؟

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب العلم، باب ١٦، الحديث رقم (٧٤).

﴿رُشۡدٗا﴾: الرّشد: هو حُسْن التّصرّف في الأشياء، وسداد المسلك في علّة ما أنت بصدده، وسبق أن قُلنَا: إنّ الرُّشْد يكون في سنّ البلوغ، لكن لا يعني هذا أنّ كلّ مَنْ بلغَ يكون راشداً، فقد يكون الإنسان بالغاً وغير راشدٍ، فقد يكون سفيهاً. فالرّشد الّذي طلبه موسى عليه السلام من العبد الصّالح هو سداد التّصرّف والحكمة في تناول الأشياء، لكن هل يعني ذلك أنّ موسى عليه السلام لم يكن راشداً؟ لا، بل كان راشداً في مذهبه هو كرسول، راشداً في تبليغ الأحكام الظّاهريّة، وهذا رشدٌ إضافيٌّ عن الغيبيّات، فبعض الأمور نراها ولا نعرف علّتها، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: من الآية ٨٥]، وقال للنّبيّ صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه: من الآية ١١٤]، لذلك يقول الإمام الشّافعيّ رضي الله عنه:

وإِذَا مَـا ازْدَدتُ عِلْمـاً زَادَنِـي عِلْمـاً بِجَهْـلِي

لأنّ معنى ازداد عِلْماً اليوم أنّه كان ناقصاً بالأمس، وكذلك هو ناقصٌ اليوم ليعلمَ غداً.

والإنسان حينما يكون واسعَ الأفق محبّاً للعلم، تراه كلّما عَلِم قضيّةً اشتاق لغيرها، فهو في نَهمٍ دائم للعلم لا يشبع منه، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا**»(١).

والشّاعر الّذي تنبّه لنفسه حينما دَعَتْه إلى الغرور والكبرياء والزّهْو بما لديه من علمٍ قليلٍ، إلّا أنّه كان متيقّظاً لخداعها، فقال:

قالتِ النّفْسُ: قَدْ عَلِمْتُ كَثِيراً قُلْتُ: هَذَا الكثيرُ نَزْعٌ يسيرُ

---

(١) مسند البزّار: مسند ابن عبّاس رضي الله عنهما، الحديث رقم (٤٨٨٠).

(الآية ٦٧) - ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧﴾:

هنا يبدأ العبد الصّالح يُملي شروط هذه الصُّحْبة ويُوضّح لموسى عليه السلام طبيعة عِلْمه ومذهبه، علم ببعض الأمور، وحكم غيبيّة، فيقول له: سوف ترى منّي تصرّفات لن تصبر عليها؛ لأنّه لا عِلْم لك ببواطنها، وكأنّه يلتمس له عُذْراً على عدم صَبْره معه؛ لذلك يقول:

(الآية ٦٨) - ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾:

فلا تحزن لأنّي قُلت: لن تستطيع معي صبراً؛ لأنّ التّصرّفات الّتي ستعترض عليها ليس لك علمٌ بها، وكيف تصبر على شيءٍ لا عِلْمَ لك به؟

نلاحظ في هذا الحوار بين موسى والخضر عليهما السلام أدبَ الحوار واختلافَ الرّأي بين طريقتين، وبين أسلوبين: أمورٌ ظاهرةٌ، وأمورٌ غير ظاهرةٍ، وأنّ كلّاً منهما يقبَل رأْيَ الآخر ويحترمه، ولا يعترض عليه أو يُنكره كما نرى في هذه الأيّام، حيث يُكفِّر بعضهم بعضاً، فهذه فيوضات لا يتأتّى لأحدٍ أن يعرفها إلّا من لدن الله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾ مظهرٌ من مظاهر أدب المعلّم مع المتعلِّم، حيث احترم رأيه، والتمس له العُذْر إن اعترض عليه.

فماذا قال المتعلّم بعد أن استمع إلى هذه الشّروط؟

(الآية ٦٩) - ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝٦٩﴾:

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ﴾: قال له سيّدنا موسى عليه السلام: أنا أقبل شروطك أيُّها المعلّم فاطمئنّ، لن أجادلك ولن أعارضك في شيءٍ، وقدّم المشيئة فقال:

﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾: ليستميله إليه ويُحَنّن قلبه عليه.

﴿صَابِرًا﴾: على ما تفعل مهما كان.

﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا﴾: وهكذا جعل موسى عليه السلام نفسه مأموراً، فالمعلّم آمرٌ، والمتعلّم مأمورٌ.

(الآية ٧٠) - ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠﴾:

وهذا تأكيدٌ من الخضر لموسى عليه السلام، وبيانٌ للطّريقة الّتي يجب اتّباعها في مصاحبته: إنْ تبعتني فلا تسألْني حتّى أخبرك، وكأنّه يُعلِّمه أدب تناول العلم والصّبر عليه، وعدم العجلة لمعرفة كلّ أمرٍ من الأمور.

(الآية ٧١) - ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ٧١﴾:

﴿فَٱنطَلَقَا﴾: سارا معاً.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾: حتّى ركبا سفينة، وكانت مُعَدَّةً لنقل الرّكّاب، فما كان من الخضر إلّا أنْ بادر إلى خَرْقها وإتلافها، عندها لم يُطِق سيّدنا موسى عليه السلام هذا الأمر، وكبُرت هذه المسألة في نفسه فلم يصبر عليها فقال عليه السلام:

﴿أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا﴾: أي: أمراً عجيباً أو فظيعاً. ونسي موسى عليه السلام ما أخذه على نفسه من طاعة العبد الصّالح وعدم عصيانه والصّبر على ما يرى من تصرّفاته. وكأنّ الحقَّ سبحانه وتعالى يريد أن يُعلِّمنا أنّ الكلام

النّظريّ شيءٌ، والعمل الواقعيّ شيءٌ آخر، فقد نسمع من أحدهم القول الجميل الّذي يعجبنا، فإذا ما جاءِ وقت العمل والتّنفيذ لا نجد شيئاً، ويذهب الكلام أدراج الرّياح.

ونلحظ هنا أنّ موسى عليه السلام لم يكتف بالاستفهام: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، بل تعدّى إلى اتّهامه بأنّه أتى أمراً منكراً فظيعاً؛ لأنّ كلام موسى النّظريّ شيءٌ ورؤيته لخرق السّفينة وإتلافها من غير مبرّرٍ شيءٌ آخر؛ لأنّ موسى عليه السلام استحضر بالحكم الشّرعيّ إتلاف مال الآخرين، فضلاً عن إغراق ركّاب السّفينة، فرأى الأمر ضخماً والضّرر كبيراً.

(الآية ٧٢) - ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾:

وهذا درسٌ آخر من الخضر لموسى عليه السلام، يقول: إنّ كلامي لك كان صادقاً، وقد حذّرتُك أنّك لن تصبرَ على ما ترى من تصرّفاتي، وها أنت تعترض عليَّ، وقد اتّفقنا وأخذنا العهد ألّا تسألني عن شيءٍ حتّى أُخبرك أنا به.

(الآية ٧٣) - ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾:

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾: اعتذر موسى عليه السلام عمّا بدر منه لمعلّمه، وطلب منه مسامحته وعدم مؤاخذته:

﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾: أي: لا تُحمّلني من أمر اتّباعك عُسْراً ومشقّة، فسامحه الخضر وعاودا السّير:

(الآية ٧٤) - ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾:

نلاحظ أنّ الاعتداء الأوّل من الخضر كان على مالٍ أتلفه، وهنا صعَّد الأمر إلى قَتْل نفسٍ زكيّةٍ من غير حقٍّ، فبأيِّ جريرةٍ يُقتل هذا الغلام الّذي لم يبلغ رُشْده؟! فهذا أمرٌ محرّمٌ شرعاً؛ لذلك قال في الأولى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾؛ أي: عجيباً، أمّا هنا فقال: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾؛ أي: مُنكَراً؛ لأنّ الجريمة كبيرة.

النّفس الزكيّة: الطّاهرة الصّافية الّتي لم تُلوِّثها الذّنوب.

❀ ❀ ❀

تَمَّ بِفَضْلِ اللهِ تعالى تَفْسِيرُ الجزْءِ الخامس عشر

الحمدُ لله الّذي جعلَ القُرآنَ نُوراً لا يُطْفَأُ مِصبَاحُهُ، وسِرَاجاً لا يَخْبُو تَوَقُّدُه، ومَنهَجاً لا يَضِلُّ سَالِكُهُ، وفُرقَاناً لا يَخمَدُ بُرهانُهُ، وبُنياناً لا تُهْدَمُ أحكامُهُ، وحَقّاً لا يُخْذَلُ أعوانُهُ.

اللّهمَّ اجعلنَا ممَّن تأدَّبَ بآدابِ القرآنِ الكريمِ، وائتمرَ بأوامرِهِ، وانتهى بنواهيه، والتمسَ غرائبَ علومِه، وخشَعَ لسماعِه، وخضعَ لكلامِه، وآمنَ بمتشابِهِه، وعَمِلَ بمُحكَمِه، واستنَّ بسُنَّتِه، وحافظَ على واجباتِه، وعَمَّرَ بتلاوتِهِ جميعَ أوقاتِه، ولم يغفَلْ عن تلاوتِه في حالةٍ من حالاتِه.

سبحانَ ربّك ربِّ العزَّةِ عمَّا يصفونَ، وسلامٌ على المرسلينَ، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

❀ ❀ ❀

فهرس

رقم الآية – نصّ الآية **رقم الصّفحة**

تفسير سورة (الإسراء) من الآية: (١–١١١):

١– ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾ ١٣

٢– ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ②﴾ ٢٩

٣– ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ③﴾ ٣١

٤– ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ④﴾ ٣١

٥– ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ⑤﴾ ٣٦

٦– ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ⑥﴾ ٣٧

٧– ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ⑦﴾ ٣٩

٨– ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ⑧﴾ ٤١

٩- ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ
لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ ٤٣

١٠- ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ ٤٥

١١- ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ ٤٦

١٢- ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا
مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾
.... ٤٨

١٣- ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾
.... ٥٤

١٤- ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ ٥٥

١٥- ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ
وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ ٥٦

١٦- ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾
.... ٥٩

١٧- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾
.... ٦١

١٨- ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا
مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ ٦٣

١٩- ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم
مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ ٦٦

٢٠- ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾
.... ٦٧

٢١- ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾
.... ٦٧

٢٢- ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢﴾ ٧٠

٢٣- ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ
أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾ ٧١

٢٤- ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾
.... ٨٢

٢٥- ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥﴾
.... ٨٤

٢٦- ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦﴾ ٨٦

٢٧- ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧﴾ ٨٩

٢٨- ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ٢٨﴾ ٩٠

٢٩- ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩﴾
.... ٩٥

٣٠- ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٣٠﴾ ٩٦

٣١- ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١﴾
.... ٩٩

٣٢- ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾ ١٠٤

٣٣- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ ١١٠

٣٤- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ ١١٣

٣٥- ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ ... ١١٧

٣٦- ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ ١٢١

٣٧- ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ ١٢٧

٣٨- ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ ١٣٠

٣٩- ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ ١٣١

٤٠- ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ ١٣٢

٤١- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ ١٣٢

٤٢- ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ ١٣٣

٤٣- ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ ١٣٤

٤٤- ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ ١٣٤

٤٥- ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥﴾
.... ١٤٠

٤٦- ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ
وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ٤٦﴾ ١٤٤

٤٧- ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن
تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٤٧﴾ ١٤٦

٤٨- ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٤٨﴾ ١٤٩

٤٩- ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩﴾ ١٥١

٥٠- ﴿۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ٥٠﴾ ١٥٣

٥١- ﴿أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ
فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ٥١﴾ ١٥٤

٥٢- ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ٥٢﴾ ١٥٧

٥٣- ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ
عَدُوّٗا مُّبِينٗا ٥٣﴾ ١٦٠

٥٤- ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ
وَكِيلٗا ٥٤﴾ ١٦٤

٥٥- ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا
دَاوُۥدَ زَبُورٗا ٥٥﴾ ١٦٥

٥٦- ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ٥٦﴾
.... ١٦٧

٥٧- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ
وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾﴾ ١٦٨
٥٨- ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي
ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٥٨﴾﴾ ١٦٩
٥٩- ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ
فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾﴾ ١٧١
٦٠- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ
وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٠﴾﴾ ... ١٧٣
٦١- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ
طِينٗا ﴿٦١﴾﴾ ١٨٠
٦٢- ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ
ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾﴾ ١٨٤
٦٣- ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾﴾ ١٨٦
٦٤- ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي
ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ ١٨٦
٦٥- ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴿٦٥﴾﴾ ١٨٩
٦٦- ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ
رَحِيمٗا ﴿٦٦﴾﴾ ١٩٠
٦٧- ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ
وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ ١٩٣

٦٨- ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ٦٨﴾ ١٩٤
٦٩- ﴿أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ٦٩﴾ ١٩٥
٧٠- ﴿۞وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾ ١٩٦
٧١- ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۢ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ٧١﴾ ١٩٧
٧٢- ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢﴾ ١٩٩
٧٣- ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣﴾ ٢٠١
٧٤- ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾ ٢٠٢
٧٥- ﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ٧٥﴾
.... ٢٠٤
٧٦- ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦﴾ ٢٠٥
٧٧- ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧﴾ ... ٢٠٥
٧٨- ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾ ٢٠٧

٧٩- ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ ٢٠٩

٨٠- ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠﴾ ٢١٢

٨١- ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾ ٢١٣

٨٢- ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾ ٢١٤

٨٣- ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ٨٣﴾ ٢١٧

٨٤- ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ٨٤﴾ ٢١٨

٨٥- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ ٢١٩

٨٦- ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ٨٦﴾ ٢٢٢

٨٧- ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ٨٧﴾ ٢٢٣

٨٨- ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ ٢٢٣

٨٩- ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٨٩﴾ ٢٢٦

٩٠- ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾ ٢٢٧
٩١- ﴿أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١﴾
.... ٢٢٩
٩٢- ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢﴾
.... ٢٢٩
٩٣- ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا
كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣﴾ ٢٣٠
٩٤- ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا
رَّسُولٗا ٩٤﴾ ٢٣٢
٩٥- ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا
رَّسُولٗا ٩٥﴾ ٢٣٣
٩٦- ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٩٦﴾
.... ٢٣٤
٩٧- ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ
سَعِيرٗا ٩٧﴾ ٢٣٤
٩٨- ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا
جَدِيدًا ٩٨﴾ ٢٣٩
٩٩- ﴿۞أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ
لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ٩٩﴾ ٢٤٣

١٠٠- ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ
قَتُورٗا ١٠٠﴾ ٢٤٤

١٠١- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ
إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ١٠١﴾ ٢٤٥

١٠٢- ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ
يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾ ٢٤٧

١٠٣- ﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ١٠٣﴾ ٢٤٩

١٠٤- ﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ
لَفِيفٗا ١٠٤﴾ ٢٤٩

١٠٥- ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥﴾ ٢٥١

١٠٦- ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾ ٢٥٥

١٠٧- ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ
سُجَّدٗا ١٠٧﴾ ٢٥٦

١٠٨- ﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨﴾ ٢٥٧

١٠٩- ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩﴾ ٢٥٧

١١٠- ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ
وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠﴾ ٢٥٨

١١١- ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ
ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾ ٢٦٢

تفسير سورة (الكهف) من الآية: (١-٧٤):

١- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾ ٢٧٠

٢- ﴿قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢﴾ ٢٧٥

٣- ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ٣﴾ ٢٧٦

٤- ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ٤﴾ ٢٧٦

٥- ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ٥﴾ ٢٧٦

٦- ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ ... ٢٧٨

٧- ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ٧﴾ ٢٧٨

٨- ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ٨﴾ ٢٧٩

٩- ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ٩﴾ ٢٧٩

١٠- ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾ ٢٨١

١١- ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ١١﴾ ٢٨٢

١٢- ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ١٢﴾ ٢٨٣

١٣- ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣﴾ ٢٨٤

١٤- ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ١٤﴾ ٢٨٥

١٥- ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ
مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾ ٢٨٦
١٦- ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن
رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾ ٢٨٦
١٧- ﴿۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ
ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن
يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾ ٢٨٧
١٨- ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ
ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾
.... ٢٨٩
١٩- ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا
أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى
ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ
أَحَدًا ١٩﴾ ٢٩٠
٢٠- ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ
إِذًا أَبَدٗا ٢٠﴾ ٢٩١
٢١- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ
يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ
عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١﴾ ٢٩٢

٢٢- ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ
وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ
فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ٢٢﴾ ٢٩٣

٢٣- ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣﴾ ٢٩٥

٢٤- ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ
هَٰذَا رَشَدٗا ٢٤﴾ ٢٩٦

٢٥- ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥﴾ ٢٩٧

٢٦- ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم
مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٦﴾ ٢٩٨

٢٧- ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ
مُلۡتَحَدٗا ٢٧﴾ ٢٩٩

٢٨- ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ
عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ
وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ ٣٠٠

٢٩- ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا
أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ
وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾ ٣٠٢

٣٠- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾
.... ٣٠٩

٣١- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ
ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٣١﴾
.... ٣١٠

٣٢- ﴿۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا
بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢﴾ ٣١٤

٣٣- ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣﴾ ٣١٦

٣٤- ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾
.... ٣١٧

٣٥- ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥﴾ ٣١٨

٣٦- ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦﴾ ... ٣١٩

٣٧- ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ
سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧﴾ ٣٢٠

٣٨- ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨﴾ ٣٢١

٣٩- ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا
وَوَلَدٗا ٣٩﴾ ٣٢٢

٤٠- ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا
زَلَقًا ٤٠﴾ ٣٢٥

٤١- ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١﴾ ٣٢٦

٤٢- ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢﴾ ٣٢٧

٤٣- ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ٤٣﴾ ٣٢٨
٤٤- ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ٤٤﴾ ٣٢٨
٤٥- ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ٤٥﴾ ٣٣٠
٤٦- ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ
أَمَلًا ٤٦﴾ ٣٣١
٤٧- ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ٤٧﴾
.... ٣٣٥
٤٨- ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم
مَّوْعِدًا ٤٨﴾ ٣٣٦
٤٩- ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا
ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ
رَبُّكَ أَحَدًا ٤٩﴾ ٣٣٧
٥٠- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ
رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ٥٠﴾
.... ٣٣٩
٥١- ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ
عَضُدًا ٥١﴾ ٣٤١
٥٢- ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم
مَّوْبِقًا ٥٢﴾ ٣٤٢

٥٣- ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾
.... ٣٤٣

٥٤- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ
جَدَلًا﴾ ٣٤٤

٥٥- ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ
ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ ٣٤٦

٥٦- ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ
لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾ ٣٤٧

٥٧- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا
أَبَدًا﴾ ٣٤٨

٥٨- ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ
لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ ٣٥٠

٥٩- ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ ٣٥٠

٦٠- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾
.... ٣٥١

٦١- ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾
.... ٣٥٤

٦٢- ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾
.... ٣٥٥

٦٣- ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ
وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ٦٣﴾ ٣٥٥

٦٤- ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾ ٣٥٦

٦٥- ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥﴾
.... ٣٥٧

٦٦- ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦﴾ ٣٥٨

٦٧- ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧﴾ ٣٦٠

٦٨- ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨﴾ ٣٦٠

٦٩- ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩﴾ ٣٦٠

٧٠- ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠﴾ ٣٦١

٧١- ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا
إِمۡرٗا ٧١﴾ ٣٦١

٧٢- ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢﴾ ٣٦٢

٧٣- ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ٧٣﴾ ٣٦٢

٧٤- ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا
نُّكۡرٗا ٧٤﴾ ٣٦٣

تضرّع ودعاء ٣٦٤

فهرس ٣٦٥

❀ ❀ ❀